

بسم: أدب سوندر
ترجمة: يحيى حقي

الآب الضليل

فلسفة حياة فنسان مغمات



روايات الملاح

روايات الهلال

Rawayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٥٨ - يونية ١٩٧٠ - ربيع الثاني ١٣٩٠

No. 258 - June 1970

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

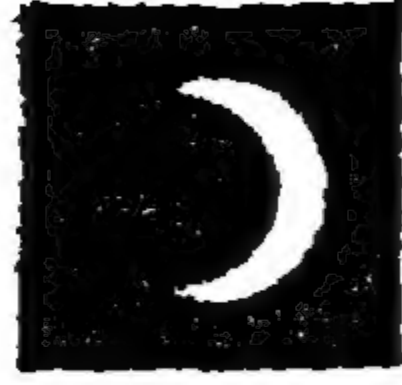
رئيس التحرير : رجاء التنتاش

بيانات ادارية

لن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ ملجم - مع الكميات المرسلة بالطائرة - في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الاردن والعراق ١٢٠ فلسا
قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢٠ عددا » في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحاد البريد العربي والافريقي ١٠٠ قرش صاغ - في سائر انحاء العالم « ونصف دولارات او ٤٠ فلسا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية « في الخارج بتحويل او بشيك مصرفي قابل الصرف في « ج.ع.م » - والاسعول الموضحة اعلاه بالبريد العادي - وتضاف رسوم البريد الجوي والسجل على الاسماء المحددة عند الطلب

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد مر العرب - القاهرة
تليفون ٢٠٦١ « عشرة خطوط »

الغلاف بريشة الفنان : حلمي التوني



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف برونزية
الفنان حلمى التونى

الأب الضئيل

قصة حياة
فنان مغامر



أديث سوندرز

ترجمة

يحيى حسني

دار الهلال

مقدمة المترجم

كل من عانى تأليف سيرة انسان ليجمعه بطل كتاب - سواء اكلن
بطلا في الحياة أم لم يكن - يؤمن بداهة أول الامر أن الهدف المنشود
يقتضيه ، أن أراد العدل والصدق ، أن يجعل شخصية هذا البطل
تملا اللوحة كلها وتستأثر بجميع الاضواء ، فاذا مضى في هذا
السبيل أحس وهو قلق أن اللوحة ، رغم امتلائها بشخصية البطل
تظل فارغة جوفاء ، وأنه مرسوم بغير أبعاد ، فكانه انسان وهمي ،
لاندرى أهو حي أم خرافي ، مدور أم مسطح ، لابد اذن ان يقوم بجانبه
شيء آخر يحدد أبعاد البطل وخطوطه ويجعله ينطق بالصدق - وإن
كان صدقا غير مطلق - بفضل النسبة التي قامت بين البطل وهذا
الشيء الآخر . حينئذ تأتي شخصيات ثانوية في محيط البطل، وتتقدم
قليلا . . قليلا حتى تبلغ مقدمة الصفوف ، فاذا بلغت أحسن المؤلف، وهو
مفتبط ، أنه يعدل عن رسم فرد في لوحة صغيرة الى رسم جيل في
لوحة كبيرة ، ووجد أن شخصية البطل تتضاءل قليلا بسبب اتساع
اللوحة ، فلا يغضب لذلك بل لعله يفرح به ، لانه ينجيه من المغالاة
في الابتعاد عن الصدق والنسبة الصحيحة . .

ولكنه مع هذا كله يرتاع حين يحس أن الحركة في اللوحة قد ماتت
من شدة الازدحام واختلاط الكبير بالصغير ، فيتأمل اللوحة ليرى ماذا
هو فاعل من أجل أن تدب فيها الحركة والنمو ، فلا يجد له مخرجا
إلا أن يجعل جميع الشخصيات تدور حول محور . فمن يكون هذا
المحور ؟ أليكون هو البطل ؟ كلا . فانه لو فعل ذلك قلن سلم أن يقع
مرة أخرى في خطر انعدام النسبة بينه وبين بقية اللوحة . حينئذ
يلجأ المؤلف الى حيلة فنية في صنعة التأليف ، هي أن يجعل
شخصيات اللوحة كلها - والبطل من بينها - تدور حول شخصية
ثانوية ، ينتزعها من الهامش ليضعها في المركز ، فاذا بشخصية البطل،
وهي تتحول الى الأطراف ، قد أصبحت أكثر وضوحا وضدقا ، بل
أنها بسبب هذا الوضوح والصدق تغطي على اللوحة من جديد
طفيانا لا يضر ولا يفسد ، هي التي ستبقى في ذاكرة القارئ بعد أن
يفرغ من الكتاب ، أما الشخصية الثانوية التي جعلها المؤلف مسند

الكلام فانها ستزول عن ذاكرته سريعا مع انها محور الكتاب . وهذه الحيلة الفنية تعين المؤلف كذلك على تبيان مافى حياة العامة وحياة الناس الذين يتحدث عنهم خاصة من حظوظ ومفارقات عجيبة . انها تشبه الرمز بحرف السين في مسائل الجبر ، نستعيرها مؤقتا - وهى وهم من الاوهام - للوصول الى حل ، فاذا تحقق لنا الحل نسيناها كل النسيان وان كانت هى صاحبة الفضل .

هذا مافعله دستوفسكى فى كتابة روايته الشهيرة «الابله» . فالابله فى هذه الرواية هو حرف السين فى مسائل الجبر . لم يكن للأبله علاقة بمشاكل أشخاص الرواية ، بل هو عنها غريب ، ومنها برىء ، ولكن كان يكفى ظهوره بين نفر منهم لأن تبين هذه المشاكل وتتجمع ثم تنحل . وأظن أن الحياة لا تخلو من أمثلة كثيرة لهذا الأبله ، فياله من قدر عجيب .

وقد لجأت الى هذه الحيلة السيدة أديث سوندرز مؤلفة الكتاب الذى يسرنى أن أقدمه اليك . كان ههما الاول أن تروى لنا سيرة الاب الضليل الكسندر دوماس الكبير مؤلف الفرسان الثلاثة والكونت دى مونت كريستو وغيرهما من مئات القصص والمسرحيات وكتب الرحلات ، فلما مضت قليلا برزت شخصية ابنه غير الشرعى الكسندر دوماس الصغير مؤلف مسرحية عادة الكاميليا الشهيرة ، ثم تقاطرت شخصيات جانبية كثيرة فازدحمت اللوحة ، فلم تجد المؤلفة مخرجا لها الا أن تجعلها تدور على محور تتخذه من شخصية ثانوية هى عادة الكاميليا .

ولم تكن عادة الكاميليا الا محظية للرجال لا وزن لها فى ذاتها ولكن فى تجمع علاقات كثيرة من شخصيات الكتاب فى بيتها . وانتقلت المؤلفة كذلك من كتابة سيرة الكسندر دوماس الكبير وحده الى رسم لوحة عريضة تضم عصر الرومانسية فى فرنسا كلها ، تضاءلت معها جميع الشخصيات ، وان زادت وجوههم افصاحا بالصدق ونبضا بالحياة .

وقد اخترت لك هذا الكتاب لانه - أولا - مثل حسن لفن السيرة وكيف ينبغى أن تكتب ، ولانه - ثانيا - دليل رائع على الجهد الذى ينبغى أن يبذله الكاتب من قبل أن يمتشق قلمه . ان مراجعها لاتقل عن مائة كتاب ، ليس فى مؤلفها واقعة أو قول أو خبر ليس لها عليه دليل موثوق به ، بل انها تحرص على الرجوع لاسعار الحاجيات فى الزمن الذى تحدث عنه لتقدم لنا صورة صادقة متماسكة الاجزاء للواقع

كمبسا كان .

وهذا الكتاب - ثالثا - يؤرخ لفترة من أهم الفترات التي قامت فيها المعارك الحامية بين المذاهب الأدبية : بين المذهب الاتيبيسي والمذهب الرومانسي

من الخير أن نقوم في هذه الأيام بترجمة هذا الكتاب ليكون دليلا على أن المذاهب الأدبية ليست مجرد أفكار تنقل وتستعار من كتاب أو من أفواه النقاد ، بل هي نتاج تحولات اجتماعية بكل ما في هذه الكلمة من عناصر سياسية واقتصادية ومكتشفات علمية ونمو حضارى ، فان الكلام عن المذاهب الأدبية عندنا ينفصل في بعض الأحيان عن هذه الحقائق

وأشهد أن المؤلفة قد نجحت الى درجة مذهلة في أن تجعلنا نعيش في العصر الذي نتحدث عنه ، نشم عطره ، ونسمع ضجته ، ونمشي في شوارعه وأزقته ، ونشترى بضائعه بثمنها دون أن يضحك علينا بائع ، نخالط ملوكه وأمراءه وعامة ناسه ، نعيش في جوه السياسى ونشهد معاركه الأدبية ليلة افتتاح مسرحية فيكتور هوجو زعيم الرومانسية وماذا جرى فيها من قتال بين أنصار المذهبين ، كيف وقفت الرقابة ضد مسرحية غادة الكاميليا ، ثم كان لابد أن تسقط حكومة وتأتى أخرى لتفرج عنها ، كيف تحتد المناقشة في مجلس النواب لان مسرح الكوميدي فرانسيز العتيق قدم مسرحية رومانسية ، ماذا قال الملك لويس فيليب لمن ثاروا ضد دوماس ، ماذا حدث حينما وفدت فرقة تمثيل من انجلترا لتقدم في فرنسا أعمال شكسبير ، وماذا فعل فيكتور هوجو بعد أن شاهد مسرحية هاملت .

كما سيحملك هذا الكتاب على أن تصدر حكمك في قضية لعلها من مشاغلنا الأدبية تنفجر أحيانا ثم تخمد وهي : ماهو الفارق الاخلاقي والفنى بين الحلال والحرام في استعانة كاتب كبير بما يقدمه له أديب ناشئ مغرور أجير عنده أو غير أجير من بحوث ودراسات ومشاريع وأفكار ، فيأخذ كل هذا ثم يتخير منه ما يشاء ويجرى فيه رأيه وقلمه ثم ينشره منسوباً الى نفسه دون أى ذكر عن نصيب هذا الشاب في هذا العمل زاعماً أن تنقيته للنص قد أضفى عليه من روحه هو قيمته الأدبية بحيث لا يبقى للشبح المختفى أى فضل . ولعل هذه القضية لم تتقد مثل اتقادها في الجدل الكبير الذى دار حول ما فعله الاب الضليل الكسندر دوماس كما ستراه مشروحا بالتفصيل في هذا الكتاب .

يجعلنا هذا الكتاب أيضا نخالط عن قرب جميع أبطال الرومانسية

في مختلف الفنون : برليوز وليست وشوبان ، بل يجعلنا نتفقد الى عالم المسرح ونعرف جوء وادق اسرارہ ونخالط عن قرب كبار ممثليه وممثلاته ، المدموازيل جورج ، ومارس ، وراشيل ، وفردريك لومتر ، وغيرهم كثير ، الى جانب هؤلاء طائفة من المغامرين والمغامرات هم من أعجب الناس ..

لن تجد في هذا الكتاب انسانا هو مجرد اسم ، او حتى مجرد شبح ، بل كل من تحدث عنهم أشخاص ينبضون بالحياة . يروى هذا الكتاب اخلاقهم ونزواتهم ، فضلهم وحمقهم ، جانبهم البطولي وصفائهم طبعهم . ان هذا الكتاب يفيض بوصف العواطف الانسانية المختلفة ، من حب ومقت ، ونبل وخسة ، وسمو وضعف ، من كرم وحسد وغبرة ونفاق ، فهو ان تحدث عن عصر مضى ، فهو يؤرخ للانسان كإنسان في كل زمان ومكان .

وأشهد اننى لم أتأثر من شيء أكثر من تأثرى لقراءة وصف العذاب الذى لقيه الكسندر دوماس الابن وهو صبي صغير حين دخل المدرسة على يد رفقاءه بسبب مولده غير الشرعى ، اذ وصف جهاد أمه من أجل تربيته بعد أن أهمله أبوه ، كما وصف يوم نزعت فيه الشرطة من يدها من أجل هذا ينبغي أن تغفر لهذا الكتاب ، ولا نحمل عليه بسبب ذكره لكثير من الفضائح والنزوات والعلاقات الشاذة ، فقد كان العصر الذى يتحدث عنه عصر نزق وطيش ، ومع ذلك لم تنزل الفضيلة رغم كل شيء عن مكانتها . فاقرا هذا كله وانت تبتسم لضعف الانسان وهوانه ولو كان على رأسه هالة من المجد .

اننى واثق ان هذا الكتاب سيحرك همة كل اديب ناشئ عندنا ويبصره بالفن والجمال ، وما فى الحياة من متناقضات وعواطف متضاربة ، سيجعله يلمس بيديه أن الفن هو أيضا نجاة للنفوس وتطهير لها . سيعرف أن الفقر ليس عيبا ، بل العيب كل العيب أن يكف عن الجهاد من أجل خدمة الفن الذى يملك عليه نفسه .

وغاية ما أستطيع أن أقوله اننى بذلت فى الترجمة جهدا كبيرا فقد التزمت أصل الكتاب الانجليزى كل الالتزام ، بحيث يكون بين يديك أيها القارئ العزيز صورة عربية تطابق نصه تمام المطابقة .

مقدمة المؤلف

فى مقبرة مونمارتر بباريس حدث تهوى اليه أفئدة أناس بحضنان خاشع يثير العجب ، انه يضم رفات الفونسين بليسييس وهى محظية رجال عاشت فى عصر لويس فيليب وماتت سنة ١٨٤٧ . هى بطة مسرحية « غادة الكاميليا » التى كتبها الكسندر دوماس الابن ، وبطة أوبرا « الترافياتا » من تلحين فردى . لقد مر أكثر من قرن على تأليف « غادة الكاميليا » ، ومع ذلك لا يزال هذا الحدث مزارا يطاق به الى اليوم . سحرت هذه المسرحية قلوب أهل باريس فى فجر الامبراطورية الثانية ، وكانت فى ذلك العصر ، الذى جمع بين التأنق والتنزق والضللال ، تقتعد قمة النجاح بين المسرحيات الدرامية . وجذبت أوبرا « الترافياتا » شهيرات المغنيات من مثيلات كريستين نيلسون وأدالينا باقى ، فخلبن بفضلها الالباب فى العالم كله ، وبدأ الاشياع الحاشعون يطوفون بهذا الحدث الثاوى فى مقبرة مونمارتر لا ينقطع نثرهم عليه زهور الكاميليا لئلا يبقى معطلا منها ولو يوما واحدا . فى مقدمة الاشياع فتيات من الطبقة التى تنتمى اليها نشأة الفونسين - عاملات محال تفصيل أزياء النساء - يجدن على القبر بزهرة من اليد ، وبزفرة من القلب ، حسرة على موت هذه المحظية . وقال أحد كتاب ذلك العصر : « هبهات أين تكف العيون عن ذرف الدموع الغزيرة على هذا القبر الذى آل اليه قلب أطبقت عليه كآبة الصمت وقسوة وحدة ظلمة »

وجاء عصر الجمهورية الثالثة فتجدد شباب هذه المسرحية بفضل سارا برنار ، وما تتمتع به من موهبة خارقة ، وساق سحرها الطاغى مزيدا من الاشياع للطواف بالقبر . لم يعهد الناس من قبل منظر اتخفق له القلوب مثل منظر موت غادة الكاميليا على خشبة المسرح وهى تبوح بتعاستها وغرامها من فم هذه الممثلة الرائعة وبصوتها المدرب الذى لا مثيل له . واحتل القبر أرفع مكانة له فى قلوب اشياعه ، حتى أن جوهانس جرو كاتب ضيرة الفونسين بليسييس ذكر أن الكونتيسة نيرا دى لاجونشير واظبت سنين عديدة على زيارة القبر كل يوم . لاريب أن نبوغ سارا برنار هو الذى أوجع عاطفة الحنان فى قلب هذه

الزائرة ومثيلاتها ، ولعل بكاءهن كان أيضا من حسرتهن على أن هذه الممثلة العظيمة مصرها ككل كائن حي الى الفناء

والآن وقد جاوز القرن العشرون منتصفه فلا يزال هذا القبر يجد من يزوره . وقد قادتني اليه الصدفة حين كنت فى مونتمارتر منذ سنتين تقريبا ، كنت انزل لدى بعض الاصدقاء فصادفت عشية يوم بوابة المنزل وهى خارجة فى أبهى حلة ، وفى يدها باقة من الزهور . هى امرأة مطبوعة على التجهم واللؤم ، لاتحرك ساكنا - ولو كان هذا الساكن لسانها - الا اذا أحسنت بالنقود تدس فى يدها ، وكنت أحتملها وأتملقها وأسترضيها برشوة لئلا تنقص على حياتى بالصفائر أو لئلا تحتجز بريدى ، فكانت تبدي لى شيئا من الود ، وقابلتنى عصر ذلك اليوم بابتسامة تكرمت بها على ، وبادرتنى بالتحية :

- طاب مساؤك يا سيدتى

- فأجبتها

- طاب مساؤك يا مدام روزالى . ما أبدع هذه الزهور التى أراها فى يسلك ! ..

- أصبت ، فانى ذاهبة الى المقبرة .

- تزورين ضريح قريب لك ؟

- أجابتنى مدام روزالى :

- كلا ، بل هذه الزهور هى لقبر « غادة الكاميليا » ، فانى أزوره بعد ظهر كل يوم أحد اذا ما اعتدل جوه ، ومن عادتنى أن أحمل اليه بعض الزهور .

لم أكد أفتح فمى قائلة بدهشة : « غادة الكاميليا ! » حتى كانت قد مضت فى سبيلها ، وبقيت أرقبها وهى تهبط الطريق المنحدر بخطواتها المتثاقلة ومشيتها القبيحة وسارت فى شارع كولانكور حتى بلغت امتداده الذى يشق المقبرة وهو غير مزدحم بالناس عادة ، فتسنى لى أن أتبعها بنظرى الى أن انعرجت الى اليسار وهبطت علدا من الدرج ثم غابت عن ناظرى .

وبعد قليل وجدتني أسير فى أثرها . حملنى الفراغ على أن أطلق لفكرى العنان فلا أصد له شهوة للتطلع وتفحص هذه التيارات الخفية التى ربطت روزالى بغادة الكاميليا . كانت قد انصرفت من القبر حين بلغتة ولكنى وجدت زهورها تتألق وسط زهور أخرى فوق الحجر المرمرى المستطيل الذى يغطى الجذث ، وبينما أنا واقفة اليه جاء عسدد من النسوة لالقاء نظرة عليه ووضعت امرأة منهن ورده واحدة فوقه .

ما أعجب سلطان الفونسين بليسييس على الأحياء . ما عسى أن تكون هذه النوازع الخفية التي تقود امرأة مثل روزالي إلى هذا الحدث ؟ أن مسحة من الهوان تخيم على هذه المقبرة التي اكتظت بالأحداث بغير عناية أو نظام ، فليست هي بالمكان الذي يخلق فيه الخيال بجناحين ، ومع ذلك لم يفارقني وأنا واقفة إلى القبر احساس مفاجيء بأن وفات الفونسين كانت في سالف الأيام طليقة من قبضة الثرى ، تزخر بالحياة وتزهو بنعمة العقل ، وأن هذا الشيء الغامض المتأبى على الفهم هذا الماضي الذي ولى وانقضى كان لم يكن ، كان لا يقل في وضوحه ونطقه عن الزمن الحاضر الذي يصرف معيشتي وأفكاري . وكان هذا الاحساس الذي استحوذ على قلبي في لحظة عابرة . وكذلك عجبني من طواف الناس بهذا الحدث ، مبعث اعتزامي أن اتقرب من تاريخ الكسنسندر دوماس الابن ومسرحيته

ولم أجد مشقة كبيرة في الاهتمام إليه ، لأن المؤلف كتب « عادة الكاميليا » في صدر شبابه . حقا قد عرف عن الكسنسندر دوماس الصغير بأنه شديد التحفظ يخفي حياته عن الناس ، يحذر أشد الحذر من أن يترك وراءه سجلا ينم عليه فينتهبه كنية سيرته ، ولكنه لم يلتزم هذا التحفظ إلا بعد أن بلغ مرحلة الرجولة وذاق نعمة الاستقلال . أما قبل ذلك فقد كان في صدر شبابه وثيق الصلة بأبيه . وكان هذا الأب لا يطيق كتم الكلام في صدره ، لأشياء أحب إليه من أن يعرض حياته بحلوها ومرها على الناس جميعا . ولم لا ؟ اليسوا به من المعجيين ؟ لذلك روى عنه الكثيرون وكتب عنه العديون . فكان لا مفر من أن يذكروا أيضا أشياء عن ابنه الذي كان يعاشره . وفوق ذلك فإن دوماس الابن ، وإن كتم حياته عن الناس في مرحلة الرجولة ، كان هو نفسه يضعف بين الحين والحين ويتحدث عن شبابه . وخلف كذلك في كتاباته أشياء تكشف عن ماضيه ، فتري صورة له وهو صبي تعيس في كتابه « قضية كليمنسو » وصورة له وهو شاب في مسرحية « عادة الكاميليا » ومؤلفاته الأخرى مثل « ديان دي ليس » و « أنصاف الحرائر » و « الابن غير الشرعي » و « الأب الضليل » ، وهو قد كشف أيضا في المقدمات التي كتبها لمسرحياته عن مدى مطابقة هذه الصور لواقع حياته ، ووصف بنفسه كيف كتب مسرحية « عادة الكاميليا » ونجد ذخيرة من المعلومات القيمة عن تمثيل هذه المسرحية لأول مرة في كتابات نفر من المؤلفين هم هنري دالميرا وبيردال دي لا بوميراي وهنري ليونيه ، وكذلك نستطيع بفضل

البحوث الدقيقة التي قام بها جوهانس جرو ان ترى رأى العين صورة
تسجل هذا العمر القصير الذي عاشته الفونسين بليسيس أو ماري
دوبليسيس كما كانت تسمى عادة .

ان ملامح الصورة تبين بوضوح بفضل هذه المراجع ، غير انه
يحسن بنا ان نتقبل باحترام وعناية كلام الكسندر دوماس الابن الذي
قصد دائما ان يلجم السنة كتبة سيرته . قال :

« اواه لو علم الناس كم تحدثت عن نفسي في مؤلفاتي ، وكم
أعرت أبطالها تجاربي الذاتية ، وكم ضمنتها ما في حياتي من تيارات
باطنة . ولكن الانسان لا يستطيع ان يبوح بكل شيء ، ولو بالهمس
ولو في كتب لا يطبع منها الا عدد محدود ، وهذه الاشياء التي
لا يبوح بها هي اصدق دليل على حياته وأغرب شيء فيها ، لذلك
فان كلام كتبة السير هو كقاعدة عامة محض ادعاء ..

ومع ذلك فقد وجدت في اعترافاته وفرة كافية تفرييني بتأليف
هذا الكتاب وان ساقني تحذير دوماس الي ان أقر بقصوري ، وقد
زاد هذا الاغراء حين زرت قصر مونت كريستو الذي أقامه الكسندر
دوماس الأب بفخفة لا مثيل لها فان جدرانه شهدت صدر شباب
الابن . ان هذا القصر المتين المشيد على هيئة مربع ومن طراز عهد
النهضة لا يزال الى اليوم قائما في حي بوابة مارلي بباريس . لقد
دأب جميع كتبة سيرة دوماس الاب على الازدراء بهذا القصر وبذوق
صاحبه ، ومع ذلك فان منظره لم تقتحمه عيناي ، بل ألفيته دارا
يطيب بها السكنى . وقد كان خاليا عندما زرته غير ان حجراته لم
ينطق خلأؤها بمعاناتها لريب الدهر وضروفه شأن كل مسكن قديم
مهجور ، واستروحت فيه جوا من الأتس والترحيب كأنما لا تزال
تتردد فيه أنفاس هذا الرجل الذي شيده وفق مزاجه . ومن حسن
الحظ ان جميع من آلت اليهم ملكيته خلال قرن من الزمان حرصوا
على احترامه وإبقائه على حاله ، فبقيت على صورتها الاولى تلك
الحجرة الشهيرة ذات الطراز الأندلسي التي أعدها دوماس الأب
لنفسه بعد عودته من رحلته لحضور الزفاف الملكي في أسبانيا سنة
١٨٤٦ . وبقي كذلك في ركن من الحديقة المهمة هذا البناء الذي
يقلد في صورة مصغرة « قصر أيف » الوارد ذكره في قصة الكونت
دي مونت كريستو ، وكان دوماس يأوي اليه ليكتب مؤلفاته .
وجدت هذا البناء الرشيق المهجور الذي يعد لعبة من اللعب تظله
الأشجار وتنعكس صورته في خندق أمامه على مينائه الرائدة

المرجبة ، سلمه الحزوني المثبت على جدراته من الخارج والمصنوع من الحديد لا يزال درابزينه مكسوا بالقطيفة وان عشت بها غوائل الزمن والتعرض لتقلبات الجو ، والأستار المسدلة على النوافذ من الداخل لينعم دumas بخلوته باقية الى اليوم وان حال لونها كثيرا وكذلك النافورات المسرفة في التلاعب بمخارج المياه لا تزال تعمل ان راق لزائر ان يدير مفتاحها ، ويقع فوق الطريق محراب مهجور كان دumas يتخذ منه اصطبلا ، ولا تزال منقوشة فوق حظائر مفككة أسماء جواده بورتوس وأتوس وأراميس وهم أسماء أبطال قصته : الفرسان الثلاثة

فمن الذي يتأمل كل هذا ولا يود - ان عنجز عن رؤية الاشباح - ان يرد الى الحياة بعض مشاهد هذا العالم المفقود .

الفصل الأول

غادة الكاميليا

في مسرح بوابة سان مارتان بباريس اجتمع حشد من اناس تدل شمائلهم وأناقته ملبسهم على أن العهد عهد رخاء وسلام . جاءوا ليشهدوا بعثا جديدا لمرحية « غادة الكاميليا » من تمثيل سارا برنار . ها هي ذى مائلة أمامهم تخطبهم بفتنتها الساحرة وهي واقفة في الفصل الثاني تستمع الى ارمان دوفال يبثها لواعج قلبه . وكان الكسندر دوماس الصغير - مؤلف المسرحية - جالسا في مقصورته، فمال الى الوراء ليحتمى بظلالها وهو بارد القلب غير منفعل ، فهذا اليق برجل يرقب انكشاف سجل حبه الاول كما رواه بنفسه ، انه قد نسي منذ عهد طويل هذه العواطف التي هزت قلبه يوما ودفعته الى تأليف هذه المسرحية الفرامية . ولكن ذكرى هذا الحب بقيت في نظر الناس مرتبطة به باعتباره مؤلف هذه المسرحية ، ذلك لأنهم يعلمون حق العلم أنه كتبها عن تجربة ذاتية . فمرجريت جوتيه بطلة المسرحية هي صورة صادقة لمحظية اسمها ماري دوبليسييس ، عرفها في صدر شبابه وأحبها ، فهو أيضا في المسرحية مائل في شخص ارمان دوفال ، بل ان بعض افراد جيله لا يزالون يذكرون رؤيتهم له في صحتها . كان يومئذ شابا له هوس بالاناقة والشهرة بها ، يسهر الليالي ويفشى النوادي والمقاهي والمحافل ، لا تخطيء العين وسامته ورشاقتة ، يشار اليه بالبنان ويهمس الهامس قائلا هذا هو ابن الكسندر دوماس ذائع الصيت مؤلف قصة « الكونت دي مونت كريستو » التي كان يقرأها الناس جميعا في ذلك العهد . أما ماري دوبليسييس فقد ماتت وهي في زهرة العمر سنة ١٨٤٧ ولما كتب دوماس الابن مسرحيته « غادة الكاميليا » بعد ذلك بقليل آمن الناس أنه باق على حبها الى الابد ، وقيل أنه لم يفصل مرة واحدة عن أن يزين جدتها بزهور الكاميليا في اليوم الثالث من شهر فبراير وهو ذكرى يوم وفاتها . وسيان ان فعل أو لم يفعل فان هذا القبر لم يبق عاطلا من الزهور في يوم من الايام اذ أصبح مزارا يطوف به كل من سحرتهم هذه المسرحية أو نسختها الفنايسية أوبرا

« الترافياتا »

وأخذت سارا برنار تتنقل فوق المسرح تلفها لف سحابة رقيقة غلالة موهومة من جمال في عز شبابه ، ينساب من فمها صوت موسيقى حنكه القاؤها لأبيات الشعر في المسرحيات القديمة وعرفت صاحبته كيف تحكم ضبطه وتهذيبه وقيادته فأصبح له سحر هيات أن ينساه من سمعه . وأنصت لها الحاضرون ثم صفقوا لها تصفيقا شديدا

ومع ذلك فلا نكران أن الفصل الأول علاه جو من البرود ولم يجذب اليه الحاضرين ، إذ كانت الحفلة مقامة يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ إبان عاصفة ثلجية هوجاء تجتاح شمال فرنسا منذ ثلاثة أيام وتسبب أضرارا كبيرة ، فأنحصر في أنبائها اهتمام المشاهدين بل كان يصل الى آذانهم عويل هذه الرياح القوية وهي تكتسح الطريق خارج المسرح ومرت فترة استأثر فيها بسمعهم وصرفهم عن متابعة التمثيل . وكذلك لم يسلم جمهور المشاهدين قيادهم للمسرحية بسبب يتعلق بسارا برنار نفسها . ان حياتها مليئة بحوادث مثيرة للعجب والدهشة ، ولكن انشغال الناس بأخبارها قد زاد في الايام الأخيرة بفضل ماري كولومبيه زميلتها وصديقتها منذ الصبا ورفيقتها في جولة حديثة بالولايات المتحدة ، إذ كانت قد نشرت عن سارا برنار منذ أسبوعين تقريرا كتابا أطلقت فيه لسانها بالهزء والسخرية بها وجعلت عنوانه « سارا بارنوم » وبارنوم هو اسم صاحب سيرك شهير . فتلقت الايدي هذا الكتاب بابتهاج أو بفيظ وبيعت منه طبعة ذات عشرة آلاف نسخة في ثلاثة أيام . فكانت فضيحة لذيذة لم يفز الناس بمثيل لها من قبل . وقيل ان سارا برنار هي التي جنت على نفسها واستحقت كل ما نشره هذا الكتاب من سباب لأنها كانت قد أوصت زميلتها بدهان للرأس فلما استعملته سقط شعرها كله . ولم يكد يصدر هذا الكتاب حتى اصطحبت سارا ابنها موريس والكاتب جان ريشيان ومضت الى مسكن ماري كولومبيه فاقتحمته عنوة وفي يد لها سـسـسـوط وفي يد خنجر ، وأخذت تندفع كالعاصفة المدمرة من حجرة الى أخرى تمزق الملابس بخنجرها ، وتقلب الأثاث ، وتجذب اللوحات وتلفها ، وتلقى بالتحف الى الأرض وتحطمها . ونجت من الدمار لحسن الحظ لوحة للماري كولومبيه من رسم ادوار مانيه . أما غريمتهما فقد استطاعت أن تختبئ وراء ستارة . فلم يكن مجيء الحاضرين تلك الليلة الا ليشهدوا أصلا بظلة هذه الفضيحة ، ولكن ما لبثوا

يسيرا حتى سحرتهم سارا بتمثيلها فنسوا حياتها الخاصة ولم يروا فيها الا بطلنة تلك المسرحية التي ابتدعها فن دوماس وصفقوا لها بعطف كبير

رأى الحاضرون في الفصل الاول كيف ان ارمان دوفال قابل مرجريت جوتيه في حفلة ساهرة اقامتها بدارها ، وكيف ارتضته عشيقا لها . ثم في الفصل الثاني الذي كان يعرض عليهم راوه يعاني آلام الفيرة واليأس ، اذ تبين له انه واحد بين عشاق عديدين تفتيح لهم ماري بابها . هي محظية للرجال يهيم كل مترف ان يرتبط اسمه باسمها لتسلط عليه الأضواء ، اما هو فشاب رقيق الحال قليل المال ، فهو لا يزيد في اعتبارها عن ان يكون « حبيب القلب » فلا يمنعها ذلك من ان تعقد علنا صلتها الوثيقة بنفر عديد من عشاق اغنياء ومن الطبقة الراقية ينفقون باسراف للفوز بحبها . واخذت مرجريت تقرأ على المسرح نص رسالة لها من حبيب القلب :

« لا يليق بي القيام بهذا الدور السخيف المهين حتى ولو من أجل المرأة التي أحبها . لم أكد أخرج من دارك حتى رأيت الكونت دي جيراي يدخلها ، فاغفري لي ذنبي الوحيد اني لست مليونيرا ، ودعينا ننسى اننا تعارفنا من قبل ووطننا ان الذي يجمع بين قلبينا هو الحب . حين تصلك هذه الرسالة أكون قد غادرت باريس »

« ارمان »

ومع ذلك فان ارمان لم يكن قد غادر باريس ، بل عاد لعشيقته ليقول لها انه لا يقوى على العيش الا في رفقتها وحين يقترب الفصل الثاني من ختامه تمر لحظة تطفئ على مرجريت فيها عاطفته المشبوبة فتبادله صادق الحب . وهنا لم تلجأ سارا برنار الى المبالغة بل التزمت الاعتدال وان نمت ملامحها انها تعاني هزة عنيفة مكتومة وجعلت الحاضرين يدركون انها اسلمت قيادها عن يد صاغرة لحب مستبد بقلبها تعلم انه سيقودها في النهاية الى فاجعة . ما هو السر في مقدرة سارا برنار على التعبير عن اتقاد جذوة الحب ؟ ساد الصمت في المسرح وغلب التأثر على الحاضرين وتطلعت الانظار الى سارا وهي في ثوبها الابيض الرقيق وشعرها الأصهب اللامع وقد ارتسم شخصها بوضوح على عتمة الستائر الخلفية للمسرح وبفضل الثياب السود التي يرتديها ارمان ، وكان يضمها بين ذراعيه وهي غارقة في لهفتها على ألا تفارقه أبدا . كان من الجلي أن سناراً تفوقت في فهم قلب الانسان على « راشيل » وهي ممثلة اكبر منها مقدرة ، ومهما تكن مشاغل ذهنها في تلك اللحظة وهي مستسلمة

لضمة حبيبها في حنان يثير الشجن (ولا تخسر اذا راهنت أن الذي كان يشغلها حينئذ هو حنقها على ماري كولومبيه) فان نظرة واحدة اليها تكفى أن تجعل ملقيها يحس بأن الدنيا غير خالية من حب لا حد له ، وان كان نادرا . ولما هبط الستار أغرق تصفيق المشاهدين أصدااء زمجرة الرياح المنطلقة على المسرح

تفوقت سارا برنار تفوقا كبيرا على كل ممثلة أدت دور مرجريت جوتيه ، ولكن دوماس الابن ، وان رآها ترفع بتمثيلها من قدر مسرحيات عديدة له ، وقف منها موقف المعارض حين أرادت أن تقوم بدور « غادة الكاميليا » . ثم تبين أنه أصبح ألمع أدوارها ولكن دوماس كان يؤمن أنها ستخفق فيه . لقد قام بهذا الدور من قبل شهيرات الممثلات في أيامهن روز شيرى وديسكلية وتلانديرا فنجنن في تمثيله . أما هو فيذكر قبل كل شيء تمثيل أيوجيني دوش التي قامت بهذا الدور سنة ١٨٥٢ حين ارتفع الستار عن مسرحيته لأول مرة . كان يؤمن أنها خير من تصلح لدور غادة الكاميليا وبالأخص لأنها ذات جمال رائع . وهذه الممثلة أيرلندية المولد ومن جيل دوماس الابن وكانت قد اعتزلت المسرح منذ بضع سنين ، فلما عهد اليها بالدور مثلته أكثر من ستمائة مرة أثناء قيام الامبراطورية الثانية في فرنسا ، وكانت عيناها في ذلك الوقت زرقاوين صافيتين لامعتين وكان شعرها ذهبيا غزيرا ناعما وكان لها جمال مادي ينطق به جسدها . أما جمال سارا برنار ، وان أثار شجن معجبيها ، فقد كان يتأبى على مقاييس أهل الأرض . هذه الممثلة الملائكية ، ان فاتها جمال الملامح والجسد ، فقد عوضت عنهما بنعمتين : وجه درامي وشفافية تلفها من الرأس الى القدم ، انها لا تعيش الا في عالم الأرواح والعواطف ، حياتها اتقاد وخيال وفن ، امرأة انطلقت من قيد الوجود الملموس ، حتى قال عنها ذات يوم لوسيين جيتري الممثل الشهير : « رأيت الساعة عربة فارغة تصل الى المسرح ، هي العربة التي تحتلها سارا برنار » . لذلك كانت سارا برنار قادرة على أن توحى بما في الجمال من سر أصيل ، وأضفت من ذخيرة روحها على مسرحية « غادة الكاميليا » فيضا من المعاني الصادقة العميقة ، وكان لتمثيلها وقع كوقع السحر . وها هي ذى مرجريت في الفصل الثالث تعاشر أرمان في مسكن ريفي ، كيانهما يتوهج بالجدل ، واستطاعت سارا أن تجعل الحاضرين يشعرون بما تحس به هي من سعادة خالصة صادقة نجدها أحيانا

عند الاطفال ، سعادة تثير الشجن والاشى فى قلب من يشاهدها ، وهو مدرك أنها لا بد أن تتحطم حين تصطدم سريعا بحقائق الحياة . وأخذت سارا تتنقل بخفة على المسرح ، لها ثوب من الموسلين عليه رسم أزهار ، وفوق رأسها قبعة عريضة من القش ، والمسرح كله يغمره نور أبيض متوهج للدلالة على أن ضوء الشمس يتدفق من الأبواب والنوافذ ، وتلمح العين عبر النوافذ منظرا بهتا لتلال تكسوها الأشجار ، وتحت سماء زرقاء حديقة للمنزل غنية بورود هيات للأرض أن تنبت زهورا تماثلها فى عنفوان لونها القرمزى ارتفع الستار عن الفصل الرابع . سارا برنار واقفة وحدها فوق المسرح ، ثم يظهر على أحد الأبواب رجل متوسط العمر يترث على العتبة لحظة وقبعتة فى يده . هذا هو الممثل لافونتين يقوم بدور مسيو دوفال والد أرمان . أقلقه تواتر أنباء عن مسلك ابنه فى الحياة ، فجاء ليباعد بين ابنه وعشيقتة مهما كان الثمن ، ووجه كلامه الى أول شخص يقابله سائلا أين تكون الأنسة مرجريت جوتييه . أجابته سارا برنار :

— انها أنا يا سيدى ، مع من أشرف بالحديث ؟

حينئذ يضع لافونتين على رأسه قبعتة العالية الحريرية بحركة تنم عن العزم وبدء الهجوم ، وقال لها أنه والد أرمان ، وبدأ وقبعتة فوق رأسه يصب عليها قوارع اللوم ، فسادت الدهشة بين المشاهدين وتململوا فى مقاعدهم ، اذ كان احتفاظه بقبعتة اهانة سمجة لمرجريت . وثارت ثائرة فرنسيسك سارسي الناقد الفنى لصحيفة « الطان » من شدة حنقه على لافونتين ، وأخذ يتحرق شوقا لأن يكتب رأيه فى مقال يندد فيه بوقاحة هذا الوغد .

وكان مسيو دوفال حينئذ يتهم مرجريت باهدار مستقبل ابنه . اما هى فقد ذهلت أول الأمر وأبت أن تصدق أذنيها ثم ثابته لنفسها وبدأت تنصت لكلامه . واستطاعت سارا أن تعبر ، وهى صامته لا تتكلم ، عن تنقل مرجريت بين عديد من العواطف المتباينة الى أن أسلمتها الى اصدار قرارها بأن ترضى بالتضحية الكبرى التى تحطم كل شىء فى حياتها ، فوعدت مسيو دوفال أن تفارق ابنه فراقا أبديا . وانصرف مسيو دوفال وجلست مرجريت تجاهد لكتابة رسالة تخبر فيها أرمان أن حبها له قد انقضى . هز هذا المشهد بفضل تمثيل سارا برنار قلوب المشاهدين وأثار لواعج اشجانهم

واقترب الفصل من ختامه ، وهربت غادة الكاميليا تسودع الى الأبد هذا المسكن الريفى الذى ذاقت فيه طعم السعادة . وتحول نور المسرح من ضوء الشمس الى أشعة زرقاء . ووقف أرمان وحده ونظره شاخص الى رسالة عشيقته . وكانت العاصفة خارج المسرح لا ينقطع عويلها الحزين فزاد من وقع الفجيرة على قلوب المشاهدين بفضل براعة سارا فى التمثيل ونزل الستار على هذا المشهد ليرتفع عن بقية المسرحية فى فصلها الرابع وحوادثه الكثيرة العنيفة التى انتهت بتحد للمبارزة . وبلغ من حماس المشاهدين أنهم حين نزل الستار هبوا واقفين يصفقون ويهتفون طويلا

لم ينتظر دوماس الابن المشهد الأخير الذى تموت فيه مرجريت جوتيه وهى محطمة القلب وغادر المسرح عند الفاصل بين المشاهدين . وكان فرنسيسك سارسي قد غادره أيضا فى الوقت ذاته ، هذا الرجل القصير القامة المتجهم الفضوب ذو اللحية الصغيرة هو من جيش المعجبين بسارا برنار . خرج وهو لا يزال ثائرا من فعلة لافونتين فى احتفاظه بقبعته فوق رأسه ، انها فى نظره اهانة شخصية الأنبح امرأة فى فرنسا ، انه متلهف على أن يمسك بالقلم ليهدم هذا الممثل جزاء وقاحته . ومشى مسرعا فوق الرصيف المبتل منشغل الذهن مهتاج الأعصاب غير مبال بالرياح وهى تناوشه والواقع أن الممثل الذى جلب على نفسه حنق هذا الناقد لم يكن مسئولا عن فعلته ، انه احتفظ بقبعته فوق رأسه اطاعة لرأى المؤلف . وكتب دوماس الابن بعد بضعة أيام مقالا يرد فيه على هجوم سارسي قال فيه :

« لو كنت فى مثل الظروف التى أحاطت بمسيو دوفال لفعلت ما فعله وأنا الباريسى المذهب المؤدب ، كنت أرفع أول الأمر قبعتى حين أرى أمامى امرأة ، ثم أضعها ثانية فوق رأسى حتى تدرك حق الإدراك أننى بعد أن أدبت واجب الاحترام لجنسها قد تحولت الى مسلك الرجل الذى يأنف من الطريقة التى أهدرت بها كرامة جنسها فباعته نفسها بيع السلع .. ان لافونتين غير مسئول عن حكاية القبعة ، فاننى أنا الذى رسمت له حركته »

هذا هو اعتقاد دوماس الذى عبر عنه سنة ١٨٨٤ ، أما قبل ذلك بأربعين سنة فانه هو الذى سعى الى لقاء ماري دوبليسييس

ورآها جديرة بحبه ، ولكنه أصبح خلال هذه السنين من دعاة
الاصلاح والمدافعين عن الفضائل ، فألف مسرحيات هادفة ،
وكتيبات تعالج المشاكل الاجتماعية . وأهم مشكلة كانت تثير عنده
غيظا مسرفا هى بالأخص مشكلة المرأة الفاسدة ، فحارب البغاء ،
وطالب فى كل وقت ، بمناسبة وبغير مناسبة ، بضرورة التزام
تعاليم الدين المسيحى فى العلاقات الجنسية



خرج دوماس الابن من المسرح الى طريق سان مارتان . السماء
قائمة يدينها الى الارض عبء سحب زخرات بالمطر جوابة ،
تطاردها الرياح ، والعاصفة تكتسح الطريق ويختلط عويلها بأصوات
ارتجاج النوافذ وتساقط قرميد الأسقف ، ونور مصابيح الفاز
هبط الى وضع أفقى ، هسيسها الخافت ضائع وسط الضجة ،
وضوؤها الحزين ينعكس على أرصفة مبتلة مهجورة . سارع
دوماس الابن واستقل عربته ودفع السائق بابها عليه ، ثم قاده الى
مسكنه فى شارع دى فيليه حيث يجد الدفء والراحة وأناقة الترف

نعود الى الوراء لمسرح سان مارتان ، حيث كان يعرض الفصل
الأخير . هذه هى ذى سارا برنار أمام المشاهدين فى المشهد المؤثر
الذى تموت فيه مرجريت . تنطلق من أرمان صرخة تعبر عن بأسه
وتزلزل القلوب ، فصفق الحاضرون بحماس شديد . وهناك فى
مقبرة مونمارتر على بعد ميلين تقريبا يثوى جثمان «غادة الكاميليا»
التي عرفها الناس فى مطلع حياتها باسم الفونسين بليسيس ثم حين
وانتهت الشهرة باسم ماري دوبليسيس . القبر منقوش عليه :
« هنا ترقد الفونسين بليسيس - ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٢٤
وماتت فى ٣ فبراير سنة ١٨٤٧ - ترحموا عليها »

الرياح الهوج فى تلك الليلة تزمجر فى أرجاء المقبرة التى لفها
البرد والصقيع ، فتسقط الى الطين ورق الاعشاب المستخذية ،
وتقتلع النباتات المتسلقة ، وتسطو على زهور الكاميليا التى نثرها
على القبر أشياعه فتبعثرها وتطير بها فوق ضريح قريب يضم
جثمان ألفريد دى فينى ثم تضيق فى تيه فضاء يخيم عليه زمهرير الشتاء
فى هذه المقبرة التى تكتسحها الرياح ترقد الفونسين . لم ينقطع
عند الناس ذكرها ، ولا هانت فى قلوبهم مكانتها ، وها هى ذى سارا
برنار ترددها الى الحياة ساعات قلائل فوق المسرح ، تنطق بين

الحين والحين بكلمات سبق أن صدرت حقا من فمها ، وتجدد وقع سحر مغيب بسحر لها حاضر يفوقه . أين سارا برنار الآن ؟ لقد ابتلعها العدم هي الأخرى

ودلف دوماس الصغير الى حجرة مكتبه ، ورأسه يموج بذكريات شبابه ، وأخرج من درج رسالة أخذ يتأملها وهو غائب عن الدنيا مستغرق في أفكاره . أنها آخر رسالة بعث بها الى ماري دوبليسيس ، كتبها ذات ليلة في شهر أغسطس ١٨٤٥ ، وكانت قد بيعت فاشتراها ليحتفظ بخط يده :

« عزيزتى ماري

لا أبلغ من الثراء حدا يتيح لى أن أحبك كما أريد ، ولا أبلغ من الفقر حدا يتيح لك حبي كما تريدن . دعينا اذن ننسى : تنسين أنت اسما هو ولا ريب غير كبير القدر عندك فلا مبالاة لك به ، وأنسى أنا هناء غير متاح لى .

ولا حاجة بى من أن أقول لك كم أنا حزين فأنت تعلمين جيدا مقدار حبي لك . فالوداع اذن فان رقة قلبك تجعلك تدركين لماذا أكتب هذا الخطاب ، والذكاء الذى يمتاز به عقلك يحملك على أن تغفري لى كتابته

مع آلاف الذكريات

، . . د . ا

وهذه الرسالة مقاربة في المعنى للرسالة التى تسلمتها مرجريت فى الفصل الثانى من المسرحية ، ولكنها ، كما وردت فى القصة التى كتبها المؤلف أولا ثم استمد منها مسرحيته بعد ذلك ، اشد مطابقة لنصها الاصيل . ولعل دوماس الابن كان ، وهو فى حجرة مكتبه ، حائرا لا يدرى ماذا يفعل بهذه الرسالة الباقية عنده ، ايطوح بها الى النار أم يحتفظ بها فيناقض بذلك شهرته كمصلح اجتماعى وموقفه من مسألة قبعة الممثل لافونتين ؟ ولكنه ظل من قبل يرضخ لهذا التناقض ، فقد شن أغلب حياته حملات قاسية لمحاربة البغاء ، ولكن قلبه كان يداعبه الغرور كلما رأى أن قبر حبيبته مزار يطوف به الناس . وقد كشف عن سريرته هذه فى المقدمة التى كتبها سنة ١٨٦٧ لطبعة جديدة للقصة . ان خبر هذه الرسالة مشهور بين الناس ، لذلك استقر رأيه تلك الليلة على أن يهديها لسارا برنار تعبيرا عن اعجابه لتمثيلها دور مرجريت جوتيه

وتلقت منه سارا برنار فى أوائل الاسبوع التالى نسخة من الطبعة

الاولى لقصة « غادة الكاميليا » وهى محلاة برسوم من ريشة المصور جافارنى . داخل الكتاب الرسالة المعهودة مرفقة بخطاب من المؤلف :

« عزيزتى سارا

اسمحي لى أن أهدي اليك نسخة من قصة « غادة الكاميليا » من طبعة أصبحت الآن نادرة . وهذه النسخة فريدة لأنك ستجدين داخلها مقابل الصفحة ٢١٢ أصل الرسالة التى كتبتها بخط يدي، وهى مطابقة للنص المطبوع فى تلك الصفحة . هذه الرسالة كتبها أرمان دوفال الذى كنته منذ أربعين عاما تقريبا خلعت عنه برد الشباب ولكنه كان حينئذ فى عمر يتساوى وعمر ابنك اليوم وهذا الخطاب هو جزء صغير ملموس من قصة لا تزال باقية حتى وقتنا الحاضر فيترأى لى أنه من الحق أن يكون فى حوزتك أنت التى بعثت الحياة والشباب لماض ولى وانقضى احفظيه ، على كل حال ، كذكرى لأدائك البارع على المسرح ليلة السبت الماضى ، وكتعبير عاجز عن اعجابى الشديد وامتنانى العميق

وأصفق لك أيضا بكل قوتى واحبيك بكل قلبى »

٢٨ يناير ١٨٤٤

دوماس الأكبر

إذا نظرنا نظرة شاملة الى حياة دوماس الصغير نجدها حياة سعيدة هنية فوق ما يتصور لها . صار فى بحبوحة من العيش عند بلوغه اثلاثين من عمره وعين عضوا بالاكاديمية وهو صغير السن نسبيا، وكان يقر له فى عهده بزعامة كتاب المسرح . حياته الزوجية سعيدة فى الحدود المعقولة ، وصحته طيبة ، وأمواله تتيح له أن يشبع هواه لمختلف فنون الثقافة . انه جمع ثروته وحده بجهد ولكنه كان جهدا محببا لا تضيق به نفسه ، فلم يكتب ألا ما يمليه عليه وجدانه فأمدته عمله بسعادة كبيرة . ولكنه حين يراجع شبابه ، كما يحدث له أحيانا وهو يشهد أو يقرأ من جديد « غادة الكاميليا » تطالعه صورة قائمة حزينة وطفولة أذاقته أمر ماعانا، من تعاسة وبؤس كان مولده فى باريس سنة ١٨٢٤ وهى السنة التى مات فيها الشاعر بيرون ، فأحاطه من كل جانب فى السنوات الاولى من عمره جو الهيام بالرومانسية الناشئة كمذهب جديد فى الادب . فتح عينيه أول مافتحهما على مثل فذ لنابهة يصارع الحياة فى حجرة صغيرة حقيرة تحت حنية السقف . انها المسكن التقليدى لكل فنان مجاهد وفى يوم مولده لم يكن أبوه الكسندر دوماس الأكبر قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، وكان يبذل أعنف الجهد من أجل أن يهيىء نفسه لاحتلال مكانة بارزة بين قادة المذهب الرومانسى . ومثل هذه الخطوات الاولى ، وان كانت تمهد لمستقبل باهر ، لا يخلو حاضرهما من منغصات كثيرة . وأول ذكرى فى ذهن دوماس الابن عن أيام طفولته هى عن فعلة لاييه لاينساها ، كان قد ضاق ذرعا بمضايقاته ذات ليلة فجذبه وطوح به الى نهاية الحجرة .

هى ليلة من ليالى صيف قائف ، وكان يقيم فى حجرة متواضعة تحت حنية السقف فى دار بميدان « الايطاليين » الذى يسمى اليوم ميدان «بوالديو» . هو راقد فى المهد يتأبى عليه النوم ، وأبوه معه فى الحجرة يعمل فى صمت تحت ضوء شمعة ، وأمه منشغلة فى خياطة ثوب . الاب جالس يخط بقلمه ، وأمامه تل من الكتب . يتسلل من النافذة الصغيرة هواء خائق مشبع بالرطوبة ، وأصوات ضججة

بعيدة . لم تكن عظمة أبيه قد لحظها الناس بعد . كان يشغل حينئذ وظيفة « نساخ وثائق » تستغرق نهاره ، فإذا أتى الليل عكف على الدراسة والتأليف ولا يذوق النوم الا غرارا . وأخذ الطفل يتململ ويتقلب في مهده على جنبين وعلا بكأؤه ، فنحت أمه كاترين لوباي عن يدها الثوب الذي تخطه وحملته بين ذراعيها وجلست تنشد له أغنية ينام عليها .

صمت الطفل برهة وجيزة ثم عاد من جديد الى البكاء ، فزجره أبوه بحدة وأمره أن يلزم الهدوء ويقفل فمه ، فعبست الأم بحنق وان لم تنقطع عن أغنياتها . حينئذ أحس الكسندر الصغير بفضيل فرط حساسيته ان لا وئام بين والديه ، فانخرط في النحيب من قلب هصره الحزين حقا ، وارتفع عويله . حاول دوماس الاكبر أن يتغافل عن هذه الضجة ولكن الهامه انقطع وافكاره شردت ، فإذا به لشدة تعبته وارهاقه ينتزع الطفل من حضن أمه ويطوح به في غضب الى الفراش في ركن الحجيرة

رقد الطفل وهو صامت قد غلبته الدهشة وأخذ يجيل بصره بين والديه . الاب يرفع ذراعه ويلوح بالريشة التي يكتب بها ، ويهدد ساخطا لان أفكاره قد طارت من رأسه ، والام واقفة أمامه تنهال عليه باللوم والتقريع فارتد الاب الى مكتبه وخطف أوراقه واندفع هاربا من الحجيرة ، لوقع أقدامه صوت مسموع وهو يهبط الدرج العاري دورا بعد دور ، ثم خفت شيئا فشيئا واختفى . حملت كاترين طفلها بين ذراعيها وأخذت ترشفه بقبلاها وأحنت رأسها عليه وسالت الدموع من مآقيها ، وهذا الكسندر الصغير قليلا . . . قليلا ، ولكن أثر هذا المشهد لم ينمح قط بعد ذلك من قلبه

لا نعلم في أي يوم وقع هذا الحادث . لعله وقع سنة ١٨٢٧ حين جاءت الى باريس من لندن فرقة مسرحية لتمثيل أعمال شكسبير قوامها نفر من كبار ممثلي انجلترا هم كيني وماكريدي وكمبل ، فهرع الى مسرحهم بهيام متلهف جميع الفنانين في باريس وحشر دوماس نفسه بينهم وهو غريب عنهم ، وتحايل على اقتراض مايلزم من المال ليحضر جميع الحفلات . كان حينئذ يؤلف مسرحيته الاولى « كريستين » على هدى من مسرحية « هاملت » ، وكرس نفسه لعمله بحماس وهياج حتى نسي من أجله أعمال وظيفته وواجبات أسرته وبدأ يطول غيابه عن ميدان الايطاليين . ولكنه عاد في اليوم التالي وهو نادم يحمل في يده شمامة يتذرع

بها لطلب الصلح . لاريب أن ابنه استقبله بفرح وبلا حفيظة شأن
الأطفال . كان يضم كل الحب والاعجاب لهذا الأب الذى لا يدانيه
عادة أحد فى بشاشته وقدرته على اكتساب قلوب الناس . انه
لا يخيب أمله اذا طلب اليه أن يلاعبه ، فيفعل وهو يهذر بالضحك
فيشيع المرح من حوله . كلما أتى لزيارتهما بين الحين والحين بدا
فى صورة مخلوق شبيه بالملائكة يهبط من السماوات العلا الى الطفل
الصغير الذى عودته أمه على حياة يسودها الهدوء والتواضع والعمل
الشاق ، أما أبوه فيدخل عليهما وهو يتأجج بالمرح ، ويختال ، كما
يليق بشاعر رومانسى ، فى ثياب مسرفة فى الفخفة والالوان ، يمد
لهما يده بشمامة أو بكيس من الحلوى ، على حين كانت كاترين لوباي
تشقى أشد الشقاء من أجل أن توفر للبيت أقل زاد يلزمه . وظل
دوماس الصغير يذكر بحنان عن أبيه صورته الاولى المشرفة حتى بعد
أن أدرك حين كبر كم اخطأ هذا الأب فى حقه . وكان دوماس الاكبر
يحيط نفسه بهالة من البطولة ، فلا عجب أنه كان يلهب خيال ابنه منذ
نشأته ويؤثر فيه تأثيراً شديداً بفضل قوة شخصيته واعتزازه بذاته
وهيامه بالسيطرة على غيره

قال ميشليه عن دوماس الاكبر انه كان قوة من قوى الطبيعة .
لا أحد يماثله فى جريان قلمه بسهولة ولا فى وفرة ما خلفه من مؤلفات
كان رغم انهماكه الايام الطوال فى العمل يعترف كيف يصيب من
اللهو الصاخب مالا يصيبه المترفون العاطلون . كان طويل القامة
يتمتع بقوة جسدية جبارة ، ويجرى فى عروقه شيء من دم زنجى ،
فجده لآبيه هو المركز ديفى دى لا بايتري ، أما جدته فزنجية اسمها
مارى دوماس ، وولد لهما ابن غير شرعى هو أبوه الجنرال دوماس
الذى اشتهر بفرط قوته وشجاعته . دخل جيش نابوليون جندياً
بسيطاً ثم أخذ يرقى الدرجات حتى بلغ رتبته الرفيعة ، مخلفاً سجلاً
باهراً من البطولة فى ميادين الحرب . ولكنه فقد فى النهاية رضا
رؤسائه ، فاعتكف فى ذلة ومات فى شدة الفقر . وانحدر الحال
بأرملته ، وهى بنت صاحب فندق صغير ، فاضطرت الى الارتزاق من بيع
التبغ فى دكان صغير فى موطنها قرية فيلار ، كوتريت . وكان من
نصيب ابنتها الكسندر دوماس الذى ولد سنة ١٨٠٢ أنه لم يتلق من
الدراسة الا ما يوفره مكتب القرية للفقراء ، أى تعلم القراءة والكتابة
وليس غير . هذه الدراسة كانت أفضل شيء له ، إذ لم تشوش خياله
الخصب ولا أوهنت من موهبته الفائقة على رواية القصص والحكايات

فنجنا من الشكوك ونقد النفس . وهكذا صان القدر للقرن التاسع عشر أقدر رجل على خلب الباب أهل زمنه بفضل قصصه .

ورحل الكسندر دوماس الى باريس وهو فى سن الحادية والعشرين طلبا للمجد فى دنيا الادب . وصلها وهو مفلس خالى الوفاض ، تفتح العيون منظره . حقا انه لم يرث عن أبيه من سواد البشرة قدرا تلحظه الابصار ، ولكن شعره بقى كثا مجعدا كومه له حلاق القرية فوق رأسه كأنه جمعة كبيرة سوداء ، ولم يكن حظه على يدترزى القرية أفضل من حظه على يد حلاقها ، فقد هاله حين وصل الى باريس أن سترته السيئة التفصيل أطول بمقدار قدم على الأقل من السترة التي يلبسها الناس فى ذلك العهد . وسكن فى حجرة صغيرة تحت حنية سقف ، ثم لجأ الى زميل لآبيه طيب القلب فعطف عليه وتوسط له حتى الحقه بوظيفة كاتب فى دائرة الدوق دى أورليانز . لم يلبث الا قليلا حتى عرف كيف يلبس وفقا لذوق أهل العاصمة ، وكيف يسرح شعره المكوم فيعدله الى مكانه فوق رأسه . أصبح ولأريب شابا وسيما جذابا حلو الحديث

عثر على وظيفة ، وعدل شكله وهندامه ، فلم يبق له من هم الا أن يبحث عن خلية . لم يجد فى هذا البحث كبير مشقة ، إذ تسكن أمام حجرته شابة جميلة لطيفة لا صلة لها بأحد . هذه هى الخياطة كاترين لوباي . انها مثله غريبة فى باريس ، وهى تكبره بسنين قليلة . وتقول بعض الروايات أنها شقيت من قرآن سابق انتهى بالانفصال بين الزوجين . هى الآن وحيدة فى الدنيا ، حديثة العهد بالاقامة فى باريس ، جاءت سعيها وراء الرزق . انها تسكن ، تحت حنية السقف ، حجرتين أمام حجرة دوماس ، فكان كثيرا ما يصادفها وهو طالع نازل ، لكل منهما وجه باسم ، سرعان ما توثقت الصداقة بينهما ، وما هى الا خطوة قصيرة بين الصداقة والحب ، إذ كان كل منهما ترهقه وحدة قاسية

عرفا السعادة معا أول الامر ، ولكن مولد ابنهما حطم وفاقهما ، إذ ضاق بهما الحال ، وزادت حاجتهما للمال . دوماس مضطرا لاعالة أمه ، وكان قد وعدها أن يستدعيها الى باريس حالما يجد فيها حياة مستقرة ، فلما جاءت منذ عهد قريب أسكنها حجرتين متواضعتين فى ضاحية سان دنيس ، فهيئات أن يكفى دخله نفقة بيتين ، وكان قد اشتد به الطموح لأن يصبح كاتب مشهورا ، وبدأ فعلا خطواته الأولى فاشترك مع نفر من ناشئة المؤلفين فى تأليف

مسرحيات هزلية ، ولكنه لم يصل بعد الى تحقيق أول هدف في حياته وهو كتابة مسرحيات درامية . وكان الاوان قد آن ليشهد من عزمه ويبذل غاية جهده ، ولكن مولد ابنه قلب مسكنه لسوء حظه الى حال لاتصدقها عينه . هيهات له الآن ان يستمتع كما كان يفعل من قبل بهدوء أمسيات طوال ، يفرغ فيها الى عمله وكاترين جالسة الى جواره تخطط الثياب وترعاه بحنان . وطارت ربات الفنون التي طالما أنست الى حجرته . انها فيما يبدو تضيق ذرعا بالاطفال . هذا الابن الذي فرض مجيئه عليه ان ينجح في عمله ليقوم بأوده هو نفسه الذي يجعل هذا العمل مستحيلا

وتغيرت كاترين هي الاخرى كثيرا منذ ولادة ابنها . كانت في يوم نعم الرفيقة لدوماس ، يسعد بها ان تخرج معه ، وتضحك لنزواته « اذ كان من دأبه ألا يبالي قط بالنقود » . تقبل على الانصات اليه والانبهار بكلامه حين يحدثها عن دانتى او شيللر ، ثم تجلس صامته حين يفرغ الى عمله . اما الآن فانها تقيس كل شيء في العالم بالنسبة الى ابنها . محور حياتها الاوحد هو الكسندر الصغير ، هذا الطفل صاحب العينين الزرقاوين الصافيتين والشعر الاصفر الناعم مثل شعرها . لا تتحدث الا عن شهيته وأول سن برزت له ، وعن ثيابه وغسيلها ، وحكايات لاحصر لها تدل على ذكائه وفطنته والاعيبه . انها الآن لاتقبل على الانصات لدوماس حين يفتح لها قلبه ويكشف عن همومه لعل سمعها لم تطرقه من قبل اسماء أصحاب هذه القصائد التي يتلو عليها رفيقها بعض أبياتها ، فاذا حدثها اليوم عنهم قاطعته بأسئلة لاتمت للشعر بصلة ، انها تلومه أشد اللوم لانه لا يوفر كل قرش لا تلجئه الضرورة القصوى لصرفه حتى يسد مطالب ابنه . وأحس دوماس بالاختناق في مسكنه الذي انقلب الى حجرة طفل ، وحل الحصام محل الوثام ولم تنقطع بينهما المناقرة والشجار

وكان لامفر من أن يسلم كل منهما قياده لجذب تيار يباعد بين أحدهما والآخر حتى تتم الفرقة . دوماس يجاهد ليشق طريقه الى الميدان الذي ينتمى اليه ، ميدان الادب ، هيهات لخياطة جاهلة فقيرة أن تقوى على اللحاق به . وزادت حدة الخلاف بينهما وقت أن جاءت الفرقة الانجليزية الى باريس لتمثيل مسرحيات شكسبير . يصرف دوماس نقوده من أجل أن يذهب كل ليلة لمشاهدتها على مسرح الاوديون ، وزاد أيضا صلفه واستهائته بوظيفته فجر عليه المتاعب من جراء غضب رؤسائه . أما كاترين فالمستقبل وحده هو الذي

يقلقها ، يحكمها طبع من الحرص جبل عليه الفرنسيون عامة ، فهي تؤمن ان دumas ينبغي أن يهلك نفسه للعمل من أجل طفله وان ينظر نظرة الجد الى وظيفته ويخلص في الوفاء بواجبها ، لا يجعل له هما الا ارضاء رؤسائه فيستحق الترقية الى وظيفة كاتب أول توطئه لان يشغل ، حين يتقدم به العمر ، وظيفة المدير العام . هكذا رسمت له حياته ، اما هو ففي المسرح ليلة بعد ليلة . انه قصد بذهابه اليه ان يمرن نفسه على كتابة المسرحيات ، ولكن كاترين لا ترى فيه الا رجلا يجرى وراء المتعة والتسلية اضرا را بابه

كانت مسرحيات شكسبير في نظر دumas وغيره من ناشئة الكتاب في باريس فتحا جديدا يحول منهجهم من طريق الى طريق ، اذ رأى لأول مرة مسرحيات تتحدث عن عواطف صادقة ، فاستمد منها ذخيرة مسرحياته . ان فاته ان يهتز طربا لبلاغة شعر شكسبير « ولعل أحدا من الحاضرين لم يختلف عنه » الا انه تأثر أشد التأثير بهذه المسرحيات التاريخية الرومانسية المليئة بالمواقف الاخاذة ، والمتحررة من قيود المذهب الاتباعي ، فكتب مسرحيته الاولى على هدى من هذه الحفلات العديدة التي شهدتها في مسرح الاوديون . والواقع ان كثيرا من المؤلفات في تلك الفترة كانت مدينة بالفضل الى موسم مسرحيات شكسبير ، لان اغلب من شهدتها هم أصحاب موهبة أدبية فائقة

واظب ناشئة الكتاب من انصار الحركة الرومانسية على حضور هذه الحفلات ليلة بعد ليلة ، وتأجج هيامهم بها الى حد فريد من الوله هيات ان تتصوره اليوم في عهدنا الذي يميل الى كبح العواطف وبرودها . كان فيكتور هوجو حينئذ في سن الخامسة والعشرين ، ويوشك ان يصدر مسرحيته الاولى « كرومويل » ، فلما حضر مسرحية « هاملت » عاد الى داره مسرعا ليكتب لمسرحيته مقدمة يدعو فيها بحماس جميع اتباع الحركة الرومانسية الى النهوض والتساند . وكذلك وقع برليوز في حب الممثلة التي تقوم بدور أوفيليا في مسرحية هاملت . ووجد الرومانسيون في هذا الحب أنموذجا رائعا لهم ، كما وجدوا في مقدمة هوجو نداء يحثهم على العمل وخوض المعركة . ذلك ان برليوز اخذ يعرض نفسه على الناس كصاحب روح معذبة يضنيها حب لا أمل فيه ، تتناهبه بالتناوب ساعات يغيب فيها عن الوجود وهو مستغرق في أفكاره الكثيرة ، وساعات يتأجج فيها حماسه للعمل بوحى من ربة الموسيقى

فيلحن هذه الانغام البديعة التي تعزف اليوم فى الحفلات الموسيقية فيستمع لها الناس بخشوع واحترام . ضرب برليوز لشباب عصره مثلا للحب انصادق الاوحد كيف ينبغي أن يكون ، فتشبه به كثيرون لكن هذا الانبهار كله لا ينفذ الى الحجرة الفقيرة تحت حنية السقف فى ميدان « الايطاليين » ، فحين يريد دوماس أن يثير اهتمام كاترين بمسرحيات شكسبير ، يجدها تنأى عنه وتسبح بوجهها . الجهد الذى يبذله يرهقها . ليس فى جيوب خدينها من المال ما يصرفه لسند حاجتها ، فتعمل الى منتصف الليل فى خياطة الثياب . وهبها مولدها فى فرنسا ، شأن الكثيرات من نساءها ، طبعاً يتميز بالذوق الجميل والهمة فى العمل والحرص على المال . انها تستخدم فتاتين لمساعدتها فى العمل . وكانت قبل مولد طفلها قد رتبت لها معيشة متواضعة بغير جهد كبير ، ولو أن المنافسة فى مهنتها قاسية ، والاجور تلك الايام زهيدة لا تقيم الاود ، اما اليوم فقد زادت مطالبها وتضاعف عملها فى خدمة البيت . كل نقطة ماء هى فى حاجة اليها تقتضيها أن تنزل بالجرذل وتشتريه من باعته ، ثم تصعد السلم كله . طفلها يشغلها . ينبغي ان يمتد سهرها بالليل ليزيد مكسبها بقدر كاف ولو حرمت نفسها من النوم . الكسندر الصغير يبكر فى ايقاظها فتبدأ يومها وهى مكدودة متعبة ميالة الى الغم والنكد ، يقلقها التفكير الدائم فى نفقات المعيشة ، وتراها باهظة وان كانت هينة على الاغنياء والطبقة الوسطى ، فرطل الخبز بخمسة عشر سنتيماً ، وملء جرذل من الماء بخمسة سنتيمات . ويزيد السعر اذا كان الماء مرشحا ، والكيلوجرام من البطاطس بثلاثين سنتيماً ، والبيضة الواحدة بخمسة سنتيمات ، ويبقى بعد ذلك ثمن الشمع واجرة البيت ومرتب الفتاتين ، نفقة ينخلع لها قلبها اذا قاستها بالمال الذى تملكه . انها لا تكف عن العمل على حين أن دوماس يصرف نقوده فى شراء تذاكر المسرح واقتناء الكتب وعلى أصدقائه من رجال الادب الذين يقابلهم على أرصفة المقاهى . فلم يكن مفر من أن تتم القطيعة بينهما .

أهمل دوماس كل واجباته بغير اكتراث ، فاستطاع ان يندمج فى الاوساط الفنية فى باريس ويعيش فى جو المسرح ، وان يحشد كل همته لكتابة مسرحيته الاولى « كريستين » انه جهد يتطلب منه أن يبذل له كل ذرة من قوته وعزمه . ووجد هذا الجهد جزاءه ، فقبلت الكوميدي فرانسيز تمثيل مسرحيته

ولكن ظهورها على المسرح تأخر بعض الوقت ، اذ اختلفت الآراء

فى الحكم عليها . ثم تقدم مؤلف ذو نفوذ بمسرحية تعالج الموضوع ذاته ففضلتها الكوميدي فرانسيز وقدمتها قبل مسرحية دوماس. ولكن هذه العوائق هينة اذا قيست بروعة الظفر الذى ناله جهده ، اذ لم يكن من السهل على صاحب وظيفة صغيرة مثل وظيفته ، وليس له مقام فى المجتمع ، أن ينفذ الى الكوميدي فرانسيز . وهكذا وجد دوماس عالم الادب والمسرح يفتح له ذراعيه ويلتفت اليه ويرى فيه مؤلفا تنعقد عليه الامل . وفى سبتمبر سنة ١٨٢٨ قبلت الكوميدي فرانسيز كذلك مسرحيته الثانية « هنرى الثالث وبلاطه » ومثلتها فى مطلع سنة ١٨٢٩ ، وبها ثبت اسمه فى عالم الادب والمسرح

ظل دوماس زمنا يبحث عن انسان يقدمه الى البارون تايلور مدير الكوميدي فرانسيز ، فتجراً ذات يوم وكتب رسالة الى رجل عرف فى أيامه برعايته للأدباء هو شارل نوديه . وكان شفيعه الوحيد فى كتابته لهذه الرسالة انه كان قد جلس بجواره ذات ليلة فى المسرح ودار بينهما الحديث . وكان أغلب الاحتمال أن مثل هذه الرسالة لا يجاب عليها وتلقى فى سلة المهملات ، ولكن شارل نوديه كان رجلاً عطوفاً لا يبالي بالمظاهر والتقاليد فأرسل الى دوماس كتاب التوصية الذى طلبه ودعوة مفتوحة لحضور الحفلات التى يقيمها فى داره كل يوم أحد . وكان نوديه من زعماء الحركة الرومانسية فى فرنسا ، لا تفارقه أينما ذهب نسخة من قصة « آلام فرتر » لجوته مجلدة بالحرير الاسود . هو ذاته مؤلف ولكنه اخذ على نفسه أيضاً أن يبذل كل ما فى طاقته ليشجع ويعين المؤلفين الشبان من اشباع الحركة الرومانسية . صالونه الادبي يتردد عليه كل من فيكتور هوجو وسان بيف والفريد دى فينى والفريد دى موسيه ، وهو أيضاً ملتقى الشبان من الشعراء والفنانين والموسيقيين

والحركة الرومانسية هى رفض ثورى للدعائم الاصلية للمدينة وتجاربها الطويلة (انها اطلت المرض محل الصحة ، هكذا وصفها جوته بالرغم من أن قصته آلام فرتر كانت من أوائل منابع هذه الحركة) انها أيضاً تحل الانطلاق والافصح عن القلب محل الهدوء وضبط النفس ، وتحيد عن المأساة الى الميلودراما . وكانت هذه الحركة حينئذ تدخل مرحلتها المتقدمة فى عالم الفكر فى فرنسا . وصفت بأنها طاعون يفتك بروح الانسان وأنها « علة العصر » التى تستشرى فى المدينة الفريية . هذه الحركة باعتبارها بدعة تستهوى

الناس بطرافتها لم تعيش الا سنين قليلة ، ولكن بعض مبادئها لاتزال سائدة بيننا الى اليوم . حقا لم نعد نقرأ عن الخرائب والأطلال تحت ضوء القمر ، ولا عن عزف « الهارب » السحري ، ولكن قصص اليوم لا تزال تمجد المجرمين والبغايا حفدة أبطال القصص الرومانسي في مطلع من أمثال جان سبوجار وهان دي آيسلند ومانون ليسكو

ولم يتأخر دوماس طويلا عن تقليد الرومانسيين الفرنسيين في مسلكهم وملبسهم . وانه اليوم لقادر على أن يضيف على شخصه آخر مسحة لازمة لأن تؤهله للتميز في مجتمعه . ألوان ثيابه الصارخة تطابق ذوق الاوساط الفنية ، انه يهيم بالمعطف الفضفاض والقبعة العريضة والصديري المزركش ، ولكنه كان عاجزا عن ان يقلد الوضع الذي يتخذه الرومانسيون عن مخالطتهم للناس . حقا انه كان في ذلك العهد من شبابه صاحب قامة نحيلة ممشوقة ، ولم يشق عليه أن يبدو كأنه حليف افكار وهموم وشجن وأن يحمل نفسه بين الحين والحين على الانهدام من نوبة سعال ، تشوق جيلا ، اكبر اعجاب له هو بالموت في عز الشباب من مرض السل . ولكن دوماس كان بطبعه بشوشا محبا للدعابة ، متلهفا على تذوق مباهج الحياة . لذلك جاهد جهاد الأبطال من أجل أن يتخذ سمة الحزن الكئيب المعهود عن بيرون ، فانها هي وحدها التي تليق بالأديب الرومانسي . أما آخر شيء ينقص عتاده الادبي فهو وقوعه في برائن حب يفجعه بمأساته

وكان الحب في ذلك الوقت ديانة وعبادة . لا يشغل الرومانسيين في ذلك العهد حرب ولا غلاء ، لذلك صرفوا حياتهم في طلب الحب والجري بجنون للفوز بغرام مثالي ابدى . اما دوماس فقد كان احكم رأيا ، انه لا يصدق أن ارتباطا جنسيا يقوى على الاحتفاظ طويلا بمتعته ، ومع ذلك فقد انساق في مضمار هذه اللعبة بشغف شديد ، يكره أن يسبقه غيره في سباق ما ، فاهتدى الى خلية تفي بجميع مطالب الرومانسي ، هي ميلاني والدور ، زوجة ضابط يخدم في ثكنة بالارياف ، اذ كانت شاعرة مثقفة نحيلة متقدة العواطف ، تكبره - شأن كاترين - ببضع سنين ، ولكنها فيما عدا ذلك تختلف عنها كل الاختلاف ، فهي امرأة خفيضة الصوت ، منطوية على نفسها ، تستجيب بشغف محجب لأكثر أنغام العشق تعبيرا عن مأساته ، انها تعيش أيامها في خشية من أن يبلغ خبر الفضيحة

بين لحظة وأخرى سمع زوجها فيعود ليقابل غريمه في مبارزة لا بد منها . وهكذا وجد فيها دوماس كل مطالب الحب الرومانسي الأصيل

ومع ذلك فقد عمد دوماس ، طلباً للتخفيف قليلاً من عبء هذا الحب ، إلى مغازلة صبايا الممثلات الصغيرات في مسرح الكوميدي فرانسيز ، بل وإلى مغازلة كبار الممثلات أيضاً ، إذ أن المدموازبل ماري أول ممثلات المسرح في ذلك العهد لم تكن غير جذابة في نظره وعلمت كاترين لوباي بطبيعة الحال نبأ هذه المغامرات . وكان دوماس قد اتخذ من مسكن ضاحية سان دنيس مقره الرئيسي ، لا يزور ميدان الإيطاليين إلا كل حين وحين ، وكلما دخل على كاترين انصبت على رأسه عاصفة شديدة ، ولولا ابنه الذي يهيم به لما ذهب إليها . وكان العراك بينها وبينه يثير في قلب الطفل المسكين شدة القلق والاضطراب ، وحين يرى الدموع تسيل من عيني أمه ينخرط هو في البكاء صارخاً من فرط ألمه وحزنه

واستطاع دوماس بعد تمثيل مسرحيته « هنري الثالث وبلاطه » أن يفك عن حياته عقدها . قد لقيت مسرحيته نجاحاً رائعاً قاطعاً لا ريب فيه ، ولكن كان قد بقي على كتاب هذا العهد من الشبان في ثورتهم على قيود المذهب الاتباعي أن يقتحموا المسرح بمذهبهم الجديد . لقد كان انتصار دوماس على المسرح الوطني فوزاً للمذهب الرومانسي ، إذ كانت مسرحيته أول مسرحية رومانسية أصيلة تنتزع من الناس أقرارهم بنجاحها . أصبح دوماس بطل الساعة في نظر زملائه وكذلك في نظر الجمهور . صافحه فيكتور هوجو بحرارة بعد الحفلة الأولى وقال له « الآن جاء دوري » ، إذ كان ينبغي للرومانسية أن تشن هجمات أخرى على المسرح الوطني — مسرح مولير — حتى يتحقق لها غزوه . دار اسم دوماس على كل لسان في العاصمة وتساوى مقامه ومقام فيكتور هوجو والفريد دي فيني ، وحضر الدوق دورليانز الحفلة الأولى ثم استدعى هذا المستخدم الصغير في دائرته وهناك وعرض عليه أن يسند إليه منصب مساعد أمين مكتبة القصر ، وهو منصب لا يتطلب عملاً بل يراد به تشريف شاغله . وهكذا حق للكاتب الناشئ أن يطمئن على مستقبله وأحس أن الألوان قد آن ليتر صلتها بخيلته الأولى ، فاستأجر منزلاً صغيراً في ضاحية « باسي » وأسكن به كاترين لوباي وابنها ، وهياً لهما معيشة مريحة . وضاحية « باسي » تقع غرب

باريس ، وهى حى جميل ، وفوق ذلك فانها بعيدة عن مجالسه ،
مقاهى قلب العاصمة وشوارعها الرئيسية ، وفى نيته ولا ريب أن
يتكفل بنفقات معيشتها . وتدفقت منه الوعود المعسولة ، ولكن
كاترين لوباي أصبحت ، بفضل تجاربها ، تعرف طبعه حق المعرفة ،
فاحتفظت بمهنتها وتقلت معها الفتاتين المساعدتين . أما دوماس
فقد استأجر لنفسه دورا كاملا فى منزل وجيه بشارع الجامعة ،
وأثثه ببذخ ليهيئ لنفسه ما يصبو اليه من حياة مترفة تليق برجل
مثقّف مثله

وكان دوماس الصغير فى الخامسة من عمره حين انتقل الى
ضاحية « باسى » الجميلة ، فطابت له الحياة فيها . انه شديد
التعلق بأمه ، يحبها من كل قلبه وبكل جوارحه ، حبا لم يخمد
أواره على مدى الأيام . لا شىء يفسد هناء الطفل ويذيقه طعم
التعاسة الا رؤيته لأمه وهى تبكى كلما غلبها التأثر بين الحين والحين
فصدر أنينها مما تعانيه من ظلم وسوء حظ ، فدوماس لا يأتى لزيارتهم
الا نادرا . قد نسى جميع وعوده بأعالتهم ، وتمنعها الكبرياء من أن
تذكره بهذه الوعود ، فلم يبق لها الا أن تفنى نفسها فى العمل لتوفر
لها ولابنها معيشة متواضعة . ولكن الحياة فى عمومها لم تتجهم
للطفل الصغير . انه فائز بأكبر حب وتدليل على يد أمه والفتاتين
المساعدتين والخادم العجوز التى ترعى شئون البيت ، ووجد فى
هدوء الريف بضاحية باسى أصلح جو له ، فشب صبيا فائق
الوسامة والقوة البدنية . أمه ترهق نفسها فى العمل حتى لا تنتبه
لوحدها ولا ريب ، ولكن حين يأتى المساء وتخرج الفتاتان وينام
الطفل ، ينصرف ذهنها الى التفكير فى الانباء التى يصل صداها اليها
من حياة المقاهى وعن هؤلاء السادة الذى يصرفون مالهم باقبال
واسراف على نساء جشعات يطلبن هذا المال جهرا ولا يتورعن ،
أما الهجران والبخل منهم فنصيب نساء لا يسألنهم شيئا . انها
تسمع أن دوماس أصبح بفضل شهرته محاطا بالنساء ، أما هى
فنعم الرفيقة له حين كان مستخدما فقيرا ، فاذا أصبح كاتبًا
مرموقا مشهورا فضل أن يشرك فى مسراته نساء ، لو بقى فقيرا
مغمورا لما تكرمت واحدة منهن بالقاء نظرة عليه من طرف عينها .
ومع ذلك فان عشرتها له فى السنين الماضية خلقت فى قلبها حبا
صادقا له . لقد صار فى نظر هذه المرأة البسيطة بطلا لا يقل عن
أبطال العالم ، هيهات لرجل آخر أن ينافسه ، ووجدت فى هذا

الاعجاب مقنعا لها يفنيها عن قيام صلة بينه وبينها ، وأخذت تتبع دوران نجمه في فلكه بلهفة واهتمام ، وربت ابنها على احترام نبوغ أبيه

في تلك الشوارع البعيدة عنها ألف دumas ان يمشى مشية الخيلاء ، مزهوا بأناقته ، شهيرا بها ، يرتدى صديريا مزركشا وينطلونا محزقا ، على عينيه نظارة ، وفي يده عصا رشيقة . اعجابه بنفسه لا حد له ، ومع ذلك يجذب اليه القلوب بفضل ما ينطوي عليه من سماحة وبراءة ، فلم ينفر منه الناس ولم يروا فيه الا طفلا يزهو بنفسه بسداجة محببة . حقا ان كثيرا من زملائه الكتاب كانوا يحتقرون فيه هذا الفرور العبقرى ، وكان بلزاك ، بالأخص ، يمتقه هذا مع ان بعض المحتقرين له لا يقلون عنه غرورا ، ولكنهم يسترون هذا الفرور تحت قناع من الصمت والتحفظ ، هكذا نضجوا على تقاليدهم المتوارثة ، اما دumas فله مسلك الاطفال ، ولا عجب ، ففي عروقه دم زنجى ، فهو لا يعرف الكبت . تعلق بالادب ولكنه لم يعرف حين واته الشهرة الا ان يسرف في الهيام به الى حد يستسخره الناس ، والا ان يقالى في التعبير لزملائه عن اعجابه بهم من صميم قلبه ، اما هم فيعمدون الى القصد والتحفظ عند اعجابهم به . وكان من عادة الشعراء وكتاب المسرح في تلك الايام ان يقرأوا أعمالهم الجديدة على زمرة من أصدقائهم الأدباء ، فكان دumas يحضر هذه الاجتماعات ، لهفته متأججة ولسانه منطلق بالمدح والاعجاب . وكذلك كان يلفت الأنظار بضجته في المسرح يهز عصاه في الهواء ويهتف بصوت عال رنان باعجابه أو سخطه . أصبح جذب الانظار اليه مشغلة من مشاغل يومه

ولم تن الصحف اليومية عن تشجيع ميله لاستعراض النفس ، فهي لا تكف عن ترديد أنبائه ، لأن نجاح مسرحيته فتح أعين أعداء الرومانسية على الخطر الذى يتهدد المسرح . ونشبت معركة أدبية : من رأى أنصار المذهب الاتباعى أن مسرح الكوميدي فرانسيز هو ملك خالص الأعمال كورنيل وراسين وموليير ولمن هذا حذوهم من المحدثين ، وانتهى الأمر بأن اجتمع نفر من هؤلاء الفاضلين ، هم رجال كانت لهم شهرة في أيامهم ثم لم يعد لهم ذكر اليوم ، وكتبوا عريضة ... شكوى الى الملك شارل العاشر ، ولكن الملك رد بأنه عاجز عن أن يصد تيارا أدبيا جديدا ، وأنه هو نفسه ، شأنه في ذلك شأن بقية أفراد الشعب ، لا يملك من الحق الا أن يشغل

مقعدا في الكوميدي فرانسيز ويتساوى وبقية المتفرجين .
ولم تخل هذه المعركة الادبية بين الرومانسية والاتباعية من
صبغة سياسية ، اذ كان أنصار الرومانسية يميلون الى أسرة
بونابرت أو الى النظام الجمهوري ، أما أنصار الأتباعية فيدافعون
عن النظام الملكي ويرون فوق ذلك أن الملك يستمد سلطانه من الله
لا من البشر . لذلك ترقب الناس في توتر شديد تمثيل المسرحية
الرومانسية التالية وكانت هي مسرحية « هرناني » من تأليف
فيكتور هوجو . اذ كان العسكريان المتخاصمان على بينة من أن
الوقت وقت بت في قضية هامة . ومثلت مسرحية « هرناني » في
اول حفلة في مسرح تسوده ضجة شديدة حتى عرفت تلك الليلة
باسم « معركة مسرحية هرناني »

وأعد هوجو جماعة تصفق له اول ليلة بأن وزع أربعمئة دعوة
على أنصاره في الحي اللاتيني ، وعمد طلبة احدى مدارس الفنون
الى تحطيم نموذج لتمثال فينوس دي ميلو قبل ذهابهم الى المسرح ،
وزاد بين الحاضرين عدد لابسى المعاطف الفضفاضة والشعور
المسترسلة والقبعات العريضة ، وابتدع تيوفيل جوتييه من أجل
ملبسه في هذه المناسبة صديريا جعله مزركشا ومن لون احمر ،
ظل باقيا في ذاكرة الناس بعد موته بسنين عديدة على حين نسوا
ما كان يرتديه كتاب المذهب الاتباعي في تلك الليلة . وبكر الفنانون
الشبان في الحضور ثم تلاهم الأدباء أصدقاء فيكتور هوجو ، وجاء
في أثرهم جمع المتفرجين ، آخريهم أناس يحتفظون بوقارهم . هم
أعضاء الاكاديمية الفرنسية وأنصارهم من أشياع المذهب الاتباعي .
وتقاطر الى المسرح أيضا أغلب أصحاب الأسماء الناشئة في عالم
الفنون ، من بينهم برليوز وسانت بييف وبروسبير مريميه وأونوريه
دي بلزاك والفريد دي فيني . وكان الدوق أرنست أوف ساكسبورج
وبنجامين كونستان من بين الذين ساقهم الى المسرح كذلك حب
التطلع . اما معسكر الاتباعية فقد تزعمه المؤلف المسرحي سكريب
وهو أشهر كتاب المسرح حينذاك .

لم تنقطع الضجة طوال المسرحية . أنصار الرومانسية لا ينقطعون
عن الهتاف والتصفيق ، فيرد عليهم أنصار الاتباعية بالصفيق وأصوات
التحقير والاستخفاف . قذف الاهانات متبادل بين الجانبين ، بل
انتقل الخصام الى تبادل اللكمات بين الحين والحين . مظاهرة حامية
ثبتت توقد شباب الحركة الرومانسية وهيام أهل باريس بقضايا

الفكر . وأسفرت المعركة عن فوز الرومانسية بمكانتها فوق المسرح وحدث بعد ذلك بقليل أن قدم مسرح الأوديون مسرحية « كريستين » التي ألفها ألكسندر دumas . ومضت الحفلة الأولى أيضا في ضجة شديدة ، ولكنها أثبتت انتصار المؤلف . وقامت المدموازيل جورج بدور كريستين فأدته بنجاح باهر . وكانت المدموازيل مارس والمدموازيل جورج أقدر ممثليتين في ذلك العهد . حين دخلت عليهما سنة ١٨٣٠ كانت الأولى قد تجاوزت الخمسين بسنة واحدة والثانية تجاوزت الأربعين بثلاث سنوات . وكانت المدموازيل مارس قد داومت على العمل بانتظام في مسرح الكوميدي فرانسيز ، أما المدموازيل جورج فقد بدأت حياتها التمثيلية على هذا المسرح أيضا واشتهرت بقيامها بالأدوار التراجيدية ، ولكن الاضواء حادت عنها حين هوى نجم نابليون . إذ كانت خليلته في فترة من الوقت إبان توليه منصب القنصل الأول ، وظلت تفصح عن ولائها له ولنظام حكمه حتى في الوقت الذي كان فيه مثل هذا الافصاح يعرضها للخطر ، وفصلها مسرح الكوميدي فرانسيز سنة ١٨١٧ فرحلت عن فرنسا وعملت خارجها بضع سنين ، ثم عادت الى باريس سنة ١٨٢٠ فقبلها مسرح الأوديون وهو ثاني مسارح الدولة وفي اثناء تمثيل مسرحية « كريستين » نشأت صلة بين دumas وممثلة أخرى شهيرة هي ماري دورفال . كان يعبر ذات ليلة ميدان الأوديون فمرت به عربة وتوقفت عنده ، وأطلت منها امرأة جميلة سألته هل هو المسيو دumas (ربما تم اللقاء الاول على صورة أخرى ، ولكن أقل ما يرضى دumas هو أن يروي لنا خبره في مذكراته على النحو الذي يزعمه) فلما رد بالإيجاب دعتة صاحبة العربة الى الركوب بجانبها ومنحته ثغرها ليقبله . وهكذا أصبحت خليلته لفترة من الوقت ، وأصبحت صديقه في كل الأوقات . وقد وجد دumas في هذه الصداقة التي يسرتها له الاقدار مصدر نفع كبير له ، لأن هذه الممثلة الموهوبة كانت ستقوم بدور في مسرحيته الجديدة المسماة « أنتوني » فحشدت لنصرته كل قواها وهيأت له بعونها أسباب أكبر نصر له . ولكن قبل أن يتحقق له ذلك دهمته ثورة سنة ١٨٣٠

فقد سقط الملك شارل العاشر وسافر الى المنفى ، واعتلى الدوق دورليانز العرش باسم الملك لويس فيليب ، ونشب القتال في شوارع باريس ثلاثة أيام إبان هذه الثورة التي عرفت باسم ثورة شهر

يوليو ، فألقى دوماس نفسه في خضم المعركة باعتباره من أشد المتحمسين للنظام الجمهورى . وكانت مساهمته في الثورة تنم عن الاندفاع والجرأة وحببه لجذب الأنظار ، فكأنما هو فيها يقوم بدور مسرحى ، من الأدوار التى يحب أن يكتبها في مسرحياته ، يقابل بالتصفيق . وكانت مفامرته الوحيدة هى قيامه منفردا أو يكاد بالاستيلاء على مخزن بارود . وجد دوماس فى اشتراكه فى هذه الثورة لذة كبيرة تنتشى لها نفسه ، فبدأ يهتم بالسياسة ونسى ما يغنمه ، بفضل مطامعه الادبية ، من نشوات أقل ضراوة ، وسافر ليقوم بجولة فى مقاطعة لافانديه تنفيذا لمهمة وهمية اخترعها له لافاييت مكافأة له على خدماته فى ثورة يوليو ، وأسفرت هذه المهمة عن لا شيء ، ولو أنها أتاحت له أن ينعم بأجازة بديعة وأن يرتدى زيا عسكريا رسمه هو بنفسه لنفسه

وبذل مديرو المسارح كل جهدهم لينتزعوه من هذه المشاغل ويردوه الى معاودة الكتابة والتأليف . لم ينجح منهم الا هاريل مدير مسرح الأوديون . لجأ الى الحيلة وناشد دوماس أن يكتب مسرحية عن نابليون . ومثلت هذه المسرحية فى مطلع سنة ١٨٣١ وأسند الدور الرئيسى فيها الى فردريك لومتر ، فأداه بنجاح منقطع النظر . انها مسرحية طويلة ، معيبة الشكل ، مكتوبة على عجل وتلبية لطلب . لم تظفر بنجاح الا بسبب موضوعها ومصادفتها لزمن تحدد فيه الخلافات السياسية ، وأخيرا بسبب تمثيل لومتر ، وكان فى نظر بعض الناس أكبر ممثل فى فرنسا . أما مسرحية دوماس التالية ، مسرحية « أنتونى » فتختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، حيث كتبها لامتناع نفسه أولا ، وفى نشوة حبه لميلانى والدور ، فبلغت هذه المسرحية أتم نجاح ودام عرضها زمنا طويلا ، تفوقت فيها مارى دورفال ، وتناقل الناس خبر النجاح الباهر الذى لقيه دور « أنتونى » على يد بوكاج ، وهو ممثل ناشئ متوتر الأعصاب شديد الانفعال متقلب الأهواء

وحضرت ميلانى والدور الحفلة الاولى لمسرحية « أنتونى » . وجهها يجد جماله فى تعبيره عن الشحوب والمأساة ، وجلست ترهف سمعها الى بوكاج وهو يقوم بدور فى مأساة هى صورة صادقة لمأساة هذا الحب الذى جمع بينها وبين دوماس . أما المؤلف فجالس بعيدا عنها فى مقصورته وهو يبتسم ، بجانبه ممثلة ناشئة مبتسمة أيضا ، هى بل كرييسامر . بين الاثنين علاقة حب ترجع الى سنة

مضت ، وكان قد ولد لهما منذ عهد قريب بنت اسمها ماري
الكسندر ، وكان دوماس قد هجر منذ زمن غير قصير خليلته مدام
والدور فانصرفت الى قرض الشعر لتسرى عن نفسها ما أمكنها ،
هي حينئذ فريسة للوحدة ، شأنها في ذلك شأن كاترين لوباي .
وغادرت المسرح بمفردها في نهاية التمثيل وعيناها مغرورقتان
بالدموع

وحضرت كاترين لوباي الحفلة أيضا . هي جالسة لا يعرفها ولا يحس
بها أحد . ابنها الصغير الكسندر بجانبها . انها لا تخرج أبدا الا اذا
كان في صحبتها ، تمكنت فيما بعد ان تملك المعطف الاخضر الذي لبسه
دوماس في الحفلة الاولى وكذلك المكتب الذي جلس اليه وهو يؤلف
مسرحية « أنتوني » . لم تملك الا معطفا ممزقا لان المعجبين بدوماس
الى حد الهوس اطبقوا عليه ليلتئذ وتجاوزته أيديهم يمنة ويسرة .
احتفظت كاترين بهذه الآثار الى يوم وفاتها وكانت ترى في المعطف
والمكتب أثمن مقتنياتها .

وأخذت الحياة تمضي بهدوء في ضاحية باسي . تهلك كاترين نفسها
في العمل . تسهر الليل كله أحيانا لتوفر لابنها شيئا من الفطائر الى
جانب المطالب الضرورية الأخرى . وكان الكسندر قد بلغ من العمر
سنا تتيح له ان يخرج من البيت ليلهو وحده في ربوع تلك الضاحية
الجميلة التي كانت تعد حينئذ قطعة من الريف ، شوارعها تظللها
الأشجار ، ودكاكينها لها طابع عتيق ، الواح نوافذها مؤلفة من قطع
زجاجية صغيرة متعددة . يستنشق الصبي في الصيف هواء معطرا
بأريج الأزهار ، وتمتد نظرتة وراء قضبان الأسوار الحديدية ومداخل
البيوت فتبصر حدائق يلفها الصمت وحرارة الجو ، حدائق تبدو
شاسعة في نظر الصبي الصغير ، تتألق أمامه بفضل ألوان أزهارها
البديعة . الضاحية غنية بالفدران والاحراش . نواح متروكة برمتها
للطيور والحشرات ، ينبغي لها ان تنتظر حتى يحل عصر التوسع في
بناء المساكن وقت الجمهورية الثانية . وكانت غابة بولونيا حينئذ غابة
كثيفة ناجية من التهذيب ، في وسطها بركة ، ولكن لم تكن بها بحيرات
شقتها يد الإنسان ، ولا حدائق على الطراز الانجليزي ، بل كان يسودها
الهدوء حتى في أيام الاحاد . اذا ذهب اليها انسان فلمبارزة خصم ،
فلم تكن الناس قد هامت بارتياحها كما فعلت فيما بعد .

وفي ضاحية باسي ذاق الصبي الصغير في البيت الصغير طعم
السعادة . أمه تنشئه ليشب مثلها على مكارم الاخلاق حريصا

على أداء واجبه ، يتسع عملها دائما رغم مشاغلها لتصلحبه الى الكنيسة في مواعيد الصلاة ، وعلمته التعود مثلها على حياة عمادتها الاقتصاد وحب النظام ، فشب على خصال تطابق خصالها ، وأصبح يحسن التصرف ويدرك قيمة المال . وشب هو مثلها أيضا في رقة العواطف وطيبة القلب ، اذا دمعت عينها من شدة الملل واليأس اقبل عليها واحاط رقبتها بذراعيه وأخذ يرشقا بقبلاته . ان الجهد الشاق الذي تبذله أمه ترك أثرا بالغا في قلبه . وكان أهم مطمح له حين بلغ مرحلة الرجولة ان يقنع المجتمع بوجود تدبير الرعاية لكل ام نصيبها في الحياة مثل نصيب أمه . فكان وهو صبي يعاهد أمه باخلاص ووثوق على أنه سيعمل من أجلها حين يبلغ مرحلة الرجولة ، سيضني نفسه في العمل ليصبحا من الاغنياء ومن أجل ان تتحرر أمه من ارهاق مهنتها وتنعم بالرخاء ، فكانت كاترين تكافئه بابتسامة ملؤها المحبة ، يحزنها ويشوقها ويمنعها معا ان تنصت الى هذه العهود المبكرة المبذولة عن يقين في عالم لا امان له . سيثبت فيما بعد ، انتصاره ووفاءه بتلك العهود نعم الوفاء ، فان هذا الصبي الصغير الذي قطع على نفسه هذا العهد وهو في اسن السادسة أو السابعة لم يخفق حين أصبح رجلا في ان يحقق لأمه كل ما وعدها به

ولكن هذه الخاتمة السعيدة كانت مؤجلة لمستقبل بعيد . أما الحاضر فيلوح لآعينهم انذار هموم قادمة تفوق في قسوتها كل هم يتوجسون منه . فقد آمن دوماس الاب بعد نجاح مسرحيته «أنتوني» ان مستقبله أصبح مضمونا ، وكان لايزال يحب بل كرييسامر ويزهو بمولد ابنته منها ، ومع ان عاطفته نحو خليلته لم تبلغ حسد الطفيان عليه فتحمله على عقد قرانه بها ، فانه اعترف بالوليدة ابنة شرعية له ومنحها لقبه تضيفه بعد اسمها . وقد عزم على ان يعترف كذلك بولده من كاترين لوباي ابنا شرعيا له ، لان حبه لهذا الصبي الصغير لم ينقطع رغم اهماله له زمنا طويلا . فلما فعل ذلك احتفظ لنفسه بحق كفالة ابنه ، بل مضى الى أبعد من ذلك وقرر ان يأخذه ليبقى تحت اشرافه ، ولا يعنى هذا الا نزع من أمه ووضعه في مدرسة داخلية

ووقع النبا على كاترين لوباي وقع حكم صادر باعدامها ، انها منذ مولد هذا الطفل لا تعيش الا من أجله . هو كل ما تملك في هذه الدنيا ودفعها القنوط الى مخاصمة دوماس امام المحاكم ، ولكنها خسرت قضيتها لانها ولدت ابنها من غير زواج شرعى ، ومثل هذه الام ينبغي

لها ألا تدعى لنفسها أمام المحاكم أى حق من الحقوق . وتقول بعض الروايات أن شرطيا جاءها لينتزع منها طفلها فجئن جنونها من هول الكارثة وحاولت اخفائه تحت الفراش ، ولكن هيهات ... أسرع الشرطى الى الصبى المرتعب فانتزعه ومضى به ، وبقيت كاترين وحدها فريسة حزن لا يتصوره العقل . وعرض عليها دumas ان يرتب لها معاشا شهريا ولكنها رفضت عرضه ببرود ، وحملت نفسها آخر الامر على أن تستأنف عملها وتكتسب رزقها كسابق عهدها وتعيش فى تواضع ولكن دون أن تتخلى عن كبريائها واعتزازها بنفسها ..

ولد النابغة

مضت الاعوام التالية على دوماس الصغير في حزن ووحشة . الحقه أبوه بمدرسة داخلية للصبيان اسمها « بنسيون قوتيه » . آثاره فيما بعد خلو من أى ذكر عن حياته في تلك المدرسة ، ولكنه كان بها تقيسا ولا ريب ، فالمدارس الداخلية في فرنسا لها حينئذ جو متبض كئيب . ما أعنفها من صدمة لهذا الصبي حين انتقل فجأة من حضن أمه ليجد نفسه ضائعا وسط غرباء لا يبالون به . في مؤلفاته سطور كثيرة تقطر بالحزن وتنم عن أن القلب الذي أملاها قد عانى في صباه من العذاب أشده . انه ينطق أحد أبطال قصصه بهذه العبارة :

« هيهات ان يعصمك صغر سنك من ان تشيخ ساعة ان تفقد أمك » .

انتقل الآن الى كفالة أبيه ، فانقلبت حياته رأسا على عقب . انه انتقل هيهات ان يدانيه انتقال آخر في شموله وربكته . كان أبوه فخورا به فكثر ترده على مسكنه الانيق ، ولكن ذكرى المدرسة باقية في ذهنه ، انه يحس فيها انه مشرد لا مأوى له . لا بد لابن دوماس « ان ذكر دوماس ان له ابنا » ان يأكل على أفخر الموائد ، ويقابل أناسا من أصحاب الشهرة والطبائع العجيبة ، وأن يالف الذهاب الى المسرح ، ولكن مخالطة أئمة النبوغ والجمال لا تعوض عند الصبي الصغير لوعته على فراقه لأمه . ان رؤية وجهها وهي تبسم رغم ارهاقها أفضل عنده من رؤية وجه المدموازيل جورج الممثلة الحسناء المترفة المعتدة بسابق حب نابوليون لها . . وحديث الفتاتين البسيطتين مساعدتي أمه أشهى على قلبه من سحر الشعراء او الموسيقيين ، ان انطلاقيهما بالغناء في ساعات عملهما الطويلة احب اليه من الانصات الى « ليست » الملحن الكبير وهو يهوى يسيده على البيانو في منزل أبيه ، وهيهات لجلوسه في المسرح ان يشفيه من تحسره على العش الذي فقده .

ومع ذلك طاب له أن يتردد على المسرح بين الحين والحين ، وشهد فيما شهد اول اخفاق عظيم لايه ليلة مثلت لأول مرة في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٣١ مسرحيته المسماة « شارل السابع وامراؤه العظام » .

أراد دوماس بهذه المسرحية ان يبلغ الادب قمة لم يرق اليها من قبل، فان نجاحه السابق اعتمد على تأليف الميلودراما ، واعتمد بالاخص على غريزته الاصيلة النادرة في حبك المواقف المسرحية المثيرة للجمهور ، ولكنه قصد يومئذ ان يصل الى قمة النجاح الادبي بتقديم مسرحية كبيرة شعرية تماثل أعمال فيكتور هوجو ، ان لم تماثل أعمال راسين ، ولكن غروره خدعه ، فظن أنه قادر على أن يؤلف أثرا عظيما دون بذل جهد كبير ، فغيره من الكتاب حرق الدماء من أجل ان يؤلف روائع الادب ، اما هو فقادر ان يبلغ أرقى سماوات الخلق الفني في تلك الفترات الوجيزة التي يتصيدا بين أوقات لهوه ، فانساق بهذا الوهم الى تأليف مسرحيته ابان اجازة صيفية قضاها في صحبة بل كرييسامر على شاطئ مدينة تروفييل ، وبدلا من أن يسهر الليالي لم يجد بأسا من الاقتباس والتلفيق . أدار النجاح السابق رأسه ، فشق عليه ان ينقد نفسه . ثم سلم المسرحية الى هساريل مدير مسرح الاوديون وقرئت على الممثلين فأعجبوا بها أشد الاعجاب وهكذا وهم دوماس أنه كتب أثرا عظيما .

ومع ذلك فان الشك قد خامر قلبه وأسفر له الحق عن بعض وجهه حين حضر مسرحية هوجو الجديدة المسماة « ماريون ديلورم » ، وملاّت سمعه آياتها الموزونة المحكمة ، فدب القلق في قلبه ، ولكن حين حضر بعد ذلك تجارب مسرحيته اطمأن ونفض عنه القلق شيئا فشيئا .

وسجل دوماس الصغير فيما بعد ذكرياته عن الحفلة الاولى في مقدمة مسرحيته « الابن غير الشرعي » فقال ان المسرح ليلتئذ كان يسوده جو من البرود منذ ان بدأت الحفلة . حقا ان المدموازيل جورج رائعة الجمال تسحر الحاضرين ببهاثها ، والممثل ديلافوس صادق في تمثيله لدور شارل السابع ، ولكن آيات المسرحية تتوالى كالخطب الطويلة المملة ، فلم تلق لدى الحاضرين اقل اهتمام . وجلس بين الحاضرين صبي في سن السابعة ، مؤدب ظريف هو دوماس الصغير، جلس صامتا مشدوها فاتحا عينيه ، لا يفهم كلمة مما يسمع ، ومع ذلك يتتبع المسرحية بخشوع المتعبدين واثقا ان المشهد الذي يراه هو اروع المشاهد ، وكيف لا وهو من تأليف أبيه . أما الحاضرون فقد التزموا الهدوء اول الامر ثم اذا بهم يتعلمون ولا يكتفون هزاهم وسخريتهم ، فاذا بهذا الأثر العظيم المرتقب يجلله عار الهزيمة فيهوى سرجه . وأسدل الستار آخر الحفلة على ممثلين أرهقهم افتتاح

الالفاظ والحركات ، وجمهور نصفه يتشاءب ونصفه يقهقه ساخرا .
ومال دوماس وهو صامت كئيب على ابنه وسحبه من يده وخرجا من
المسرح .

اخترق الاثنان ميدان الاوديون ثم انعطفا الى شارع السين العتيق
وسارا نحو النهر . الجو بارد والسماء صافية والقمر يرخى أشعة له
لا تأبه لاحد . دوماس الكبير ماض في طريقه لايفتح فمه وابنه الصغير
يجاهد ليلاحقه في سيره وهو متعب مهموم ، قلبه فريسة للحزن ،
بعض هذا الحزن بسبب علمه انه بعد قليل سيؤوب الى هذا الجو
العدائى الذى ينتظره فى المدرسة ، وبعضه بسبب كآبة هذا الاب الذى
كان مرحة من قبل ينتقل بالعدوى الى قلوب رفقاءه أجمعين . وبقي
فى ذهن الصبى من تلك الليلة أثرا لا يمحي يذكره بسيره فى ذلك
الشارع المهجور ، وبضياء القمر السافر كأنه ذوب اللجين وبذلك
الجدران العتيقة الرطبة التى يمر امامها . هيهات له بعد تلك الليلة
أن يجتاز شارع السين . حتى حين بلغ مرحلة الرجولة ، دون أن
ينقبض قلبه لذكرى تلك الخيبة الكبيرة ليلة الحفلة الاولى لمسرحية
«شارل السابع وامراؤه العظام» . كلما مر بمبنى الاكاديمية الفرنسية
راى شبحه وشبح أبيه يرتسمان بوضوح على جدارها فى سواد
لا يتحول ، يسلمه الى أسر عذاب الوحدة والاسى . لم يتأت لمؤلف
مسرحى فى عهده أن يلقى من النجاح ما لقيه هو . انه ألف فى أواخر
أيامه أن يتألق نجمه وينعقد له لواء النصر فى الحفلات الاولى لمسرحياته،
ولكنه مع ذلك - كما أنبأنا هو نفسه - لم يحدث له أن آب الى
داره من احدى هذه الحفلات دون أن يذكر مسرح الاوديون كما رآه
هو وهو صبى فى سن السابعة ، هو فى ذهنه أكبر بكثير من حجمه،
به جمهور يسوده البرود بادی العداوة ، اذا ازدحم عليه أصدقائه
للثناء عليه وتهنئته بنجاح مسرحية له فى حفلتها الاولى اخذ يتمتم
فى سره : (قد يصدق كلامكم ، ولكنى لو خيرت لكان الاشهى على
قلبي أن اكتب مسرحية « شارل السابع وامراؤه العظام » ليكون
أخفاقها من نصيبى انا) - هكذا بلغ به أخلاصه لأبيه .

وبدا دوماس الصغير يألف التنقل بين المدرسة والمسرح ومخالطة
نجوم المجتمع فى سهراتهم بالمنتديات والمقاهى . عجز وهو صبى
عن أن يفطن لواهبهم المتألقة أو للنكتة القاسية فى حديث رفقاء أبيه،
ولكنه حين تقدم به العمر أدرك سر المتعة التى جادت بها عليه
مخالطته فى صباه لأصحاب الشهرة من الرجال والنساء . لقد

ابتسم له الحظ فيما بعد ووضع على رأسه أجمل التيجان ، فتأتى له وهو غارق فى عالم الذكريات المسحور أن يسترجع لنفسه صورة فردريك لومتر، وهو ممثل ناشئ ، والفريد دى موسيه وهو فتى شاحب الوجه ، والملحن ليست وهو فى سن العشرين يرهق نفسه فى التدريب من أجل أن يبلغ سلطانه على البيانو ما بلغه من قبل سلطان بجانينى على الكمان ، وصورة المدموازيل جورج وهى صاحبة جمال قد فاق كل جمال عرفته الأجيال اللاحقة .

وكان فردريك لومتر من بين الرجال الذين ألف رؤيتهم مرارا ، اذ كانت له فى ذلك العهد أشغال كثيرة عند أبيه . لا يعرف الناس ممثلا يفوقه فى قدرته على اضحاك الناس بفكاهته فى الكوميديا وعلى هز مشاعرهم بجلاله فى التراجيديات ، فطارت شهرته فى المنتديات والمقاهى فى قلب العاصمة ، بل كان يقضى معظم وقته فى شارع القرم حيث يقع المسرح الذى شهد أول أدواره . وقد ولد سنة ١٨٠٠ ، وكان قد عرفه دumas الصغير أول مرة فتى مرحا ينعم بقسط معتدل من السعادة فى رفقة زوجته . لم يكن فى ذلك العهد قد بدأ يخضع لنزوته بالافراط فى شرب الخمر أو فى غيرها من النزوات المهلكة ، كما فعل فيما بعد حين تحطمت آماله .

وكان فردريك مرتبطا بعقد مع هاريل ، وقام على مسرح الاوديون بتمثيل دور فى مسرحية راسين المسماة « أفجينى فى أوليد » ، وفى مسرحيتين مترجمتين عن الانجليزية من أعمال شكسبير هما « هاملت » و « عطيل » . وكانت هذه الادوار العظيمة تناسب صادق معدنه ، ثم أمره هاريل أن يقتصر على التمثيل فى المسرحيات الحديثة ، فعل ذلك بسبب خيلته المدموازيل جورج الشديدة التوجس من كل ظل قد يلقي على أضوائها ، فأكلت الفيرة قلبها حين رأت نجاح فردريك لومتر فى التراجيديات وهو الآن فى أواخر ١٨٣١ يتمرن على تمثيل مسرحية أخرى لدumas تسمى « ريتشارد دارلنجتون » .

واذا كان اخفاق مسرحية « شارل السابع وأمرأؤه العظام » قد ترك أثرا لا يمحي فى ذاكرة الصبي رقيق القلب ، فانه لم يترك أقل أثر فى قلب المؤلف نفسه . عكر الاخفاق مزاجه يوما أو يومين ثم نسي كل النسيان سوء حظه وشمر عن ساعديه ليفرغ وهو رضى البال لتأليف مسرحيته الجديدة المسماة « ريتشارد دارلنجتون » كتب هذه المسرحية بالاشتراك مع اثنين من المؤلفين . هى ميلودراما

حنيفة قاسية تهز المشاعر تناسب الظروف السائدة في ذلك العهد
اذ كان اضطراب الناس بسبب الثورة لم يبدأ بعد ، وكان أكثر
اهتمامهم منصرفا الى السياسة وكان من العسير سيقهم الى
المسرح . لم يخامر هاريل أقل شك في هذه المسرحية ووثق أنها
ستلقى نجاحا باهرا فاستبقاها ليبدأ بها موسمه الاول على مسرح
بوابة سان مارتان الذى كان اشتراه منذ قليل ، وكان هذا المسرح
قد بنى من اجل الملكة ماري انطوانيت من قبل خمسين سنة ، وقد
دفع فيه هاريل ثمنا باهظا ، ولكن المدموازيل جورج هى التى رغبت
فى شرائه فلم يبق لهاريل كلمة يقولها أو رأى يبدى

ونحن نعلم من كلام دوماس الاب أنه كان حينئذ يصحب ابنه
لتناول العشاء على مائدة المدموازيل جورج وهاريل ، فأغلب الظن
اذن أن يكون الف الصبى لهما يرجع الى ذلك العهد . وكان هاريل
ذائع الصيت فى باريس ، معروفا بفرد نشاطه وكثرة كلامه وقدرته
على كسب ثقة الناس وعلى خداعهم فى وقت واحد . انه رجل بارع
فى ادارة أعماله ، ولكنه لا يتورع عن الغش . التقت به المدموازيل
جورج سنة ١٨٢٠ ، واستمرت فى معاشرته منذ ذلك الحين

وخلاصة سيرة المدموازيل جورج - واسمها فى الحقيقة هو
مرجريت جوزفين ويمير - أنها بدأت مهنتها فى المسرح القومى
سنة ١٨٠٢ أبان ازدهار الفن المسرحى فى فرنسا وتألقت نجم الممثل
الكبير تالما . وكان نابوليون حينئذ يشغل منصب القنصل ويهيم ،
فيما يهيم به من الفنون الجميلة ، بالمسرحيات الكلاسيكية . ومن
اجل هيامه هذا اقتصر المسرح القومى على تمثيل روائع هذه
المسرحيات . ولفتت الممثلة الناشئة نظر نابوليون بفضل جمالها
الاغريقى ، يخيل لرائيها أن جسدها تمثال من المرمر قد دبت فيه
الحياة ، أو انها تجسد حلما من أحلام العصور الذهبية . وأرسل
نابوليون ذات ليلة خادمة كونستان برسالة اليها يدعوها فيها الى
الذهاب لقصر سان كلو لتلقى تهنئته لها على تمثيلها لدور كليتمنسرا
وكان نابوليون حينئذ فى عز شبابه ووثوقه بنفسه . وأمنت
المدموازيل جورج أن صلته بها قد قادتها الى قمة المجد والشهرة .
هى صلة قصيرة الامد ولكنها كانت أكثر مما يكفى لملء حياة المدموازيل
جورج بالاضواء الى نهاية العمر . وبقيت صلتها بنابوليون
تترأى لها فى ذكرياتها ولا تنقطع عن الاعتزاز بأنها ضاجعته ، وعن
رفعها له الى مصاف الآلهة .

هي الآن ان تغيرت فلم يتغير جمالها ، بل ازداد عن الاملس تألقا ،
انها لا تزال توصي بأنها هبة من نسائم الحضارات الاولى ، ولكنها
اصبحت اشبه بتمثال اغريقى ، اذ يخامر رائيها ديب من الشك
بان وزنها قد بدأ يزداد قليلا . انها تحسب نفسها قرينة للالهة .
طبعها التحكم والامر والنهي ، فلم يسمع هاريل رغم صلابه مراسه
الا ان يقف بين يديها موقف الخادم العبد ، ولم يملك فرديك لومتر
— وهو مبال بطبعه الى التندر — الا ان يكرهها أشد الكره . اما
دوماس الاب فكان يلتزم الحيطه فى معاملتها ويحرص على الحفاوة
بها ومجاملتها ، فبقيت راضية عنه ولا تحول عنه ودها ، ثم توثقت
المودة بينهما ابان تأليف مسرحيته الجديدة « نابوليون » فان
موضوعها محبب لقلبها

وقد سبق القول ان هاريل كان قبل ذلك بقليل قد وجد شيئا
من المشقة فى صرف اهتمام دوماس الاب عن السياسة الى
المسرح ، ثم لجأ فى نهاية الامر الى الحيلة ، اذ اتفق مع المدموازيل
جورج على دعوة المؤلف الناشئ الى العشاء ذات ليلة ، وبعد مأدبة
طويلة نعم فيها بأطيب طعام وأشهى سمر ، قاده مضيفاه الى حجرة
مكتب أنيقة مريحة عامرة بالكتب ، لا ينقصها شيء من أدوات
الكتابة ، وفى ركن منها فراش وثير . لم يفتن دوماس الى الحيلة ،
فانطلق لسانه بالثناء على الحجرة واعجابه بها ، وقال : « ما أطيبها
من حجرة نرجل يريد ان يخلو لنفسه ليجلس ويكتب » فأجابه
هاريل على الفور : « نعم ما قلت . يسعدنى ان الحجرة أعجبتك
لأنك لن تفادرها من قبل ان تفرغ من تأليف مسرحية عن نابوليون » .
ولم يكن لحجرة المكتب الا باب واحد يفتح على حجرة نوم المدموازيل
جورج . وحمل دوماس نفسه بغير مشقة كبيرة على الرضاء بما
دبراه له وقال لهما : « سأقدم لكما المسرحية بعد أسبوع واحد »
فأجابته المدموازيل وهى تؤنبه : « يالك من رجل يتعجل فراقنا »
وكانت المدموازيل جورج من حيث الفرائز والطباع تحاكى أهل
روما الاقدمين ، فجعلت من عاداتها ان تستحم كل يوم ، على ان هذه
العادة لم تكن قد شاعت بين الناس حينئذ . هى عسيرة الرضاء ،
محبكة لكل امر تتولاه . وأصبح دوماس الاب ، يفضل خضوعه
للعمل فى سجنه المفروض عليه ، خيرا بخلائقها ، فقال عنها فى
مذكراته انها كانت تحرص على ان تغسل جسدها كله بعناية فائقة
من قبل ان تغوض فى حوض الحمام المملوء بماء صاف دافئ ،

وتمكث به ساعة كاملة . اذا جاءها زائر اذنت له أن يدخل عليها وهي في الحمام واستقبلته بأرق ابتسامة ، وتظل تستمع الى ثرثرته عن آخر فضائح المجتمع ، وتعمد بين الحين والحين الى رفع ذراعها لتثبيت شعرها بمشبك من الذهب الخالص ، فتكشف كل حركة منها عن وضع جميل يتخذه جسدها وعن تجدد مفاتيح رسمه ، ولو كان محلها امرأة أخرى لاثار لقاءها في الحمام انبهار زائريها ، ولكن المدموازيل جورج مجللة بهالة من البهاء والسمو ، متحررة من ضغط الانتباه للنفس ، لذلك فهي لا تشير في قلب زائريها الاثير لديها اعجاب رجل دخل مخدع ممثلة جميلة ، بل اعجاب رجل يتأمل ابداع لوحة أو تمثال في متحف اللوفر أو الفاتيكان .

وكان افتتاح هاريل لمسرح بوابة سان مارتان حدثا عظيما في باريس . بدأ مسرحه الجديد اول موسم له يوم ١٠ ديسمبر أى بعد خيبة دوماس على مسرح الاوديون بأقل من شهرين ، وقام فرديريك لومتر بدور ريتشارد دارلنجتون فملك اعجاب الناس واثار دهشتهم ، واستطاعت قدرته في التمثيل أن ترفع هذه المسرحية الى قمة النجاح بالرغم من أنها مسرحية قاسية غير ناضجة . فحسنت احوال دوماس الاب وان أسفر نجاحه عن مأزق جديد لابنه ، اذ كان بين الذين يشركهم دوماس الاب في كتابة مسرحياته مؤلف اسمه بروسبير بارفيه جوبو ، وهو رجل يجمع في خلط عجيب بين خصال المدرس وخصال المؤلف المسرحي ، فهو الى جانب اشتغاله بالمسرح يدير مدرسة داخلية يملكها اسمها « بنسيون سان فيكتور » بشارع بلانش ، فلا عجب أنه كان يديرها أسبوا ادارة . فلما توثقت المودة بين الرجلين بفضل اشتراكهما في تأليف المسرحيات ، اقترح جوبو على صديقه أن يرسل ابنه للمدرسة . ان دوماس شديد الولع بادارة الكلام حول ابنه ، ولا شك أنه هو الذي أفاض في التحدث الى جوبو عن ذكاء هذا الابن ووسامته ، وشكا له من المتاعب التي يلقاها في تربيته بسبب انشغاله في عمل مستبد بوقته ، ومعيشته غير الشرعية مع خليلته في بيته . ولا شك أن جوبو أقبل عليه بكل قلبه وزين له وهو يطمئنه أن يدخل ابنه مدرسة سان فيكتور ، وأكد له أنه سيجد بها كل سعادة ورعاية ، وأن مدام جوبو ستعنى به عناية أم بولدها ، وبذلك تزول جميع متاعب الاب ويتخفف من مسئولية تنشئة ابنه . وخيل لدوماس أنه اهتدى الى حل موافق ، ولم تمض سنة

واحدة حتى أسلم ابنه الى مدرسة صديقه .
وكان دوماس فى ذلك الحين قد اتخذ لنفسه خليفة جديدة
اسمها ايدا فرييه ، وهى ممثلة ناشئة محبة للسيطرة ، فانه كما
هجر من قبل كاترين لوباي وميلاتى والدور كان قد هجر أيضا بل
كريبسامر ، ولم يشفع لها عنده ظرفها وجمالها ومرحها . هى
أيضا كفريمتيها السابقتين أحبت دوماس أصدق الحب وبقيت مقيمة
على حبه بعد فراقهما . أما ايدا فكانت لا تحب الا نفسها ،
واضمرت العزم على ان تفعل كل ما فى وسعها لتجعل دوماس
لا يجد من السهل عليه أن يهجرها كما فعل بسابقاتها . وأحبها
دوماس حبا عنيفا لم تحل شدته دون احتفاظه بالبشاشة والمرح ،
وتزاحمت عليه مشاغل أخرى صرفته عن التفكير فى ابنه .

فقد تفشى وباء الكوليرا فى باريس فى صيف ١٨٣٢ . بقيت
الشمس تسطع ببهاء فى سماء صافية ولكن المستشفيات غاصة
بالمرضى . يسير فى الطرقات نعش اثر نعش . وكان دوماس قد
كتب شركة مع مؤلف آخر مسرحية كوميدية اسمها «زوج الارملة» ،
ولكنها مثلت فى مسارح خالية ، لان الناس كانوا يتجنبون الزحام .
فلما رأى دوماس أن مورده من المسرح قد نضب عكف على تأليف
رواية تاريخية اسمها «الغال وفرنسا» ولكنه أصيب بالكوليرا
ذات يوم ، ثم لم يكد يدخل دور النقاهة ويستعيد قدرته على العمل
حتى شرع فى تأليف مسرحية جديدة اسمها «قلعة نيل» اعتمد
فيها على مسرحية سقيمة قدمها له هاريل ، وهى من تأليف شاب
مجهول اسمه جابارديه . وقال له هاريل أنها فى اعتقاده مسرحية
تتضمن قصة جيدة ، وطلب اليه تهذيبها ، فأعاد دوماس كتابتها
وقدمت للجمهور على أنها من تأليف جابارديه وكاتب آخر رمز له
بثلاث نجوم

قدم هاريل هذه المسرحية على مسرح بوابة سان مارتان واضطلع
بالدورين الرئيسيين كل من المدموازيل جورج والممثل بوكاج ،
فلقيت نجاحا فائقا وبهرت أهل باريس ، ولم يطل بهم الوقت حتى
أدركوا حقيقة الاسم الذى رمز له بثلاث نجوم ، فليس فى فرنسا
الا مؤلف واحد يستطيع أن يكتب مسرحية لها مثل هذه القدرة
على تملك القلوب وإثارة الدهشة .

ولكن هذه المسرحية التى تخلب الالباب عابها الميل الى العنف

والغلظة ، فازعجت أغلب مشاهديها وأسأت الى سمعة مؤلفها .
ثم ان جيارديه أقام دعوى ضد هاريل ، فلوئت القضية اسم
دوماس . حقا ان هاريل هو الذى أثار النزاع ، ولكن دوماس ،
المؤلف الناجح ، الراضى عن نفسه ، كان له أعداء كثيرون ، فانتهزوا
الفرصة وشنوا عليه حرب اشاعات كاذبة ، أخبثها انه كاتب
يسرق أفكار غيره .

وأطبقت عليه فى ذلك الوقت أيضا هموم ومتاعب بسبب
انخلافات السياسية . انه رجل جرىء متهور لم يتورع منذ أن
جلس لويس فيليب على العرش من الجهر بولائه للنظام الجمهورى .
انه يخص هذا الرجل بمقته حين شغل وظيفة صغيرة فى قصره ،
وقت أن كان يسمى بالدوق دورليانز ، ويمقته اليوم وهو ملك متربع
على العرش . اما هوى قلبه فللملكات الشابات ، وكان عددهن غير
قليل فى ذلك العهد ، فان كل ملكة شابة توحى له بأنها تعيش فى عالم
رومانسى ، فهو ليس بالجلف حتى لا يتنازل عن مبادئه الجمهورية اكراما
لعيونها ، ولكن عهد الملكية قد آذن بالزوال . ففى الأيام التى ذاق
فيها لذة النجاح ومرارة الفضيحة بسبب مسرحية « قلعة نيل » قامت
فى باريس ثورة فاشلة . وكان دوماس لم يستعد عافيته بعد مرضه
بالكوليرا ، فلم يتمكن من الاشتراك فى تلك الثورة ، ولكنه أخذ يجهر
فى كل مكان بمناصرته لها . فاقترح الملك فى أدب جم أن يرحل دوماس
من باريس بعض الوقت حتى يتفادى القبض عليه

حقا لقد لقي الملك من دوماس عناء شديدا منذ أن كان أصفى
مستخدميه وأكبرهم غرورا وأكثرهم اثارة للمتاعب ، ولكن مسلك
دوماس لم يمنعه فى يوم من أن يخص المؤلف الشاب بعطفه وتشجيعه ،
حتى انه آخر موعد مأدبة ليصحب أسرته وضيوفه الى الكوبىدى
فرنسىز لمشاهدة افتتاح مسرحية دوماس الاولى ، ولم يمنعه تلقيه
لقب دوق ملكى من أن يهب واقفا ليصفق لمستخدمه الصغير حين ظهر
على المسرح بعد اسدال الستار . ان الملك علم بأن دوماس رجل لطيف
المعشر طيب القلب لا يضمم الشر . ابنه ولى العهد الدوق دورليانز
صديق له ، والملكة تستدعيه وتستظرف مجلسه . ما جاءهم مرة الا
وجدوا فيه نعم النديم الخبير بأداب حاشية الملوك . يعلوه البشر من
فرط اعجابه بهم ، ولا يفوقه نبيل فى معاملته الملكة بهيام وحفاوة
واحترام . ولكن الاوان قد آن لان يزجر قليلا

أمضى دوماس أيام نفيه في سويسرا ، وسعى هناك لتقديم نفسه لكل من له مكان مرموق ، كالأميرة هورتنس بونابارت ومدام ريكامبيه وشاتوبريان وأفاض في كتابة مشاهداته . وجاءه الاذن بالعودة الى باريس حين تطيب له نفسه ، فرجع واستأنف حياته بها كأن شيئاً لم يحدث

كانت أيام المنفى ممتعة له ، ولكنه حين عاد الى باريس لم يجد بها إلا المتاعب ، اذ لم يكف أعداؤه أثناء غيابه عن التنديد به ، وكان هاريل قد ألح عليه قبل سفره لسويسرا أن يؤلف مسرحية جديدة ، فلم يستطع أن يكتبها ومزاجه معكر ، ولجأ الى شريك يعينه على تأليفها ، وهكذا تعاون الاثنان على كتابة مسرحية تسمى « ابن المهاجر » وهي مبلودراما مثيرة للعواطف . ولم يكن دوماس راضياً عنها ، ولذلك نبه قبل سفره بضرورة حذف اسمه عند تمثيلها ، ولكن هاريل رجل لا يوثق به ولا يعتمد عليه ، فلم يأبه لرأي دوماس وأعلن اسمه ، ومنيت المسرحية بهزيمة مخجلة . وعاد دوماس الى باريس فوجد الصحف تسلقه بالسنة حداد ، وقالت صحيفة « الدستورى » أن موهبة دوماس قد ماتت الى الابد .

وجد دوماس اقبال الناس عليه انقلب صدودا ، وضاعت بينهم شهرته ، فعمد تمثيل مسرحية « ابن المهاجر » دأبت الصحف على مهاجمته ووصفه بأنه منبع مسرحيات شنيعة دميعة . وفجأة خيل للناس أن صفحته قد طويت . اذا قابله مديرو المسارح في الطريق زعموا أنهم لا يرونه ، وكان الدكتور فيرون صاحب « مجلة باريس » يستجديه من قبل أن يجود عليها بمقالاته ، فاذا به يعرض عنه ويقول أن مجلته لا تتسع لنشر أعماله . منذ أشهر قليلة كان اسمه لا يذكر الا مقترنا بالتبجيل فأصبح اليوم مثارا للسخرية . لم يبق له الا أن يتفادى الظهور بين الناس الى أن يعتدل مزاج باريس المتقلبة الاواء وترضى عنه من جديد . وقبع دوماس في داره وعكف على انجاز كتب مختلفة كان قد بدأ تأليفها

انها فترة نحس أرهقته وصرفته عن العناية بابنه ، فأسلمه الى مدرسة مسيو جويو وبدأ دوماس الصغير حياته بها

ان مسيو بروسبير بارفيه جويو - بشهادة كل من كتب عنه من معاصريه - هو رجل يحظى في زمنه ، فيما يبدو ، باحترام الناس واعجابهم . يقولون عنه أنه بلرغ لطيف المعشر وصاحب اسم مرموق في ميدانى التعليم والمسرح الدرامى . ولكننا اذا استرجعنا اليوم

سيرته لا نجد فيها مما يستحق الإعجاب إلا النزر اليسير . انه لم يكتسب شهرته إلا بفضل مسيرته للتقلبات السريعة في أذواق الجماهير وأهوائهم العارضة . لا جرم انه اخفق في إدارة مدرسته ، وهيهات لنا اليوم أن نتصور حالها . لقد أبى لها صاحبها إلا أن تفرق في جو مسرحي ، ومع ذلك بقيت تخيم عليها الكآبة . مناهجها عتيقة جافة . وكان المسيو جوبو في الليالي الأولى لتمثيل مؤلفاته يسوق الطلبة القدماء الى المسارح ليصفقوا له ، ولا ينقطع عن دعوة الكتاب والممثلين لزيارة المدرسة . وكان الممثل فردريك لومتر قد أرسل أولاده لتلك المدرسة بعد قرابة سنتين من التحاق الكسندر الصغير بها ، فجعل من عادته أن يأتي لزيارتها ، يمشي مشية الخيلاء ، وما يكاد يدخل من الباب حتى ينادى على مسيو جوتو بلهجة مسرحية وبصوت لا يباريه فيه أحد . ووجد جوبو نفسه غارقا في أشغاله المسرحية فعين مديرا مساعدا له ، هو رجل ، ان يكن فظا غليظ القلب مجبولا على القسوة والظلم ، فانه قبل أن يسهم بنفوذه في إدارة المدرسة ويصبح شريكا لصاحبها ، وكانت المدرسة تعاني حينئذ ضيقا ماليا ، فلم يجسر جوبو أن يحتج على أعمال شريكه أو يقدم على طرده من المدرسة واكتفى من قبيل التكفير عن سيئاته بالتلطف مع التلاميذ كلما قابلهم ، وكان لا يقابلهم إلا مرات قليلة يخيل له بعدها أنه أراح ضميره

ذهب دوماس الصغير الى المدرسة وهو صبي مكتمل القوة والعافية ، فلم تمض شهور قليلة حتى ساءت حاله ، وكاد من فرط سقمه أن تخطئه عين من عرفه من قبل . يقيم في تلك المدرسة الكثيبة ، في فوضى بلا ضابط أو نظام ، مائة تلميذ عفريت مشاغب ، فلم يبق للضعيف أو الصغير بينهم إلا أن ينزوى خائفا في الأركان . من المؤلف أن تشب بين التلاميذ معارك حامية الوطيس ، يشهداها الاساتذة بعين غافلة . يستبد التلاميذ الكبار برفقائهم الصغار ويضطهدونهم ، فكان التلميذ الضعيف أو الحساس ضحية عدوان مزدوج : مرة من أساتذته ومرة من رفقائه الكبار . الطعام قليل ، وليس هناك من يجشم نفسه مشقة توزيعه بالعدل . وكان الفساد الخلقى شائعا في المدرسة أيضا

هيهات لنا اليوم أن نصدق وجود مدرسة كالتى وصفناها ، ولكن أمثال هذه المدرسة لم تكن من النوادر في تلك الأيام ، فنحن نعلم

أن شارلوت برونتي ، وهى من جيل دوماس الصغير ، دخلت مدرسة « كاون بريدج » فكادت تتمزق من شدة الحنق من سوء ما لقيت بها ، وماتت بهجة الطفولة فى قلبها ، شهدت بعينها كيف عذبت هذه المدرسة أختين لها كادت تشرف كل منهما على الموت . وهكذا كان شأن شارلز ديكنز فى صباه أيضا . أنه عهد كان يفحص الناس فيه أعينهم على ما يعانیه صبيان المدارس من قسوة وسوء معاملة ، ولم يكن هناك أحد يعنى بحماية الضعيف من ظلم القوى

لم يكف دوماس الصغير طول حياته عن الارتجاف رعبا كلما ذكر المدرسة ، ولكنه لم يرو كتابه حياته بها إلا مرة واحدة ، نجدها فى قصة « قضية كليمنسو » التى أصدرها أول مرة سنة ١٨٦٦ ، فالفصول الأولى من هذه القصة مستمدة من واقع حياته ، وقد روى فيها تجارب ابن غير شرعى فى المدرسة ، وحين يعمد الكاتب الى الاقتباس من تجاربه فى تأليف قصصه لا يتحتم علينا بطبيعة الحال أن نصدق كل كلمة يقولها ، فمن المؤلف فى مثل هذه الأحوال أن يدلل المؤلف على بعض التفاصيل من التغير والتبديل ما يرضى مطالب قصته كما رسمها خياله ، ثم ينبغى ألا ننسى أن دوماس كتب هذه القصة بعد ثلاثين سنة من وقوع الحوادث التى يرويها ، فوصفه إنما هو الأثر المتخلف فى نفسه من تجاربه المريرة فى المدرسة . ولن يتأتى لنا أن نعرف مبلغ الصدق فى ذكره للتفاصيل ، ولو سئل هو هذا السؤال لما رضى فى أغلب الظن أن يجيب عنه . ولكنه ولا شك أودع قصته من الحقائق لبابها ، وهى وأن خالفت أحيانا كثيرة وقائع قصته الخيالية ، فإن تجاربه الذاتية مطابقة لها ومصداقاً عليها ، بدليل أثرها البالغ فى طبعه وخلقه

أن الكسندر صبى حساس ، متقد العواطف ، لا يعرف بعد كيف يكتمها . وكم بكى فى تلك المدرسة الكئيبة الظالمة التى أهدرت المثل الإنسانية ، بكى من الحسرة على حرمانه من عشه فى ضاحية باسى . زملاؤه التلاميذ ، وهم أجلاف غلاظ الطبع ، يجدون أشهى شئ على قلبهم أن يلاحقوه بضحكات ملؤها الهزء والسخرية ، يهتزون طرباً لو وجدوا فى درعه منقذا لسهامهم ، وتتلمظ شفاههم توقعا لفرص كثيرة فى المستقبل تتيح لهم أن يتندروا بعواطفه الرقيقة

وأغلب هؤلاء التلاميذ أبناء أسر موسرة محترمة ، على حين أن الكسندر كان قد تطبع بخصال الطبقة الفقيرة الكادحة . وتروى لنا قصة « قضية كليمنسو » تجارب أول يوم له فى المدرسة . جاء

مجلسه في الفصل الى جانب تلميذ خبيث شرير ، فلوث له ملابسه بالحبر عمدا ، فثار غضب الكسندر ولكم على الفور خصمه . انه خبر منذ مولده كيف تشقى أمه من أجل أن تكون له سترة يرتديها ، انها تسهر على تفصيلها له بيديها ، وتهلك نفسها في العمل لتكسب ثمنها ، لذلك أحس بفريزته أن تلويث ملابسه بالحبر نكبة كبرى ، فهجم على زميله والتحم الاثنان في عراك خرج منه منتصرا . وكان من سوء حظه أن خصمه المغلوب ، واسمه أندريه ، صبي حقود محب للانتقام فلم يفتقر أبدا لالكسندر انتصاره عليه ، وظل يرقب فرصة يثار فيها لنفسه

ولم تغب عنه هذه الفرصة طويلا ، فان الكسندر الصبي الغرير ، كان يفتح قلبه لرفقائه ويتحدث بصراحة عن شئون أسرته . لم يتردد في اخبارهم أن أمه تعمل بيديها للاتفاق عليه ، وانها تسمى كاترين لوباي ، وانها لا تعاشر أباه . لم يكن يخامره حينئذ أقل شك يوسوس له أن وضعه في الحياة شاذ ، وانه مقصى ، بسبب مولده غير الشرعى ، عن المجتمع الذى يقطن ويحتكر الشرف واحترام الناس . فكان زملاؤه ممن يفوقونه في السن والخبرة يقابلون كلامه بضحكات ساخرة ، ويمضى تلاميذ آخرون بالخبر الى أمهاتهم حين يذهبون لزيارتهم فى عطلة الاسبوع ، فكان ذكر اسم دوماس وحده كفيلا بأن يرتجفن من شدة الاشمئزاز ، اذ كانت الألسنة تلوك سمعة ابيه وتندد بفضائح حياته الخاصة وباخفاق مسرحيته . حياته ومسرحيته ، كل منهما أسوأ من الأخرى . لم يكن شيمة المجتمع في ذلك العهد ولا من خصال الطبقة المحترمة أن يوصى انسان اولاده بالميل الى الرفق والرحمة . فلم يسمع رفقاء دوماس الصغير من آبائهم كلمة تحضهم على مد يد الصداقة الى التلميذ الجديد ، فعاملوه باستعلاء ليدرك انه أخط منهم ، وانه منتم الى طبقة منبوذة ، وليس لمثله مطمع في الفوز بصداقتهم . وسارع أكثر رفقائه شراسة الى ملاحقته بالتحقير والتعير ، وبذلوا كل ما في طوقهم ليعيش في غم وتكد ، يتحسس وصمة مولده . ويقول الكسندر في قصة « قضية كليمنسو » : « أتعرف ما هو أول شيء تكشف لى من طبائع الانسان كما ألفتها بين رفقائى في المدرسة ممن يقال عنهم أنهم في سن البراءة والطهارة ؟ انه طبع الظلم والقسوة .. »

ووجد أندريه في هذه الملابس ما يعينه على تدبير الحملات

والمؤامرات ضد دوماًس الصغير . واستيقظ الصبي المسكين الحائر ذات يوم فاذا به لا يكلم زميلاً الا قابله بصد واعراض ولا يرد عليه . انه « المنبوذ » الذى لا يخالطهم ولا يخالطونه . تجاهلوه وأعرضوا عنه أياماً طويلاً . ثم لم يكتفوا بذلك ، بل تفننوا فى تعذيبه بعدد من الوسائل الصغيرة ، وتولى أندريه زعامة الحملة العدائية ، وانضم اليه الاجلاف من رفقاءه ، وسائرهم بقية التلاميذ ، مراضاة منهم لهؤلاء الطغاة ، والا ظلوا صامتين لا يجرؤ واحد منهم على ان يفتح فمه بكلمة احتجاج او اعتراض . وحدث ما شئت عما لقيه دوماًس ضحيتهم من ركل الاقدام وقذف بالحجارة وسرقة كتبه من درجه . لا يكلف الاساتذة انفسهم مؤونة فض الممارك التى تنشب بين التلاميذ ، بل يسارعون الى نفض اليدين منها ، تاركين لهم انتهاء النزاع بالطريقة التى تروق لهم ، فلم يتدخل أستاذ واحد لحماية ألكسندر ، اذ الكلمة العليا فى هذه المدرسة التى تسودها الفوضى هى التلاميذ . وما أسهل طرد الأستاذ من المدرسة اذا غضب عليه جماعة أصحاب النفوذ بين التلاميذ . ولكن أستاذ الفصل - وهو رجل مسكين محتقر مقبون - خص الصبي ألكسندر بعطفه ، وان جبن عن فتح فمه للدفاع عنه . وكان ينفرد به وقت الفسحة بين الدروس ويجاذبه أطراف الحديث كما كان يبذل له فى الفصل مزيداً من الجهد ليعينه على التمكن من فهم درسه . وكان من الافكار التى ابتدعها مسيو جوبو أن يأخذ كل تلميذ قطعة من أرض المدرسة يزرعها - ليجعلها حديقته الخاصة به ، ولكن هذه الفكرة - كبقية أفكار مسيو جوبو - لم تسفر عن شيء ، فقد قسمت الأرض ، وطلب ثمانون من التلاميذ أن يتسلموا نصيبهم ، ولكن لم يتأت لهم أن يزرعوه لان بقية التلاميذ - وعددهم لا يزيد عن العشرين - كان من حقهم أن يدوسوا هذه الأرض بأقدامهم ، كما جعلوها ميداناً لمعاركهم أو ألعابهم المخربة ، فتقدم ألكسندر - مدفوعاً بنصيحة أستاذ الفصل - الى مسيو جوبو يستأذنه فى أن يمنحه نصيبه من الأرض الجرداء ليزرعها ويتخذ منها حديقة له ، فاستجاب له الرجل الضعيف اللطيف المعشر ومنحه سؤله وهو بادى السرور والانشراح وقال بلهجته الخطابية أن لا شيء يسعده أكثر من أن يرى تلاميذه يصرفون أوقات فراغهم فى مثل هذه الاعمال البسيطة النافعة معا ، واذن للصبي بأن يحصل على مطلبه من الادوات والبذور ، وطلب من يواب المدرسة أن يعينه . ووجد ألكسندر فى زرع حديقته متعة كبيرة لنفسه ، أتاحت له -

هي وحديثه مع الباب - أن يتفائل عن مقاطعة رفقاءه له ، ولكنهم لم يرضوا لحملاتهم عليه ونبذهم له أن يؤدي ذلك كله الى تمتع ألكسندر بقسط من السعادة أو بالقدرة على اغفالهم ، فلم يكذب الباب يدير لهم ظهره ذات يوم حتى أقبلوا على الحديقة يدوسونها بأقدامهم ويخربونها بعنف شديد ، ثم شغلوا أنفسهم في اختراع وسائل أكثر إثمًا وإيلامًا لتعذيب الكسندر ، فكانوا يقلقونه بالليل حتى يمتنع عليه النوم ، وكثيرا ما وجد فراشه مبتلا بماء صب فوقه فلا يبقى له مفر من أن يرقد عليه وهو صامت يرتعش الى أن يسلمه الأعياء الى النوم ، وكان رفقاؤه يوقظونه في الصباح أحيانا كثيرة بقذف رأسه بكل ما وصلت اليه أيديهم . وكان التلاميذ يطفون على الخدم طغيانهم على الاساتذة ، فأجبروهم على أن يجعلوا الكسندر آخر تلميذ يقدمون له الطعام ، وأن يتركوا سابقيه يأخذون منه ما يشاءون بحيث اذا وصلت الصحون الى الكسندر وجدها فارغة . وكان غذاؤه في أغلب الايام مقصورا على الخبز والماء لم يجد أحدا يلوذ به فيمد له يد العون . فالى من يلجأ صبي في سن التاسعة يعيش في جحيم من اضطهاد رفقاءه له ؟ لعله اذا تحدث بهوميه الى من هم اكبر منه سنا لم يصدق أحد منهم ، فلا ييؤ الا بمزيد من انتقام رفقاءه جزاء له على وشايته بهم . وكان الكسندر لا يتراجع عن تأديب رفقاءه ومنازلتهم ولكنهم كانوا يتكاثرون عليه ويكيلون له الضربات ، فأثر أغلب الوقت أن يلوذ بالصمت ، وحبس دموعه الى أن يخلو بنفسه . كان يتعلم حينئذ كيف يتكتم أفكاره ومشاعره ، مرسيا بذلك دعائم خلق التحفظ الذي التزمه في رجولته ركه السقيم وكف عن النمو . تورد خدبه انقلب الى شحوب . هزل جسمه وانطفأ لمعان عينيه . ان أباه غارق في مشاغله ، ليس ادبه وقت للعناية بابنه ، فلا عجب أن أحسن الصبي بأن أهله قد تخلوا عنه ونفضوا منه اليدبن . كان يستيقظ كل صباح وقلبه ممتلئ بالرعب ، يدق أحيانا كثيرة بضربات عنيفة تكاد تخنقه . لعل مضطهده كانا قلة من التلاميذ ، ولكن المدرسة كلها لم تحرك ساكنا وهي تشهد راضية عذابه . عرف ذهنه الصغير قبل الاوان كيف يستخلص العبد ، والقبت فيه بذرة الشاؤم الذي لازمه طول حياته وجعله سيء الظن بطبيعة الانسان وبالمجتمع البشري ، وأدرك كيف ينجح الاشرار بفضل غلبة الجبن وعدم المبالاة في مجتمع تسوده الفوضى ويعلم يدا حازمة تقوده وتسدد خطاه . ان أباه رجل يساير

الأيام ، غير عسير القياد ، أمضى شبابه رغم فقره خاليا من الهموم .
أما هو فمختلف عنه . شب يمقت الديمقراطية ولا يعجب الا بنظام
حكم يتفرد فيه بالسلطان فرد حازم .

وأخيرا بلغ تعذيب رفقائه له حدا أزعج أستاذ الفصل ، فاضطر
الى التدخل ، اذ حدث ذات يوم أن القوا بحبل فى طريقه وهو نازل على
السلم فتعثرت به قدمه وسقط وأصيب بجراح بليغة . وصل الخبر
الى مسيو جوبو فعاقب التلاميذ الخائفين من أثر فعلتهم عقابا شديدا
ومضت أيامه بعد هذه الحادثة فى هدوء وسلام ، فلم يحرمه رفقاؤه
من النوم والطعام وزراعة حديقته ، وبدأوا يتحدثون اليه ، ومع ذلك
لم يعامله التلاميذ معاملة واحد منهم ، لأن سمعة أبيه تنزل من قدره فى
نظرهم ، فكانوا لا يتورعون . بقيادة أندريه . من التلميذ له بمولده
غير الشرعى حتى أرهقه الشعور بأنه مذنب . لابد أنه ارتكب جرما
شنيعا مخجلا لا يباح به . ولكن كيف ؟ انه مهما أجهد ذهنه عاجز
عن تصوره ، ولكنه يحس أن هذا الجرم المجهول لا يرضى الناس
عنه ولا يخالطون صاحبه . وأخيرا أدرك أنه لم يولد مولدا شريفا
لرفقائه . ولكن كيف يدرك ذهنه الفرق بين مولد شريف ومولد غير
شريف ، لم يتأخر رفقاؤه فى تلك المدرسة التعيسة عن انارة بصيرته ،
ولكنهم رسموا لجرمه صورة حملوها كل ما قدروا عليه من تشويه
للحقائق وتلذذ بالفضائح ، اذ كان من شأنهم أن يصرفوا وقت فراغهم
— اذا لم يجدوا ضعيفا يضطهدونه — فى اشباع شهواتهم .

ان كانت انجلترا تقول بفخار أن نصرها فى موقعة واترلو تحقق لها
أولا فى ميادين الالعاب الرياضية بجامعة ايتون ، فإن دوماس الابن
عاجز عن أن يأتى بمثل مشابه به ينطبق على بلاده ، بل انه على العكس
امن بأن فرنسا خسرت أخلاقها فى مدارس صبيانها ، وكتب يقول :
« هل يدهشكم انحدار خلقنا الى وهداة الرذيلة وفقدان الايمان والفساد ؟
اذن فادخلوا أول مدرسة للصبيان تصادفكم ، وانزلوا من السطح
الى الاعماق وحلوا دفائنهم . حينئذ تنقطع دهشتكم . ان المنبع
مسموم . »

وكان دوماس الاب قد أسكن معه ايدا فريه لتكون ربة بيته . انها
امراة جشعة غير متساهلة . الفضل فى سلطاتها على الرجال راجع
الى شدة عزمها واعتدادها بنفسها . الكبرياء أبرز صفاتها ، ولكنه
كبرياء يختلف عن كبرياء كاترين لوباي أو المدموازيل جورج ، انما
كبرياؤها مبعثه غلوها فى الاعتزاز بنفسها والحفاظ على كرامتها .

لها طبع الديكتاتور المستبد الذي لا يقبل من أحد الا الخضوع بين يديه . أنها لا تصفح أبدا عن انسان يعاملها بغير احترام . وكانت بسبب هذا الطبع شديدة الاهتمام برأى الناس فيها . وكان يسرها ان يعلموا جميعا أن دumas ملك لها وحدها . اذا خالطت المنتديات فما أرقها واظرفها ، فاذا عادت الى البيت فما أقطع حدة طبعها وغيرتها من كل انسان يستلطفه عشيقها . ولما أدركت أن دumas يحب ابنه ، أصبحت تمقت هذا الابن كل المقت . لم تكتف برفض مجيئسه الى البيت ، بل حرمت ذكر اسمه على مسمع منها ، فاضطر الاب اذا زار ابنه أن يزوره سرا من وراء ظهرها .

وملأت المرارة حياة الكسندر الصغير حتى فاضت . وكانت ذروة تعاسته علاقة أبيه بهذه المرأة التي لا قلب لها . انه وان كتم عن الناس شئونه الخاصة ، فانه ذكر ايدا فيريه مرة واحدة لم تتكرر . قال عنها ذات يوم : « ما أشد الارزاء التي لقيتها وأنا صبي على يد المدموازيل ايدا »

الفصل الرابع

أعوام المدرسة الطوال

كانت سنة ١٨٣٣ تتابع خطواتها ، لم يتسن لدوماس الابن في شهورها الاولى أن يرى أباه كثيرا ، لأن دوماس الكبير بقي معتكفا في بيته غارقا في عمله . ولكن ما كاد الصيف يقبل حتى كان الجمهور قد نسي حملاته على مسرحيته « ابن المهاجر » . وكان دوماس قد نشر كتابا عن رحلته الى سويسرا فلقى رواجا كبيرا ، وبدأ يؤلف مسرحية جديدة اسمها اسم بطلتها « أجيل » ، فأذن لنفسه بقسط من الراحة والاسترخاء وسط عمله ، فأتسع وقته لأن يزور ابنه في عطلة نهاية الاسبوع ويصطحبه في جولة خارج المدرسة لساعة أو ساعتين . يطالعه في ابنه صبي شاحب اللون ، عاقد لسانه ، لا ينبس بكلمة تنبئ عن شكواه مما يعانيه في المدرسة . زار في صحبة أبيه مراسم المصورين ومنازل المؤلفين ، واستمع الى أحاديث كثيرة بتبادلها رجال عندهم ما فاته من علم وتجربة ، وقابل أيضا في مقاهي قلب العاصمة الكاتبين نستور روكبلان وأيوجن سو ، كلاهما مشهور بين الناس بفرط أناقته وترفه ، وذهب لزيارة ألفريد دي فيني الذي يسوده الهدوء والنظام ، اذا اجتمع الناس عنده لا يتكلمون الا همسا ولا ينطقون بلفو أو بكلمة نابية ، وأنه يلتزم في مسلكه مسلك أمير من الأمراء ، وينأى بنفسه عن التبذل والصفائر ، ان وضع البساطة والتواضع في كفة فاته يضع في كفة أخرى التزامه الشديد للتحفظ وحرصه الأشد على مراعاة مراسم التأدب المصطلح عليها بين الناس . كان يتخذ من ماري دورفال عشيقته له ، ومع ذلك لم يكف عن احاطة زوجه بأقصى ما يقدر عليه من رعاية ومجاملة . انه وان اختلف طبعه أشد اختلاف مع طبع دوماس فان ذلك لم يمنعه من أن يفسح له من صداقته وأعجابه . يجلسان وحدهما أحيانا أو في صحبة نفر من الأدباء أحيانا ، ويدور حديث لم تعد أيامنا الحاضرة تعهده . يبدأ الحديث عن الفن باعتباره الهم الاول الشاغل للرجل المتحضر ، ثم ينتقل الى الطبخ وأصناف المأكولات ، ثم الى المذهب السياسي المثالي الذي ينادى به أنصار سان سيمون . هيات لكر السنين الطوال أن تنسى ألكسندر شعوره وهو صبي جالس في صالون دي فيني تطالع

عينه ظرفه العجيب وأناقته وأبهته وتشبهه بصالون فى قصر التريانون
وأثاثه البديع المصنوع وفق طراز قديم . الصمت المخيم لا يخل
به همس الحاضرين . يقيس الوقت رنين أجراس فضية بنغم حلو
من ساعة مثبتة فى بيت من البلور . ساعات هى أطول ساعات باريس
لصبي طلب إليه أن ينصت ولا يفتح فمه . مدام دى فينى جالسة
بمعزل عن الرجال ، منصرفة الى ثوب تخطيطه ، ثم تقوم بين الحين
والآخر لتشرف على شئون دارها ، فإذا همت بالقيام نهض الفريد
دى فينى لفوره من مقعده وأقبل عليها وتناول يدها ومشى بين يديها
الى الباب . يفعل هذا أيضا حين تعود . فيسرع الى لقائها على باب
الصالون وينحنى أمامها ويقودها من يدها الى مقعدها كما قادها من
قبل الى الباب ، ملتزما آداب الملوك وحركة حاشيتهم من
النبلاء . وكان تيودور دى باتفيل يقول : « هذا صالون لا يدخله
جلف أو أحمق . » فلم يكن أحد من الحاضرين يدهش لمسلك دى فينى
مع زوجها .

ومرت سنة ١٨٣٣ دون أن تعكر صفوها أحداث خارجية . فقصر
أهل باريس اهتمامهم على مدينتهم التى هى فى نظرهم قلب العالم
كله . وأقيم فى تلك الأيام تمثال لنابوليون فوق العمود القائم وسط
ميدان فندوم ، فكان سببا لاثارة أشجان المدموازيل جورج . وكانت
مسرحية فيكتور هوجو الجديدة المسماة « لوكرىس بورجيا » قد
عقدت فى مطلع العام لواء النصر لمسرح بوابة سان مارتان ولمشعلته
الأولى المدموازيل جورج ، وسأقت هذه المسرحية لفكتور هوجو
أيضا عشيقة جديدة فائقة الجمال هى جوليت درويه ، وكانت تخادن
منذ زمن قريب المثل براديه . إن أردت أن تعرف اليوم صورتها
ناذهب الى ميدان الكونكورد واستعرض التماثيل القائمة فيه والتى
ترمز لمدن فرنسا ، ثم قف عند تمثال مدينة ستراسبورج وارفع بصرك
إليه ، فان براديه قد صنم هذا التمثال على هيئة جوليت درويه .
إنها أمدت فيكتور هوجو فى السنوات القليلة الماضية بفيض من العواطف
المتقدة التى يزكو عليها نظم الشعر . وكذلك كان « ليست » قد
وقع فى حب جديد ، فان هذا الملحن الرشيق الوسيم الملهب العواطف
عشق الكونتيس داجو ، وقرن فى قلبه بين حبه وصادق تقواه وورعه
حتى آمن أنه أصبح لا يتطلب من الحياة إلا أن يخلو لنفسه ويحلم
بصاحبته . إنها عنده فى مقام بياتريس عند دانتي . وكذلك كانت
الكاتبة جورج ساند قد نجحت بفضل مضاء عزمها المعروف عنها فى أن

تستحذ على الفريد دى موسيه . ولكن اخبار هؤلاء العشاق لم تكن أثارت بعد تطلع الناس وعجبهم . اذ كان الخبر الذى شاع بينهم وحرك اهتمامهم هو عن هيكتور برليوز الذى تجدد بعد ست سنوات حبه القديم للممثلة الايرلندية هاريت سميثون التى رآها من قبل تقوم بدور أوفيليا فى مسرحية هاملت . هى أيضا عنده فى مقام أوفيليا عند هاملت . وتسامع الناس أنه قرر الزواج بها وعجبوا لهذا الحب الذى بدأ بعاطفة كلها حزن ويأس وتمزق كيف يرضى لنفسه أن يلقى هذه الخاتمة الباردة المموجة . إن أنصار الرومانسية لا يرون بعد أن شهدوا جمال هذا الوله فى فصوله الاولى سنة ١٨٢٧ أن يكون الزواج هو خاتمته التى ينزل عندها الستار ايذانا بانتهاء مسرحية بديعة ، وبخاصة أنها كانت بطلة الدراما ، لم يعشقها حبيبها فى مبدأ الأمر الا لأنها بدت لعينيه فى صورة أوفيليا حين قبلت دورها .

ونجح هاريل فى أن يجعل مسرح باب سان مارتان يسبق بقية المسارح بفضل طابعه العصرى حتى أصبح التردد عليه من علامات الانتماء للطبقة التى تحدد للمجتمع ذوقه ويهيم الناس بتقليدها . وكذلك ضم هذا المسرح خير ممثلى فرنسا : فردريك وبوكاج ، ثم انضم اليهما فيما بعد الممثل البارع ميلانج الذى لمع اسمه أيضا رساما ونحاتا . هذا عن الرجال ، أما عن النساء فمن بينهن الممثلة دورفال التى فاقت كل زميلاتهما بموهبتها الرائعة ، ثم المدموازيل جورج التى بقيت مترتبة على عرش مجدها منذ أن دوى انتصارها فى تمثيل مسرحية « قلعة نيل » . أصبح شبان الفنانين فى باريس يقدسونها ولا يطلقون عليها الا لقب « ربة المسرح الحديث » . ومما أعان على احاطتها بهالة من الرومانسية أن التشيع لنابوليون كان قد عم بين الناس ، وأصبح اسمه أسطورة قومية ، فلم يكن من شأن هذا النجاح كله أن يجعلها لينة الجانب يسهل معها الأخذ والعطاء . حقا انها كانت من قبل محبة للسيطرة ، أما اليوم فانها أصبحت مثل عشيقها السابق الكورسيكى مفرطة فى التحكم والاستبداد ، واستلزمت أن يعاملها الجميع معاملة ملوك متوجة ، فاذا خرجت من حجره ملابسها فى المسرح أبت الا أن يسير أمامها مدير ميسو مويسار بنفسه ، يمشى على مهل ويقرع الارض بعصاه اجلالا لها وتنبيهها بمقدمها . وكانت لها الكلمة العليا التى لا ترد فى كل أمر يتعلق بالمسرح . الفيرة تأكل قلبها وبخاصة من دورفال التى لجقتها اهانات عديدة من يدها . ولم تضم المدموازيل جورج الود أبدا للممثل فردريك لومتر ، وكان يسرها

ان تكايدہ وتفيظه . ان دورفال عاجز عن رد الالهانة ، أما فردريك فليس بالرجل الذى يحنى رأسه أمام العاصفة . كم من مرة أخذها بين أحضانها على المسرح وبثها لواعج قلبه ، فاذا نزل الستار عن كل منهما مضى لتدبير المكائد لخصمه .

ان جو المسرح معروف بعواصفه ودسائسه . وزادت في شهر يونيو حدة العراك بين لومتر والمدموازيل جورج وهاريل . كان يشترك حينئذ هو ودورفال في تمثيل مسرحية جديدة من تأليف المركيز دى كوستينى ، واستطاع هاريل المعروف بالمضى فى المساومة ان يفوز بأكبر غنم يقدر عليه ، استطاع ان يحمل المؤلف على ان يدفع نفقات اخراج مسرحيته فى صورة غنية فخمة . ونجحت الحفلة الاولى نجاحا باهرا وبلغت دورفال قمة النصر ، فثارت المدموازيل جورج ثورة عنيفة . واكدت غريمتها انتصارها فى الليلتين التاليتين مما كان يبشر بأن أمد عرض المسرحية سيطول . وفجأة أصدرت المدموازيل جورج أمرا بوقف تمثيلها . ولما غضب المركيز دى كوستين واحتج لم يجد غضبه واحتجابه قليلا ، واجتمع الحزن والمرارة مع خيبة الامل فى قلب دورفال فهجرت المسرح ومضت تبحث لها عن عمل فى مسرح آخر ، فوقع على عاتق لومتر وحده ان يدمغ هاريل والمدموازيل جورج بالوصمة التى يستحقانها ويجهر بالحق فى وجهيهما ولم يكتف بالكلام بل اضاف اليه تبادل اللكمات ، وخرج هاريل من هذا العراك مهزوما لم يكن لومتر أشد قوة من غريمه ولكنه كان أكثر منه شجاعة وأسرع تسديدا للكلمات . ترك هاريل محطما ومضى على عجل صافقا الباب وراءه بعنف . وهكذا ظفر أهل باريس بخبر فضيحة جديدة يشيعونه ويتنذرون به

لم يلحق هاريل على الفور ضرر كبير بسبب هذه المتاعب ، اذ كانت الدراما الرومانسية هى هيام العصر ، وكان هاريل مقصد كبار مؤلفى هذا النوع من المسرحيات فيزدحم مسرحه ليلة بعد أخرى ، على حين ظل مسرح الكوميدي فرنسيز يقدم مسرحيات كلاسية أمام مقاعد خالية من الناس . وكتب دوماس فى نهاية العام مسرحيته الجديدة « أنجيل » ومثلت على مسرح باب سان مارتان فلقبت نجاحا عظيما . وفى مطلع سنة ١٨٣٤ كان مسيو تير المؤرخ الشهير وزيرا للداخلية فى فرنسا المسئول عن المسارح ، فضاق ذرعا بالافلاس الذى يعاينه مسرح الكوميدي فرنسيز بسبب التزامه تقديم مسرحيات كلاسية لا يحضرها الجمهور ، فاستلمى دوماس الى مكتبه بوزارة الداخلية

وإبلغه أنه قرر تقديم سلسلة من أعمال حديثة غير كلاسيكية على مسرح الكوميدي فرنسيسز واقترح عليه أن تبدأ هذه السلسلة بمسرحيته « أنطوني » . وينبغي ألا ننسى أن الحركة الرومانسية كانت حينئذ لا تزال تلاقى معارضة شديدة ، وكانت الطبقة البورجوازية المحترمة تمقت دوماس كل المقت بسبب جرأة مسرحياته وخروجها عن المألوف ، فقدم بعض أعضاء مجلس النواب في الليلة السابقة لتمثيل المسرحية لوما مريرا للحكومة بسبب القرار الذي اتخذته مسيو تيير بشأن مسرح الكوميدي فرنسيسز ، وثار في المجلس حملة عنيفة ضد الحكومة بلغ من شدتها أن الوزير اضطر إلى التراجع وأصدر أمره بوقف تمثيل مسرحية دوماس . وعمدت صحيفة « الدستور » المعروفة بعدائها لدوماس إلى نشر مقال تسببه فيه أفحش السب . وقرأ مسيو جوبو هذا المقال فنأدى على الكسندر وسلمه نسخة من الصحيفة وطلب إليه أن يحملها إلى أبيه في بيته . يالها من مهمة بغيضة ويالها من زيارة انقبض لها قلبه ، إذ كان الصبي لا يملك أن يطيل مكثه في بيت تسيطر عليه أيدا فيريه . فلم يطل غيابه عن المدرسة وعاد إليها مسرعا وهو حزين كسيف .

وإذا كان الكسندر لم يغب عنه في الشهور القليلة التالية شيء من أنباء أبيه فإنه لم يجد من بينها ما يطمئنه على أحواله . أنه حصر في أغلب الاحتمال مسرحية أبيه الجديدة المسماة « كاترين هوارد » وشهد كيف لم يكتب لها النجاح ، وسمع ولا ريب أنباء النزاع بين أبيه والكاتب الناشئ جايرديه الذي ألف النص الأول لمسرحية « قلعة نيل » وكان قد كتب مقالا في الصحف أكد فيه أن المسرحية كما رآها الجمهور هي من تأليفه وحده ، ولا فضل لدوماس فيها ، فرد عليه دوماس بمقال آخر أصر فيه على أن هذا النص الذي شهدته الجمهور لا يمت بصلة بعيدة أو قريبة إلى النص الذي كتبه جايرديه . فسارع جايرديه إلى تكذيبه والاحتجاج عليه . وانتهى هذا الترائق بالتهم بأن طلب دوماس إلى جايرديه فض النزاع بالمبارزة . وتقابل الخصمان للمبارزة في أحد أيام شهر أكتوبر وأطلق كل منهما الرصاص على خصمه دون أن يصيبه . وبعد ذلك بقليل غادر دوماس أرض فرنسا لقضاء أجازة خارج حدودها .

وبقى الكسندر في المدرسة يواجه من رفيقه أندريه عداً لا يخمد أواره . أنه دائم التنقيب عن كل وسيلة تتيح له إهانة الكسندر وإغاضته وتنقيص حياته ، وواتته الفرصة ذات يوم ، ذلك أن رفقاء

أندريه كانوا يعلمون مقدار حبه لأمه وتعلقه بها ، وكانوا ينندرون بهذا الحب ويسخرون منه ، فبدأ أندريه هو وزمرته الخبيثة فى اختلاق روايات عن كاترين لوباي والتحدث بها على مسمع من الكسندر تصف هذه الروايات حياة أمه بأنها مليئة بالفجور والفحش ، يقولون هذا الكلام ثم يقهقهون بطرب وسرور . وإذا فتح الكسندر درج مكتبه وجد به رسوماً بذئنة اسم أمه مكتوب عليها ، فإذا خرج من الفصل لم يجمع من التلاميذ يتكتمون الضحكات ويتبادلون الهمس ، ولكنهم لا يتركونه يبتعد دون أن يصل الى سمعه نطقهم باسم أمه . وذاعت هذه الروايات والشائعات فى أنحاء المدرسة كلها ووقر فى نفسه أن كل من بها أصبح يؤمن بصدق هذه التهم البغيضة الموجهة الى أمه ، فأخذ عقله المسكين يتزلزل ، وأحس أن حاله ينحدر ، وأنه بدأ يمقت أمه . تتنابه فى بعض الأحيان أزमत حزن عنيف وتندم لاذع . رباه ! أى شيء فعلته أمه فأجرت . انه الآن يمقت نفسه وينحى عليها باللائمة . كيف أباح لقلبه أن يشك فى طيبتها وبراءتها . ألم تخلص له الحب وتنفض يديها من مباحج الحياة كلها ومسراتها لتعمل من أجله ؟ ألم تعكف على العمل الليل كله حتى تصبح عيناها كأسين من الدم انعقد فوقهما التعب والارهاق ؟ ألم تجعل الهموم وجهها الصبوح يتفضع ويشيخ قبل الاوان ؟ رباه ! لماذا لم يتزوجها أبوه ؟ لماذا يخادن ايدا فيريه ، تلك المرأة السيئة الخلق الحادة الطبع السليطة اللسان ؟ لماذا يغدق عليها المال وفاخر الثياب وتبقى فى البيت اليوم كله منعمة لا تنوء بهم ولا تقوم بعمل ؟ كاد الصبى من فرط تعاسته يحس مرارا بذهول يشل عقله وروحه ، ثم ينفرد بنفسه ويبكى الساعات الطوال بعيدا عن أعين الناس ، ولو أنه كما قال فيما بعد فى مقدمة قصة « امرأة كلود » ، لم يكن يجبن فى تلك الايام السود عن منازلة الاشرار من رفقاءه والدخول معهم فى معارك انتقاما لنفسه . تعاقبت على الكسندر بعد ذلك سنتان لم ير خلالها أباه الا قليلا ، ذلك أن دوماس كان قد شغف بالرحلات . انه خير من ينعم بالحياة أينما ذهب وحينما استقر ، لا يمنعه لهوه من الاندماج فى الكتابة بحماس شديد ، لا يفوته شيء يستحق الرؤية . يفوز بصداقات جديدة أينما حل ، ويختال فى كل بلد بثوب طريف من زى أهله ولا يأكل الا فى أشهر المطاعم . حين ذهب الى روما قام بزيارة البابا وطال الحديث بينهما . فلما تملك زمام قوته ونشاطه وصفاء ذهنه — وأن أصبح مفرطا فى البدانة — عاد سنة ١٨٣٢ ليستقر فى باريس

وفى ذهنه ذخيرة كبيرة من افكار شيقة تصلح لتأليف مسرحيات جديدة .

واذا كان دوماس رجلا مهملا لواجباته ، فانه مع ذلك ذهل حين رأى حال ابنه الذى كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، اذ وجدته صبيا سقيما مهزولا لاثدا ، نموه معطل . لم يفتح الكسندر فمه شاكيا مما يعانيه ، ولكن أباه اهتم بأمره وخصه برعايته وحببه ، وسأل ابنه ما الذى يستطيع ان يفعله له ، وتولى هو بنفسه الاجابة عن هذا السؤال قبل ابنه ، ألا يحب الكسندر ان يعيش فى سويسرا بضعة اشهر ؟ وأخذ يصف له بأسباب جمال بحيراتها وجبالها وقراها ، وما ينعم به زائرها من حرية تامة ، فأخذت الصبي هزة من الطرب وابتسم له الامل . ان دوماس مخلص فى تبشير ابنه بهذه الامال ، ولكنه سرعان ما نسي فيما بعد كلامه . لم يرتب ابنه فى صدق وعده ، وظل يقضى أيامه كلها وهو يحلم بهذه الرحلة المرتقبة فى صحبة أبيه ، ولكن دوماس غرق فى مشاكل عديدة استبدت باهتمامه ، فلما حان موعد الرحلة السعيدة اذا به ينسى الكسندر وينفض منه اليدين ويخلفه وراءه ويسافر مصطحبا ايدا فريه . انها تفضل ان تزهر روح الكسندر خمسين مرة ولا تتنازل هى عن نزواتها .

لا مجال للدهشة بعد ذلك اذا رأينا الكسندر الصادق الحب لايه يكتب عنه حين بلغ سن الرجولة فيقول : « ان الرجل الذى يلد ولدا عن عمد - وهيئات له أن يلد له الا عن عمد - دون أن يوفر له أسباب سعادته الروحية والاجتماعية ، ودون أن يعترف بمسئوليته عن المتاعب التى يلاقيها هذا الولد فيما بعد ، هو - فى اعتقادى - رجل مجرم ، مكانه متوسط بين اللصوص والقتلة »

أما عن كاترين لوباي فليس لدينا مع الاسف علم بحالها خلال الفترة التى قضاها ابنها فى المدرسة . كل الذى نعرفه عنها أنها غادرت ضاحية باسى والتحقت بوظيفة صغيرة فى أحد معاهد التعليم بباريس . عهد اليها فى أغلب الاحتمال ان تتولى حياكة ملابس الطلبة واصلاحها . من العسير علينا اليوم ان نعرف الى أى مدى بلغت مخالطتها لهذا الابن الذى فقدت حضائنه وحق توجيهه فى الحياة ، ولكننا نعلم أنها التزمت فى تلك الايام أن تسجل فى كراسة كيف تقضى حياتها يوما بيوم من أجل أن يعلم الكسندر فيما بعد كل شيء عنها فى تلك الفترة التى عاشت فيها بعيدة عنه ، فلما ماتت سنة ١٨٦٨ أحرق الكسندر كل ما كتبه . ان احراق هذه المذكرات خسارة

جسيمة لمن يتصدى لكتابة سير الكسندر دوماس الابن ، ولكن ليس من العسير أن نفهم الدوافع التي حملته على احراق هذه المذكرات . انه يضمر لامة من الحب ما لا يطيق معه أن يترك سيرتها نهبا للمؤرخين فيخطئون فهمها ، وهم الذين يخطئون في أنفسهم وأصدقائهم الاقربين . الافضل عنده ألا تترك أمة أثرا يدل عليها ، وقد فعل هذا أيضا بالنسبة الى نفسه الى حد كبير

لا مرأ أنه عاش طول عمره حائقا على أبيه ، من جراء اهماله لامة حائقا عليه كذلك من جراء المتاعب التي لقيها بسبب ولادته غير الشرعية . ولكن هذا الحق كله لم يجعله يكف في يوم عن محبة أبيه والاعجاب به . ان ذكرى مولده وعلاقته بأمة وأبيه ، وعلاقة أحدهما بالآخر هي عنده مأساة لم تنقطع عن ملاحقته طول حياته ، هي التي صبغت بلونها كل أعماله الادبية ، وهي التي كانت اذا ثارت في قلبه أفسدت عليه حياته وزلزلت صوابه .

وكانت صحته - على وجه العموم - طيبة جدا ، الا أنه أصيب في حياته مرتين بانهيار عصبي ، ونستطيع اليوم أن نجد تعليلا لواحد منهما ، فانه كان ولا ريب وليد الهموم التي عاناها في صباه . فانه لما مرت سنة ١٨٦١ ، قطع عمله بسبب مرضه وسافر الى نابولي حيث كان يقيم أبوه حينئذ ، فانتابه الهذيان ذات ليلة . دخلوا عليه فوجدوه راكعا على الارض يناجي ربه بدعاء حار . كانت قد غلبته رغبة ملحة لاتقاوم في أن يقتل أباه وهو نائم في الحجرة المجاورة . وخشى في تلك الايام من أن يكون قد أصيب بالجنون مع انه من أشد الرجال اتزاناً ، لم يكن الا ضحية فصام عقلي خلفه تمزق العواطف الذي منى به وهو صبي على كره منه ومن قبل أن تهينه تجاربه في الحياة على علاج هذا التمزق بحكمة وروية . لم يستطع في يوم أن يعقد في قلبه صلحا بين حبه لأبيه ومقتنه له . بل ولا يستطيع أن يقول : « أن أبي يستحق القتل ، ومع ذلك فاني أحبه » ، ذلك أن الحب والمقت يعيشان منفصلين جنبا لجنب في قلبه ، لكل منهما فيه حيز يشغله وحده . ففي سنة ١٨٦١ ثار مقتنه لأبيه المكبوت في قلبه وتملكه وسيطر عليه ، استطاع أن يتغلب على وسواس هذا المقت ، ولكنه خرج من المعركة . هو في شدة الفرع والندم .

عالم المسرح

كتب دوماس الاب سنة ١٨٣٦ مسرحية « كين » فبلغ بها قمة النجاح . انها تروى سيرة الممثل التراجيدى الانجليزى الذى كان قد مات منذ قليل . قدمها مسرح الفاريتيه ، وقام فردريك لومتر بتمثيل دور كين

وكان دوماس قد فقد صلاته بأصدقائه فى باريس أثناء غيابه عنها مدة سنتين ، فلما عاد وجد فردريك قد طرأ عليه تحول بليغ ، هجر زوجه ، وفتنه وله وهيام بفتاة فى سن العشرين اسمها لويز بودوان هى ممثلة لها دور أيضا معه فى مسرحية « كين » . أخذ ينفق نقوده بسفه ، ويحتسى الخمر باسراف ، ولا يكف مع ذلك عن خلب الباب أهل باريس بسحر تمثيله الرائع ، اذا وصل الى المسرح وهو مخمور غير صاح فللرغبة فى أن يحرر ذهنه من جسد لا يسعفه فى التمثيل أحيانا بسبب اعتلال صحته .

وانحدر أيضا حال أصدقاء له آخرين أثناء هاتين السنتين ، فهذا هو الملحن ليست الذى طال سعيه لرفع حياته الى مقام المثل العليا قد أخفق فى أن يستمد تمام الاطمئنان من تدينه المفطور عليه . كان منذ بدء حياته شغوفا بالسمو الروحاني ، فمال بفريزته الى دراسة الفلسفة من مذاهب الباحثين عن الحق ، فلما بلغ العشرين كان مثلا فذا للصفاء الروحى والعبقرية ، لا مطلب له الا أن يرضى ربه وأن يرفع الناس بالموسيقى الى حياة سامية . ومن شأن هذا الطبع أن يجعل صاحبه لا حد لقدرته على الحب ولا حد لعجزه عن مقاومة تلهفه على هذا الحب ، فهو اما يحب ربه ، واما يجد تحقيق هيامه اللوح عند انسان وان كتب على هذا الانسان الفناء وتبدل الاحوال والاعمار . لا يعرف أغلب الناس مثل هذا الصراع . ان حبهم لا يبلغ درجة الانتقاد والوجد والوله ، لاعالم عندهم الا عالم المحسوسات والمرئيات ومنطق الأسباب والنتائج ، أما قلب ليست فميدان صراع بين السماء والارض . وفجأة تغلبت الارض على السماء وبدا الموسيقى يقتفى أثر دون جوان ويشتهر بين الناس بغوايته وكيف له أن لا ينزل الى الارض وهى سخية فى الجود عليه ؟

ان صالونات باريس كلها تؤله وتسجد له ، بل ان طبعه النبىء عن تعلقه بعالم الارواح ونفض يديه من شئون الدنيا قد أضفى عليه سحرا مغناطيسيا يجذب النساء اليه . ان وسامته وشعره المتدلى على رقبتة ونظراته المتقدة وتمايم استغراقه فى الموسيقى اذا جلس الى البيانو وامتلاء الحانة بالاحاسيس والعواطف الملهبة . كل ذلك يثير فى النساء شهوتهن . اذا رآته امرأة لا يشذ خضوعها عن القدر المألوف عند بنات جنسها ، آمنت انه انسان ليس كمثله أحد ، وتملكها احساس خفى بأنه رجلها المقوم لها .

وخطا ليست خطواته الحاسمة سنة ١٨٣٥ حين أغرى الكونتيس داجو أن تهجر زوجها وولدها وتصحبه فى رحلة الى سويسرا . ولما علم الناس بهذا الخبر عدوه فضيحة شنيعة . ولم يكن الباعث الاكبر لذهول اصدقاء الكونتيس داجو وامتعاضهم هو انتهاكها للفضيلة ، بل تنكرها لتقاليد طبقتها الاجتماعية ، اذ ان الطبقة الارستقراطية التى تنتمى اليها لم تكن فى ذلك العهد تنظر الى الموسيقى والرسام والشاعر الا نظرتها لمخلوق احطم منها ، اللهم الا اذا كان معدودا من بينها بحكم مولده . انها الان هى وليست يعيشان فى جنة من السعادة والهناء ، يخفيان مسلكهما فى قبضة الورع والحشوع ، يؤمنان أنهما صانا روحيهما بذلك عن الهلاك ، وتعاهدا على ألا يكون لهما هم فى الحياة الا السعى للسمو بالبشر . هكذا كان الحب فى عهد الرومانسية ، لا يقدر العاشقان على قضاء ليلتهما معا دون ايمان منهما بأن الحب الذى جمعهما بلغ من السمو حدا من شأنه أن يبدل العالم كله ويعود عليه بالنفع . هكذا ايضا كان الحب الذى ربط جورج ساند منذ عهد قريب بالفريد دى موسيه ، وهكذا كان نزوعه الى السمو والتحليق فى أعلى عليين . وقد وجدت الكونتيسة داجو وليست اكبر تشجيع لهما من جورج ساند . كانت تقول لهما ان الحب فى نظرها فضيلة وأن الفريزة هى دائما على صواب . وكان العاشقان يصفان بجد وايمان حبهما بأنه نبيل وخالد ومقدس

ونعود الآن الى تتبع بقية من أنحدر بهم الحال . وفى مقدمتهم المدموازيل جورج . أصبحت مدينة ووزنها يزداد بسرعة مقلقة . انها قاربت الخمسين من عمرها ، وكان فى امكانها بفضل ما حظى بها جسمها فى شبابها من جمال بلغ حد الكمال أن تحتفظ بحسنها فى شيخوختها شأن نينو دى لانكلو والامبراطورة اوجينى لو انهما مارسست نوعا من الرياضة ، ولكنها كانت مع الاسف كسولا وتقضى

معظم يومها مضطجعة على أريكتها ، مرتدية ثيابا من حرير ومخمل ، وكانت أيضا ذواقة شغوفة بأطياب الطعام . انها لا تزال تحتل المكانة الاولى في مسرح باب سان مارتان ولكن اعتمادها أصبح وقفا على سابق شهرتها وسالف مجدها ، انها لا تزال تحسن التمثيل ، وتدهش الناس بمشيتها المتكبرة واحتفاظها بجلالها وهيبتها ، ولكن أصبح لها من فرط البدانة ذقن اخرى تحت ذقنها ، وبعد ان كان الناس منذ سنة أو سنتين تقف متلهفة عالية الضجيج في صف طويل امام باب المسرح ، اذ بعدهم أخذ يتضائل بسرعة مقلقة . وبعد مسرحية « كين » مضى زمن طويل على دوماس دون أن ينجح حمل من أعماله نجاحا كبيرا ، فان مسرحيته الجديدة « كاليجولا » وهى أهم عمل له في تلك الفترة لم يمتد عرضها على مسرح الكوميدي فرنسيز في ختام سنة ١٨٣٧ أكثر من عشرين ليلة ، وقامت ايدا فيريه بتمثيل دور بطله هذه المسرحية لان دوماس كان يناصرها وبأخذ بيدها ويدفع بها الى الامام ، ولكن تمثيلها لم يستلفت الانظار فلم يعن على نجاح المسرحية . وفي السنة التالية نسي دوماس ابنه البائس وسافر من فرنسا في اجازة لشهرين أو ثلاثة في رفقة ايدا ، وعاد في الخريف فوجد نفسه غارقا في ديون جسيمة فاضطر الى الاستقرار في باريس مرة أخرى وظل طول الشتاء عاكفا على العمل بلا هوادة . وحلت سنة ١٨٣٩ . بلغ دوماس الابن الخامسة عشرة من عمره . انقضت أيامه السود في مدرسة سان فيكتور ، وتبدل حظه وكذلك حظ أبيه . حكم منافسو دوماس الاب حينئذ أنه مؤلف نفدت جمعته وانتهى شأنه ، الا أنه كان في حقيقة الامر يستهل في تلك الايام مطالع حياته الادبية التي يتمثل فيها صادق موهبته ، ليس وراءه بل أمامه مجد يتحدث به العالم كله لفرنسا وحدها . أوهن نفسه في العمل طول الشتاء وكتب ثلاث مسرحيات نالت واحدة منها وهى مسرحية « مدموازيل دي بل ايل » نجاحا منقطع النظير لم يضاف عليه الرخاء فحسب ، بل رفع مكانته وصيته الى قمة لم يلفها من قبل . كان لم يكتب الى ذلك العهد الا مسرحيات ميلودرامية ذات طابع رومانسي ، فأدرك بفطنة غريزية ان أيام الرومانسية أصبحت معدودة ، فعدل عن منهجه القديم الى منهج جديد مختلف كل الاختلاف وجعل « المدموازيل دي بل ايل » مسرحية كوميدية خفيفة وشيقة ملأى بالفكاهة ، ليس فيها شيء يثير دهشة الناس ولا مغالة في خروجها عن المألوف بحيث تسبق ذوق العصر بخطوات بعيدة .

لبس فيها أيضا شيء يثير حفيظة طبقة من طبقات الشعب ، فأحبها الجمهور حين مثلها المسرح القومي ، وقيمت من بين برامجه حتى بعد وفاة المؤلف بسنوات طويلة

وظل دوماس الصغير منسيا تعيسا غير قادر أن يتحرر من ذكرى تجاربه المريرة في الأشهر الأولى من إقامته بالمدرسة . انه ما زال - كالعهد به صبيا منبوذا من رفاقه - لا صديق له ، تطبق عليه اتوحدة ولا يفهمه أحد . كتب وهو رجل في مقدمة قصته « زوجة كلود » : « العذاب الذي وصفته في قصة « قضية كليمنسو » دام خمس أو ست سنين ، انه كاد يقتلني . كف جسدي عن النمو ، بل يكاد يذوب من الحزن . لم يكن في قدرتي أن أدرس ولا أن ألعب » أصبح صبيا متجهما تنظر اليه العيون شزرا . أصابه المرض مرارا . ولكنه بشهادة مقدمة قصة « قضية كليمنسو » لم يكد يدخل مرحلة البلوغ حتى تملكته نزعة دينية عنيفة . لا ريب انها نوع من الهستيريا ، ولكنها ابرائه من تجهمه ويأسه وترديه في شهوة الانتقام . وكان في مدرسة المسيو جوبو ، استغفر الله ، في أكاديمية مسيو جوبو ، قسيس متكفل برعاية التلاميذ ، فلجا اليه الكسندر وأفضى اليه بكل همومه ومشاعره . عطف عليه القسيس وبذل كل قدرته للاخذ بيده ، اذ وجد الصبي مقبلا على الانصات اليه ، فأخذ يشرح له ما ينطوي عليه الدين من معان سامية ، ويحبب اليه التمسك بالرضا والشجاعة ، ويبصره بجمال البر والغفران .

أحب القسيس هذا الصبي الذي يلتزم الجد ، فأخذ يقضي معه الساعات الطويلة وهما يتجاذبان أطراف الحديث ، وانزاحت الفمة فجأة عن ذهن الصبي . ان تعاليم الدين التي تقول له : « أحب عدوك واحسن لكارهك » ، وبارك لاعنك » ليست عنده بكلمات ميتة او جوفاء ، بل حق صراح لا لس فيه ولا زيف ، ناض بالحياة . حررته هذه التعاليم من يأس العكوف على النفس واجترار أحزانها ومن المقت الذي كان يتراكم في قلبه ، وقص عليه القسيس سير القديسين والشهداء ، فأخذ الصبي يستمع اليها وهو مأخوذ بها . انه يرى الآن نفسه مهيبا لان يتسم في وجوه حلالده ، بل انه يرى عذابه منحة مباركة تحوّل بها السماء عليه ، مهيبا لان يروض نفسه بالصوم والتهجد طول الليل . واخذ يواظب أيام الاحاد على أداء جميع الصلوات في الكنيسة ويبقى بها لا يكاد يفارقها ، أما في بقية الأيام فلا ينقطع وهو في المدرسة من تلاوة الآيات من الفجر الى الغسق .

دهش له رفقائوه وسخروا به ولكنه ظل محتفظا بهدوئه ورباطة جأشه ، مسارعا الى الصفح عنهم ومقابلة سخريتهم بالرضا والشكر وتملكته أوهام زاغ منها صوابه ، فبدأ يؤمن أنه ابن الله ، اختاره من بين الناس لبيعته رسولا هاديا ، وأمتحنه بالعذاب والاضطهاد كما أمتحن المسيح من قبل . وآمن أيضا أنه سيموت كالمسيح مقتولا ، ولكنه سيرتفع مثله الى السماء . سيكون أول همه حينئذ أن يعمل على خلاص من «سخروا به فيطلب لهم المغفرة من ربه . وفي السماء أيضا ستكون أمه مثل البتول أم المسيح ، يباركها الرب وتبجلها الملائكة . أن كل أحلامه وتمزق عواطفه مصدرها أمه حين يعود ذهنه الى الوراء ويذكرها .

وكلما ألحت عليه لومة الهستيريا ضاعف من حماسه في الاقبال على الصوم والصلاة ، وجهه شاحب كالشمع وجسمه نحيل مهزول . أصبح كأنه شبح يجوس خلال الناس ، ولكن عينيه تلمعان بجمال عجيب . وأخذ القسيس يرقبه وهو فرح كما ينبغي له ، فقد تحققت معجزة بفضلته وعلى يديه ، هذا صبي يتهيا لان يجتبيه ربه أو يتهيا لان يبلغ مرتبة القديسين . لا ، لم يكن يتهيا لهذا أو لذلك ، بل يتهيا لان يصبح مؤلف « غادة الكاميليا »

عضه الجوع بنابه وزكبته الهموم فتحطم فجأة . ثار جسده من فرط عذابه ، فدبت فيه رعدة شديدة وأصيب بأوجاع تفترسه من الراس الى القدم ، وأطبق عليه الهذيان ، وانتابه مرض طويل غاب فيه عن وعيه ، لا يعرف ليله من نهاره . فلما دخل مرحلة النقاهة تبدل حاله ، أصبح قلبه خاويا من العواطف الدينية ، وحلت محلها ثقة جديدة في نفسه . كان قد تقدم به العمر ، وأصبح راشدا يستطيع هو الآخر أن تكون له كلمة أيضا في رسم طريقه ومصيره . أنه كان من قبل عاجزا عن التغلب على متاعبه ، أما الآن فإنه قادر على أن يقول لآبيه « خذني من هذه المدرسة »

استجاب له أبوه على الفور وان أمتنع عليه أن يأتي به الى بيته بسبب خدينته ايدافيرييه . كانت قد أمنت في الشراسة وسوء الخلق وحدة الطبع ، وكان دوماس رغم جبروته ومضاء عزمه يخاف منها . انه لن يفلح الا في إثارة غضبها اذا اقترح عليها أن يأتي ابنه ليعيش معها . أو قد أغمة موقفه هذا ، لان خدينته لم تغد في نظره الا ثقلا يبهظه ، يستنزف ماله ويشر مقتله ، وكانت محبته لابنه قد زادت في أيام مرضه ، ولكن لاحيلة له ، فينبغي إذن أن يظل الكسندر

مستقلا بنفسه ، يحيا حياته بعيدا عنه . وأخذ يتلفت حوله ليرى ماذا هو صانع بابه . واهتدى هذه المرة الى حل هو افضل من الحل الذى وجده حين ادخله تلك المدرسة . استأجر له حجرة فى بنسيون مخصص للطلبة ، والحقة بمدرسة قريبة منه ، هى مدرسة « كولييج بوربون » التى تسمى الان « ليسيه كوندورسيه » . وظفر الكسندر فى مسكنه الجديد بطعام طيب وأناس يرعونه بحنو ورفق . أما فى المدرسة فقد وجد نفسه وسط رفقاء يبذلون له الود ، فلم يشق عليه أن ينخرط فى زميرتهم ويقتبس طبعهم .

وهكذا اتيح لهذا الصبي المسوخ أن ينطلق أخيرا من قبضة العذاب ، واستعاد تملك زمام عافيته بسرعة مذهشة . زكت على السعادة صحته ، وتفتحت شهيته ، وتلاحق نموه

وذهب الكسندر الى الكوميدي فرنسير ليشهد مسرحية أبيه الناجحة « مدموازيل دى بل ايل » فرأى الناس لأول مرة يرفعون من شأنه بسبب مكانة أبيه ويقولون هذا الشبل من ذاك الأسد . له ولرفقائه الشبان اعجاب شديد بالدموازيل مارس التى كانت لا تزال الممثلة الاولى فى ذلك المسرح . بلغت الستين من عمرها ، ومع ذلك ظلت محتفظة ببهاؤها ، من أجلها يزدحم المسرح ليلة بعد ليلة ، الصمت مخيم على الرؤوس والانظار متعلقة بشخصها وحركاتها التى تنطق بالجمال والرشاقة والبشر ، مما يوهم بأنها لاتزال فى مقتبل العمر أما المدموازيل جورج — أو جورج الجميلة كما يسميها الناس — فقد أفرطت فى البدانة خلال العام المنصرم ، وبدت عليها بسرعة معالم الشيخوخة . خداها اللذان طالما قبلهما نابوليون العظيم سالمان من الفضون ولكن جلدهما قد استرخى على مر الايام . شهدت وهى فتاة جميلة « أى فى عهد بعيد بعيد » كيف تتلقاها كل عين بالاعجاب وكل فم بالثناء ، وشهدت وهى امرأة ناضجة فوزها من الناس اما بفرط الاجلال والاعزاز ، واما بأبخس الحسد ، وامتلات أذناها بدوى تصفيق لا ينقطع . أما الآن فهى تحس لأول مرة كيف أصبحت لأبالي بها أحد . انها حائرة لا تفهم ما الذى حدث لها . ليس بين الناس حولها واحد يماثل الكسندر دوماس الذى عشقها سنة ١٨٣٠ فى الكياسة والظرف والمجاملة . هو أيضا قد زادت بدانته ، اذا صادفهالقى بنفسه على الفور بين أحضانها وهتف لها من صميم قلبه بنبرة حادة « آه .. عزيزتى جورج » مامن امرأة يقابلها الا عز عليه أن يكلمها ببرود ، واذا كان الجمال قد ولى عنها فليس هو بالجاحد الذى ينسأه

ولكن بقية الناس تسارع الى النسيان ، لذلك حكمت المدموازيل جورج التي عاشت طول عمرها وهي محاطة بالاحترام والاعجاب ان الناس كلهم قد فسدت فجأة اخلاقهم وساء ادبهم .

ورأى هاريل المشتت اللب مقاعد مسرحه تظل شاغرة ليلة اثر ليلة ، وتراكت عليه الديون . انصرف الناس عن هذا المسرح الذي كان منذ اربع سنوات وليس غير ، أشد مسارح باريس ازدهارا ، وقت ان كان مسرح الكوميدي فرنسيس يعاني الافلاس . اما الآن فقد تبدل الحال . لم تكف المدموازيل جورج عن اغضاب الممثلين والمؤلفين ، وجرت على هاريل كثيرا من المتاعب ، ومما زاد الطين بلة انها أصبحت عجوزا ، على حين كان يتألق في مسرح الكوميدي فرنسيس نجم طالع . هذا النجم هو المدموازيل راشيل أعظم ممثلات العصر

وحين ظفر بها مسرح الكوميدي فرنسيس حق له أن يفخر بأنه يقدم للناس موهبة عبقرية فذة تتمثل في فتاة تشبه الأعصار المخيف . نضجها مبكر ، سمراء البشرة ، قمیئة الجسم ، واهنة العظام كمن أصيب في طفولته بمرض الكساح ، رأسها لا يتناسب وحجمها وضالة بدنها ، ممسوحة الصدر ، مقوسنة الساقين ، زعراء نحيلة الشعر . لها فوق ذلك قلب لا يعرف الرفق ولا الرحمة . ليس لها أقل رعاية لحرمة الحياء والوفاء والعفة ، ولكنها رغم كل هذا صاحبة موهبة عبقرية خارقة . استطاعت بمجهودها وحدها أن تعيد للمذهب الاتباعي مجده ، وتحجب الناس اليه من جديد ، وأن يخطف نورها بصر فيكتور هوجو وبقية أشياع المذهب الرومانسي ويذهلهم ، فلم يبق لهم الا أن يشغلوا أنفسهم بتملقها وترديد اعجابهم بها

وكان الكسندر الصغير وقت بقائه في مدرسة سان فيكتور يسمع عن راشيل أنباء كثيرة . تحدث الناس عنها من قبل سنتين أو ثلاثا بأنها صبية تغد في سننها من الخوارق والمعجزات ، وانها آخذة في التدريب على فن التمثيل . ولما بلغت السادسة عشرة من عمرها ظهرت لأول مرة على مسرح الجمناز سنة ١٨٣٧ ، وكانت قد اثبتت في فترة التدريب يقظة ذهنها وجدها في التعلم ، انصرفت للدراسة بحماس متقد لانها تعلم أن لاعتماد لها على حسن أو وسامة وبلغت بقدرتها في التمثيل درجة هيات أن يرقى اليها الشك . لاعائق امامها الا حمل مديري المسارح على الاقتناع بأن الجمهور لن ينظر شزرا الى ممثلة لا تتمتع بشيء من الوسامة ، ولكن المدموازيل

مارس كانت شديدة الثقة براشيل فأمدتها بتشجيعها وعونها .
وظهرت راشيل على مسرح الكوميدي فرنسيز في الصام المنصرم
فكتب عنها جول جنان ناقد صحيفة « جورنال دي ديبا » وخصها
بثناء جم . وبدأت جموع الناس تتقاطر الى المسرح ، بل ان الملك
نفسه ، وهو قلما يذهب للمسارح ، اصطحب أسرته كلها لرؤية
راشيل وأغدق عليها ثناء وهدايا . وفجأة وجدت راشيل نفسها
وهي لا تزال تخطو خطواتها الاولى ولم تتجاوز السابعة عشرة من
عمرها تفرها أضواء المجد والشهرة .

وتعلق بها اهتمام الناس وشغفهم بسبب ما انطوت عليه حياتها
الماضية من مأس مؤلمة . كانت منذ ست سنوات مضت ، شحاذا
تجوب الشوارع تستجدي الناس . انها من نسل أبوين يهوديين ،
أما تسمى استير حضرت من بوهيميا ، وأبوها بائع جوال يسمى
جاكوب فيلكس وهو من مدينة متز . لم ينقطع تجوالهما من بلد
الى بلد ، يعيشان في فقر شديد وبلا مأوى . ورزق الابوان بأولاد
كثيرين مات أغلبهم ولم يبق منهم إلا خمسة كانت راشيل الثانية
بينهم في ترتيب الاعمار ، الأكبر فالأصغر ، ولولا أصرار مستميت
وقدرة طاغية على التشبث بالبقاء لما أتيح لهذه الأسرة التعيسة أن
تنجو من التحطم والفناء . وأخيرا ألفت عصا الترحال في باريس
سنة ١٨٣٢ ، وأصبحت راشيل هي عائل الأسرة الوحيد . أن صمود
الجنس اليهودي في تاريخه الطويل للارزاء قد تجمع كله في راشيل،
وكل عزم وشجاعة أضنيا أبويها ومثات من أجيال قومها السابقين
للصعود من الحضيض ، وكل أحزانهم وغلهم من أثر الذي يعانون،
كل أولئك تجمع في هذه الفتاة الضئيلة الجسم . خبرت راشيل
كل العواطف فلا يشق عليها التعبير عن قلب انسان . فلما ظهرت
على المسرح سحرت الناس بصدق عاطفتها وأثارت الخبيء من أشجانهم

انها بدأت تتعلم التمثيل وهي تتعلم المشي . تعلمت في سن
الطفولة كيف تغنى في الشوارع وكيف تمد يدها للناس مستجدية،
تعلمت مكرهه وعلى يد القسوة كيف تحرك في الناس قلوبا جامدة
كالحجر الصلد وكيف تستدر عطفهم على البؤساء ، ولم يغب عن
ذهنها الصغير أن فوزها بدرهم هو مسألة حياة أو موت لها
ولأسرتها . ومضت أيامها الاولى في باريس وهي تغنى مع أختها
الكبرى في الشوارع وتستجديان الناس ، ولكن أباهما استطاع أن
يلحقهما بمدرسة مسيوشورون لتعلم الموسيقى والفناء ، فاستلقت

كل منهما الانظار وشهد لهما بأنهما صاحبتا موهبة لا تبارى . ثم تتلمذت راشيل على مسيو سامسون في مسرح الكوميدي فرنسيس واستطاعت بفضل استماتتها في الدراسة أن تجلو موهبتها وترسي دعائم شهرتها . لا يبعد عن عزمها هدف . اذا كان لا مناص للممثلة من أن تكون جميلة فحتم عليها هي الأخرى أن تحتال لتصبح جميلة . وكانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها . جسمها لم يكف عن النمو وطالت ساقاها طويلا ، وعرفت على النجاح طعم السعادة فتألفت عيناها ببريق خاطف . أصبح في يدها مال تستطيع به أن تصفف شعرها النحيل على يد أمهر الحلاقين ، وعرفت كيف تستمد من حسن ذوقها في تخير ملابسها مسحة من وسامة تتوهمها العيون ، وحملت نفسها على الإيمان بأنها جميلة ، وأنها نالت هذا الجمال بفضل عزمها وإرادتها وحدها ، ولكن لاجرم أن جمالها ظل وهما من صنع الخيال ، خيالها وخيال الناس . حيلتها تشبه حيلة الساحر الهندي الذي يزعم لك أنه يقيم حبلا في الهواء ، ستقول هذا محال ولكنك ستراه بعينيك ماثلا أمامك . أنها فرضت على الناس أن يصدقوا جمالها لأنها آمنت به هي نفسها . وكيف لا يصدق الناس جمالها وهم مأخوذون كل ليلة ببراعة تمثيلها وروعة نجاحها . لا يراها انسان على المسرح الا حكم بأنها ذات بهاء هيبات له أن يقر به لها لو أنها ظلت مغمورة بعيدة عن الاضواء ، وفوق ذلك فأن راشيل تتمتع بظرف غير منكور عليها ، والظرف هو قرين الجمال .

سحرت راشيل أهل باريس كلهم ، من الطبقة الفقيرة التي افتخرت أنها خرجت من صفوفها ، الى الطبقة الأرستقراطية العليا . أثارت هذه الفتاة ذات الموهبة الخارقة إعجابهم لأنها ، رغم أن أباهما يتكلم الفرنسية من حلقه ويلهجة المانية ، تسمعهم من فمها في أجمل لفظ ونطق لغة راسين وكورنيل . وحكم الناس كذلك أن فضيلتها نوازن موهبتها ، لأنها وهي الممثلة الناشئة التي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها كانت تتلمس خطاها بحذر شديد . أنها تعلم أن مكانتها في مسرح الكوميدي فرنسيس لا تزال رغم نجاحها غروطيدة ولا مضمونة ، فلم تسمح للجمهور أن يرى منها إلا صورة فتاة متواضعة بريئة محتفظة بكرامتها وشرفها

ليس من العسير عليها أن تلعب هذا الدور ، أما الجانب الخلفي للصورة فمناقض لها تمام التناقض . انه يكشف أولا عن غرور لها شيطاني بأنها ممثلة تراجيدية ناجحة صاحبة سطوة ونفوذ في مسرح

الكوميدي فرنسيس ، وجمعت الى هذا الغرور رذائل الحسد والمقت واللؤم ، أسلحة تحارب بها كل من يسعى ولو بشرف وامانة للوصول الى مستواها . هي مطبوعة على الشح والجشع ، أما الفش فمن غرائزها الثابتة . ولكن قلبها ينبض مع ذلك بألوان عديدة من حب مشتعل متقد ، حب أولا لأسرتها ، انها لا تحجم في سبيل هذا الحب من أن تخدع بلا حياء أو وازع من ضمير كل من هو غريب عن هذه الاسرة وتضحى به غير نادمة . أطلقت لشهواتها العنان ، واستغلت انوثتها امكر استغلال واشنعه ، انها مسارعة الى الخيانة اذا قضت ماربها هربا من الملل . لا تكف عن الخداع ولا عن المساومة بوقاحة عند طلب اجر قبلاتها . ان الحاحها في المساومة وهى بين الاحضان في تلك اللحظات التى تحمل غيرها من النساء اما على الانصياع للشهوة او على التزام الصمت . وبلغت راشيل من سوء السمعة حدا غير . ألوف حتى فى عالم المسرح

أصبح اسمها يجرى على كل لسان فى باريس . انها قوة ينبغى لكل مؤلف مسرحى أن يحسب حسابها . وبدأت تعنى بها الطبقة الاجتماعية التى تفوز بأكبر قدر من احترام الناس ، فراشيل تعرف كيف تكون فى المجتمعات مؤدبة كيسة لا ترتكب أقل هفوة ، نافية عنها الغرور ، وكيف تكون مرحلة متوثبة الذهن . ان صعود نجمها من وهدة الفقر الى اضواء الشهرة جعلها تبدو لأعين الناس فى صورة إحدى بطلات القصص الخرافية ، وأخذ كل انسان يزعم انه رآها وهى طفلة تستجدى الناس فى الشوارع . ويقول فيكتور هوجو انه على يقين بأنه أعطاها ذات يوم دينارا من الذهب فى ميدان فوج ، فاذا سمعت راشيل قوله هذا أكدت من جانبها انها تذكر ذلك ايضا . لم يبق شيء تستكمل به هذه الطبقة المحترمة سماعتها الا أن تحمل راشيل على اعتناق المسيحية ، فاعتناق اليهود المسيحية كان فى ذلك العهد مما يهيم به الناس

ولم يكن قد خمد أوار المعركة الناشبة بين الرومانسية والطبقة الاجتماعية المحافظة المحترمة . وظنت راشيل أن موهبتها وحدها هى سبب شهرتها ، ولكن سبب بلوغها مكائنها الرفيعة انما يرجع فى الحقيقة الى هذا الصدام بين الآراء ، فان خصوم الرومانسية اتخذوا منها رمزا لمذهبهم وعلماء يرفعونه فوق رموسهم ، أنها عندهم وهى تحقق لهم النصر بمثابة جان دارك تعيد الناس الى الطريق المستقيم . وكان أهل باريس حينئذ مشغوفين ايضا بالتحدث عن ترشيح

فيكتور هوجو لمقعد في الاكاديمية الفرنسية وما يلقاه هذا الترشيح من معارضة عنيفة . وكما احتدمت المعركة بين الرومانسية وخصومها في ميدان الادب ، فانها احتدمت أيضا في ميدان الرسم ، فأثار افتتاح معرض الفنون الجميلة في تلك الايام معركة حامية وطال الجدل حول لوحة قدمها ديلاكروا للمعرض تمثل هاملت وهو يحدق في جمجمة يوريك ، ووصفه بعض الناس بأنه أبله مأفون ، وقال آخرون انه أعظم رسام في التاريخ كله . واحتد كل الناس في الجدل والنقاش الا ديلاكروا نفسه فقد ظل محتفظا بهدوئه

وكما هام الرومانسيون بالرسم ديلاكروا هياما شديدا فانهم بدأوا كذلك يحيطون أونوري دي بلزاك بتوقير لا حد له ، ولكن بلزاك كان يعيش في آفاق تجعله غريبا وسط الناس مع أنه شديد الحب للعالم شديدا للهفة على مباهجها ، ان وافته الشهرة فان النجاح لا يزال بعيدا عن متناول يده فهو دائما مفلس غارق في الديون . واذا كان قد أخفق في استغلال موهبته فليس السبب هو أحجائه من لقاء دلوه بين الدلاء أو عن تأليف قصص سخيفة تروق لدى العامة من الناس . انه راض بأن يكتب عن طيب خاطر أي عمل يستطيع ان يبيعه ويقبض ثمنه ، ولكن هيهات لمحاولاته العديدة أن تفسد موهبته ، فان كل ما يخطه هو من فيض كاتب لا يهبط عن عظمتة . جميع من حوله أناس موهبتهم من معدن خسيس يكتبون أدبا ان يكن وضعيا فهو رائج يدر عليهم ثروات كبيرة ، فهذا هو بروسبير بارفي جوبو لا تطلع من يده الا مسرحيات هزلية سخيفة ، وهذا هو ابوجين سكريب يثرثر قلمه ملء الصفحات بكلام فارغ أجوف ، لا جرم أن احتقره ناشئة الكتاب ، وهذا هو الكسندر دوماس لا يكشف رغم همته وماحوله من ضجيج الا عن موهبة عاجزة عن الوصول الى القمة

وكان بلزاك يتميز من الغيظ كلما رأى الكسندر دوماس يختال في غرور بين مقاصير مسرح الكوميدي فرنسيز ، وكان دوماس قد قدم النسخة الخطية لمسرحيته « مدموازيل دي بل ايل » هدية منه الى الملكة كريستينا المتربعة على عرش اسبانيا ، فأنعمت عليه لقاء هديته بالوشاح الاكبر من وسام ايزابيلا الكاثوليكية . وهذا مايسيل له لعاب اهل الفن والادب الرومانسيين ، ولكن بلزاك أشدهم سرورا لو أصابه هذا الاكرام

لقد قال لدوماس وهما على سلم المسرح القومي ليلة العرض الاول لمسرحية « المدموازيل دي بل ايل » : « اذا فقدت يوما ملكتي الادبية

فسأتحول الى التأليف المسرحى « . خرجت منه هذه الكلمات غضبا وهو يحس الفارق الشاسع بين أعمال دوماس السطحية وأعماله ذات العمق التى تفوص فى أغوار النفس البشرية . فرد عليه دوماس ردا قاطعا ، قال « اذن فعليك أن تبدأ من الآن يا صديقى العزيز » انه لا يضر الضغينة لبزاك ولكنه يعرف كيف يرد اللطمة بمثلها

وفى واقع الامر فان لبزاك أدلى دلوه فى الكتابة للمسرح ولكنه باء بالفشل . لم تكن قريحته مستعدة لكتابة المسرحيات فان أسلوبه يمتاز بالتحليل العميق والواقعية الشديدة . ومع ذلك فقد دفعه حماس شديد ليولى وجهه شطر المسرح باعتقاد ان المسرحيات تعود عليه بالكسب اكثر من كتابة القصص . ثم جاء رد دوماس الساخر الذى زاده تصميمه . كان تفاؤله فى الحياة مضرب الامثال ، لم يتخل عنه مهما لاقى فى الحياة من لطومات ومحن . انه يتخيل الآن الاموال تتدفق عليه لايفيض معينها . يرى بعينى الخيال المشاهدين فى المسرح يهتفون له ملء حناجرهم على مسرحيته التى لم يبدأها بعد ورأى نفسه خالسا من ديونه التى تغله تكرمه ملكات جميلات يطرنه بالقبلات والاوزمة . وفى حماس هذا الخاطر أسرع الى هاريل ودعاه الى تناول الغداء معه ثم حدثه عن مسرحيته التى كان يتصور انه كتبها حقيقة . وادى حماسه الى أن يقتنع هاريل انها سطرت فعلا على الورق

قد يكون الذى دفعه الى هاريل هو شعورهما المتماثل فالطيور على أشكالها تقع . فهاريل غارق فى الديون مثله . اعتاد لبزاك أن يتفادى الدائنين والمحضرين وأن يختبئ منهم عند حضورهم اليه ، وكذلك هاريل اعتاد أن يقف على المسرح أثناء التجارب بجوار الباب الأرضى الذى يؤدى الى قبو المسرح حتى يسهل هربه كلما ظهر أحد من المحاكم . نزل الحال بمسرح باب سان مارتان الى درجة ألا ينال الممثلون أجورهم وأصبح معرضا للحجز على محتوياته فى أى وقت . ولكن هاريل لا يعدم الحيلة فى جذب الجمهور ، فمثلا ظهر الاعلان التالى فى الصحف فى صباح يوم من الايام :

« السيدة التى كانت تجلس الليلة قبل الماضية فى الصف الثالث من مقاعد البلكون فى مسرح باب سان مارتان ترجو من المتفرج الذى جلس بجوارها أن يعود الى نفس المقعد اثناء الشهر الحالى ، فان عندها شيئا تود أن تقوله له »

ولما كان لبزاك اعتباره فقد رحب به هاريل بصدر مفتوح واتفقا

على أنه لا يصلح للقيام بدور بطل المسرحية ممثل غير فردريك لومتر .
ومن الصدف أن مدير المسرح والممثل تصافت نفسيهما بعد
تشاجرهما القديم وأصبحا على وفاق معقول فلا بد إذن من أغرائه
على العودة إلى مسرح باب سان مارتان رضيت بذلك المدموازيل
جورج أو لم ترض . وفي اعتقاد هاريل أن الممثل لن يمانع إذا علم
أن بلزاك هو المؤلف . وافترق الاثنان بعد أن تواعدا على أن يقرأ
بلزاك مسرحيته في المسرح في اليوم التالي

لم يبق على النجاح إذن إلا كتابة المسرحية . بدأ ذلك هينا في عين
بلزاك وبين يديه أطباق شهية وكاسات من النبيذ الجديد وبعد نقاش
فرش لهم الطريق بالورود

فما أن جمع بلزاك أقلامه حتى شعر أن الوقت قصير فجلس إلى
مكتبه وأسرع بالكتابة يستدعي أربعة من أصدقائه وأرسل طلبات
الاستدعاء مع خادمه . أسرع الأصدقاء إليه لما رأوا لهفته على لقائهم
ووصلوا إليه في وقت مبكر من المساء . وجدوا بلزاك مرتديا ملابس
الرهبان التي اعتاد أن يلبسها في أوقات عمله فبدأ لهم شخصا مؤثرا
ضخما قويا بسيطا ولكنه أبعد ما يكون عن رجال الكنيسة بالرغم من
ردائهم الذي يتزيا به

جلس الأصدقاء ووقف فيهم بلزاك بحماس متدفق وقال « سأقرأ
غدا على هاريل مسرحية من خمسة فصول » . اعتدل الأصدقاء
على مقاعدهم ظنا منهم أنهم سيستمعون إلى قراءة للمسرحية
سيسمعون لها بلزاك قبل قراءته في الغد ، ولكن بلزاك استمر في كلامه
قائلا « لم تكتب المسرحية بعد ولكننا اتفقنا على إخراجها . سيقوم
فردريك بالتمثيل فيها ، وهذا يضمن - كما تعرفون - أن يستمر
تمثيلها أكثر من مائة وخمسين مرة » . فإذا ترجمنا هذا إلى لغة المال
وجدناه يساوي ٧٥.٠٠٠ فرنك . فما علينا إذن حتى نحصل على
هذا المال إلا أن نشترك جميعا في عمل واحد . إن الفصل من المسرحية
يحتوي على مابين أربعمئة إلى خمسمئة سطر وهو ما يمكن أن
ينجزه الواحد منا في ليلة واحدة فهي بنا ، على جونه أن يكتب
الفصل الأول وعلى أورلياك الفصل الثاني وعلى لوران جان الفصل
الثالث وعلى دي بلوا الفصل الرابع ، أما أنا فعلى كتابة الفصل
الآخر . فلهوا فاني وأعدت هاريل أن آتي إليه بالمسرحية ظهر غدا »
وتشاور زملاء القلم قليلا ثم استجابوا لخاطره وشعروا اكمامهم
عن سواعدهم وأبتدأوا في مهمتهم ، فان نجحوا كان الفوز وان فشلوا
فلن يخسروا إلا سهر ليلة واحدة

الفصل السادس

باريس قبل اصلاحات الوزير هوسمان

كان دوماس الصغير اذا قادته قدماء الى احياء باريس القديمة وشوارعها الضيقة يطالعه من بين حشود السائرين انماط مختلفة من الناس . انه أصبح بفضل ثقافته من مرض طويل ونجاته من مدرسة سان فيكتور منفتح القلب للحياة ، مقبلا على التمتع بها بشغف شديد . وكانت الحياة في باريس حينئذ جميلة جدا . اذا رفع بصره رأى طيور الخطاطيف تطلق صيحاتها وتحلق تحت سماء زرقاء ثم نهوى مندفعة نحو الارض ، واذا خفض بصره رأى اناسا يسرون تارة منكشفين في أضواء الطريق وتارة غائبين كالاشباح بين ظلال البيوت . منظر الشوارع باعث للبهجة . حقا ان الناس فقراء ، ولكن الوجوه المبتسمة كانت حينئذ أكثر منها اليوم عددا . فتيات المتاجر ، لكل منهن ثوب من الموسلين تحت مريلة وقلنسوة فوق رأسها ، أما النساء المترفات فعلى رؤوسهن قبعات من القش متلفعات بشيلا نالكشمير فوق أثوابهن الطويلة الفضفاضة . لكل من الفئتين تعلق بمثل أعلى في الاناقة تختص بها وحدها . كلاهما سواء أيضا في حسن الذوق وشدة الحرص على استكمال هذه الاناقة . ولكن الرجال كانوا هم طواويس المجتمع وان اذن استعلاؤهم بالزوال بعد ان طال قرنا أو قرنين . يتبختر في الشوارع رجال يهيمون بأن يشتهروا بالاناقة بين الناس ، وقد تعلق العيون بمنظر نفر منهم غلوا في الزينة غلوا غير مألوف ، أما النساء فمحتفظات بسمة التواضع ، كل منهن تسير منطوية على نفسها لا تستلفت الانظار .

تقوم على جانبي الطرقات أشجار ضخمة وارفة الظلال ، ويسطع بمطر الورود والقرنفل في يد بائعيها في الشوارع الفسيحة . أما في الأزقة الضيقة فيحسن بسالكها أن يضع يده على أنفه وأن يفتح عينيه جيذا ، فقد يهبط فجأة من نافذة سيل من القمامة فوق رأسه ، يقذف به انسان لا يبالي أقل مبالاة بما قد يشعر به المارة نحوه . وكانت باريس حينئذ محرومة من المجارى . البالوعات الناضحة بالماء القذر تمتد وسط الشوارع ومن حولها اشكال والوان من القمامة ، فيأتى لجمعها في عز البرد قبل الفجر جمع من الزبالين

عضهم الجوع بنسابه . يجلس السمكارية الجوالون على الارصفة الضيقة وينشرون ادواتهم حولهم فيجبرون المارة على النزول الى وسط الطريق . باعة شراب الليمون يذرعون الطرقات جيئة وذهابا رابطين بحزام اوانيههم المذهبة على ظهورهم . نسوة عجائز واقفات بجانب تلال من البرقوق والشمس ينادين عليها بصراخ عال يحاول ان يتغلب على ضجة مرور العربات فوق شوارع لم تكن قد رصفت بعد بالمكدام ، كل بائعة قد صنعت لها من اوراق الصحف قبعة تضعها على رأسها لتقيها وهج الشمس ، فبدت وجوهن ناطقة بالشراسة ، وان كان مظهرهن مضحكا . فاذا اشترى الكسندر بقرش شيئا من الفاكهة فما اشد حرصهن على اتقان لفه في الورق بأناقة ولا يسلمن له بضاعته الا بعد تمام التأكد بأنفسهن انه سيحسن حملها فلا تتبعثر منه . كذلك كان شأن بائعي الزهور في الطرقات الرئيسية ، لكل واحد منهم نصب حسن التنسيق ، فاذا جاءته فتاة عاملة تشتري حزمة من زهور البنفسج البري ، وهي أرخص الزهور ، لم تكن عنايته في اعدادها لها بأقل من عنايته في اعداد باقة جميلة من أغلى الزهور يشتريها شاب ليهدىها الى عشيقته .

وكانت باريس في ذلك العهد ملائى بأزقة مظلمة ضيقة مهجورة لها اسماء عجيبة ومنظرها مخيف ، السائر فيها بعد غياب الشمس يعرض نفسه للتلغ والاختار . وما اشد التناقض بين الصمت المخيم عليها والضجة والصرخات العالية المجلجلة في الشوارع يطلقها حلاقو الكلاب السريعة وهم ينادون على الزبائن . وكذلك باعة البطاطس المحمر وبقية الباعة المتجولين ، تختلط بهذه الضجة انغام منبعثة من بيانو ميكانيكى متنقل وأصوات وقع سياط سائقي العربات ، وقرع طبلة يستعين بها طبيب أسنان جوال ، اذ يجعل مساعده يدق عليها دقات عنيفة لتضيق بينها صرخات المريض فلا يسمعها الناس .

كانت باريس مدينة تعج بالحركة والنشاط ، ويختلط بها الاغنياء والفقراء . الفقراء يؤدون أعمالهم اليومية بين اقدام المارة من الاغنياء . حتى في شارع الايطاليين ، وهو من أرقى شوارع باريس ، لم يكن من غير المألوف ان تجلس على الرصيف امرأة تعيد بهدوء تنجيد حشيتها ، تفرغ صوفها وتقلبه وتنفضه فيتطاير خفيفه في الهواء ساعات طويلة . فاذا صادف الكسندر في سيره مثل هذه المرأة ، دار من حولها بعيدا منها دون ان يفلح في كتم عطاسه . وتحت الاشجار يجلس فلاحون قادمون من الريف ، وتزدحم النسوة أمام

ابواب المخازن . لا تخلو الشوارع أيضا من كاتب عمومي يجلس الى منضدته ، فاذا جاء الفلاحون الاميون الى العاصمة ذهبوا اليه لبقرا أو يكتب لهم رسائلهم ، فلم يكن الزحام يخف من حوله . ورأى الكسندر مرارا الملك لويس فيليب وهو يسير وحده في الشوارع ، فيلقى للملك نظرة عابرة غير مبالية ، فلم يكن من عادة الشبان في ذلك الحين ولا من همهم أن يعنوا بالرجل الجالس على عرش بلادهم . وكذلك كان الجمهور في عمومهم لا يلقى باله الى الملك السائر على قدميه .

وكان الملك رجلا مدكوك الجسم يميل الى البدانة ، يرتدى معطفا أزرق اللون له ياقة عريضة ، وسترة سوداء فوق سروال أبيض ، فاذا كانت الشمس مشرقة رأى الناس في يده عصا رأسها كرة من الذهب ، اما اذا امطرت السماء فيستبدل بها مظلة عريضة خضراء، ولكنه يعلق في كل الايام على الجانب الايسر من قبعته السوداء الصلبة الالامعة علامة « الكوكارد » رمز علم الدولة المثلث الالوان . يحدث ان يراه احيانا بعض الانجليز الذين يزورون باريس فيرفعون له قبعاتهم وينحنون الى الارض حتى يمر بهم . اما الفرنسيون فيرفعون له قبعاتهم أيضا ولكن بحفاوة أقل . وكان الملك اذا صادف امرأة تعيد تنجيد حشيتها لف هو أيضا من حولها بعيدا عنها . ويتابع الملك سيره في تواضع . انه لا يزيد عن أن يكون واحدا من رجال الطبقة العليا السائرين في الشوارع وان كان اكثرهم بعدا عن الزهو والخيلاء.

اما اكثر الناس استلفاتا للأنظار فهم الممثلون وهم يمشون متبخترين في شارع القرم . ما اكبر الفرق بينهم وبين الممثلين في ايامنا الحاضرة الذين يعيشون في رخاء ويحظون باحترام الناس . أما الممثلون في ذلك العهد البعيد فانهم غلبة مفلسون ، رزقهم من اليد للفم ، يعملون حيناً ويتعطلون احيانا ، يشتغلون تارة بأجر ويستغلون تارة أخرى عند مدير مسرح مفلس مثل هاريل ، ولكنهم مع ذلك كانوا اهل كبرياء ومرح . انهم في نظر أبناء باريس الذين يعشقون المسرح رجال يشيدون لهم عوالم من الخيال تنسبهم مرارة الواقع .

فاذا اقبل الليل على الناس سارت بهم اقدامهم من تلقاء ذاتها الى شارع القرم ليقضوا به اوقات فراغهم ، فهذا الشارع هو افضل شوارع باريس انارة ، لا ينقطع عنه الزحام والنجاسة في كل ساعة . تكثر فيه المسارح كأنما كل بناء فيه هو مسرح ، لم تتفرق المسارح

بين أحياء باريس الا بعد شق الطرق الحديثة أيام نابليون الثالث ووزير هوسمان . وكان شغف الناس بالمرح قبل هذا التفرق قد بلغ القمة التي هيئات أن يرقى اليها من جديد . وكان التمثيل على مستوى رفيع هيئات له أن يبلغه مرة أخرى . وكان شارع القرم في ذلك العهد يزدهم بمسارح تقدم في وقت واحد أنواعا من الميلودراما والبانثوميم والمأساة والكوميديا ، وكان الممثلون يعيشون في هذا الشارع الذي يعملون فيه فيخالطهم الناس ويشهدون ما لكل ممثل من نزوات ينفرد بها . يعج شارع القرم بالابطال والملوك والاميرات والنبلاء ومشردين حكم عليهم ظلم الاقدار أن يولدوا في مهد من الفقر والضياع فالتمسوا رزقهم من العمل في المسارح ، ومن أشهرهم « دوبرو » مهرج مسرح « فونامبول » ، انه عاش طول عمره فقيرا معدما . بعض الممثلين الآخرين أسعد منه حالا ، فهذا هو فردريك لومتر مثلا يصبح من الاغنياء بين الحين والحين ، عندئذ يعرض على الناس في عالم الواقع دلائل النبل والترفع والعظمة التي يلزمها على المسرح في عالم الخيال . اذا امتلأ جيبه بالدنانير الذهبية طاب له أن يقذف بواحد منها الى شحاذ يسأله قرشا واحدا . أما من هو أسوأ حالا منه فان أفلاسه لا يمنعه من أن يتخذ سمة أمير من بلد تروى عنه الاساطير ، كل زهوه ينحصر في القاء أبيات من الشعر بلهجة خطابية مؤثرة . وكان عالم المسرح مليئا بكبار الممثلين ، اما خلفاؤهم من بعدهم فقد استبدلوا الزخرف بالمعدن الاصيل ، يخلق رخاء عيشهم ما ينبغي أن يعتلج في قلوبهم من حماس لخدمة المسرح ومشاركته في أحلامه . ولا يقال هذا الكلام عنهم من قبيل الظن وحده ، فهذا هو على الاقل ما شهد به أناس عاشوا شبابهم أيام لويس فيليب وكتبوا مذكراتهم في شيخوختهم ، فأتيج لهم أن يقارنوا بين العهدين .

لم يصب الكسندر دوماس الصغير في مدرسة سان فيكتور شيئا من علم نافع ، ولكنه قضى أيامه كلها يتشرب هذا الجو العجيب الذي تنفرد به باريس . أصبح يدرك عن وعى ما تنطوى عليه حياة باريس من مظاهر الفنون . وكان رفقاؤه في المدرسة الجديدة لا ينقطع حديثهم عن فنون ذلك العهد ، كل واحد منهم يجارى العصر في ذوقه ، فهم في الادب من أشياع الرومانسية ، أما في السياسة فهم من انصار الجمهورية ، ولم يكن ميلهم هذا بايحاء من أساتذتهم المحافظين على المناهج القديمة في تربية التلاميذ ، المؤمنين بالمذهب

الاتباعى (الكلاسى) فوقفوا دروسهم على تبصر الطلبة بحماس واستفاضة بالمثل العليا للأدب الكلاسى . مدرس التاريخ مثلا لا يفلح فى ضبط النظام فى الفصل وتنتهى الحصة غالبا بضجة ومظاهرة تهتف بحياة الجمهورية . الكسندر الواصل الآن من نفسه المتعطر للمرح هو الذى يقفز ليقود التلاميذ الهائجين فى انشاد المرسيليز بأعلى صوت ، أما أستاذ الآداب فهو مسيو رينو الذى يهيم بالآداب الكلاسى هياما منقطع النظر ، انه مثال للمعلم فى ذلك العهد ، رجل حجة فى علمه ، لا يرجح فضل فضله ، يعيش راضيا فى انزواء فى شقة متواضعة على سطح بيت ، وسط كتبه والمؤمنين معه بمثله الأعلى ، فاذا وقف أمام تلاميذه لمعت عيناه وهو يتحدث بافاضة عن الآداب فى المذهب الكلاسى وآداب القرون الذهبية التى ولت ، ويشرح كل ما فيها من جمال رائع . انه رجل طويل القامة مهيب له صوت رنان ، يطيب له أن ينشد صفحات كاملة من الشعر الكلاسى ثم يتبعها بشرح طويل . انه يرفع لافونتين وبوالو الى مصاف الآلهة ، فاذا فرغ من اللقاء شعرهما صاح قائلا : « آه أيها السادة ان أعظم أسرار الشعر هى البساطة »

ولكن دروسه كلها تقع على آذان صماء فان الرومانسية كانت طابع العصر وذوقه ، فاذا طلب مسيو رينو من تلاميذه أن يكتبوا شعرا أبوا الا تقليد فيكتور هوجو ، وكان يشوق لهم ويطيب لهم أن يمعنوا أمامه فى غلو هيامهم بالمذهب الرومانسى فيقولون له « يا أستاذ .. انا نؤمن بأن الدمامة هى الجمال بعينه » أنهم فى نزعتهم للتجديد يرون أنفسهم سابقين لعصرهم بأجيال عديدة ، فيثور غضب الرجل الطيب ويعبر لهم عن تأفقه واشمئزازه بعبارات بليغة ، ثم يؤوب الى شقته المتواضعة وهو حزين يسأل نفسه ما الذى سيحدث للعالم بعد أن أدارت ظهرها للولغات تضرب أروع الامثلة للقصد وحسن الوزن وانسجام التركيب

ولكن الكسندر كان من بين التلاميذ اقربهم الى قلبه وأكثرهم فوزا برضائه ومحبته ، فهو يحسن انشاد الشعر بنطق أكيد سليم وبوضوح وب عاطفة مشبوبة ، فكان مسيو رينو اذا أراد أن يعطى لتلاميذه درسا فى الاملاء نادى على الكسندر وطلب اليه أن ينوب عنه فى القاء النص

وكان من بين شباب باريس الذين ينعمون بصفاء الجو فى صيف تلك السنة فتاة فى سن الخامسة عشرة من طبقة صغار العمال

اسمها ألفونسين بليسيس . انها من فئة الفتيات المضيعات اللاتي لا يعرفن لهن بيتا فبتسكن في حقائق لوكسمبرج والاحياء القريبة منها حيث يسكن الطلبة عادة . تشتغل هؤلاء الفتيات اما عاملات في مصانع القبعات النسائية أو ساعيات لبعض المتاجر في قضاء المشاوير أو مساعدات للبائعات في أحد الدكاكين ، وكن لا يقبلن على مهنتهن الا بنفس كارهة غير راضية تمام الرضا . هن يمقتن العمل وينقبن عن وسيلة من الوسائل تتيح لهن العيش في راحة وخطوبال، فكانت الواحدة منهن لاتمانع في الارتباط بممثل ناشئ فقير أو طالب في كلية الطب ، وسرعان ما ينشب الخصام بين الاثنين أو تنفسد نفودهما فتعود الفتاة للبحث عن عمل جديد حتى تستطيع أن تجد لقمته .

جاءت ألفونسين من قرية نونات في مقاطعة أورن حيث ولدت سنة ١٨٢٤ وعاشت بها في فقر شديد . أبوها - ماران بليسيس - رجل منحل الاخلاق ، ان اتصف بالوسامة فهو قاس شرير عرييد ، تلقفته عند مولده وصمات وراثية شنيعة ، فأمه مومس متشردة في ريف مقاطعة نورماندى ، وأبوه قسيس فاسد فاسق خان العهد . وتزوج ماران سنة ١٨٢١ من فتاة طيبة محترمة اسمها ماري ديهيه وتعاون الاثنان على فتح دكان لبيع الاقمشة ، ولكن ماران عاجز عن اعمل كاره للحياة في بيت شريف محتشم . ورزق الابوان بنتين : ديلفين وروز ألفونسين ، وأنهكت أمهما نفسها في العمل من أجل توفير مطالب الحياة لهما وحمايتهما من عسف أبيهما وتعذيبه لهما ، واشتد البلاء وتفاقم على مر الايام . اضطرت مرارا الى الهرب من دارها مع ابنتيها لتلجأ الى الجيران طلبا للنجاة من عنف زوج سكير عرييد ، وجاءت الساعة التي طفع فيها الكيل . حاول ماران ذات يوم أن يقتلها حرقا بالنار ، فلم تجد مفرا من هجره ، وتوسط لها صديق لتعمل خادمة عند الليدى ياربورو . ولكن قواها كانت قد تعطمت من جراء العذاب الذى قاسته وحزنها لمفارقتها لبنتيها فماتت بعد سنين قليلة . وكانت قد أودعت بنتيها لدى بعض اقاربها على مريض منهم ، فلم تجد الصبيتان قلبا يعطف عليهما أو أحدا يعنى بتربيتهما ، فركبت كل منهما رأسها وانفلت عيارها . كانت ديلفين هى التى ورثت طباع أمها فشبت فتاة مستقيمة طيبة القلب ، أما ألفونسين فنشأت فتاة مستهتره لا ينبعث فى ضميرها صوت يحذرها من الوقوع فى المهالك . تركتها أمها حين ماتت وهى فى سن التاسعة ، ليس بجانبها أحد

يحتو عليها أو يرشدها فكانت تقضى نهارها متسكعة في ريف بلدتها، وماذا تفعل وقد طردها من البيت أقاربها الذين استأمنتهم أمها عليها لايجودون عليها الا بفراش حقير تأوى اليه بالليل . لم يغب عنها اليوم الذى تعانق فيه الرذيلة وتفرط في عفافها تحت شجرة في الريف، هذا ما يقوله أحد من كتبوا سيرتها ، فطردها أقاربها شر طردة وأعادوها الي أبيها نافضين منها أيديهم قائلين انهم لن يقبلوا من بعد حمل مسئولية ايوائها .

اسودت حياتها وهي ما تزال في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، فان أباهما ماران اعتزم أن يستغل شبابها ، فدفع بها لقاء اجر قبضه الي أحضان رجل سافل من معارفه . بلغ السبعين من عمره ، ثم تلاحت الأحداث في حياتها سريعا ، فاذا بها بعد قليل ترحل الي باريس سيرا على الاقدام في صحبة أبيها ، وهناك اما يكون أبوها قد تخلى عنها واما يكون قد أودعها لدى بعض أقاربه فلم تمكث معهم طويلا . وصلت الي باريس وهي تلبس ثوبا خشنا رثا . في قدميها الحذاء الخشبي المألوف لدى الفلاحين في قريتها . يالها من صبية مليحة يرتسم الخوف على وجهها ويعشش القمل في شعرها ويسرح على بدننها فاذا تكلمت فبلغة عامية سقيمة .

وفي يوم قارس البرد من أيام شهر يناير سنة ١٨٣٩ مر بها وهي واقفة على الجسر الجديد فوق نهر السين أديب مشهور في عهده هو نستور روكيلان ، فلمح فتاة نحيلة جائعة لها وجه ملائكي وعينان ناطقتان . كانت تمضغ قطعة من تفاحة فجة خضراء وهي تتأمل بلهفة بائع بطاطس محمر ينادى على بضاعته بصوت مرتفع وهو يقلب البطاطس في زيت يسسمع لقلبه نشيش لليد وقف روكيلان مأخوذا بما رآه على وجه الفتاة من علامات الحرمان والاستسلام الذى لايعرف الشكوى . كان يكره الوقوف الي الباعة المتجولين ولكنه قاوم اشمئزازه واشترى للصبية قرطاسا كبيرا من البطاطس المحمر . لم ينس بعد ذلك كيف عبر وجهها عن الدهشة المزوجة بالفرح . فلما قابلها بعد ذلك بسنتين عرفها لأول وهلة رغم تبدل حالها .

كان حديثها حين وصلت الي باريس يدور حول الحب والعفاريات والسحرة والغيلان ، ولكن ذهنها المتوقد أعانها على أن تروض نفسها على الانسجام مع بيئتها الجديدة ، وبدأت العاصمة الكبيرة تعلمها وتدريبها فتجردت من جلفها وعاداتها الريفية وتنقلت بين مهن حقيرة ، فاستطاعت أن تشتري لها ثوبا جميلا بسيطا وحذاء من الجلد وطاقية

من الموسلين ، ودخل حياتها شيء من البهجة وهى تتمتع بأيام الصيف الجميلة فى باريس . لعلها كانت حينئذ تشتغل فى متجر يبيع مشد البطن للنساء فى شارع ليشيكويه ، أو فى متجر للقبعات فى شارع سان جاك مثلا ، وكان عملها مقصورا على أداء مشاوير المتجر ، أو لعلها صادفت شابا قبل أن تشاركه حجرته المتواضعة . انها ألقت الفقر وانعدام الامان فلا مطعم لها الا النزر اليسير ، فاذا جاء الصيف ولم تكن بطنها خاوية فليس فى باريس كلها فتاة تفوقها فى المرح

وقرر دوماس فى نهاية تلك السنة - سنة ١٨٣٩ - أن يعقد قرانه على ايدا فيريه ، قد خطا خطوته وهو عالم بحماقته ، وذاعت اشاعات عديدة تؤكد أن عشيقته ضغطت عليه ضغطا شديدا لحمله على الاقتران بها ، واكثر هذه الشائعات رواجا تؤكد أن مسئولية هذا الزواج تقع على عاتق دون دورليانز ، اذ كان غرور دوماس قد جاوز الحدود بحيث أصبح يؤمن انه رجل فريد ليس كمثله أحد وانه ناج من القيود الاجتماعية التى يحترمها غيره من الناس ، فلم ير ضيرا من أن يصحب عشيقته اذا ذهب لحفلات القصر الملكى ، فلما رآه دوق دور ليانز يقدم له عشيقته حياها بأدب ولكنه قال لدوماس بعد ذلك انه من واجب كل مدعو حتى ولو كان أعظم كتاب فرنسا أن يصحب زوجته لا عشيقته لحفلة فى القصر الملكى تترأسها أمة الملكة . والفى دوماس نفسه فى حرج شديد لم يجد مخرجا منه الا بعقد قرانه على ايدا . سيكون فقدانه لحرية نكبة كبيرة له ، ولكن لا بديلا لها الا أن يفقد صداقة هذا الامير الذى سيعتلى العرش ذات يوم ورأى أن مصلحته ككاتب أديب هى فى الأبقاء على هذه الصداقة فلا يضحى بها وهكذا اقنع نفسه بضرورة الاستسلام والرضا بالزواج من ايدا

ولكنه نفى الهم عنه سريعا واستعاد تفؤله الذى لاينفد له معين ، يقول لنفسه إن وضعه الجديد لا يختلف عن القديم فى حقيقة الامر ، فان ايدا تقيم فى منزله منذ سبع سنوات . وبدأ أعداد حفلة زواج تسير بذكرها الركبان تجذيرة بألكسندر دوماس

وأقيمت الحفلة فى مطلع سنة ١٨٤٠ ، وكان شاتوريان أحد شهود العقد . من حسن حظ ألكسندر ابنه انه لم يكن فى ذلك الوقت يعانى نكد الحياة فى مدرسة سان فيكتور ، فلو كان الامر كذلك لحطمت هذه الاهانة البالغة ، ولكن رضاء المقادير عليه لم يمنعه قلبه من أن يتنزى من شدة الالم والحزن يوم زواج أبيه ، ووثق أن بيت أبيه ،

بعد أن وقع أسيرا في يد أيدا ، سيصبح محرما عليه مغلقا في وجهه وعلى حين أخذ دوماس الاب يتلقى كالعادة المألوفة في مثل هذه المناسبات سيلا من التهاني والهدايا العديدة كان هاريل صديقه القديم يتلقى عزاء الناس له بسبب انحداره الى الخراب . ساءحظه وتفاقت ديونه ، وافتضح جوع مثليه ، واصبح لا يقدم على خطوة الا تعثرت به قدمه . ولكن نشاطه عظيم لا يقف عند حد ، أنه يعشق مسرحه ويبدل كل جهده وحيلته لاتقاذه ، وركز كل آماله على مسرحية « فوتران » التي كتبها بلزاك والتي اعتزم هاريل ان يقدمها للجمهور في شهر مارس .

لم يتم تأليف هذه المسرحية بين عشية وضحاها كما أراد بلزاك حين دعا أصدقاءه الاربعة لمساعدته على كتابتها . لم يبق مما كتبوه في تلك الليلة الاولى الا قليل ، ظهر في النص النهائي ليلة الافتتاح وهو من قلم تيوفيل جوييتيه ، أما بقية المسرحية فقد اقتضت من بلزاك ان يكرس لها همهته طوال اسابيع عديدة غير مستعين الا بالكتاب لوران جان وحده ، ووجد بلزاك ان تأليف مسرحية لا يقل مشقة عن كتابة رواية ، وبعد ان ظل يعيد كتابة كل منظر ولو أكثر من عشرين مرة من قبل ان يرضى هو عنه ، وجد نفسه مضطرا ان يعيد كتابة المسرحية كلها عشرين مرة أخرى ليرضى عنها هاريل والممثلون . وطالت تجارب تمثيلها شهرين ونصف شهر فحس بعدها بدن بلزاك . كان يظن انه من الهين عليه - كما هو هين على دوماس - ان ينجح في التأليف للمسرح ، ولكن كتابة المسرحية أرهقته وسمنت حياته وبلغ اعياءه حدا تناقل الناس اخباره باهتمام ، فاذا حانت ساعة ابتداء التجارب اصطف الناس في الطريق ليشهدوا بلزاك يمر امامهم وهو سارح الذهن مشئت اللب رث الهيئة ، مرتديا ملابس عجيبية ، فاضطراب نفسه انعكس عا ثيابه ، فكان الناس يبتسمون لرؤية معطفه المفصل على شكل غير مألوف وحذائه الذي يفوق قياسه حجم رجله . ويمر امامهم كذلك الممثل فردريك لومتر يبههم بوسامته وأناقته وان نظر هو اليهم ببرود وترفع . وكان طبعه قد تبدل من عهد قريب ، فان لويز بودوان هجرته الى عشيق آخر غنى من اصحاب الرتب الرفيعة ، فعدل فردريك عن مسلك الضاحك المرح الى مسلك رجل متحفظ منطو على نفسه لا يلقي باله الى الناس .

وجاءت آخر ليلة من تجارب التمثيل وظهر فردريك في الفصل الرابع في زى قائد مكسيكى وعلى رأسه شعر مستعار يشبه الشعر

المستعار الذى يضعه الملك لويس فيليب فوق رأسه .
وقال مويسار وهو وجل « الا ترون أنه يشبه الملك ؟ » فأجابه
هاريل من فوره هامسا « صه .. هذا هو كنز وقعنا عليه سيدر
علينا مالا وفيرا » ونادى حلاق المسرح وأمره أن يضع لفردريك شعرا
مستعارا يجعله أشد شبها بالملك ليلبسه فوق رأسه فى الحفلة
الاولى أمام الجمهور

وأخيرا دقت الساعة الموعودة يوم ١٤ مارس سنة
١٨٤٠ . بعث بلزاك قبل ليلة الافتتاح برسالة الى صديق قال فيها
« لك أن تتصور كم سيستبد بى القلق والجزع ليلة افتتاح مسرحية
فوتران . خمس ساعات وليس غير ، ستقرر هل سأدفع ديونى أم
لا .. فقد عشت خمسة عشر عاما والديون تكبلنى ويثقل عبؤها
كاھلى ، انها تقيد قدمى فلا أخطو فى الحياة الى الامام ، تخنق أفكارى
وتسمم عيشى وتشل حركتى وتخنق الهامى وتسد كل باب فى وجهى
وتفسد كل أمورى وتقف حجر عثرة فى سبيلى ، انها قصمت ظهرى
وشيبتنى قبل الاوان »

ما أجدر هاريل أن يقول مثل هذا الكلام بشأن كل رجل مقدم على
مغامرة .

ترقب أهل باريس بشغف زائد مسرحية بلزاك وازدحم المسرح
بالناس ازدحاما شديدا ، وجلس الدوق دورليانز فى احدى المقاصير ،
وسارت المسرحية سيرا حسنا الى أن ظهر فردريك وعلى رأسه شعر
مستعار تصفف على هيئة الكشرى ، وقام بدور قائد مكسيكى ، الا أنه
بغير وعى منه ولا عمد جعل هذا القائد صورة كاريكاتورية للملك ،
فاشتد الضجيج فى المسرح ، صفير من جانب ، وهتافات واستحسان
من جانب آخر ، وتعالى أصوات كثيرة تعلن سخطها على المسرحية
وتحقيرها للممثل ، وانطلقت العداوات الحزبية من عقالها ، وسارع
دوق دورليانز الى ترك مقصورته ومضى من فوره الى قصر التويلرى ،
ووجد الملك نائما فابقظه . قال له ولى عهده : « يا أبت ، انهم
يهزأون بك علنا فى مسرح باب سان مارتان ، وانك غير ساكت على
هذه الاهانة ولا ريب . » فأمرت الحكومة فى اليوم التالى بوقف
تمثيل مسرحية فوتران وأشهر افلاس هاريل وأغلق المسرح أبوابه

اذا كان بلزاك وهاريل قد خس بدنهما من الهم والغم لما لقياه من
متاعب فى ذلك الموسم فان جسم مدموازيل جورج قد زاد بدانة
فوق بدانته . أصبحت اذا سارت فوق المسرح طقطقت أرضه تحت

أقدامها • لقد ابتسم لها الحظ ودلها في السنين الماضية وأنهالت
عليها الهدايا الغالية من الامراء وعلية القوم الا انها كانت مسرفة لا
تحسب حساب الغد • أصبحت اليوم في حاجة الى هاريل ليعولها .
فبدأ يعد جولات في أقاليم فرنسا وخارجها لهذا النجم الذي أصبح
عبئا ثقيلا ينوء به كاهله ، أما هو فقد شغل نفسه بكتابة بحث
عن فولتير

ووقف بلزأك في حديقته يتأملها ، تربتها جافة وفي ستر من
الرياح الباردة . وحمل نفسه على الايمان بأنها ليس كمثلهما ارض
تصلح لزراعة أشجار الكرم فينضج بها ذهبى اللون دافئا ويجود
بنبيذ لا يقل عن نبيذ توكاى الشهير • فلماذا لا يقيم بها أيضا
مزرعة للألبان والخضر فتدر عليه مع النبيذ دخلا قدره ثمانية عشر
ألف فرنك ؟ • لا شيء يجعله ينسى مرارة خيبته الا الاستغراق فى
أحلام جديدة •

الملحن ليست ومارى داجو

مكث ألكسندر فى المدرسة الجديدة سنتين وكان لا يرى أباه بعد زواجه الا قليلا ، ولكنه كلما زاره عاد من عنده وهو شديد الإعجاب به ، اذ كان دوماس الاب قد اصبح حينئذ فى سن الثامنة والثلاثين صاحب مكانة مرموقة فى أعين أهل باريس . انه لم يكف عن تفننه باستعراض نفسه ، ولكنه اليوم غير معنى الا أن يمثل بأتم اتقان دور الاديب صاحب القلم المعترز برسالته ، فتخلى عما ألفه فى شبابه من هيام بتسليط الاضواء عليه واثارة الضجة من حوله ، واصطنع لنفسه سمة الاستاذ الوقور الذى يقال عنه انه بحر فى العلم . أصبح لا يمضى الى مكان الا أدبرت نحوه الوجوه وشخصت الابصار وهمست الالسن باسمه ، واذا ذهب الى المسرح دخله بهدوء ولكنه دخول رجل مهيب واثق أن الابواق تعلن مقدمه ، وكأنما هو ممثل متعمد أن يهل على خشبة المسرح أمام الجمهور بحركة رشيقة بديعة حين يجىء دوره حتى ليظن أن دوماس تتلمذ على فردريك لومتر . فاذا شعر النظارة بمقدمه نسوا المسرحية والتفتوا اليه وهو يحنى رأسه تحية لمن لمح من اصدقائه ثم يحتل على مهل مقعده .

ذاع صيته فى عالم المسرح وعهد اليه وزير الداخلية بكتابة مسرحية جديدة للكوميدي فرانسيز ، ومع ذلك فقد بدأ يعدل باهتمامه عن المسرح الى تأليف الكتب المطبوعة . وكان قد عرف منذ عهد قريب شابا مثقفا مغمورا اسمه أوجست ماكيه له هيام بالابحاث التاريخية وبصر بما يصلح منها لان يكون مادة لقصة درامية ، وكان فى شبابه شديد الولوع بطبع الانجليز وأديهم ، فلما بدأ يكتب اتخذ له اسما مستعارا من أسماء الانجليز هو ماك كيت ، ولكنه رغم تكريس أقصى جهده للكتابة لم يفز بأقل حظ من النجاح اذ كان متواضعا يتهيب التزامه وشق الصفوف والنضال من أجل مصلحته ، وكان أيضا حريصا على نقل حوادث التاريخ بأمانة منعه من أن يزيّف منها قصصا تلقى رواجاً بين القراء . وكان حين عرفه دوماس قد أعد بحثا تاريخيا ودار به على الناشرين فلم يقبل واحد منهم طبعه ، فرضى أن يعهد به الى دوماس ليعيد كتابته وينشره باسمه الشهير على أن

وضعه ماكيه تلقى دumas من استاذة القديم في المبارزة - مسيو جريزيه - مذكرات مستفيضة كتبها أثر رحلة له الى روسيا . وضع دumas كل هذا في جعبته وضم اليه المسودة الاولى لمسرحيته الجديدة ورحل هو وايدا الى فلورنسا للاقامة بقية العام .

واخذت سنة ١٨٤٠ تمضي في أمن وسلام . أيام الصيف الدافئة تنعم أغلب النهار بشمس ساطعة وان تخللتها أيام أخرى تتكاثر فيها السحب وتشتد الامطار ، وأصبح يخيل للفتيات العاملات في متاجر باريس وهن يشتغلن عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة كل يوم أن عطلتهم يوم الاحد لا تصادف الا جوا ممطرا وهو اليوم الذى يعشقن فيه الخروج الى الغابات والحدائق فى الضواحي حيث تكثر المطاعم التى تصف مقاعدها فى الهواء الطلق وتموج بالراقصين والراقصات . وكانت الفونسين بليسيس فى أحد هذه المتاجر التى تباع للنساء الاناقة والظرف والنزق على هيئة قبعات وقمصان وشيلان ، وصادفت فى يوم أحد صديقتين لها فى مثل سنهما واتفقن على الذهاب الى ضاحية سان كلو ووقفن ينتظرن أوتوبيس تلك الايام ، وهو عربة ثقيلة غير مريحة تجرها الجياد ، فاذا بالمطر يتساقط فوق رعوسهن من سحابة داكنة ، وسرعان ما تكاثفت السحب واغبرت السماء وتشبع الجو بالرطوبة وفقدت الالوان اشراقها وبهجتها ، وزاد انهمار المطر ، فعدلت الفتيات عن رحلتهم وقر رايهن على القناعة بتناول الغداء فى مطعم صغير فى جاليرى مونييسيه فى حي الباليه رويال .

وشاء القدر أن يكون هذا المطعم لرجل يحس بالكآبة ومرارة الوحدة اما لان السماء كانت غائمة فى ذلك اليوم ، واما لانه كان قد تقدم به العمر وشاخ وأصبح يفتقر الى شيء من البهجة يدخل حياته ، فاذا به يرى ثلاث فتيات مليحات يسرقن النظر يدخلن اليه ، ناثرات من حولهن المرح ، ثم يجلسن الى مائدة وهن يتضحكن ويثرثرن ، فأقبل عليهن ليتحدث اليهن فوجد عندهن خفة الدم والظرف كله ، فأخذ يحوم حولهن حفيا بهن ، يبذل لهن كل عنايته ويقدم لهن فى نهاية الوجبة القهوة والليكور على حسابه . حديث الفتيات يدور عن المطر اذ كان لايزال ينهمر بغزارة ويلطم زجاج النوافذ ، وذكرن لصاحب المطعم أنهن كن يأملن قضاء اليوم فى الريف ، فقال لهن الشيخ الودود بلباقة وحياء أنه يدعوهم لقضاء يوم الاحد القادم فى ضاحية سان كلو على نفقته ، فقبلن من فورهن دعوته .

وتمتعت الفتيات أبهى متعة بالنزهة التي رتبها صاحب المطعم ، وكان قد استضاف أيضا شابين من معارفه . المضيف حفى بالفتيات الثلاثة معا ، ولكن كان من الواضح أن أصغرهن - ألفونسين - هي التي سحرته وخلبت ليه ، وتوثقت الصداقة بين الاثنين . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الرجل أسعد انسان في الدنيا وقد انزاحت عنه مرارة الوحدة اذ رضيت ألفونسين أن تكون عشيقه له . انه رجل ينتمى الى الطبقة الوسطى ، عامر الجيب بالمال ، فأسعده أن ينال ميزة مد العون لهذه الفتاة ويستقل بالفضل وحده ، فاستأجر لها شقة متواضعة انيقة في حي البواكي وأغدق عليها الهدايا وأحاطها بحبه وعنايته ، وقبلت الفتاة صنيعه بسرور ممتزج بالدهشة كالعهد بها يوم أن جاء عليها نستور روكبلان بقرطاس من البطاطس المحمر . وبدأت تنعم في شقتها الجديدة بحياة توفر لها الراحة والمتعة ، واخذت تتردد على المسارح وتنصت باهتمام لكل كلمة تسمعا ، فاذا بها بعد وقت قليل تصبح خبيرة بما اصطلح عليه المجتمع من أقدار وقيم . وكانت المسرحيات حينئذ طويلة تتخللها فترات الاستراحة ، فكان من عادة الجمهور أن يتمشى خلالها في ردهات المسرح وطرقاته ، وحذت ألفونسين حنوهن ، وأخذت تتأمل الشباب المترف وتنظر بعين الحسد الى المحظيات المتألمات مثل أتالابوشين « واسمها في الحقيقة لويز بودوان » . أما بالنهار فتذهب للمتاجر وتشتري الثياب وتظلل الساعات الطوال تتطلع الى شخصها في المرأة ، وكلما قابلت شابا وسيما انيقا ورائته ينظر اليها ابتسمت له فكشفت عن أسنان بيض كالدر في غاية الجمال ولعت لها عينان ببريق فتان

واذا كان الحظ يبتسم لهؤلاء الفتيات فارغات العقل فانه يتجهن للعباقره . أصدر بلزاك في شهر يوليو مجلة شهرية اسمها « المجلة الباريزية » وكتب في العدد الاول مقالا ملاء بالثناء الجرم على قصة « شارتريز دي بارم » التي كتبها ستاندل ، فلم يأبه الناس به ولم يقرأوها ، ولكن صدق حكم بلزاك لم يمنع من أن تكسب مجلته فاحتجبت بعد عدد شهر سبتمبر .

وكانت عشيقه ليست - الكونتيس داجو - تقيم في باريس مرة أخرى ، ولعلها سرت بعض الشيء لاختفاق بلزاك من جديد اذ كان قد شنع بها في قصته الاخيرة « بياتريكس » وعرض دخائل حياتها لتندب أهل باريس التي اتخذت منها موطنها لها . وأهل باريس معروفون بشدة الانتباه لكل ما يثير الاشمئزاز والسخرية ، نشر بلزاك قصة

بياتريكس فى مجلة « القرن » سنة ١٨٣٩ وتحدث فيها عن رجل اسماه
كونتى كناية عن ليست ، وتحدث عن امرأة اسمها المركيزة دى روشفيد
كناية عن ماري داجو .

وكانت جورج ساند الخبيثة هى التى اصطادت بلزاك وحملته على
كتابة هذه القصة بعد أن صبت فى أذنيه معلومات جارحة وقفت عليها
بفضل صداقتها الحميمة ليست ومارى داجو . وكانت جورج ساند
فى مبدأ الامر تشيد بهذا الحب وتصفق له وتعجب به وتشنى على
العاشقين اللذين اقتديا بها فى الاستهانة بالرأى العام ، وانتزعت منهما فى
غمرة حماسها وعدا بأن يقدمتا الى منزلها فى مدينة نوهانت لا فى زيارة
عابرة قصيرة ، بل فى زيارة طويلة ، طويلة لا قصى حد مستطاع ، فقبلت
مارى الدعوة وذهبت الى مدينة نوهانت فى مطلع سنة ١٨٣٧ على حين
بقى ليست فى باريس ليعزف فى سلسلة من الحفلات الموسيقية . وارتفعت
الكلفة بين المرأتين فكانت جورج ساند تدلل ماري بتسميتها ليليا ، ومارى
تدلل جورج ساند بتسميتها أرابيلا . وتوثق الود بينهما ، كل واحدة
منهما معجبة بالآخرى اعجابا متأججا لا نظير له . لقد أقر الناس
لجورج ساند بالعبقريّة فلم تبال أن تلبس زى الرجال وتدخل مثلهم
السيجار الاسود والبيبة . كل هذه النزوات بهرت ماري التى الفت
العيش طبقا لتقاليد التحفظ الجامدة التى تعتنقها الطبقة الراقية
فى حى سان جرمان بباريس ، وأما انبهار جورج ساند بصاحبيتها
فسببه وسامة هذه الشقراء الفاتنة التى تعد أبداع مثال لجمال
المرأة فى نظر أبناء ألمانيا . ولما كتبت جورج قصتها المسماة « سيمون »
نالت ماري شرف اهداء هذه القصة اليها بعبارات صبيانية متعسفة

ومع ذلك بدأت حرارة الود بين الاثنتين تبوخ وهما فى مدينة
نوهانت . ملت جورج ساند صحبة تلك الرفيقة التى طالما تدلّيت
بين يديها ، ذلك أن جمال ماري تحول على الايام الى غرور ، ونبهاها
الى افتعال وتصنع . وانضم ليست اليهما فى شهر مايو وبقي مع
مارى الى ٢٤ يوليو . وهكذا مكثت جورج ساند عدة أسابيع وهى
تراقب بعين لها كعين الصقر قصة هذا الحب الرومانسى بين
العاشقين . ومتى صوبت من عين رقيب مثل هذه النظرة الفاحصة
المتجسّسة فأغلب الاحتمال ألا يكتب بقاء لهذا الحب حتى ولو
كان غارقا فى الرومانسية ، فلو كان العاشقان فى مدينة نوهانت هما
روميو وجولييت أو هلويز وأبيلار أو حتى دانت وبياتريس لما صفا

لهما الحب ، اذ كانت تلاحقهما من عين جورج ساند نظرة واعية لا يفوتها شيء مما يجرى بينهما . انها حين رأت ليست ومارى معا اول مرة وجدت الحب الذى يجمعهما يخلق بهما فى سماء عالية . اما اليوم فهى تلحظ تبدلات كثيرة طرأت عليهما ، وخيل اليها ان ماري بدأت ترهق ليست بمبالغتها فى الاصرار على جعله اسيرا لحبها . لا ريب انها احسنت ان حبه لها قد بدا يتملص من قبضتها ، ولكنها اعتزمت ألا يكون من نصيبها الحرمان من أضوائه الذهبية . وكذلك لم يفت عين جورج ساند كيف يخفى ليست تحت قناع المحب الحفى ان عاطفته نحو ماري قد ماتت . وصور لها وهما أحيانا أنها قادرة على أن توجع حبه لها ، ولكن كان يجدها غير جذابة وظل محتفظا ببروده .

وانتهت الزيارة وقد وضع ان روابط الود قد انحلت . وكانت دواطف ماري نحو جورج ساند تبدلت هى أيضا . ثم مضى عام ونشأت قصة حب جديد بين جورج ساند وشوبان ، فلما عرفت ماري خبره ثار فضولها وانفجرت شفتاها عن ابتسامة مستهزئة مستخفة . فبعد أن هجرت جورج ساند عشيقها ألفريد دى موسيه تنقلت بين أحضان عشاق عديدين - ديديه وميشيل وفالفيل - حتى شق على ماري أن تنظر نظرة الجد الى قصص الغرام الملهب الذى ينبض به قلب صديقتها الشهيرة . ومن سوء حظ ماري أنها جهرت بين الناس برأيها فى جورج ساند ، تنقدها وتسخر منها وتقهقه لحكاياتها ، وطار خبر هذه الغيبة وهذه الخيانة الى مسامع القصصية الشهيرة فثار حنقها الشديد على ماري ودعت اليها بلزак - زميلها فى فن القصة - وحملته على أن يسرع فى كتابة قصته . اما هى فستصبر حتى يتاح لها وقت تكتب فيه هى أيضا قصتها عن العاشقين الذين أقاما عندها فى مدينة نوهانت سنة ١٨٣٧ ، فجورج ساند رغم كرمها ومماحتها إنما هى ربيبة الشيطان نفسه .

قال ليست لماري سنة ١٨٣٧ « سنخلق معا بعيدا عن العالم ، فى وحدة يحب أحدهنا الآخر ، وفى وحدة نعيش ونموت معا » فهجرت ماري أبنا لها وزوجا مخلصا وحياة منعمة مترفة من أجل هذا الحب المثالى الذى يهيم به الرومانسيون ، ووثقت فى قدرتها هى وليست على العيش معا فى ستر وانزواء يحتقران كل مافى العالم من تزاحم دنىء وجلاد ممقوت ، ليس لهما من هم الا أن تظللها حياة تتصف بالطيبة والقناعة حتى يفرغ ليست الى تأليف هذه الروائع الموسيقية

التي هو مصدر لها لو أنه منحها كل عنايته ووقف عليها كل تأملاته وجهده . وأمنت ماري أنها ستكون ليست بمثابة ربة الموسيقى التي توحى اليه ولا غنى له عنها . وقد زين لها ليست نفسه هذا الايمان في غمرة هيامه بوجهها الصبوح الفتان ، وسافر الاثنان معا الى سويسرا . وعاشا في حرية وهناء وجئل ينشدان الوحدة والجمال في سفوح الجبال . اذا رآهما الفلاحون اداروا اليهما وجوها فنطق بالاعجاب بوسامتهما الفاتكة وبأناقة ثياب ماري . نسيا الحفلات الموسيقية والحفلات الراقصة ومالونات الاعيان ، نسيا ضجة التصفيق وأضواء الشهرة اذ كان الحب في أوجه وعز انتصاره . وكانا يمدان نزهتهما خلال الجبال الى بقعة لا تلم بها أقدام الناس ثم يقفان مأخوذين بجمال الطبيعة الساحر ، فاذا لفهما الصمت المطبق حلما بالسيمفونيات الرائعة التي تنتظر ولادتها على يد ليست . وأهدى ليست الى ماري خاتما نقشنت عليه هذه العبارة باللاتينية « نعم الصفاء في سماوات الوحدة »

ولكنهما لم يعرفا الاهتداء الى الحب السرمدي ، بل حطما الحب بأيديهما ، فلما دفعتهما ثلوج الشتاء الى الهرب من الجبال والنزول الى مدينة جنيف أحست ماري بأول نذر الخيبة ، اذ وجدت ليست يتהלل بشرا وسرورا كأنما انزاح عن كاهله حمل ثقيل حين التقى من جديد في تلك المدينة بأصدقائه القدماء ولكن أول جفوة بليغة بينهما لم تحدث الا سنة ١٨٣٨ حين سافرا من مدينة نوهانت الى ايطاليا ، وهناك ترك ليست صاحبتة وسافر وحده الى فينا ليقيم حفلة موسيقية لجمعية خيرية ، وأطال مكثه بها أسابيع عديدة ، تأسره وتتناهيه مباحج المجتمع وفتنة النساء به وملاحقة دوى التصفيق له كلما عزف فأبدع . ووصلت أنباء خياناته الى سمع صاحبتة الوالدة بالقلقة ، انها مقيمة على حبه ولا تطيق أن تنفض منه اليدين .

وكانت زيارة ليست لمدينة فينا نقطة تحول وضعت حدا للخلوة الجميلة التي نعم في ظلها بصحبة ماري . وهي أيضا سافرت الى باريس سنة ١٨٣٩ على حين ظل ليست يجوب أرجاء أوروبا وقد طارت شهرته كأستاذ في العزف على البيانو لا يشق له غبار ، تنعقد فوق رأسه تيجان المجد ، فلا تعرف خليلته الأرستقراطية اذا بلفتها أنباؤه الا أن تبتسم بحرارة وسخط ، فأينما ذهب ليست ارتمت تحت مواطئ أقدامه نساء تجلدهن سياط الهستيريا . وكان من عادته أن يعرض عنهن ، الا أنه كان يعجز أحيانا كثيرة عن صدهن

لانه شاء أو لم يشأ يسحرهن بفتنة لا تقاوم ، فكانت النساء تجس لرؤيته ويفقدن في حضرته كل احتشام وضبط للنفس ، ومع ذلك فقد عمل الافتراق على توثيق أواصر الود والاعتزاز بينه وبين ماري ، وأخذا يتبادلان وسائل تفيض بالدلع والهيام ، وهما واثقان أن هذه الفرقة لن تدوم إلا وقتا قصيرا .

وانجب ليست وماري ثلاثة أولاد ، واستقر رأيهما على أن يعهدا بتربيتهم إلى أمه . وبقيت ماري تتطلع إلى مستقبلها القريب فلا تجده إلا مليئا بالكآبة والملل . أنها عادت إلى باريس وهي مريضة منقبضة الصدر فوجدت أهلها جميعا يقرأون « بياتريكس » - قصة بلزاك - . وكان يعالجها حينئذ طبيب تحتضنه الطبقة الراقية اسمه الدكتور كوريف ، وهو رجل يهيم بالاغتياب وترديد أنباء الفضائح ولا ينقطع عن التردد على صالونات الأعيان ، إذا عرف كيف يشق طريقه إلى مخادع المرضى من الأغنياء والموفقين في الحياة فإنه لا يلبث بعد شفائهم على يده أن يتخذ مكانه على مائدة عشائهم . . . وبدأ يهتم بمريضته الجديدة الكونتيسة الجميلة ويحتل بعد قليل مقعده على مائدتها ليلة بعد ليلة ، يقوم بدور الصديق الحميم الذي تبين له أن حاجتها للعطف واستماع عبارات الإعجاب بها تفوق حاجتها لجرعة من دواء يعالج بدنها ، فشجعها على الخوض في دنيا الفنون ، والانضمام إلى زمرة الكتاب والأدباء ، فأخذت تستترد على مهل عافيتها وتستعيد سلطانها على الرجال ، وكانت قد بلغت الخامسة والثلاثين (فهي تكبر ليست بست سنوات) ومع ذلك ظلت محتفظة بروعة جمالها رغم ما قاسته في حياتها من هموم ومتاعب ، فتكاثر من حولها المعجبون بها ، وكانت تروي أخبارهم إلى ليست بأفاضة تأمل منها أن تشير غيرته ، ولكن قلب ليست لا يعرف لواعج الغيرة وظل لا يبالي بأنباء غرمائه .

الحياة في قلب العاصمة

دوماس الاب يجيء ويذهب ، يقضى بضعة أسابيع مع ايدا في فلورنسا ثم يتركها ويسافر لباريس لا يمكث بها الا بضعة أسابيع اخرى ينشغل فيها بمقابلة الممثلين والناشرين ويجود على ابنه بزيارة . انه يذهب الى كوليج بوربون احيانا في عربة عليها الشعار الملكي يعبرها له ولي العهد الدوق دورليانز ، فالصلة بينهما قد تحولت الى صداقة وثيقة . ان قدومه الى المدرسة في تلك العربة يثير الضجة ويحيطه بجو من الابهة . لقد انقضت الى غير رجعة تلك الايام التي كان يتجرع فيها ابنه مرارة احتقار الناس له بسبب نسبته الى هذا الاب . انه الآن رجل عظيم يتالق نجمة . فكاهته لاتزال مبعث المرح والسرور في قلب أصدقائه . أما قيامه بدور زير نساء مواظب على خيانة زوجه فيشر لديهم الابتسام ، بل يثير الحسد احيانا ، فهو كلما حضر لباريس يجد أجمل نساؤها رهن اشارته ، وكان طبعه يتيح له اذا عب من المتعة ألا يفوز الا بحلوها دون مرها

ثم استقر به المقام في باريس سنة ١٨٤١ بعد أن ترك ايدا وحدها في فلورنسا . انه قرع من تأليف المسرحية التي كلفه بها وزير الداخلية من قبل واسمها « زواج في عهد لويس الخامس عشر » فأحب أن يشهد تجارب تمثيلها في مسرح الكوميدي فرنسيسيز ، ووجد أن المدموازيل مارس على وشك أن تتقاعد ، وان الممثلين بدأوا يكرهون راشيل من صميم قلوبهم ، أما هي فلا تقابل كبار الكتاب الا بثغر باسم ، فحسن رأى دوماس فيها وقال عنها أنها فتاة ظريفة . ولما أقيمت في شهر يونيو الحفلة الاولى للمسرحية لقيت نجاحا عظيما

وجاء صيف تفتحت له فيه أبواب كثيرة للمتعة والتوفيق . السوق الادبي رابح . كتب عديدة تحت الطبع . ووثق دوماس أن التعاون بينه وبين ماكيه سيدر عليه ربحا وفيرا في المستقبل . وكان ماكيه مواظبا على مد دوماس بأبحاثه التاريخية . ولعل من اكبر النعم التي سعد بها دوماس ان ايدا أحببت ايطاليا وبقيت

بها ، فالحياة معها منذ الزواج مضت مليئة بالعواصف والمعارك العنيفة ، ولم تعد أيدا تحتملها رغم شراسة طبعها ففضلت أن تقضى معظم وقتها في فلورنسا وحدها وأطلقت على نفسها لقب « المركيزه ديفى دى لا بالترى » ، تتعزى بهذا اللقب المهيب الرنان عن فقدانها لسيطرتها على دوماس الذى طالما توله في حبها . ولكن القطيعة بينهما لم تتم الا سنة ١٨٤٦ حين اتفق الاثنان على الافتراق بغير رجعة ، وكانت العشرة بينهما من قبل لا تطول كثيرا . وحمد دوماس حسن حظه الذى أتاح له بالأخص أن يجعل من بيته بيتا لابنه أيضا ، فان الكسندر سيفادر المدرسة في نهاية العام الدراسى . انه الآن فى السابعة عشرة من عمره . شب فتى ظريفا ودودا ذكيا ، فمالت نفس أبيه الى أن يعيش هذا الابن فى كنفه .

وفى الايام الاخيرة من شهر يوليو انتقل الكسندر الى بيته حاملا معه ما يملك من أشياء قليلة ، فأفردت له حجرة وقوبل بترحاب . ياله من فتى طويل النقامة عريض السكتفين قوى البنية فائق الوسامة . يتأمله أبوه فيمتلىء قلبه بالزهو والحنان . لقد سبق له أن أهمل هذا الابن طوال السنين التى كان فيها منبوذا مضطهدا محروما من نصير يذود عنه ، أما الآن فالأب متلهف على الأخذ بيده وتدليله ، وينسب اليه أنه حياه يوم قدومه بتحية لا يستبعد صدورها منه حقا حين رأى ابنه يجلس له فى نهاية المطاف . بيتا يأوى اليه ، قال له « يا بنى العزيز ، الآن قد كبرت فاستمع الى ، وأطعنى . انه حين ينال الفتى شرف حمل اسم الكسندر دوماس ضمن واجبه نحو نفسه ألا يعيش كالبقال أو كموظف كتابى صغير ، بل من واجبه نحو نفسه أن يتناول عشاءه فى « قهوة باريس » وأن تكون له خيليات ، وأن يصرف عليهن ببذخ وألا يحرم نفسه من شيء ، فاستمتع يا بنى بحياتك قدر جهتك ، واعتمد على »

ولكن هيهات لما يحدث اليوم أن يمحو ما حدث بالأمس . ان كان دوماس لم ير أمامه الا ابنا يانعا وسيما تقر به عينه ويغبطه عليه الناس ، فان هذا الابن المائل بين يديهما هو الا صبي مشخن بالجراح من اجراء طول ملاقاه من قسوة وظلم وسوء معاملة ، لذلك لا عجب أن يشذ عن بقية الشبان أقرانه ، فقلبه قد تحجر قليلا ، وميله الموروث للكرم والوداد متستر يحتمى بمخالب بارزة من الشراسة والعدوان . انه فتى يعمل فكره ويظيل التدبر ، يمنح أباه ابتسامة

متهلة ، فوجهه متلثم بالبشر دائما ، ولكن من وراء هذه الابتسامة جرح نراز يشن له البائس الفقير حين يخالط السعداء فيجدهم منعمن غير آبهين لكربه . هيهات لهناؤه مدى سنتين في كولييج بوربون أن يمحو مرارة تجاربه الاولى أو يغير رأيه في الحياة أو ينسيه كيف كانت له مكانة وضيفة في نظر الناس .

وأخذ ينصت لأبيه مبتسما ويتطلع اليه باعجاب ، فقد كان أبوه حينئذ - بشهادة الصحفي كاميل دي فيلميسان - على درجة فائقة من الوسامة ، تتمثل فيه أروع محاسن شعوب عديدة . كان مالكا لناصية تمام قوته ، قريبا من قمة تألقه الذهني ، وكان أبته ينهر لظرف فكاهته وسرعة بديهته ، ويعده نابغة فريدا . إذا أمتعه من أبيه استهانته بكل عرف أو تقليد يصطليح عليه الناس فإنه كان في الوقت ذاته يجزع من عواقب هذه الاستهانة .

ان الكسندر دوماس الصغير اليوم لا يزال فاقدا الثقة بنفسه ، فقد ترك المدرسة دون أن ينجح في امتحان البكالوريا فانقبض صدره ولاحقته هواجس تشككه في قدرته ، وإذا استمع أبوه لهذه الهواجس قهقه في وجهه ساخرا به وأخذ يسأله : المدرسة ؟ ما معناها وما خطرها ؟ انها لا شيء . المدرسة الوحيدة الصادقة هي الحياة ذاتها فينبغي لابنه أن يتزود من تجاربها العملية فيذهب لكل مكان ويرى كل شيء ويرقب ويتعلم . ومن قبيل الدرس الاول أخذه أبوه الى الترنزي وفصل له ثيابا تجعل منه فتى أنيقا .

وكان الرجال في ذلك الوقت أكثر من النساء هوسا بأناقة الملبس ، فتملك الكسندر قدرا من الثقة بنفسه لما رأى بذلته يصنعها له هومان أرقى ترزى في باريس ، والصديري الأبيض المزخرف وأربطة العنق تأتيه من لندن ، والعصي التي يختال بها تأتيه من محل فردييه الشهير ، وأن لديه مجموعة كبيرة متنوعة من القبعات الحريرية العالية ، وقفازات من الجلد الفاخر ، وأحذية سوداء لامعة ، وخصص له أبوه قهرمانا لا يعنى الا بحفظ ثيابه وترتيبها ويعينه على ارتدائها كأنه عروس ليلة الدخلة ، فإذا رأى شخصه في المرأة في جناح أبيه آمن أنه - في نهاية الامر - انسان ذو مكانة عالية في نظر الناس رغم اخفاقه في المدرسة ، ثم رفع رأسه في خيلاء وخرج يتبختر كالطاووس في شوارع قلب العاصمة .

وكان منزل أبيه يقع في شارع « شوسيه دانتان » المؤدى الى شارع الايطاليين ، منتدى الفنانين والمشهورين بالاناقة . ولقد كانت الحياة

فى هذه الشوارع التى تعد من باريس بمثابة القلب النابض تجرى على نهج فريد لم يبق منه اليوم أثر يدل عليه ، ودام هذا الحال حقبة من الزمن بدأت بجلوس الملك لويس فيليب على العرش واصدار أمره باغلاق أندية القمار فى حى باليه رويال ، وكان الناس حينئذ تقصد هذا الحى الذى يجمع أماكن اللهو فى الهواء الطلق . وانتهت هذه الحقبة بافتتاح المعرض الفرنسى الدولى الأول بباريس سنة ١٨٥٥ ومجئ آلاف من الاجانب داخل الريف الى العاصمة لزيارته . وفى عهد الملك لويس فيليب كان المنتدى المحبب لدى الاغنياء والمترفين هو الحى الواقع بين مسرح الفاريتيه فى شارع مونمارتر وبين المقهى الانجليزى فى الطرف الغربى لشارع الايطاليين . وفى شرق هذا الحى شارع القرم وفى غربه يقع شارع الكابوسينى المعروف بهبوته ثم شارع المادلين . وكانت عليه القوم تسكن فى هذه الشوارع ، لهم بها منازل أنيقة ذات أبواب يزخرفها المثالون ، وشرفات منمقة بأشكال بديعة من الحديد المطروق . أما من وراء كنيسة المادلين - وكان بناؤها لم يتم الا منذ عهد قريب - فيكاد المنظر يوحى للسائر بأنه يجوس خلال الريف

وكان شارع الايطاليين مجمع المطاعم والمقاهى التى ذاع صيتها فى ذلك العهد . وكان « مقهى باريس » أكثرها شهرة ، فهى معدودة بأنها أفخر مطعم فى أوربا كلها ، الخدمة فيها بلغت حد الكمال . وكان بلزاك إذا قصدها ليحجز مائدة لضيوف له يريد الحفاوة بهم نادى على رئيس الخدم وطلب اليه أن يبذل لحجز المائدة غاية جهده اكراما له ، فيرد عليه بأن « مقهى باريس » تبذل دائما غاية جهدها لارضاء كل زبون يدخلها وليس بعد غاية الجهد مزيد يطلب فيجاب . الى هذا المقهى يأتى الدكتور فيرون لتناول غدائه ، وهو مليونير صاحب نفوذ قوى لا حد له ، واليه أيضا يأتى اللورد بالمرستون كلما نزل باريس ، وكان لا يقصد هذا المطعم الا نخبة ممتازة منتقاه من علىة القوم ، يحرصون على أن يكون وقفا عليهم ، فاذا دخل غريب يقحم عليهم نفسه تطلعت اليه العيون شزرا وحرمته من الشعور بالاطمئنان فى جلسته .

وأصبح من عادة ألكسندر أن يتناول عشاءه مع أبيه فى « مقهى باريس » . بعدا للأيام التى كان لا يذوق فيها الا الخبز الجاف والماء القراح فى مدرسة سان فيكتور . انه الآن يأكل بشهية واقبال وتتبادل أمامه أصناف عديدة من طعام مترف بديع ، حساء الطيور

البرية ، السمان والدجاج المحشو بالعصافير . الخ الخ ثم يبعث الدفء الى أعصابه المقرورة بشرب كأس من نبيذ معتق شهير يصطفيه له أبوه الذى لا يشرب الخمر عادة ، ولكن اذا طلب شيئاً فلا بد أن يطلب أجود الاجود . ويتبادل الجالسون الى الموائد المتفرقة فيما بينهم نصيباً من الاطباق أو الخمر المقدمة اليهم ، فيرسل دوماًس الى الدكتور فيرون جانبا من صنف اللحم الذى طلبه واستطابه ، ويرسل الدكتور فيرون زجاجة من نبيذه المفضل الى أمير روسى اعراباً عن تحيته له . وكان يحدث أحياناً كثيرة ألا يقوى دوماًس الاب على كتم انبهاره اذا جاءه طعام أجيد طهيه وطاب مذاقه ، أنه يضع الشوكة والسكين ويهتف « تسلم يد من صنعه » ثم يترك المائدة ويندفع والخدم يحيطون به الى المطبخ ليهنئ الطاهى بنفسه ويناقشه فى أسرار فن الطبخ ، لم يكن لزبون غيره حق دخول المطبخ متى شاء . وكان دوماًس - على غرار بروسبير مريمى وبلزاك - بارعاً فى طبخ الطعام فكان الطهاة فى المطعم يستقبلونه استقبالهم لامير مهنتهم

وكان رواد « مقهى باريس » أصحاب السنة غير مفلوثة العيار ، أما أخبار الفضائح والشائعات فيسمعها ألكسندر هو وأبوه على رصيف « مقهى تورتونى » و « مقهى ريش » ، وعرف ألكسندر كيف يحتفظ بهدوئه واتزانه فى هذه الحياة البديعة الخلافة الطارئة عليه . ما أشد اعجابه بأبيه حين يراه يسيطر على كل مجتمع حالما يهل عليه ، وكان ينصت للاحاديث الدائرة ويستمد منها أكبر متعة . أنه أخذ فى النمو جسداً وعقلاً . ان جيبه عامر دائماً بالدنانير الذهبية اذ كان أبوه يضع نقوده فى درج مكتبه ولا يقفله أبداً ثم يقول لابنه « خذ ما تشاء متى تشاء » وقد لحظ ألكسندر أن أصدقاء أبيه وعشيقاته منحوا أنفسهم هذه الرخصة ايضاً كلما جاءوا الى البيت فكل واحد منهم يعرف أين يضع دوماًس نقوده . شتان بين ما يراه ألكسندر من أبيه وما ألفه من طبع أمه وتنشئتها له على غرارها ، كان من الزم اللازم عندها أن تعد كل قرش ، وأن تخبئه فى مكان أمين ، لا عجب أن صدمه مسلك أبيه ، وهو الذى لا يفتأ يذكر كيف نشأ صبياً فقيراً ثم تلميذاً لا يعرف الا التقشف ، فكان يزجر أباه ويعيب عليه حماقته واستهتاره ، فيجيبه أبوه فى مرح بقهقهة عالية مدوية . لو خلق الكرم والجود رجلاً لكان هو ، انه عاجز عن أن يرتاب فى الناس أو يلاحقهم بشكوكه . اذا كان الناس فى حاجة الى النقود فليأتوا إليه ، ما عليهم الا أن يفتحوا درج مكتبه ويأخذوا ما يريدون . ومثل هذا الكرم

السخى خلىق بأن يلقى عليه عبثا باهظا ولا ريب ، ولكنه كان يحس أن الحياة تتدفق بعنفوان فى عروقه ، وأن قدرته على العمل والانتاج لا حد لها ، فليس هو الذى يحسب حساب المستقبل أو يخشى غوائله ، كل الذى يلزمه أن يقصر نفسه على العمل بجدة ، فهو يجلس الى مكتبه فى الساعة السابعة صباحا ليبدأ يوم عمل طويل ، يجرى قلمه مطواعا ساعة اثر ساعة ، اعتدال خطه يثير الدهشة ، ذهنه متوقد وقدرته على تركيز انتباهه لا مثيل لها . فإذا أقبل المساء فقد آن له أن يسترخى ويخرج لتناول العشاء مع أصدقائه فى صحبة ابنه ، وبعد ذلك هيا الى المسرح أو هيا الى حفلة راقصة .

لم يكف ألكسندر عن زجر أبيه . كم حاول أن يجعل حياته تسير وفق ترتيب منظم معتدل ولو بقدر قليل ولكن جهوده كلها ضاعت عبثا فألقى هو أيضا بنفسه بحماس فى تيار الملذات والترف . وحين يجد فتى فى سن السابعة عشرة أبا ثريا متلافا يغريه بأن يجرى وراء المتعة وأن يبعثر النقود كما شاء بغير حساب فأغلب الاحتمال أن يستجيب لهذا الاغراء . ونفى ألكسندر التهيب عن نفسه وملك زمام شجاعته وجراته وانطلق يعب من المتعة وينثر المال وينخرط فى سلك الشباب المشهورين بالاناقة والترف .

وهناك فتاة لم تكن هى الاخرى أقل منه بهجة ولا اندهاشا من أن الذى يحدث ليس من الاحلام ، تلك هى ألفونسين التى ابتسم لها الحظ ومهد لها طريق النجاح . مر عليها يوم كانت ترى فيه من أكبر نعم الدنيا عليها أن تظفر بكيس من البطاطس المحمر ، ويوم حسدت فيه كل فتاة عاملة فى متجر لقبعات النساء تستطيع أن تعنى بنظافة جسدها وأناقته ثيابها ودفع أجرة حجرة على السطح ، ويوم كانت تؤمن فيه أن السكنى فى شارع البواكى هى قمة السعادة والتوفيق . أما اليوم فانها تنظر باحتقار الى هذه المتع الوضيعة . أنها أصبحت عشيقة آجنور دوق دى جيش وريث لقب دوق جرامونت : الشاب الثرى الذى يشيد أهل باريس بظرفه وأناقته ووسامته .

ذلك أن ألفونسين تنكرت ذات يوم للشيخ العطوف صاحب المطعم الذى انتشلها من الوحل ووهدة الفقر ، وطردته شر طردة بلا شفقة أو وخز من ضمير . لا يعلم أحد أى أيد تلقفتها بعده وهى منطلقة ترقى سلم المحظيات درجة بعد درجة حتى بلغت قمته ، ولكن الثابت أن دوق دى جيش اقتنصها لنفسه ذات ليلة وهى خارجة من ملهى البرادو الذى يغشاه أهل الترف للرقص ولمتع أخرى ، والثابت أيضا أنه

انتزعها من أحضان الكونت فردنان دي مونجيون الذي شكها لصديق له بعد ذلك قائلاً : « لقد وهبت ألفونسين عربية هدية خالصة لها فاذا بي اليوم أرى الدوق دي جيش يركبها ويتربع بها ، انها أيضا لا تزال محتفظة بالكلب الاثير عندي وأراه يقوده الدوق دي جيش للنزهة ذهابا وايابا أمام البيت كل يوم . فماذا تنصحنى أن أفعل ؟ » فأجابه صديقه : « لا مفر لك من مبارزته ، اللهم الا اذا شئعت عليه بيت بديع من الشعر يجرى لظرفه على كل لسان ويشيع في الافاق »

والتقى نستور روكبلان ذات مساء في ملهى رينلاخ بالدوق دي جيش فقدم له هذا الاخير عشيقته : فتاة ذات شعر أسود فاحم ترتدى من الثياب وتتحلّى من الجواهر ما يتوقع لعشيقة دوق شاب ثرى متلاف ، وأخذ نستور روكبلان يجهد ذهنه وهو يسأل نفسه ترى أين رأى هذه الفتاة من قبل . ثم استنارت ذاكرته ، انها هي بعينها الفتاة الفقيرة التي صادفها على الجسر ذات يوم منذ سنتين أو ثلاث ومنحها قرطاسا من البطاطس المحمر.

الفونسين تسكن الآن شارع مونت تابور ، لا ترهقها لواعج حب عفيف ، منصرفة الى شراء الاثواب واحدا تلو الآخر ، وقضاء ليلها موزعة بين المسارح وحفلات الرقص ، ونهارها في تعلم القراءة والكتابة . لقد بقيت الى اليوم فواتير الكتب التي اشترتها ويتبين منها ان حضارة ذلك العهد كانت تضيء وشاحها البراق حتى على المحظيات اللاتي صعدن من الحضيض ، اذ أخذت ألفونسين تقرأ قصائد فيكتور هوجو ولامارتين والفريد دي موسيه . وكانت مكتبتها الخاصة التي خلفتها بعد موتها تفسح أكبر جانب منها لكتب الادب الكلاسي .

وكان الدوق دي جيش وقت بدء صلته بألفونسين يبلغ الثانية والعشرين من عمره . انه دخل فيما بعد السلك الدبلوماسي ثم أصبح وزيرا للخارجية أيام نابوليون الثالث وتحول الى دوق جرامون « لا عجب وهذا مقامه في المجتمع أن اثار اقتناصه لألفونسين ضجة كبيرة بين الناس . فلم يعض أسبوع واحد حتى انتشر الخبر في باريس كلها ، اذ لاهم لرواد المقاهي في قلب العاصمة الا ترديد أخبار الفضائح والشائعات . وكان السلم يسود أوروبا حينئذ ، فانصرف الناس عن الاهتمام بالسياسة والتحدث عنها . وبقي من الانباء التي تسترعى الانتباه نأ من قصر التويلري بأن الملك لويس فيليب قد أخذت له صورة فوتوغرافية (وكانت الفوتوغرافيا حينئذ لم تخترع الا حديثا) ونأ آخر في شهر سبتمبر اثار الناس ليوم أو يومين حين

علموا أن شخصا قد أطلق الرصاص على الدوق دومال ابن الملك . ولكن اقتناص الدوق جيش لالفونسين أمدهم نبأ يطول حوله حديثهم وبدأت الانظار تحمق الى الفونسين وهي تشق شوارع العاصمة بعربتها فيعجب كل من رآها بحسن ذوقها في اختيار ثيابها .

وخبر آخر تحدث الناس عنه طويلا في شهر سبتمبر : خبر اصدار جورج ساند بمعاونة اثنين من زملائها لمجلة اسمتها « المجلة المستقلة » وبدأت تنشر فيها قصة طويلة مسلسلة بعنوان « هوراس » ، كتبتها بوحى من دراستها لمارى داجو ، فحقق جورج ساند على صاحبيتها لم يكن قد خمد اواره بعد، وحز في قلبها أن رأت غريمته تجد مستقرا لها في باريس وتلقى بين أهلها قسطا وافرا من النجاح، بل تعتنق الادب وتؤلف الكتب وتصل لتوها الى القمة بفضل لقبها النبيل وصلتها الطيبة بأصحاب النفوذ . ذلك أن ماري كانت تهوى الادب والتأليف ، وأعانتها رفقتها ليست على أن تملك ذوقا فنيا رفيعا ، وهي فوق ذلك خبيرة ببلاد أوروبا ومتاحفها ومعارضها وأصبحت تواظب على الكتابة في مجلة « الصحافة » متخذة لها اسما مستعارا هو « دانييل سترن » . وكانت قد أمضت فصل الحريف على ضفاف نهر ألرين في صحبة ليست وشب بينهما العراك مرارا وتكرارا ولكنها عادت الى باريس وهي مؤمنة أنه لا يزال يعشقها . وبفضل هذا الايمان وبفضل نجاحها في ميدان الادب أيضا أتيح لها ان تنعم من السعادة بقدر لم تفز بمثله من قبل لوقت طويل . أما الآن فقصة هوراس المسلسلة تلاحقها وتنغصها وتقض مضاجعها وتذيقها عذاب ليلال تمضي بين ارق وهياج

رسمتها جورج ساند في قصتها في صورة امرأة اطلقت عليها اسم « الماركيزة دي شابي » ووصفتها بقلمها اللاذع قائلة : « ان لها خصر نحلة ويدي العذراء البتول في لوحة من صنع رفايل وقدمي حورية ووجه مومياء ولسان أفعى » وقد هفا ليست وغفل عن الكياسة حين ذكر لمارى في خطاب أرسله اليها أن الصورة التي رسمتها جورج ساند لاتقبل أى شك انها هي المقصودة بها. وأن معارفها ستتطلب أفواههم وهم يقرأون هذه القصة بلهفة واستمتاع ولكن الفضيحة التي فاقت بكثير فضائح تلك السنة كلها جاءت على يد راشيل . انها كانت عشيقة الدكتور فيرون لزمان طويل . والدكتور فيرون رجل على درجة كبيرة من دمامة المظهر ولكن راشيل الحصيفة المدبرة رأت ان ترتبط به بسبب نفوذه القوى في عالم المسرح . أنشأ

مجلة باسم «مجلة باريس» وهى التى ورثتها فيما بعد «مجلة العالمين» وتولى لفترة قليلة ولكن بنجاح كبير منصب مدير دار الاوبرا ، وكان فوق ذلك فاحش الثراء ، فاستغل نفوذه لحمل الناس على الاسراع بالاعتراف بموهبة راشيل ، فلولاها لما اتيح لها ان تقفز فى فجر اشتغالها بالتمثيل الى قمة الشهرة .

وحرصت راشيل على ان تجعل علاقتها به سرا مكنونا فى طى الكتمان ، ذلك أنها تصبو الى أن تكون لها مكانة مرموقة فى المجتمع فهى قد أصبحت أثيرة عند الطبقة الارستقراطية من سكان حى سان جرمان التى تكن ولاء لا يتزعزع لنظام الحكم الملكى الشرعى وعهوده السابقة للثورة ، ففتحت ذراعيها لراشيل واحتضنتها احتضاناً لند مساو لها ، فكان هذا الترحيب فوزاً كبيراً لراشيل فى عهد كانت فيه هذه الطبقة الارستقراطية تنظر من عل الى ليست وتراه غير جدير بأن يغشى صالوناتها .

ان هذه الطبقة توجس خيفة من انصار الثورة ، وخلطت بين السياسة والفن وآمنت ان راشيل هى منقذة فرنسا . أبغض شيء فى نظرها هو المذهب الرومانسى ، وخيل اليها ان فى احياء روائع المسرح الكلاسى على يد راشيل - المثلة الشابة الموهوبة - ارجاعاً لفرنسا الى نظام الحكم الملكى المطلق . فبهيات لراشيل وقد أسند اليها هذا الدور النبيل ان تسمح بكشف سقطاتها لاناس يؤمنون أنها بريئة طاهرة مخلصه . انها قادرة فوق خشبة المسرح على الايحاء بأنها تملك لب هذه الفضائل كلها ، ويقتنع كل من لا يخالطها عن قرب بأنها صادقة . ولما ذهبت لانجلترا استقبلتها الملكة فيكتوريا فى قصر وندسور وقالت عنها : « يالها من فتاة ظريفة متواضعة »

وتمت زيارتها لقصر وندسور فى الصيف السابق أثناء موسم مسرحى أقامته فى لندن . وقد حدث أثناء غيابها عن فرنسا ان انفجرت قبلة هدمت صريح السعادة التى كانت تحتوى به ، ذلك ان الدكتور فيرون ، وان لم يكن شديد الحساب والمراقبة لراشيل ، بدأ منذ شهور غير قليلة يضيق ذرعاً باستبدادها وحدة طبعها وامعانها فى خيانتها الى حد يجلب عليه سخرية الناس وهزأهم . وأتاح له نفوذه الواسع ألا يتورع من الالتجاء للشرطة لاثبات صدق شكوكه . فثبت بعد تحقيقاتهم ان راشيل مواظبة على لقاء رجال آخرين فى منازل مختلفة فى باريس ، وهى التى لاتكف فى الوقت ذاته عن بعث رسائل اليه تؤكد له فيها حبها واخلاصها ووفاءها ، فقر رأيه أثناء

توارد الانبياء بانتصارها الباهر فى موسم لندن أن يضع أنفها فى الرغام . أن الملكة فيكتوريا أهدتها أسورة من الماس ، وكتب لها الدوق ولنجتون رسالة رقيقة فهى ستعود لباريس و لاريب شامخة الانف ، معتدة بنفسها الى حد لا يطاق . فعمد الدكتور فيرون الى دعوة نفر من أصدقائه لتناول الغداء معه وعرض عليهم الرسائل التى تؤكد له فيها حبها ووفاءها ليستمتعوا بقراءتها . ثم تلا عليهم بصوت مرتفع تقارير الشرطة عنها .

فطار الخبر فى أرجاء باريس كلها وفقدت راشيل فجأة سمعتها بين أوساط الاسر الارستقراطية فى حى سان جرمان ، فلما علمت بالنبا وهى فى لندن مرضت من شدة حنقها ويأسها مرضا خطيرا . وفى الاسابيع الاولى لفصل الخريف لم يتحدث أهل باريس عن شيء بافاضة مثل تحدثهم عن هذا الخبر . وزاد فى عجبهم أن راشيل لم تلبث طويلا حتى أمدتهم نبأ فضيحة مثيرة أخرى لاتقل غرابة ، ذلك أنها بعد عودتها من لندن عرفت كيف تداهن الدكتور فيرون وتصالحه وتسافر معه فى رحلة مدة شهر كامل ، فثارت ثائرة الناس وتقرزت نفوسهم . فلما عادت الممثلة المتصنعة من جديد الى المسرح استقبلوها ببرود ملحوظ

ولكن راشيل ممثلة ذات موهبة خارقة . ولو كانت هناك واحدة أخرى تحل محلها لانزلتها فعلة الدكتور فيرون عن عرشها . لم تكن هناك ممثلة أخرى تماثلها فى الموهبة او حتى تلحق بأذيالها ، فسرعان ما استعادت مكانتها العالية فى نظر أهل باريس .

لاريب أن الكسندر دوماس الابن قد شهد لها مرارا على مسرح الكوميدي فرانسيز خلال اواخر موسم سنة ١٨٤١ ، وكان يقال عنها حينئذ ان من ينظر نظرة شاملة غير مفتتة لشخصها وهى تتحرك فوق المسرح لا يسهه الا أن يؤمن بأنها ذات جمال فائق . انها تعرف كيف تجعل حتى كل ثنية فى ملابسها تنطق بالجمال . وهذا ما شهدت به أيضا شارلوت برونتى حينما رأتها فى لندن . من عاداتها أن تستر جسمها العليل فوق المسرح بثياب مفصلة وفق ذوق العصور الذهبية عند الاقدمين ، فتتحدر عليها فكأنما هى تمثال صنعه فدياس ، يدور طرف ثوبها ويتموج حول ساقها وكأنما هى راقصة مرسومة على جدران معبد أغريقى . اما اذا قامت بدور درامى فانها تجعل ثوبها تهطل بثقله ويثبت حتى يضمها فكأنما هى نائمة فى مأتم أغريقى . انها تلتزم الهدوء والجد والابتعاد عن الافتعال . ان صوتها العميق

العريض المستوعب لكل الطبقات ، والذي لا يخلو من رنة موسيقية ،
انما وهبه الله لها لتتشدد به الابيات الموزونة التي كتبها كبار ادباء
المذهب الكلاسي . وكانت في صمتها ابلغ منها في نطقها ، فاذا عبرت
عن عاطفة تفجرت كبركان ، وآمن من يراها انها تضمر قوة هائلة
لا تستغل منها الا سطحها الخارجى وان تعبيرها المتقد عن العواطف
الجياشة لا يستنفد كل طاقتها . وكان الكسندر دوماس يدخل وراء
ستار المسرح مع ابيه بين الفصول فيرى راشيل قد نبذت الجلال
الذى التزمته عند أداء دورها وانطلقت تلهو وتلعب كطفل امتاعا منها
للمعجبين بها ، بل ترقص امامهم رقصة الكان كان فترفع طرف
ثوبها الى صدرها ، وتقذف بقدمها الى مستوى رأسها . فكانما بعد
ان صبت في دورها فيضا متدفقا من عواطفها المتقدة وتخلت عن عبئه
الذى كان يبهظها ، تحس انها كشفت روحها عارية تتناهبها أعين
الناس فلزمها ان تدخل قوقعتها من جديد وتبدى لهؤلاء الناس
وجها مختلفا يحتفى وراءه سرها ، ومع ذلك كانت في بعض الاحيان
اذا فرغت من أداء دورها فوق خشبة المسرح خرجت تمشي الى
حجرتها وهي مهدودة محطمة شاحبة لا تعلق نظرتها بشيء من حولها
وبدت - وهي ألتى لا يزيد عمرها على العشرين - في هيئة امرأة عجوز
كانما استهلكت فوق المسرح عواطف عمر طوله خمسون سنة .

الفصل التاسع

صعود نجم ألفونسين بليسييس

نعود الآن الى الورااء قليلا ، غادر دوماس الاب باريس فى مطلع سنة ١٨٤٢ وعاد الى ايداو بيته فى فلورنسا تاركا ابنه وراعه يتلمس طريقه الى المتع وحده . وكان دوماس قد اصطفى لنفسه فى ايطاليا عددا كبيرا من الاصدقاء من بينهم احد اخوة نابوليون وهو الملك جيروم الذى كان قد فقد عرشه . فلما عاد دوماس الى ايطاليا طلب اليه صديقه هذا ان يصحب ابنه - الامير نابوليون - فى رحلة الى جزيرة البيا . وقد حدث خلال هذه الرحلة ان مر الرفيقان بجزيرة علم دوماس انها تسمى جزيرة مونت كريستو ، وهى جزيرة صغيرة مهجورة تصلح للوحة رومانسية ، وقد دار حولها فى قارب صغير يحركه هو نفسه بمجدافيه فاذا برؤى عجيبة تلاحقه وتلهب خياله

وطاب فصل الربيع فى باريس لالكسندر ونعم فيه بالسعادة وهو منطلق فى اللهو يصرف لياليه فى طلب المتعة ، ولكنه يحب أيضا بالنهار ان يتسكع على أرصفة نهر السين أو فى الشوارع العتيقة ، وإن يقرض الشعر أيضا . هاهو زمان أصبح فى يده وحده ، وهاهو وفاؤه المعهود طول حياته لأمه ما يزال يشغل قلبه ، فأغلب الاحتمال أنه زارها فى ذلك العهد مرارا ، ولكننا لا نستطيع ان نجزم بذلك لان كاترين لوباي كانت لا تطلب الا ان تعيش منزوية فى ستر ، فنحن اليوم لا نعلم شيئا عن حياتها حينئذ

وكانت صورة الكسندر فى نظر الناس هى صورة شاب منصرف الى اللهو والعبث . انه الآن قد زادت جراته ، وشهد له من عرفه انه ورث عن أبيه سرعة البديهة والنكتة الحاضرة ولو ان نكتة الابن كانت اكثر من نكتة الاب لدعا وأقل منها رفقا . ومع ذلك فانه حين سجل فيما بعد بسنين عديدة هذه الفترة من شبابه قال عن نفسه أنه كان خلالها مراحا فى الظاهر حزينا فى الباطن ، ذلك أنه لم يتحرر كل التحرر من نفر ذكرياته المريرة عن تعاسة طفولته . فلا عجب ان ملك قبل الاوان وعلى خلاف قرنائه فى السن ميله الشديد للتروى والحذر . انه فى الظاهر يجرى وراء المتع ، وفى الباطن يتأمل الحياة بنظرة نافذة الى الاعماق فيجدها لا تنطق له الا بالمأسى . ولم يكن طبعه هذا

وليد تجاربه الذاتية وحسب ، بل لأن السوداء كانت لاتزال «مودة» شائعة بين الرومانسيين وان أخذت صورها الاشد غلوا وشططاً تختفى شيئاً فشيئاً . واذا كان مطلب دوماس الابن في جولاته وحده في شوارع العاصمة هو أن يكتشف في دنيا الناس أبشع صورها وأكثرها أثارة لاتقباض القلب فانه انما كان يحذو حذو نفر عديد من الكتاب وهم يدرسون حياة جيلهم المعاصر له .

الحياة فساد وعفن ووجود باطل زائل . هذه هي الافكار التي تعشش في ذهنه وينطق بها شعره . حتى في قصائده الى عشيقاته يتحدث عن اجتماع الحب والموت في عناق واحد . دخل ذات يوم إحدى المستشفيات العامة ورأى جثة فتاة شابة فترث امامها بفكر في النساء الجميلات اللاتي يعرفهن في عالم المسرح ، ان يكن لكل واحدة منهن اليوم ملامح ناطقة بالبهجة وعين متألقة وثرغر باسم ووجه ناعم لانه مكسو بالمساحيق والاصباغ . فمهلاً وصبراً ، ان الموت يحتفظ لهن بقناعه الذي سيلقيه على وجوههن ذات يوم ، فاذا مضين جاءت اثرهن نساء أخريات يجرين وراء السراب ذاته ليتحطمن في النهاية . هذا هو مزاج هاملت أمير الدانمرك الذي قدمته فرقة المسرح الانجليزى لاهل باريس من قبل خمس عشرة سنة فتشربه شعراء الرومانسية في فرنسا .

وتوالت المسرات والمتع على الفونسين بليسييس في شهور ذلك الربيع . انها الآن تعلمت الكتابة . ولدينا اليوم خطاب أرسلته في مطلع تلك السنة الى اختها تدعوها الى المجيء للاقامة بضعة ايام معها في دار بشارع مونت تابور وقالت لها : « اذا رأيت مدينة باريس الجميلة فلن تطيقى البعد عنها وستألفينها سريعاً » ولكن اختها دلفين بقيت متمسكة بحشمتها ، فقد خطبها فلاح مزارع واستطابت اقامتها بالقرية . وقد حدث في تلك الايام أيضاً أن الفونسين بدأت تضيق ذرعاً باسمها الذي يرن في الاسماع رنين اسماء العامة من سكان القرى والحواري وقر رأيها على أن تتخذ لها اسماً آخر يوميء بأنها من الطبقة الراقية . وجربت أول الامر ان تسمى نفسها الفونسين دي بليسييس بدلا من الفونسين بليسييس .

وفي يوم من ايام الصيف صادفها الكسندر فاشتبك قدرها بقدره . كان وحيداً . في قلبه نزوع الى الوقوع في الحب . وحين وقع بصره عليها أخذ يرنو اليها ويتأملها . رآها تقفز بخفة من عربتها الزرقاء الفخمة التي يجرها جوادان مظهمان . حدث اللقاء في ميدان البورصة

ونزلت ومشيت فمرت بالقرب منه ووجهها مستدير نحوه وهي تبسم، ولكن نظرتها تعدته ولم تعلق به . وعاد يتأملها ، وخيل اليه أن عينه لم يسبق لها أن استقرت على انسان قبلها فيلحظه ويفرزه كما لحظها وفرزها . هي هضيمة الكشح ، رشيقة ، طويلة القامة اذا قيست بمستوى الطول للمرأة الفرنسية ، جمال تقاطيعها بالغ حد الجمال، عيناها تبرقان ، سوادهما ضارب الى اللون البنى ، شعرها الطويل الغزير متهدل على كتفيها وتتموج خصلات له كالحرير . وكانت ترتدى ثوبا من المسلمين الهندي محلى بغلالة تلف حول ساقها ، وفسوق رأسها قبعة من القش الايطالى ، وعلى كتفها شال من الكشمير مزخرف برسم زهور مختلفة الالوان . وما هي الا لحظة حتى غابت عن نظره، دخلت الى دكان واختفت به

بارح الكسندر ميدان البورصة وهو يتنهد . انه لم يتبع هذه الفتاة الحسناء ودخل وراءها الى الدكان ، ولم يترث ليعلم من تكون . انه شاعر فلا بد له ان يخضع للاصول التى وضعها برليوز وليست وبقية الرومانسيين : مادام الحب قد طعن قلبه فليس له الا ان يعتكف ويذرف الدمع سخينا

ومع ذلك بدأت نظراته تفتش عن هذه الفتاة المجهولة أينما ذهب لان باريس بلد لا يتوه فيه انسان عن انسان . فاذا التقط لك بصرك شخصا ذات يوم فثق انك ستلقاه مرة اخرى . وكانت فرصة معاودة اللقاء أيام الملك لويس فيليب اكثر ضمانا . ولكن مضت عدة أسابيع دون أن تقع عين الكسندر على الفونسين اذ كانت قد سافرت للاستشفاء بالمياه المعدنية فى احدى المدن الالمانية التى يؤمها عليه القوم ولقضاء الصيف بها ، ولعلها كانت فى صحبة الدوق أو صحبة مقيم آخر

وفى عز الصيف وقعت فاجعة ارتجت لها باريس . ذلك أن الدوق دورليانز ابن الملك وولى عهده مات ضحية حادثة مؤلمة ، كان يشق فى عربته شارع الشانزليزيه فى طريقه الى قصر نويى حيث يقيم أبوه ، فارتعبت الجياد فجأة وسفت اللجام ، وفقد السائق سيطرته عليها . ربما حاول الدوق أن يقفز منها ، وربما لفظته العربية بعنف . وقع على الارض فاصطدم رأسه بحجر وفقد وعيه ، نقلوه الى دكان بقال حيث أسلم الروح بعد ساعات قليلة .

وكان من أثر هذه الحادثة أن انقلب الوضع السياسى . كان للملك الى ذلك العهد مركز وظيفى بسبب أمله المعقود على ولى عهد متصف

بالذكاء وميله الى سياسة الاحرار . فانتقلت ولاية العهد الى طفل في الرابعة من عمره هو الكونت دي باري . اما اكبر ابن بقي له ، الدوق دي نيمور ، فلم يكن فائزا من الشعب بمحبته ورضائه .

سمع دوماس خبر الفاجعة وهو في بيت الملك المخلوع جيروم بالقرب من فلورنسا . ان دوماس يبدع في الاستجابة المسرحية للمواقف الدرامية ، ولكن ابداعه ذلك اليوم فاق كل ابداع له من قبل ، لم يشق عليه ان تسيل دموعه مدرارا ويعانق مضيفه وهو يقول « مولاي ، اسمح لي ان أبكى على أمير من أسرة بوناپرت » .

وبعد ان بكى على صديقه الراحل ، امتشق قلمه ليسأل ربه عن معنى موت الدوق في زهرة شبابه . انه لا يؤمن ان الكون محكوم بالصدفة العمياء فلا بد ان المشيئة الربانية قد اقتضت حكمها انهاء عهد الملوك والامراء . وان هذه الضربة القاصمة هي وسيلتها للتمهيد للنظام الجمهوري الذي يصبو اليه قلب دوماس باخلاص . لم يأخذ احد تنبؤه في ميدان السياسة مأخذ الجد ، ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد ان دوماس انكشف عنه الفطاء في ذلك اليوم وصدقت رؤيته للمستقبل . فان مقتل ولي العهد زعزع مركز الملك سنة ١٨٤٨ ، وتعاقبت بعد نزوله عن العرش أحداث أصبح بعدها لائظمة الحكم في أوروبا وجه يخالف وجهها السالف التقليدي . فائظمة الحكم السائدة في أوروبا اليوم هي وليدة مصرع شاب في حادثة القته من عربته عصر يوم من أيام سنة ١٨٤٦ ، حادثة معلقة بخيط واه في يد القدر ، كان من الجائز أن ينقطع وكان من الجائز ألا ينقطع . وكس من صبي يقذف بكرة في الطريق أو امرأة ترتخي قبضتها على دست وهي تفرغه من نافذة ، فاذا بقدر انسان يتبدل من حال الى حال .

وهرع دوماس الى باريس ، لا يتوقف ليلا ونهارا ليلحق الجنازة في كندرائية نوتردام . وجللت الكندرائية بالمخمل الاسود فبدت كقبو متجهم ينقبض له القلب لا يضيء فيه شعاع من الامل أو العزاء لأهل الميت الذين ضعضم الحزن . وهبط على باريس يوم مقطب الجبين كرية السحنة وان بقيت الشمس ساطعة كأنها تهتز من البشر وشئونهم .

وانقضى المأتم وغفلت باريس عن قصر التويلري واستعادت هدوءها وبشرها . واستقر دوماس في العاصمة الظريفة الانيسة وأخذ يتدارس هو وماكيه خططهما لتأليف قصص تاريخية . وكان الكاتب أيواجين ينشر سلسلة في صحيفة « الجورنال دي ديا » قصته المسماة

« خفايا باريس » فلقيت نجاحا عظيما ، وخشى دوماس أن يسبقه أحد غيره فأغرق نفسه في العمل ، فاذا جاء وقت الراحة والاسترخاء أغرق نفسه أيضا في خضم الملذات مصطحبا ابنه ألكسندر من أجل أن يشرف عن اتمام تعليمه وتدريبه . يخرجان معا ليلة بعد ليلة كأنهما صديقان حميمان . ان ألكسندر جريح القلب منذ أن طعنه الحب ذات يوم في ميدان البورصة ، ولكن هيهات لجرح قلبه أن يعوقه بشدة عن اللعب من ملذات الحياة . انه يبرأ كل البرء من دأئه حين يخرج مع أبيه في عطلة نهاية الاسبوع للصيد في الريف أو حين يحضر معه إحدى المآدب المترفة التي يهيم رجال الادب في باريس أن تجمعهم ليتنقلوا بين التهام أطيب طعام والتمتع بأشهى سمر مع أصدقائهم اللامعين . فكان ألكسندر يقهقه بملء فمه كلما سمع نكتة بارعة .

وعادت الفونسين بليسييس في أوائل الخريف من مدينة بادن الى سكنى أفسح في شارع دانتان . وتم انخراطها في سلك المحظيات واختيارها لاسم جديد ، فبدلا من الفونسين بليسييس أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم ماري دوبليسييس . وكان سكنها الجديد ظريفا أنيقا : صالون ومخدع وحجرة طعام وحجرتان للنوم اضافيتان . وأصبحت الفونسين – أو ماري دوبليسييس ، فهذا هو اسمها منذ الآن – أول امرأة يتلف على لقائها على القوم وبخاصة ممن عرفوا بترفهم وغشيانهم لنادى السباق ، فأعضاء هذا النادى الذى لا يفتح أبوابه الا لفئة متخيرة من الناس يعدون من دلائل كرم المحتد واستحقاق الشهرة أن يبعثوا ثروة طائلة تحت أقدام محظية . وكانت ماري دوبليسييس من بين محظيات باريس أكثرهن جمالا وأصغرهن سنا ، وكان عشاقها يعرف بعضهم بعضا ، فهي – كما قال عنها جوهان جرو كاتب سيرتها – وأن تقلبت بين عشيق وعشيق باقية تحت سقف الاسرة . وكان اللورد هنرى سيمور هو الذى أنشأ نادى السباق منذ بضع سنين فأصبح ناديا دوليا يؤاخي بين الذين ابتسم لهم الحظ .

وكان الدخول الى بيت ماري دوبليسييس يعد فخرا ودليل مكانة مرموقة في المجتمع، في نظير كل من يبذل جهده لنواله . وكان الاتفاق على شروط اللقاء تتولاه عادة مدام كليمانس برات التى أصبحت بفضل نابها الازرق وكيلة أعمالها . ويروى دى فيلمسان فى كتابه المسمى « ذكريات صحفى » كيف مر على ماري عهدا اتفق فيه سبعة من رجال الطبقة الارستقراطية على اقتسام قلبها ، فكان لكل منهم فى الاسبوع

يوم خاص لا يتعداه ، وقدموا اليها هدية ترمز لهذا الاتفاق بينهم . .
وكانت الهدية تسريحة بمرآة نها سبعة ادراج . ولعل هذه القصة
هى من نسج الخيال فقد بدأت اللسن تتناقل عنها أغرب الحكايات ،
ولكن لا شك أنها كانت تبدل عشاقها بسهولة ونفس راضية تبديلها
لثيابها . وأصبحت بفضل هداياهم تملك أغلى المجوهرات وتأكل فى
آنية من أجود أنواع الفضة ، وصحون من الصينى الفاخر الذى يختص
به مصنع سيفر الشهير . فانه اذا كان الفقر الشائع فى باريس فى ذلك
العهد فقرا مدقعا ، فالثراء القليل كان ثراء فاحشا . فمارى التى
تنكرت لها الدنيا وهى صبية طاهرة بريئة وبخلت عليها بكسرة من
الخبز الجاف وحرمتها من العطف والحنان أصبحت وهى شابة قد
خلعت العذار تسير فى طريق شائن منحدر فتطأ اقدامها على أرض
من ذهب وتصيب من البهجة قطوفا دانية .

يُس الكسندر من رؤيتها خلال الاسابيع الطويلة التى مر بها شهر
الصيف ، فلما جاء الخريف أصبح يراها بين الحين والحين ، ففى
عصر كل يوم تشق شارع الشانزليزيه عربة زرقاء فخمة هى التى
رآها الكسندر من قبل فى ميدان البورصة ، وفى داخل العربة تجلس
فتاة ذات بهاء مشرق وشعر أسود فاحم عليها أجمل الثياب . هى
أغلب الوقت وحدها ليس معها من رفيق الا كلبها . لها جلسة هادئة
مستقرة شأن انسان مستغرق فى أفكاره . ولدينا عنها شهادة تصفها
فى ذلك العهد كتبها مؤلف « غادة الكاميليا » بعد عدة سنين أى أيام
الامبراطورية الثانية وقت أن كان الشعب غارقا فى اللهو والعبث وكل
امراة من اثنين هى فى أغلب الاحتمال منخرطة فى سلك المحظيات ،
قال وهو يذكر مارى دوبليسييس فى عهد الملك لويس فيليب أنها كانت
تشق شوارع باريس فى عربتها وهى جالسة مرفوعة الرأس مصوبة
نظرها الى الامام أو موجهة ابتسامة مستترة الى أحد معارفها ، ويقارن
بينها وبين المحظيات اللاتى جئن بعدها أيام الامبراطورية الثانية ،
كانت الواحدة منهن تلجأ الى كل حيلة مفضوحة للفت الانظار اليها ،
تغمز بعينها لكل الرجال وتكركر بالضحك العاثر وتلوح بيديها وتؤذى
الاسماع بصوت وقاح مرتفع النبرة وتلطح وجهها بطبقات كثيفة من
الاصباغ والمساحيق ، كل حركة منها تنم عن الفرور والرضاء
بالمقسوم .

لا شك ان الكسندر حين جاء الشتاء كان يصادف مارى مرارا فى
المسارح ودار الاوبرا ، ولا شك أيضا أنه عرف من هى ، فان اسمها

كان حينئذ يدور على السنته كثيرة . انها تجلس عادة في مقصورة قريبة من خشبة المسرح ، عاقدة شعرها الفاحم اللامع على سمط من انلألىء او عقد من زهور الكاميليا ناصعة البياض ، وتحمل أيضا باقة صغيرة من هذه الزهور في يدها الرقيقة دون أن تخلع قفاها . لم يدر في خلد الكسندر انه يقترب منها ، فهي اما في صحبة الكونت أوليمبيو أجوادو دى لاس ماريسماس وهو مليونير ، أبوه صاحب مصرف مالى ، واما في صحبة الفيكونت ادوار دى بيريجو الذى فاز منذ عهد قريب جواده المسمى بلوفر بأكبر جائزة لنادى السباق ، واما في صحبة رجل آخر شتان بين حاله وحال الكسندر ، انه فتى في الثامنة عشرة من عمره ، لا يزهو بلقب نبيل ولا يحتكم على ثروة تخصه ، فأفضل شيء بقى له هو أن يضم لها الاعجاب عن بعد ، فلا يشفع له أن أباه غنى مشهور .

وتمر الايام والكسندر جلاب متعة لابه ولنفسه . لا يترك ليلة تمضي دون أن يذهب الى المسرح ثم ينطلق مع من تكون عشيقته حينئذ الى حفلة عشاء صاخبة . وقد زجره فيكتور هوجو في يوم سابق ونعى عليه أنه ، وهو فى هذه السن المبكرة ، لا يتورع عن اتخاذ العشيقات وغشيانه في صحبتهم للمآدب والحفلات .

الفصل العاشر

راشيل ودوماس الأب

استعادت راشيل مكانتها ، وكانت قد أصبحت منذ عهد قريب عشيقة الكونت واليويسكى الابن غير الشرعى لنابوليون من الكونتيسة البولونية واليويسكى ، وهو رجل واسع الثراء محب للترف والتميز ، فأسكنها منزلا كبيرا فى شارع تريدون وخلع عليها كل مظاهر البذخ والترف والنعيم .

وفى أوائل سنة ١٨٤٣ هبط باريس فى رحلة سياحية : الكاتب الدنمركى هانس أندرسن المشهور بتأليف قصص للأطفال ، فكان أروع أيامه بها يوم وصلت من راشيل دعوة لحضور حفلة عندها ، فلما دخل بيتها أسقط فى يده من شدة التهيّب فتخاذل وتضعض وفقد اطمئنانه ، فلما طالت السهرة نجّا شيئا فشيئا من أرهاق الشعور بالغربة التى فاجأته وأقلقتة فافرخ روعه واستعاد رباطة جأشه وأخذ يألف مظاهر الابهة والفخفة ويتأملها بأعجاب ، متعة بعد قلق ، فيالها من أمسية أضنت روحه وان سجلت فى ذهنه أجمل ذكرياته عن باريس .

دخل فوجد ردهة فسيحة اجتازها ماشيا فوق أرض من الفسيفساء ، وصعد سلما عريضا فخما من المرمر الأبيض . لفظ الضيوف يصل أذنيه ، وعبر أزهار عديدة يعطر أنفاسه ، ثم وصل إلى حجرة صغيرة تفضى إلى بقية الدور فرأى أسفل جدرانها مكسوا بألواح بيض من خشب السنديان ، وعلى نوافذها ستائر من المخمل ما بين أخضر وذهبي ، ثم أقبل على بهو يتتابع فيه صالون أثر صالون حيث تستقبل راشيل ضيوفها ، الصالون الاول فسيح مزين على طراز عهد نابوليون ملئ بلوحات منقولة عن رسوم جدران مدينة بومبي وزهريات من مخلفات الاترسك الاقدمين . ومن بعده حجرة للجلوس لها ستائر فارسية وعلى جدرانها لوحات عديدة لاشهر رسامي ذلك العهد مثل ميسونيه ودياز ودفيريا ، ثم من بعدها حجرة المكتبة وقد ذهل هانس أندرسن وهو يرى صفوفًا فوق صفوف من أسفار مغلقة بأفخر أنواع الجلود لمؤلفين من أمم كثيرة ، ودقق هانس النظر فلم يجد من بينها كتابا لمؤلف دنمركى . إنما اتجه نظره فثمة

ستائر سميكة من الحرير والمخمل والدانتلا . وكان البيت كله متحف من كثرة ما يحتويه من المقتنيات التي لا تقدر بثمن . عدد كبير من الساعات النادرة، وزهريات خرافية من مصنع سيفر، وشمعدانات بديعة ووجد راشيل تصطنع لنفسها هيئة الناطقة بالمثل العليا للمذهب الاتباعي المستمكة بالوقار والحشمة ، فتوبها من لون واحد من السواد ، وعلى الجدران من حولها رسوم بالابيض والذهبي تصور ربات الفنون التسع . وتلفت الكاتب القادم من الشمال فسحره ما يراه من بهاء الزخرف وجمال التحف الفنية وكمال وقار راشيل - تلك الشحاذة التي ولدت على عتبات عرش في عصر سحيق - وسحره أيضا ما يسمعه خلال الاحاديث من افكار عديدة تستأثر بانتباهه ، وأحس أنه من طينة شتان بينها وبين طينة بقية الضيوف من أهل باريس بملابسهم الانيقة ولسانهم الذرب ، وثرثرتهم التي لا تنقطع عن ترديد الفضائح . هم ضيوف ولكن يحسبهم من فرط هدوء بالهم واطمئنانهم أرباب الدار ، أما هو فقد لحقته الربكة وانعقاد لسانه وتخبطت حركته لانه وجد نفسه في عالم غير العالم الذي يآلفه . من حسن حظه أن راشيل لم ترفع حاجبها من الدهشة والاستنكار لمسلكه ، ولم توجه اليه ببرود نظرة متعالية وهو يتلثم بين يديها بكلمات بلغة فرنسية سقيمة ، لا ريب أنه كان سيعانى الارق ليالى طويلة ويتقلب في مضجعه لو أن راشيل ضاقت به ذرعا وهو يعتذر لها عن نطقه السقيم للغة الفرنسية ، رآها على العكس تبسم له وترق له بعطف لا مزيد عليه وقالت له : « بعض الناس يتحدثون الى بلغة فرنسية بليغة فصيحة ، ومع ذلك فاني لا أفهمهم ، ولكنى فهمت كلامك أنت ، وهذا هو شأن الفنانين أبدا اذا تحدث أحدهما الى الآخر .. »

أما المدموازيل جورج - النجم الفارب في سماء المسرح - فكانت تؤدي على مسرح الاوديون أدوارها في مسرحيات كورنيل وراسين وشكسبير ، وتنعم بالشهور الاخيرة التي بقيت لها من عمر حفاوة الجمهور واعجابه بها . وكانت الجولات التي رتبها لها هاريل في البلاد الاجنبية قد باءت بالاخفاق ، وبالاخص في روسيا، كانت نكبة وتجربة قاسية عليها . لقد سبق لها أيام انشباب أن زارت روسيا فقبولت بالترحيب والاعزاز والتصفيق ، وانصرف القيصر الكسندر عن خليلته مدام نارشكين وهام لفترة من الوقت بالمدموازيل جورج واغدى عليها اغلى المجوهرات تذكارا للقائهما ، واقتن بها أيضا الدوق

الأكبر قسطنطين ، بل بلغ الأمر بموريس بتكندورف - شقيق الكونتيس دي ليفن - أن طلب اليها أن تتزوجه . فلما عادت الى روسيا بعد ثلاثين سنة لم تجد أحدا يحبها أو يذكرها أو يعنى بها . عرض عنها القيصر نيقولا ولم يبال بها ، وحجبت عنها جدران قصره الشتوى . فلما عادت الى باريس شكرت ربها على النجاة من الخزي وبقي هاريل يكرس اخلاصه وحياته لخدمتها ، وظل الاثنان مرتبطين وعلى أمل أن يبتسم لهما الحظ من جديد . وكانت دراسته عن فولتير قد فازت من الاكاديمية بجائزة . انه شرف اذا ترجم الى لغة النقود لا يساوى شيئا كثيرا ، ولكنه مع ذلك وجد فيه من التشجيع والامل ما جعله يطمح الى مجد أدبي ، لانه بدأ هو ايضا يؤلف المسرحيات ، ولكنه كان رجلا قد هذه الارهاق ، وكذلك كانت المدموازيل جورج - وقد بلغت سن السادسة والخمسين - فى حاجة لان تستجمع كل ما بقى لها من قوة من اجل أن تواجه ليالى العمل الطويلة وغموم مهنتها ومنغصاتها

وكان فيكتور هوجو قد بدأ منذ قريب يوليها عنايته ، اذ كان قد كتب للكوميدي فرنسيسز مسرحية « البورجراف » وأخذ يبحث عن ممثلة تصلح للدور الرئيسى . رفضت راشيل القيام به ، وجرب فيكتور هوجو ممثلة أخرى فلم تعجبه ، فمال الى اسناده الى المدموازيل جورج ، ولكن مجلس ادارة المسرح اقام فى وجهها العراقيل ، اما الحقيقة فان راشيل كانت قد قررت ألا تقوم غريمتها بتمثيل مسرحية لهوجو ، انها صادقة الفهم لاحساس أبناء المسرح ، ولكنها لا تتورع من أن تمقت أشد المقت كل انسان منهم قد يحيف خطره على خطرهما . . اين اليوم الذى شهد فيه المدموازيل جورج وزميلتها ماري نجمين لامعين ترمقهما الاعين باعجاب واعزاز وشهد راشيل تلميذة مبتدئة فقيرة ضائعة . لقد أزاح الموت ماري عن طريقها وبقيت المدموازيل جورج . ان راشيل تضمر لها بغريزة عمياء كل مقت ، لا تغتفر لغريمتها وقت سطوع نجمها سطوعا يثير الحسد والغيرة ، قد أذاقتها وهى مجهولة مضيفة عذابا مضنيا لروحها ناءت بحمله . ولكن النجاح فى مسرح الكوميدي فرنسيسز يعتمد الى حد كبير على شق الصفوف والدوس على كل قدم تعترض السبيل دون مبالاة باحساس صاحبها ، فما مقت راشيل للمدموازيل جورج الا خضوع منها لتقاليد قديمة متوارثة . وحل يوم رفع الستار عن اول مسرحية من تأليف هاريل ،

انه جعل اسمها « انتجاح » ولكنه غالى ولا ريب في الاعتماد على
القال ، اذ منيت هذه المسرحية بهزيمة شنيعة واخذ هو والمدموازيل
جورج ينظران الى المستقبل بوثوق متناقص .

ورفع الستار في الوقت ذاته عن مسرحية فيكتور هوجو وهى
مسرحية مملّة قراءتها عسيرة ، فكانت هزيمتها لا تقل شناعة عن
هزيمة مسرحية هاريل ، ذلك ان انصار انرومانسية بدأوا يتقهقرون
منذ ان بدأ نجم راشيل في الصعود . وتعلق بهذه المسرحية الجديدة
رجاء فيكتور هوجو باستعادة جذب المشتغلين بالادب الى مذهبه
ولكن الذوق كان قد تبدل . وقد اثار اخفاق مسرحية هوجو حزنا
صادقا فى قلب دوماس الاب الذى تدين له الرومانسية بفضل مولدها
على المسرح . ان دوماس يقابل أعمال هوجو باحترام لا يتزعزع
واعجاب لا يتحول . وكما حدث في الايام الخوالي اراد بروسبير
ميرمييه وفاكيري ان يحشدا بضع مئات من الشبان ليدموا أيديهم
بالتصفيق فى أول حفلة للمسرحية ، فلما طلبا من سيلستان نانبتى
ان يتكفل هو بجمع الانصار - لانه قلب الحركة - أجابهما بأسف
شديد ان تحقيق رغبتهما امر مستحيل واضاف قائلا : « لم يعد
اليوم فى الناس شباب »

اصادق هو فى قوله ؟ احقا تبدلت الاذواق ؟ هذا هو السؤال
الذى اخذ دوماس يجاوبه فى رأسه . انه يذكر حماسه نيلة افتتاح
مسرحية « هربانى » وما تلاها من مسرحيات رومانسية ، ويذكر
كيف كان يلوح بعصاه فوق الرؤوس ويصيح ويهتف حتى انبتة الصحف
مرارا على ازعاجه للمشاهدين ، انه يذكر كل هذا ويتأمل ما يدور
اليوم حوله . لم يتأخر جوابه وقال لنفسه : لقد صدق . نعم ان
الاذواق قد تبدلت ، ولم يعد فى الناس شباب . فالشباب هو الحماس ،
هو الايمان بمبدأ أو جهاد ، هو الامتلاء باتقاد له ضجيج يشبه اتقاده
هو وبقية زملائه سنة ١٨٢٩ وسنة ١٨٣٠ . أما اليوم فلا ترى عينه
لهذا الحماس والاتقاد مثيلا ، حتى ابنه ، الذى لم يتجاوز التاسعة
عشرة من عمره لا يستطيع ان يقول عنه وهو صادق انه شاب ، فان
له مسلك الشيخ المجرب الوقور ، لا يتراجع عن توجيه النصيح بل
اللوم الى أبيه . طالما أزعجته من ابنه هذه النظرة الصادقة ، بل قد
ذهب هذا الابن ذات يوم الى حد التوسل لأبيه بصوت مختنق ان يقلع
عن التشبه بالاطفال وعيبتهم . نعم ، ان الدنيا قد شاخت .
ظل الصغير يلاحق مسرحية هوجو منذ أن ارتفع الستار الى أن

نزل آخر مرة ، وباءت الحركة الرومانسية بالاختفاق وانهمزمت . انهزمت لان راشيل حولت الاذواق الى مسرحيات المذهب الاتباعي . ما أشد حسد الناس للنجاح الباهر ، وما أعظم سرورهم لتحطيم تماثيل أبطال الامس . قد مضوا يرددون بقلوب مثلوثة أن فيكتور هوجو قد انتهى . لم ير الرأي العام الا زاوية صغيرة ، ولم يتعلل الا بأوهى الاسباب من أجل أن يحطم هوجو ، ويخلع صفة العبقرية الخالدة في القرن كله على فرنسوا بونسار ، وهو مؤلف قدير ولكن غير موهوب ، عرف كيف يعتلى موجة نجاح راشيل فيكتب مسرحيات خالية من الحياة ، كل ميزتها انها تقلد روائع المسرح الكلاسي

ان دوماس الاب سريع الاستجابة بطبعه للعلوم في كل تيار جديد للرأي العام ، فليس هو بالرجل الذي يرضى بأن يبقى في مؤخرة الموكب تحت لواء مذهب حتى ولو كان هو المذهب الذي عشقه كل العشيق في صباه ، لقد عرف كيف يختط لنفسه في الوقت المناسب خطة جديدة ، وشرع بعد العمل الثالث في سلسلة مسرحياته الكوميدية الخفيفة التي فازت باعجاب الجمهور . ولما أتمه قدمه لمسرح الكوميدي فرنسيسز وبدأت تجارب التمثيل . واشتغل أيضا بهمة في كتابة الروايات التاريخية التي يعاونه ماكيه على تأليفها ، فصدرت رواية « فارس دارمنتال » ونالت نجاحا كبيرا ، واستنقذ أيضا رواية اسمها « سلفاندير » كان كتبها ماكيه وأخفق في نشرها ورأى دوماس أن نجاحها مضمون اذا صدرت متوجة باسمه . لم يكن الجمهور قد عرف بعد أن هذه الروايات مؤلفة بالاشتراك بينه وبين ماكيه ، مع انه كان من المألوف في ذلك العهد ان يحتال بعض الكتاب المغمورين على نشر مؤلفاتهم باصدارها باسم كاتب مشهور ، اذ كان من العسير عليهم حمل الناشرين والقراء على تقدير مؤلفاتهم وفقا لميزتها وحدها . وظن الناس جميعا ان الروايات التي صدرت في تلك الايام متوجة باسم دوماس هي من ابتكاره وحده . واشتغل دوماس موهبة ماكيه وهو منشرح القلب غير واع بما يفعل ، وماكيه سعيد بأن يبقى في الظل يعمل من أجل دوماس لقاء اجر زهيد ، يجد من اسباب الزهو ان الذي يستغل موهبته هو دوماس العظيم نفسه . . . ويبتهج وتزداد حماسه للعمل حين يرى دوماس يضمه الى زمرة خلطائه المقربين ويعامله معاملة لصديق حميم ، وما يزيد في رضائه انه يجد رواياته التي رفضها واستهان بها الناشرون قد اقبل الجمهور على قراءتها مبدية اعجابه بفصول عديدة لم يغير فيها دوماس حرفا واحدا . انه لسم

يجرب بعد الى درجة تكسر القلب خلة دوماس العجيبة في قلة اللامبالاة
بواجباته المالية .

ووقع دوماس في ذلك الحين على كتاب صدر في مدينة كولونيا في
مطلع القرن الثامن عشر ورأى فيه مادة تصلح لتأليف رواية مليئة
بالمغامرات الرومانسية ، وهذا الكتاب أسماه « مذكرات مسيو
دأرتنيان » من تأليف كورتلز دي ساندارس . وعرض دوماس فكرته
على ماكيه لمناقشتها معه ، واستطاع الاثنان ان يرسموا الخطوط
الرئيسية لرواية « الفرسان الثلاثة » بحيث تتضمن سيرة
شخصيات تاريخية عاشت في القرن السابع عشر ، ووجد ماكيه نفسه
غارقا في المراجع التاريخية تأنها بين سراديبها المتشابكة ، وأخذ دوماس
يتطلع بشغف كبير الى الآفاق الجديدة التي ستفتح له ، اذ أن جميع
الصحف اليومية متمسكة بنشر روايات في سلاسل متتابعة ، حتى
أصبحت الرواية المسلسلة محط هيام المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت
يطلبها الجمهور بالحاح ويدير احاديثه بشغف حول كل رواية « جديدة » .
لما رأى اصحاب الصحف الباريسية نجاح رواية « فارس
دارمنتال » اشتدت رغبتهم في الظفر بكل ما يخطه قلمه ، وكل المطوب
في نظر دوماس هو ان يكرس أقصى جهده للعمل وحده ، وأن يملأ
كل يوم أكبر عدد يقدر عليه من الصفحات . ان ماكيه شاب قوى
نشط وهو كدوماس لا يرهقه العمل المتواصل ، اذا كان استغلال
الفرصة المواتية يتطلب عونا اضافيا فان دوماس لن يحجم عن
استخدام عدد من معاونين والسكرتاريين والنساخ . وتلقى دوماس
عروضا كثيرة من اصحاب الصحف فبحثها معهم وارتبط بتقديم
انتاج ضخمة ، ومن اجل هذا صرح عزمه على الانتقال من العاصمة .
انه يحب باريس وكل مباحجها ، ولكن ما من شخص بارز فيها الا
وهو صديق له ، متسبب في تعطيل عمله . ولا يقتصر الامر على
هؤلاء الاصدقاء وحدهم بل ان الأجانب من اصحاب المكاينة المرموقة -
مثل الكاتب أندرسون - يسعون أيضا للقاءه اذا جاءوا للعاصمة ،
فيقضي أيامه مرافقا لهم في باريس ، وزيارات لاصدقائه ، وذهاب الى
حفلات راشيل فيضيع منه وقت ثمين . انه الان في أشد الحاجة
الى جو هادئ ومسكن مريح . لذلك استأجر عدة حجرات في نزل
منزو بضاحية سان جرمان ، هو نزل فيلا مديتشي
وطابت له الحياة في هذه الضاحية ، وان لم يجد بها ما ينشده من
الهدوء والصفو ، لانه رجل يثر الضججة من حوله اينما ذهب . أما

الهدوء فقد هبط فجأة على ابنه الكسندر الذى أخذ يقضى أغلب وقته فى باريس . أما أبوه فلم تكد اقامته فى فيلا مديتشي تطول قليلا حتى انقلبت صاحبة سان جرمان الصغيرة من حال الى حال . من أجله ازدحمت فنادقها بالناس ، وإذا مد أهل باريس فى ليالى الصيف أبصارهم نحوها رأوا مرارا انوار الالعب النارية تتلألأ فى السماء ، وأدركوا ان دوماس يقيم حفلة لجمع من أصدقائه .

ان مسلك الاب يرهق احيانا كثيرة اعصاب ابنه ، ولكن الكسندر أحب الحل الذى اهتدى اليه أبوه حين قرر أن ينتقل لصاحبة سان جرمان ليفرغ للعمل ، وان هذا الحل أتاح للكسندر ان ينتقل كما يشاء بين العاصمة والضاحية . انه قلما يعود الى مسكن أبيه دون أن يجده مكتظا بضيوف غارقين فى اللهو والضجيج ، والبساط احمذى . أما أبوه فجالس وحده فى حجرته ، قد خلع سترته وشمر اكمامه والقلم فى يده يجرى على الورق جريا ، ان كان بعيدا عن الحكمة فى تصريف أموره ، مترددا أغلب الوقت فى المتاعب من قبل الدائنين أو الناشرين أو العشيقات ، فان له رصيда لا ينفد من البشر يصد القلق عن أن يعرف طريقه الى قلبه . ان اقباله على الحياة ومتعها ووثوقه بأمجاده القادمة يطفيان على كل ما يلقاه فى يومه من مشاكل تنفص حياته

ودخل عليه ابنه ذات يوم فى ذلك الصيف فوجده فى أسوأ حال من الهم والقنوط ، هو فريسة حب جديد أسر قلبه دون أن يشفى غليله فضفض الى ابنه يخبره ، فالرومانسى من طبعه أن يسارع بطيب خاطر الى البوح بعواطفه وطرحها للبحث والمناقشة ، فاستمع ابنه من فمه الى حكاية شيقة ، فلم تكن العشوقة الجديدة الا راشيل ذاتها وكان دوماس قد سافر فى أجازة قصيرة خاطفة الى فلورنس ليزور زوجته . انه لا يزال يألف التردد عليها وأن اقترب الاثنان من قبول طلاق شرعى يفرق بينهما ، وعرج دوماس فى عودته على مارسيليا ليزور صديقه ميري . وحدث أن راشيل كانت مقيمة بتلك المدينة أيضا ، وقابلها فى مأدبة عشاء ذات ليلة ، وكانت ليلة صيف بدیعة ، فراق للمجتمعين أن يخرجوا بعد العشاء للتنزه على ارضفة الكاناير - كورنيش مارسيليا على البحر - وسار دوماس وراشيل جنبا لجنب وهى تنفجر بالمرح وقد انحلت عقدة لسانها . لم يشق على دوماس ان يحكم انها سعيدة بصحبته فان لظرفه سحر لايقاوم، وخيل اليه أن راشيل وقعت فى حبه وأنها لن تمنع طرفها تلك

الليلة لأحد غيره ، فكانت النتيجة انه هو الذى اشتعل قلبه بالحـب وهام بها .

غادر الاثنان مارسيليا فى اليوم التالى ، راشيل الى ليون لتقيم عدة حفلات مسرحية ، ودوماس الى باريس ، فلما وصل بيته لم يطق الصمت المخيم عليه فتناول ريشته وخط بها صفحات عديدة يعبر لها فيها عن عواطفه بأسلوب تتدفق فصاحته بسهولة وقال لها ضمن كلامه ان وقوعه فى حبها كان قدرا مسطرا على جبينه وان شك فى قدرته على البوح لها بسره فى حضرتها .

لم يتلق منها ردا ، فكتب لها رسالة ثانية اطلال فيها التعبير من جديد عن لواعج قلبه . لم يتأخر عليه الرد هذه المرة ولكنه رد أصابه بأعنف صدمة لم يعهد مثلها من قبل . لقد خدعه مسلك راشيل لیسلة نزهتهما معا فى مارسيليا . انها لم ينبض قلبها بحبه ولا أحست بأقل رغبة فى الاستجابة للهوى الذى يجول فى خاطره . انها تعيش فى حماية واليوسكى ولا تزال تتلقى رسائل الغرام من عشيقها السابق الامير جوانفيل ، وهى فى مسرح الكوميدي فرنسيز ملكته التى توجتها الالهة لا الناس ، فليست هى التى تقبل على مغامرة مع دوماس وهو فى نظرها احط منها مكانة اجتماعية ، ذلك ان دوماس لم يكن قد بلغ حينئذ ذروة المجد التى رفعتة اليها فيما بعد رواياته العظيمة .

كتبت تقول له :

« وذكرت لى انك لا تجسر على مشافهتى بالكلام الذى تكتبه الى . فلا يسعنى الا ان أعبر عن أسفى »

« لأننى لا ألهمك ان تضمر لى وانا بعيدة عنك هذا الاحترام الذى نعصمك وأنت فى حضرتى »

« كنت أعلم حق العلم كيف ينبغى للانسان فى معاملته للاغرار المأفونين ألا ينطق ولو بأهون كلمة »

« فى عرض الحديث دون ان يتدبر من قبل وقعها المحتمل فى ميزانهم ، ولكنى كنت أجهل كل الجهل ان هذا الحذر واجب »

« أيضا عند التحدث الى بعض الاذكياء »

يا لها من رسالة أثارت دهشته البالغة . لم يسبق لامراة من قبل ان رفضت يده الممدودة اليها كما فعلت راشيل . لم يسعه الا ان يحكم بأنها غير جادة فى صده ، فكتب لها رسالة موجزة يقول لها فيها أنها ما دامت تصر على رأيها فلا بأس من ترك الموقف بينهما على ما هو عليه . وظن انه أرسى أول دعامة لمغامرة جديدة سيتولى الزمن فيما

بعد اقامة مسرحها . اعادت اليه راشيل رسالته ومعها خطاب مقتضب لم يترك لديه شكاً في أن واليويسكى قد اطلع عليه لذلك كان لابد أن يوجه رسالته الثالثة الى غريمه نفسه محاولاً أن ينقذ ما يقدر على انقاذه من حطام كرامته .
فكتب اليه يقول :

« عزيزى الكونت

« حاولت حصار قلعة أنت حارسها فهزمت شر هزيمة ، فأرجو أن تتقبل صادق تهنئتى .

« وسماك منى نبأ انتصارك أفضل عندي من سماك له من انسان آخر ، وما دمت قد جئت به فقد سقط حقدك في الموجدة على بعد هزيمتى

« أرجوك ان تبلغ المدموازيل راشيل اننى لا اكتفى باضمار الاعجاب بموهبتها الخارقة بل يرضينى ان اظل ايضا محتفظا بصداقتى لها
المخلص ا . دumas »

وتلقى دumas من اليويسكى رداً بارد اللهجة وانتهت المسألة عند هذا الحد ، ولكن الألم ظل ينخر في قلب دumas ، يسوءه ان يقع نظره على رسائلها الناطقة باحتقاره ثم يذكر رسالته المطولة التى تفيض بهيامه وحفاوته بها .

واطبقت عليه مشاغل اخرى فخلق مشاعره ونفى هزيمته عن ذهنه، وكان اذا قابل راشيل فيما بعد لقي كل منهما الآخر في الظاهر بود ، ولكن هيهات له أن ينسى بسهولة اهانتها الجارحة له . انه رجل قلما يقابل الحقد بحقد مثله ولا ينفك عن معاملة النساء بظرف ونبل وحفاوة ، ومع ذلك لم تطاوعه نفسه الا على أن يضمر لراشيل منذ أن اهانت عداً متأصلاً لا يتحول . لعله هو نفسه لم يدرك مسدى طغيان هذا العدا عليه . انه ظل مستأثراً بقلبه الى ان انطلق ورشق راشيل بسهامه فأصابها حقاً بضرر بليغ . اذن لم يكن القدر المسطر على جبينه كما ظن في لحظة عابرة هو أن يكون لها عاشقاً بل أن يكون لها عدواً يؤلب الراى العام ضدها بعد حين

وقدم مسرح الكوميدي فرنسيس مسرحية دumas المسماة « آنسات سان سير » فقابلها الجمهور باعجاب وتصفيق . واستأنف دumas عكوفه على العمل . يجيئه ماكيه كل يوم وجعبته مثقلة بخلاصات استخراجها من المراجع التاريخية في المكتبات العامة ، ولم تنقطع زمر

الأصدقاء والمعارف عن استغلال كرم دumas فيأتون بلا دعوة لتناول الغداء ، وإذا فرغوا منه بقوا لتناول العشاء أيضا ، ويستنزفون نقوده زاعمين أنهم إنما ينالون قروضا لأبد لهم من تسديدها ، وكانت نقود دumas متروكة لكل يد تمتد إليها ، فقد أصبح حينئذ من طبعه أن يضعها في وعاء زجاجي يعلم كل انسان أين هو .

وبقى الكسندر سادرا في لهوه وغيه في شوارع قلب العاصمة حيث استطارت شهرته بالاناقة والترف . أصبح استاذا محنكا في المبارزة بالسلاح ، وراكب خيل لا يشق له غبار ، تشهد له بذلك تجولاته فوق صهوة جواده في مشارف ضاحية سان جرمان ، بل بدأ ينظم القصائد المطولة . اذا أقبل المساء خرج من مسرح ليدخل الى مسرح ثم مضى الى إحدى الحفلات الصاخبة التي كانت من علامات ذلك العصر .

زجره صديقه جي دي لا توردوبان قائلا له : « لا تدع قدمك تنفرز في المفامرات النسائية الى هذا الحد ، لاخير عليك أن تلهو وتعبث الان ، ولكن مهما تفعل ينبغي لك ان تستنقذ نفسك قبل ان تبلغ الثلاثين من عمرك »

فلم يفت الكسندر أن ينبه هذا الصديق الذي يزجره أنه مثله سادر في اللهو رغم أنه جاوز الثلاثين من عمره فرد عليه قائلا : « من أجل هذا فتحت لك قلبي فانما انصحك عن تجربة » أنه حطم حياته باستفراقه في العبث واللهو وأن الكسندر سمع منه كلاما كان يود هو أن يقال له حين بلغ سن العشرين . أنصت اليه الكسندر باهتمام من شدة تلهفه على أن تسدد خطاه مثل هذه النصيحة التي كان ينبغي أن يسمعها من فم أبيه . وقد كشف عن أثر هذا الحديث على نفسه في مسرحية « أنصاف الحرائر » التي كتبها بعد اثنتي عشرة سنة .

وظلت ماري دوبليسيس مثار اعجاب الناس ، وشهد لها الدكتور فيرون بأنها تبرز جميع نساء باريس بأناقة ثيابها . كان الكسندر يراها مثلما يراها أهل العاصمة كلهم : جالسة في مقصورتها بالمسرح في أبدع زينة ، او راكبة عربتها وفي صحبتها كلبها الضخم أو كلبها الصغيران الجميلان . لقد ابتسم لها الحظ وامتلا جيبها بالمال فحارت فيم وكيف تنفقه ، كأنما تعيش في عالم الفيت فيه المعاملة بالنقود ، ففي قدرتها ان تدخل أي متجر وان تحمل منه ما تحب دون ان تدفع الثمن فورا ، باريس كلها ملك يديها ، تكفي منها إشارة بالاصبع حتى تهرع اليها أشهر خياطات باريس : مدام بالمير ومام كامبل ، وكلما أحبت ان تعدل وتبدل تنفذ جواهرها المرة تلو المرة . فان مسيو هالفين

— أرقى صياغ باريس — رهن اشارتها . ان أيامها خالية من الهموم والمشاكل ، وأن عشاقها العديدين يتلهفون على أرضائها بتسديد ديونها الطائلة ، ولكن هيهات وسط مظاهر البذخ ان تسعد بشيء مثلما سعدت ذات يوم بقرطاس من البطاطس المحمر جاد عليها به نستور روكبلان . انها الان اذا نالت يدها شيئا فكأنما تستوفى حقها . واجب الاداء . أصبحت ذات تحكم واستبداد ، عسيرة الرضا لا يعجبها شيء لزم من طويل . لا يراها الناس الا وفي يدها زهرة الكاميليا ، هي علامة البذخ والتأنق لأنها أغلى الزهور . وكان يعيش في باريس في ذلك العهد رجل اسمه لاتور ميزراى هو أيضا مثلها لا يراه الناس الا وزهرة الكاميليا مرشوقة في عروة سترته ، وظل هذا دأبه طيلة أقامته بباريس تسع عشرة سنة ، فقدّر الثمن الذى دفعه لشراء زهور الكاميليا بخمسين ألف فرنك على الأقل .

واشتد الحر في باريس فهجروا أثرياءها الى المدن العتيقة على ضفاف نهر الرين وكانت مصيفا رائجا قبل حرب سنة ١٨٧٠ . واختفت ماري دوبليسييس عن انظار الباريسيين أيضا لفترة من الوقت . وسافر بلزاك الى روسيا معتزما عقد قرانه بايفلين هانسكا التى ظل يطارحها الغرام سنين عديدة ، وكانت قد تزلزلت منذ زمن قليل . وسافرت ماري داجو ومعها أولادها الى ألمانيا لتلحق بخدينها ليست أما دوماس فقد بقى غارقا في العمل لاذنيه ، وصاحبه ماكيه لا يرفع بصره عن الوثائق التاريخية القديمة ، وتولى الخدم رعاية مسكنه لاستقبال مواكب الضيوف ، بعضهم لا يعرفهم رب الدار ، المسوائد حافلة بأطيب طعام وشراب ، ولكن من عادة دوماس اذا كرس جهده لعمل مرهق ان يحمل نفسه على التقشف فلا يصيب الا اقل القليل من بذخ مائدته .

زاره ابنه ذات يوم فوجده جالسا الى مكتبه يجاهد ان يحسن مسك القلم بيد مصابة بجرح بليغ ، كان له حينئذ كلب فذ في الشراسة ، خلع عليه خطأ اسم موتون أى الخروف الوديع ، وجعل دوماس كلبه هذا بطل قصة كان يكتبها حينئذ واسمها «دعى موليون» والكلب فى هذه القصة واسمه «ألان» ، صورة أصلها كلبه . وحدث منذ اسبوع وهو يسطر الحيل التى يخترعها وينسبها الى صاحب الصورة ان لاحظت عينه أصلها يعبث فى حوض من الزهور فى الحديقة، فصرخ اليه يزجره وهو ماض فى الكتابة لئلا ينقطع خيط افكاره ، وصرخ اليه ثانية فزمجر الكلب غضبان من سيده الذى كان يرفعه

ساعتئذ الى مصاف الخالدين ، وزاد عبثه بحوض الزهور ، فألقى دumas قلمه واندفع اليه ورفضه بقدمه رفسة شديدة ، فهجم الكلب عليه ووثب الى رقبته ، ولزم دumas ان يبذل غاية قوته ليصرف الانياب عن رقبته ويتلقى العضة بكل عنفها على يده اليمنى رافعا الكلب عنه بيده اليسرى . رآه جالسا يكتب بمشقة كبيرة بقية الاعيب الكلب الذي رفعه الى مصاف الابطال ، لم يمنعه جرح يده من مداومة العمل ، فالمطبعة تلاحقه بطلبساتها ولأن حاجته للنقود شديدة عاجلة .

ولم يكن ابنه الكسندر اقل حاجة منه الى النقود ، فذهب قبل ان ينصرف يلقي نظرة على الوعاء الزجاجي فوجد به ستمائة وخمسين فرنكا . وقال لأبيه بلهجة معذرة « سأخذ خمسين فرنكا اذا كنت أنت في غير حاجة اليها » وكان دumas مستغرقا في الكتابة فخيل لأذنه ان المبلغ المطلوب هو ستمائة فرنك للتشابه في النطق بين الرقمين في اللغة الفرنسية فأجابه من بعيد :
— هل لك ان تترك مائة فرنك ؟

فرد عليه ابنه : « ماذا تعنى ؟ لن آخذ الا خمسين فرنكا »
فأجابه أبوه : « أوه .. حسبك قلت ستمائة »

لم يقو الكسندر على نسيان هذه الحادثة وهو في طريق العودة الى باريس . لقد كان من الطبيعي عند الاب ان يأخذ ابنه أغلب ما تبقى له من نقود ، وكم كان ظريفا نبیلا وهو يناشده ان يترك له مائة فرنك وليس غير . كان يفيظه استهتار ابيه بالمال ، وعجزه عن تدبير اموره بحكمة ، كان يجده رجلا لا تطاق معاشرته ومع ذلك فان قلبه زاد امتلاء عن ذي قبل بحبه وتقديره لأبيه . ليس الانحراف جريرة ابيه بل جريرة الدنيا التي يعيش فيها . ان جرائم ابيه تورث صاحبها صبورا عجيبا بعد من المعجزات . وكلما أفرغ كرمه جيوبه زاد من اقباله على العمل ليتدفق عليه المال من جديد ليعثره من جديد . ترى من الذي سينهب الستمائة فرنك التي بقيت ؟ سيجيئه قسيس الضاحية يسأله ان يجود ببعض ماله على الفقراء ، أو سيجيئه راقصة باليه وتغمره بقبلاتها وتشكو له افلاسها ، سيكون المال من نصيب أول سائل سواء أكان محتاجا أو غير محتاج وحينئذ يشمر دumas كمي قميصه ويغالب التعب والارهاق ويتناول القلم بيده الجريحة وينصرف الى الكتابة في جوف الليل . ليل هادئة طویل ينعم فيه الناس بعد كد النهار بنوم لذيذ .

الفصل الحادى عشر

مارى دوبليسيس تستقبل ضيوفها

نعم أهل فرنسا فى خريف سنة ١٨٤٣ بجو معتدل وحياة يسودها انصفاء لا تعكرها قلاقل سياسية . وطال حداد الملك لويس فيليب هو وزوجه على مصرع ابنهما الدوق دورليانز . ولكن هيئات لشئون الدولة ان تتركهما فى خلوة يجتران احزانهما ، فاضطر الاثنان فى شهر سبتمبر الى تكتم هذه الاحزان واصطناع الابتسام لاستقبال الملكة فيكتوريا وزوجها فى قصر ديو فى مقاطعة نورماندى . اما أهل باريس قلم يتلقوا نبأ قدوم ملكة انجلترا بحفاوة لان الراى العام كان معاديا لانجلترا فى تلك الايام . ولكن الصحف السيارة اسهبت فى وصف نجاح زيارة الملكة بأسلوب رومانسى ، فلم يفتها ان تذكر ان أمجاد شكسبير كانت تحف بركابها ، وقالت ان الحفلات الموسيقية التى اقيمت فى الهواء الطلق بحدائق قصر ديو تكريما لها قد ذكرت الناس بمسرحية شكسبير « حلم ليلة فى منتصف الصيف » وان تيتانيا بطلة هذه المسرحية بعثت من جديد فى صورة ملكة حسناء بشوش عرشها قائم فى جزيرة عتيقة عبر المضيق .

وكان ليست ومارى داجو يقيمان مع اولادهما الثلاثة فى جزيرة نونويرث فى منطقة الرين بألمانيا ، وكان مسكنهم ديرا للراهبات فى القرون الماضية ، فسحرهما منه علائم القدم البادية عليه واجراسه العتيقة التى لا تزال قادرة على بعث رنينها . سحرهما صمته وجوه المشبع بالاساطير ، اذا امتد بصرهما عبر البحيرة وقع على خرائب القصر المنفرد الذى كان يقيم فيه رولاندى رونسيفو ويتطلع بنظره الى القصر الذى ماتت فيه هيلدا جند .

ان قصة رولاند وهيلدا جند هى من اروع اساطير الحب فى العالم . وكان ليست قد قدم اول مرة الى هذا المكان مع مارى داجو منذ سنتين ، يؤمنان انهما اولى الناس بالحج اليه ، فلا يكاد يفارق ذهنهما الوثوق بأنهما هما أيضا بطلان لاسطورة حب جديدة ، فلم تكن خصائل شعر مارى داجو أقل فى بريقها الذهبى من خصائل شعر هيلدا جند ، ولا ليست بأقل من رولاند سحرا ووسامة . وكانت مارى داجو هى التى تؤمن ان الذى بينهما هو حب شاعرى سماوى لا يمت

الى الارض بسبب ، ولكن من العسير ابقاء هذا الحب محلقا في معارجه
العالية فكان العراك ينشب بينهما مرارا ، ولكن حياتهما ظلت تنم في
الظاهر على انهما يتمتعان بالسلام والجمال في تلك البقعة الساحرة .
انهما يعبران البحيرة أحيانا بالقرب الى كونجزوينتر ثم يواصلان
رحلتهم برا الى مدينة كولونيا حيث يتمتعان النظر والخيال بتأمل
كنيستها التي لم يكن بناؤها قد تم بعد . وأحيانا يركبان النهر الى
مدينة بون التي ولد بها بيتهوفن وكان سيرتفع بها عما قريب تمثال له
يرجع أكبر الفضل في اقامته الى كرم ليست . اما في البيت فيجلس
ليست الى البيانو ويظل يعزف ساعات طويلة فتنساب فوق مياه
البحيرة وتحت سناء النجوم الحان صديقيه شوبان وبرليوز ، وبالنهار
يتأمل العاشقان أوراق الشجر وقد أصبحت في صبغة الورد وهي
تساقط وتهاوى في صمت الى الارض »

ومن فوق الاشجار سماء ما أبدع لونها اللازوردى . ثم بدأت
السنائر تطير نحو الجنوب . لقد اقترب الشتاء .

وافترق ماري وليست مرة أخرى . عادت ماري الى باريس وذهب
ليست الى ولاية بافاريا . فلما افترقا استأنف الاثنان تبادل الرسائل
الفرامية ، ولكن الحب بينهما كان في الواقع قد مات ، وان تلكا كل
منهما في الاعتراف بالحقيقة الواقعة ، لشد ما أكد كل منهما للآخر في
الايام الخوالي حبه وعهوده ومواريقه فلا شيء أسخف حقا من اعترافها
اليوم بأن أحدا لم يعد مباليا بالآخر اقل مبالاة .

وترك ليست ميونخ وذهب الى درسدن ، فاستقبله أهلها من جديد
باعزاز واعجاب بلغ درجة العبادة ، وبدأت النسوة الهائجات في
ملاحقته وتلقف ما يلقيه من أعقاب سجائره وارثشاف ما يخلفه في
فنجانه من ثمالة الشاي . ان قلبه مشغول أبدا بحب ، ولكنه حب
لا يضمه لزاما لواحدة من ساكنات الارض ، وقلما يضمه لنسوة
يهجمن عليه في نوبة هستيرية . ورق قلبه لسحر بيتينا فون ارنيم
التي كانت في عهد مضي صديقة لبيتهوفن وجوته . انه يظل أياما طويلة
وقد طفى عليه طبع بيرون ومزاجه ، لقد أفضى ذات يوم الى ماري
داجو باعتقاده انه وثيق الصلة الروحية بهذا الشاعر الانجليزى الذى
كان له أعظم الاثر في قلوب جيله . وقال ليست لها : « لا أستطيع
ان أصف لك ما يخالجتى أحيانا من رغبة متقدة مهيمنة بأن يكتب لى
أن ألقى بيرون في عالم نرقى فيه أخيرا الى قمة الحرية والمقدرة
والحياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى » ما من عاطفة تهز القلب مثل

اتقاده بحب شخص مات فلم يبق منه متكشفاً الا حقيقته الاصيله .
ولكن ليست عجز عن التحليق طويلا في هذه الاجراء العليا فهبط الى
الأرض وقد جره اليها غول على هيئة امرأة أفافة تتخذ لها اسما
مستعارا هو لولا مونتييز .

انها امرأة لا تعرف معنى للتردد او محاسبة الضمير ، فنحت كل
النساء عن طريق ليست كأنهن حجارة تبعثرها بقدمها ومضت بلا
خجل الى غرفة نومه . ولم يسعه الا الرضوخ لها ، فقد كانت آية في
الجمال ، ترمقها العيون باعجاب أينما ذهبت ، ونهل ليست على يدها
اقصى متعة يجدها قادرة على بذلها له . ارتمت في أحضانها
وهي تكاد تجن بحبه ، وبدأ يتولى عنها دفع ديونها الطائلة . ولكن
سرعان ما أصبحت عبئا ثقيلا يبهظ كاهله ، فليس له أن يخطو خطوة
الا ورجلها على رجله ، بل تحرم عليه من شدة غيرتها الابتعاد عن مرمى
بصرها . هيهات له أن يفرغ للعمل أو التأمل . وذهبت ذات ليلة
وذراعها في ذراعها ليشهد أوبرا « رينزي » وكان مؤلفها واجتر لم
تؤاته الشهرة بعد ، وقابله ليست خلال استراحة بين فصلين
فانتحيا جانبا وخبر كل منهما سحر هذا الالتقاء الفذ النادر الذي
يؤاخي بين ذهنين . انه لسحر يجلل بالمهانة والحقارة كل حب بين
الأبدان . وود ليست لو تريت قليلا في صحبة واجنر ولكن لولا
مونتييز كانت هناك واقفة له بالمرصاد ، لا ترضى غيرتها أن يهيم انسان
بشيء الا ببدنها ، فأقبلت نحوهما تمشي في كبرياء وتختال في ثياب
اشتطت في زينتها ولعت نظرة وقاح في عينيها الجميلتين الشاهدين
بأصلها الايرلندي وأقحمت نفسها عليهما فتأفف منها واجنر وادار
لها ظهره وانصرف مسرعا

لم يستطع ليست أن يبقى طويلا في مكان واحد وهو فريسة
هذه الوصمة التي لا تفارقه ، فاعتزم السفر فسافرت معه خطواتها
بخطوته ، كأنما صح عزمها على أن ترافقه كظله الى آخر يوم في
حياتها . ولكن أوان قطع العرق واسالة الدم كان قد اقترب ، فقد
حدث ذات مرة أن أغلق ليست عليها باب الحجرة بالمفتاح وسلمه
الى حارس الفندق ودفع الحساب المتأخر ودفع أيضا مبلغا يكفل
ثمن أثاث الحجرة ، ثم مضى دون أن يذكر عنوانه الجديد . انقلب
الفندق كله من هياجها الى جحيم مستعر وأخذت تحطم في ثورة من
الغضب كل أثاث الحجرة .

وسمع الناس في أوروبا كلها خبر هذه الفضيحة وعلت قهقهتهم،

ووقع الخبر على ماري داجو وقعا أليما أذهلها فترنحت لهذه الإهانة التي طعنت كبرياءها في الصميم ، وأحست أنها ستفقد ولا ريب مكانتها الاجتماعية إذا أبقت علاقتها برجل هذا شأنه . فلما جاء ليست إلى باريس في ربيع سنة ١٨٤٤ وجدها تستقبله ببرود وصد لا تحول عنه ، وتم الاتفاق بينهما على الافتراق ، وعلى اختيار مربية يعيش أولادهما في كنفها . وودع كل منهما الآخر . وأقام ليست حفلتين في المسرح الإيطالي ثم سارع إلى مغادرة باريس

وحضر الحفلتين جميع المشتغلين بالفنون ، لا تنقطع ثرثرتهم عن ترديد آخر مفامرات ليست الفرامية ، وخالط إعجابهم بليست شيء من الازدراء به لأنهم راوه يصطنع له هيئة وحركات مفتعلة تدل على فتنته بنفسه وبموهبته . أنه طبع أخذ يطفئ عليه درجة فوق درجة كلما تقدمت به الأيام . أن الجمهور في باريس مختلف أشد الاختلاف عن جمهور حفلاته في ألمانيا المسارع للاستجابة إلى عواطفه إذا جاشت ، وأنها لتجيش بسهولة ، فيخفق قلبه وترغغ عينه . وأصبح ليست يلجأ - وكأنما على غير وعى منه - إلى حيل غير قليلة لإثارة الدعاية لنفسه والاشتهار ببراعته في العزف ، ويصطنع له هيئة يلتزمها في حفلاته التي أقامها خلال سنين عديدة في أنحاء أوروبا ، فكان أهل باريس لا يرقبون مسلكه هذا بأفواه فافرة من شدة الدهشة والإعجاب كما تفعل أقوام سذج لم يصقلها بعد ذكاء مرهف . واشتط بلزك في الازراء بليست ، يصفه تارة بأنه مخادع نصاب وتارة بأنه قرد العيان ، أنه لا يجد شيئاً يثير إعجابه في رجل لا يرفعه إلى مقام الامارة إلا هوس الجهال من العامة وافتنانهم به . ورأى بلزك هذا سببه في الحقيقة راجع إلى حبيبته مدام هانسكا . تقدم إليها يطلب الزواج فراوغته على حين أنها في حديثها إليه خصت ليست بمدحها . وكانت قد التقت به من قبل في روسيا ، من أجل هذا رفض القصص العملاق - وذكرى مدحها لا ترخي قبضتها على ذهنه - أن ترطب الموسيقى قلبه وتسحره وكتب لها يقول « يشاء لي القدر أن أحب من تحبين - باستثناء هذا القرد الالعيان ليست - وأن أمقت ما تمقتين . »

رحل ليست ، ولكن لولا مونتييز جاءت إلى باريس ورقصت على مسرح باب سان مارتان بعد أن انتقل إلى مدير جديد ، فقابل الجمهور رقصها الرديء المبتذل بالصفير . وجرت عليها حدة طبعها

مقت قريناتها ، من عاداتها أن تحمل معها أينما ذهبت سوطا وخنجرا لا تتأخر في اللجوء اليهما إذا أثار انسان غضبها ، وسرعان ما طردها مدير المسرح لأنها همت ذات ليلة أن تقتل راقصة في زهرة العمر لأنها أقدمت على منافستها ، أما لدى نفر عديد من الرجال فقد ظفرت باعجاب لا يشوبه تمحيص أو نقد ، وعمدت من أجل ان يطفى سحرها عليهم الى الزعم بأنها ابنة غير شرعية ، أبوها هو تارة الشاعر بيرون ، وهو تارة مونتيز مصارع الثيران الاسباني الشهير . والحقيقة انها منتمية الى أسرة ايرلندية طيبة السمعة يحترمها الناس هي أسرة جيلبرت . وأخذت لولا مونتيز تغشى صالون ماري دوبليسيس حيث يعتبر الصدق وقول الحق علامة على نفاذ الحيلة والاختراق وبدأت تحلم ببلوغ قمة الغنى والشهرة

وكانت ماري دوبليسيس في صيف تلك السنة قد عزفت عن الذهاب الى مدن الاستشفاء بالمياه في المانيا وسافرت الى ايطاليا ولما عادت الى باريس زاد نجمها تألقا ، تركت شقتها في شارع دانتان وانتقلت الى حي أرقى فسكنت في دور أنيق فسيح في المنزل رقم ١٠ بشارع المادلين ، وتولى دفع نفقاتها أمير روسي فاحش الثراء يبلغ من العمر ثمانين سنة . امتلا اصطبلها بالعربات الفخمة والخيول المطهمة المستوردة من انجلترا ، ووضع هالفين أرقى جواهرى في باريس نفسه في خدمتها وأعد لها أطقم حلى جديدة كلها من الماس النادر . وزاد تردددها على المسارح . لم يفتها قط أن تحضر الحفلات الاولى . رآها الكسندر دوماس الابن ليلة افتتاح مسرحية « كاترين الثانية » وهي مسرحية ضعيفة ولكنها نجحت بفضل موهبة راشيل ، ورآها في دار الاوبرا تشهد الحفلة الاولى لبالية سيلفيد من تلحين تاليوني . ورآها أيضا في المسرح الايطالي تستمع لغناء لابلاش أول مرة في أوبرا « دون باسكوالى » من تلحين دونيزتى

وشغل أهل باريس في الخوض في سيرة ليست وماري داجو وبالتندر بأبناء المحظيات الشهيرات في ذلك العهد ، يشيع بينهم أيضا خبر عن بلزاك أثار ابتسامهم . كان بلزاك العظيم قد بدأ في ذلك الحين يصارع شبح الموت الهاجم عليه ، ومع ذلك فليس هو بالذى يتخلى عن تفاؤله وبشاشته . لقد تجهم له الحظ طول عمره ولكنه لم ينقطع عن الأمل في تملك الثراء والسعادة ، وهل يبقى للسعادة معنى إذا لم تكن هي الحب ؟ . ان التلهف على الحب يغنى روحه ولا يفارق قلبه . حقا ان حياته غير خالية من أيفلين هانسكا . انه

أحبها وباحت هي له أيضا بحبها ولكنها تسارع إلى نسيانها إذا
تحسست ذهنها بليست . أن حبها لا يرقى إلى مقام حبه لها ، وحتى
لو ارتقى فهل في امرأة واحدة من غناء . أنه قال مرة أن الرجل
لا يكمل إلا إذا كان له سبع نساء ورتبهن كالآتي : امرأة للبيت وامرأة
للحب وامرأة للمتعة الذهنية وامرأة لترتيب الملابس والأدوات وشئون
المنزل . . الخ الخ وامرأة للعبث والنزوات العارضة وامرأة يخصصها
بمقته وامرأة ينشغل بها قلبه ويظل يلاحقها دون أن يفوز بها أبدا .
وحكايته التي شاع خبرها بين أهل باريس هي أنه خرج ذات يوم
من داره دون أن يحمل مظلة ففوجيء بمطر غزير ينهمر فوق رأسه .
احتوى بمدخل بيت ووقف ينتظر انقشاع السحب . لمحت عينه بعد
قليل امرأة تعاود ازاحة الستارة عن نافذة في البيت لتصوب نظرها إليه ،
واشتد المطر واعتم الجو فلم يتبين لون عينيها وشعرها ولكنه حكم أنها
امرأة وسيمة ظريفة . خرج إليه من الباب بعد قليل خادم ومعه
مظلة سلمها له مشفوعة بتحيات سيدته ، فقبلها هونوري دي بلزاك شاكرًا
وانحنى أمام النافذة التي أزيح قليلا طرف ستارتها ، وفتح المظلة ومشى
مسرعا وهو سعيد بهذه المفامرة . فلما طلع عليه الصباح ارتدى
بعناية أحسن ثيابه واشترى قفازا جديدا وتناول المظلة ومضى بها
ليقدم شكره عليها لصاحبته . ولما لحظ أن المظلة رثة قديمة حدثته
نفسه أن برهان نبهه في حفاوته بالنساء يقتضيه أن يشتري مظلة
جديدة ثم يزعم أنها مظلته التي كانت عنده من قبل . فاشترى أغلى
مظلة وجدها وهرع إلى بيت المرأة ذات السر الغامض . استقبلته
امرأة جمالها يطابق صورتها في خياله . تناولت منه المظلة ووضعتها
جانبا دون أن تلحظ فيما يبدو أي غنم أصابته بحصولها على جديدة
بدل قديمة ، وتحدثت إليه بظرف وبشاشة وإن احتفظت بهدونها
وثباتها . أسقط في يد بلزاك حين رآها غير مبالية أقل مبالاة فسألها
لماذا أخذت ترقبه باهتمام من النافذة بالأمس ، فضحكت وحارت هل
تتكلم أم تصمت ، ولكنها وجدت رجلا أنيسا حلو الحديث فأفضت
إليه بسرها . أنها كانت تنتظر عشيقا لها حان موعد حضوره ساعة
أن احتوى بلزاك بمدخل بيتها فخشيت أن يتهيب الدخول إليها إذا
وجد رجلا واقفا ببابها يترصده فنقد صبرها وتمنت بلهفة أن ينصرف
هذا الرجل الغريب النكد ويبتعد عن بابها ، فأرسلت له المظلة راجية
أن يأخذها ويربها عرضا اكتافه .

ولكن دوماً لا بكان أكثر انسان اثاره للحديث عن شخصه

بين أهل باريس ، فقد تزايدت لهفة الناس على قراءة الروايات المسلسلة في الصحف اليومية منذ أن نشر أيوجين سو رواية «خفايا باريس» مسلسلة في صحيفة «جورنال دي ديا» ثم أعقبها برواية «اليهودى التائه» فتلقفها القراء بنهم شديد. ولكن دوماس بذه في النجاح حين بدأ ينشر قصة «الفرسان الثلاثة» كل يوم حلقة ، بعد أن كان ماكيه قد أعد له فصولها ، وأخذت فرنسا كلها تتابع بشغف شديد قراءة هذه الرواية التى تقدم لهم ضربا جديدا من التسلسلية الخفيفة . ووجد دوماس نفسه قد بلغ من الشهرة حدا لم يبلغه من قبل . أصبح الآن اذا ظهر فى الطريق أو المسرح تلفتت له الناس وأشاروا اليه ، وانهالت عليه عروض سخية من الناشرين فقبلها جميعا ببشاشة وحبور ولم يتهيب عبثا . ومما ساعد على نجاحه أن فرنسا كانت حينئذ تمر بفترة من السلم لا تعكر صفوها القلاقل السياسية . ولما اندلعت ثورة سنة ١٨٤٨ عللها لامارتين بقوله أنها نتيجة الملل الذى كانت تعانيه بلاده . وفى سنة ١٨٤٤ كان الملل قد أخذ يستولى على الفرنسيين وهم لا يدركون أن أكبر النعم عليهم أن لا شيء يرهقهم سوى الملل . فلما ظهرت رواية «الفرسان الثلاثة» المليئة بمغامرات دارتنيان المثيرة وجدوا فيها عوضا لرتابة حياتهم وحمدوا لها أنها أنقذتهم من الملل

إن الذين لا يرهقون أنفسهم بالعمل بلغوا من الكثرة فى المجتمع الفرنسى حينئذ حدا يثير الدهشة . إذ كان الناس يهيمنون بالبطالة وفراغ حياتهم من الكد والتعب . وكانت تكاليف المعيشة هينة جدا لمن لا يفشى أوساط المترفين . آلاف من الناس يعتمدون على دخل ثابت متواضع يكفيهم قضاء حاجياتهم فيفضلون التمتع بحياة هادئة لا تقتضيهم بذل جهد على الكد والسعى من أجل كسب مزيد من المال قد يفسح لمعيشتهم آفاقا جديدة ، فكان أمثال هؤلاء الناس يهيمنون بقضاء الساعات الطوال فى المقاهى العديدة ، يشربون النبيذ والقهوة ويلعبون الدومينو ويقرأون الروايات المسلسلة فى الصحف . وكانت المقاهى تقدم الصحف اليومية لروادها ، ولم يكن سؤال الخادم حينئذ أى أعداد الصحيفة يطلبون بل أيهما يريدون قراءة روايته ، هل هو أيوجين سو أم ألكسندر دوماس . ها هو ذا واحد من رواد المقهى قد فرغ من قراءة حلقة اليوم . ما أسهل قراءتها اذا كانت من تأليف دوماس ، لان أجر دوماس كان بالسطر لا بالحلقة، فلجأ الى الاعتماد على الحوار البسيط المتلاحق المركب من جمل

قصيرة تحتل كل منها سطرا ، فهذا مما يسهل قراءة الحلقة ويسهل أيضا تدفق المال الى جيبه . وفيما يلي مثل لهذا الحوار :

« - من كان هنا منذ لحظة ؟ انطق . تكلم .

- مسيو دى كافوا

- مسيو دى كافوا ؟

- نعم . هو بشخصه

- قائد حرس الكردينال ؟

- أجل ، هو بذاته

فاذا انتهى رائد القهوة من التمتع بحلقة اليوم وما تتضمنه من وقائع مثيرة طوى الصحيفة وتلفت حوله عسى أن يقع نظره على انسان قرأ الرواية الى الحد الذى بلغه هو ، فاذا ما وجد احتدم سريعا بين الاثنين جدال وتقاش يصرفانهما عن كل هم آخر ، ووقف الناس جميعا على رواية الفرسان الثلاثة هوى أفئدتهم ، هى الشغل الشاغل لعقولهم ، ونسوا الملك لويس فيليب ورئيس وزرائه مسيو جيزو . لا يدور حديثهم الا عن أبطال الرواية ، الملكة آن النمساوية الاصل والكاردينال ريشليو

ولم يكن دوماً أقل من الناس فى النظر الى هذه الرواية بعين الجدل ، بل أن شغفه بقراءتها كان يفوق شغفهم .. يسمع ضيوفه فى فيلا مديتشي قهقهته العالية من حجرة مكتبه فيتساءلون عما يثير ضحكك . انه يضحك بنفسه لنفسه حين تواتيه عبارة مازحة تزيد من خفة دم الحوار بين أبطال قصته . انه يعيش روايته وهويكتبها، ويستمد منها متعة تنتقل بالعدوى الى قرائه

يمضى عليه اليوم اثر اليوم وهو جالس الى مكتبه لا يتحول عنه ولا ينقطع عن الكتابة منذ الساعة السابعة صباحا الى السابعة مساء لا يشعر من شدة الاستغراق فى العمل بالجوع أو العطش فلا يترىث لياكل أو يشرب ، فاذا حلت الساعة السابعة مساء أقبل ابنه الكسندر لتناول العشاء معه فينقطع عن العمل ، ويسترخى ، ويميل ظهره الى الورااء ويتحدث ، ولكنه حتى فى تلك الساعة لا يكون قد تملص بعد من قبضة العالم الذى شيده خياله ، فيحدث ابنه عن المغامرات التى قام بها ذلك اليوم الفرسان الثلاثة : اتوس . يورتوس . اراميس . وعن المغامرات التى سيعدها لهم من غد . يمنحه الكسندر كل سمعه . انه نعم الابن الذى يشارك أباه جميع أهواء قلبه . كتب اليه بعد سنين عديدة وهو يتنهد لذكرى صحبة أبيه الجميلة البشوش

فى تلك الفترة . قال له : « يا لسعادة تلك الايام . . يا لسعادتها . .
كنا نحن الاثنين فى عز الشباب . . أنت فى الثانية والأربعين وأنا فى
العشرين . »

نعم انه كان فى سن العشرين فتى فائق الوسامة . لم يلحق
صحته اذى مستديم من جراء اقامته فى مدرسة سان فيكتور . انه
يمثل أباه فى قوته ، بل يماثل جده الجنرال فى جيش نابوليون
فى قوته الخارقة المدهشة . لا يزال شعره يضرب الى الصفرة وان
كان غزيرا جدا ك شعر أبيه ، ولكنه كان يمشطه على نحو جميل
فينسدل بأناقة على جانبي جبهته الفسيحة . انه طويل القامة مستقيم
الكتفين عريضهما . من عاداته أن يتخذله وقفة الجندي ، وينم مسلكه
على النجاة من القلق مع الوثوق بالنفس . بل اشتهر بين طواويس
المجتمع بحسن ذوقه فى اختيار ثيابه ، انه ذوق مهذب أرقى من ذوق
أبيه الذى يهيم بفخخة الملبس . أصبح الان تنعكس عليه أضواء
مجد أبيه ، فتدار حوله الانظار ويشار اليه أينما ذهب .

كان يسير ذات يوم فى أحد شوارع قلب باريس فاذا بشباب
يقطع طريقه ويقبل عليه بثغر باسم ويد تمتد لمصافحته . عرف
فيه تلميذا كان معروفا فى مدرسة سان فيكتور بشراسة الطبع
وتلذذه باضطهاد رفقاءه . وكان يكبر الكسندر بسنة أو سنتين
فأذاقه بقوة وجبروت أمر أنواع العذاب ، أما اليوم وقد انقلبت
فريسته الودية السابقة الى شاب ثرى من ورائه أب صاحب مجد
يتحدث عنه الناس ، وأصدقاء لهم نفوذ فانه متحرق من الشوق
لمصافحته . نظر اليه الكسندر وأخذ ذهنه يجتر مرارة ذكرى تلك
الايام الخوالى ويقول لنفسه لو أن هذا الفتى عامله منذ عشر سنوات
بود واحسان كما يعامله اليوم لانمحت التعاسة من قلبه وارتد صبيا
سعيدا

تجاهل الكسندر يده الممدودة وأجابه ببرود : « كنت أصغر
منك قوة وسنا ، أما الآن فنحن متعادلان فى الجسم ، فإياك أن
تخاطبنى مرة أخرى والا حطمت لك وجهك » ثم تركه وانصرف وهو
مزهو بقوته البدنية وبراعته فى المبارزة بالسيف أو المسدس .
ولما نما لدى الكسندر وثوقه بنفسه وافتخاره الكبير بأبيه واثقه
الجرأة أخيرا على الاقتراب من ماري دوبليسييس . قابلها فى يرم
دافىء جميل سطعت شمس من أول النهار . وكان الكسندر
قد ذهب يزور أباه فى فيلا مديتشي واصطحب معه صديقا له

هو ابن الممثلة ديجازيه . وجد الاثنان الكاتب العظيم جالسا الى مكتبه منهما في العمل فترى ليتحدث اليهما وعرض عليهما رسما تخطيطيا أعده هو بنفسه لدار جديدة . انه يريد بيتا لنفسه يجعل فيه أقامته ، وكان قد اشترى في الصيف الماضي في الضاحية قطعة أرض يديعة وانتوى أن يقيم عليها دارا يجعلها وفق ذوقه . أنصت له الاثنان بعناية وأبديا مقترحاتهما عن الدار كيف ينبغي في رأيهما أن تكون . ولما انتهت الزيارة استأجر كل منهما جوادا ليركبه ويجري خبيا في نزهة لساعة أو ساعتين في غابات ضاحية سان جيرمان . ثم عادا الى باريس وتناولوا العشاء معا . وبعد العشاء دلفا الى مسرح الفاريتيه حيث كانت ماري دوبليسيس تجلس في مقصورة أمامية والعيون تلحظها . كانت كعادتها في أتم زينة . متحلية بأعلى جواهرها ، تسند على حافة افريز المقصورة المكسوة بالمخمل يدا سترها قفاز ، وفي معصمها أساور كثيرة ، وتمسك أصابعها بمنظار مقرب صغير ، وتضع أمامها زهرتين من زهور الكاميليا وصندوقا مزخرفا به حلوى ، ثم تستدير بين الحين والحين للتحدث الى انسان يحجبه الظلام في غيابة المقصورة ، ثم ترفع منظارها الى عينيها وتتفحص الحاضرين ، ليس لها أقل مبالاة بما يجري فوق المسرح ، وكذلك كان شأن الكسندر لم يلق باله هو أيضا اليه وظل في مقعده بالصالة يتأمل هذه المحظية الجميلة وقد خلب سحرها له ، وراها تتحدث بالإشارة الى شخص جالس في المقصورة المواجهة لمقصورتها فاستدار الكسندر الى مرمى أشارتها وأدرك أنها تتحدث الى كليمانس برات ، وهو يعرف كليمانس هذه وان لم يقابلها لان اهل باريس جميعا يعرفونها ويتحدثون عن سوء سيرتها وهي امرأة في سن الأربعين محتقنة الوجه دميعة ترتدى ثيابا خلية . وكانت في صحبتها فتاة شابة بادية القلق والانزعاج . لعلها فريسة جديدة تحاول كليمانس أن تقيم لها أول سوق رائجة ، ولا عجب في ذلك فقد حكم عليها فيما بعد بالسجن بتهمة افساد اخلاق القاصرات . وكان من قبيل الصدفة أن أبوجين ديجازيه . صديقه المصاحب له تلك الليلة . هو من معارف كليمانس برات ، اذن فمن السهل على الكسندر أن يدبر وسيلة للالتقاء بماري دوبليسيس ، فطلب الى صديقه أن يذهب الى الوسيطة لباحثها في تنفيذ رغبته . ومكث في مقعده يصبر نفسه الى أن يفرغ صديقه من مهمته . راقبه من بعد وهو ينحني لها بأدب وراها تقبل عليه ببشاشة متدفقة . وعاد

أوجين فأخبره أن اللقاء سيتم كما يحب ويهوى، إن ماري دوبليسييس جاءت للمسرح في صحبة عشيقها الروسي الهرم الفاحش الثراء الكونت دي ستاكلبرج وهو لا ريب سيرافقها إلى دارها بعد انتهاء المسرحية ولكنه سيودعها في أغلب الاحتمال عند باب الدار ، فإذا حدث ذلك فإنها ترحب بزيارة قصيرة من صاحبها الجديد

وأخذ ألكسندر يتفحص بمنظاره المقرب غيابة مقصورة ماري دوبليسييس . استنفذ بجهد من الفموض الغائص فيه الشيخ الهرم قميصه الأبيض ، ولكنه لم يستطع أن يتبين ملامح وجهه . إن الكونت دي ستاكلبرج لا يريد ولا ريب أن تتناهبه الابصار فإنه يعيش في باريس مع زوجته وهي تعلم حقا أن ماري دوبليسييس هي عشيقته ولكن احترامه لزوجها يقتضيه أن يبذل كل كياسة لستر علاقته بعشيقته . ولا بد أن يراعى حقوق مكانته الأدبية إذ كان يعد نفسه من أعلام السياسة فلا ينبغي له أن يتورط في فضيحة علنية ، وكان يؤمن أنه دخل التاريخ إذ اشترك في مؤتمر فينا بصفته سفيرا لروسيا لدى البلاط النمساوي . وقد رسمه الفنان ايزابي في اللوحة التي صور بها اجتماع هذا المؤتمر جالسا تجلله المهابة بين زمرة من رفقائه مثل ولنجتون ومرتنيخ ونسلرود وتاليران وغيرهم ممن خلد التاريخ أسماءهم ، ولكن ما أعجب تصارييف القدر العاث ، أن أحدا لا يذكر اليوم هذا السياسي النابه إلا بأنه كان رب حماقة ونزوات ، لم يغنه كل ما بذل من حذروحيطة لاختفاء هذه العلاقة فقد كشف نزواته كاتب ناشئ . أحب محظيته . لقد طوى النسيان اليوم مجده السياسي ولكن ذكراه تومض بنور خافت لمن يشاهد في جيلنا مسرحية عادة الكاميليا ، فهو يظهر لحظات قليلة في صورة شيخ مخرف اسمه الكونت دي موريا أو لمن يتصفح كتابا تذكر فيه ماري دوبليسييس فقد يجده مذكورا في صفحة أو صفحتين ، سيتبين حينئذ صورة عجيبة لنمط عجيب كان من الناس ، في اختلاط التأديب بالتملق والزلفى ، والتفسيخ والانحلال بكرم يبلغ حد السفه . لقد بعثت إلى الورا أيام هذا النمط فانقرض شأن أنواع من الحيوان البدائي ، وأصدق مثال عليه هو هذا الشيخ المرتعش البالغ من العمر ثمانين سنة المزهو بامتلاك فتاة في سن العشرين هي عادة الكاميليا

ولما اقتربت المسرحية من نهايتها نهضت ماري دوبليسييس وغادرت المسرح في صحبة الكونت ، فسارعت كليمانس إلى دعوة الشابين الصديقين بالإشارة إلى الخروج أيضا ومقابلتها أمام باب المسرح ،

ووصل ثلاثتهم في وقت أتاح لهم أن يشهدوا الكونت والمحظية
يستقلان عربة فخمة من طراز الفيتون ويمسك الكونت بنفسه
بقيادة أجوادين مطهين بديعين يسوقهما خيلا . شتان بين هذه العربة
والعربة المأجورة التي استقلها ثلاثتهم ليلحقوا بالسابقين ، فلما
وصلوا الى رقم ١١ شارع المادلين رأوا أن الكونت دي ستاكلبرج
قد ودع صاحبتة كما توثقت كليمانس عند باب الدار وانصرف ، فلم
يجدوا حرجا من طرق بابها وابلاغها على لسان خادمها انهم جاءوا
لزيارتها من أجل أن تأذن لهم بالدخول . ووجد الكسندر نفسه -
وكأنه في حلم - في بيت هذه الفتاة التي لا تدانيها فتاة أخرى
في تلهف أهل باريس على لقائها .

اجتاز ثلاثتهم حجرة أمامية فسيحة ، ولحظ الكسندر وهو
مسحور أن جدرانها مزينة بشبك من الاسلاك المذهبة تتسلق
عليها نباتات نادرة مزروعة في صناديق مطلية باللاكية ، ثم نفذوا
الى حجرة الجلوس الخاصة بصاحبة الدار ، بها أثاث فخم مصنوع
من خشب الورد المخروط وفقا لذوق الشعوب النائية ، وجدرانها
مكسوة بالحرير الثقيل . وكانت ماري جالسة الى بيانو من صنع
بلييل يوافق طرازها بقية الاثاث ، وكانت تعزف فتخطىء لحنا لاغنية
عاطفية شائعة في ذلك العهد . ووقف شاب بجوار المدفأة يسند
ذراعه الى حافتها وينصت الى العزف وهو مستغرق في التفكير . هذا
الشاب يظهر ايضا في مسرحية غادة الكاميليا حاملا اسم مسيو
دي فارفيل

وتولت كليمانس تقديم الكسندر الى المحظية فمدت له يدها وهي
تبسم برقة فقبلها بخشوع ثم نادى خادمتها وأنبأها أن ساعة عشائها
قد حانت ، ثم عدلت لهجتها وقالت لمسيو دي فارفيل في عبارة
مقتضبة أن وجوده أصبح غير مرغوب فيه . اننا نشهده في المسرحية
يتقبل صدها بمنتهى الظرف والسماحة ولكن دوماس علل لهجتها
في اقضاء هذا الشاب الواسع الثراء لا بأنها قليلة الادب بل بأنها
قليلة المبالاة بالمال ، ودهش لسلوكها هذا .

وكانت قد بدلت ملابسها حين عادت من المسرح وارتدت ثوبا منزليا
فضفاضا مصنوعا من البروكار على طراز عصر الملك لويس الخامس
عشر ، ومما زاد في جمال وجهها أن انعكست عليه أضواء رحيمة
من شمعدانات عديدة . ثم قادت ضيوفها الثلاثة الى غرفة الطعام
فجلسوا معا الى مائدة غنية أنيقة ، وبالحجرة اثاث فخم من طراز

عهد الملك هنرى الثانى ، الجدران مكسوة بنسيج موشى بالصور ،
وفى الحجرة أيضا تحف خزفية عديدة مستوردة من مصنع
سيفر أو من مدينة درسدن ومرايا كثيرة من صنع مدينة البندقية
تعكس أضواء الشمعدانات ، الاطباق والصحون من الفضة الخالصة
والطعام مجلوب من مطعم شهير اسمه « البيت الذهبى » وجلس
الكسندر مسحورا بفتنة ماري مطيلا تحديقته اليها وهو صامت
عزوف عن كأسه . أما بقية الحاضرين فقد شربوا كثيرا من الشمبانيا
وأخذت كليمانس التى اشتط ذوقها الفاسد فى زخرفة ثيابها تحكى
نكتا بذيئة فتنصت لها ماري دوبليسييس وايوجين ديجازيه بسرور
ظاهر . وكلما امتد الوقت زاد ميل ماري للنزول الى مضمار البذاءة .
كانت أفرطت فى احتساء الخمر وأصبحت تبالغ فى الضحك والكركرة
لكل كلمة تقال . ولكن هذا كله لم يمنع الكسندر من الشهور
كلما طالت الجلسة بأن حبه لها قد زاد اشتعالا وأن لهفته على
نوالها قد زادت استبدادا بقلبه . لو فعلت امرأة أخرى ما تفعله
لمحبها ذوقه ، فلتفعل ماري ما تشاء فانها باقية فى نظره ربة الكمال
ومثله الأعلى والمخلوق الوحيد فى هذه الدنيا الجدير باعزازه وتلففه ،
ولا اثر لعيوبها الا زيادة تأجج عاطفته وأمله أن تحبه وأن تعدل عن
مسلكها المستهجن فتلزم الصمت وتستردل نكات كليمانس برات
البذيئة . ولكن كل ما تفعله ماري كان ينفخ فى نار قلبه . هيهات لها
مهما اذنبت تلك الليلة أن تقضى على حبه لها

وبلغ من شدة اندفاع ماري فى الضحك والقهقهة ان أصابتها نوبة
من السعال ، وجاهدت طويلا لاستعادة سلطانها على نفسها ، ولكنها
عجزت فقفزت عن المائدة وجرت الى حجرة ثيابها وبقي أيوجين
ديجازيه وكليمانس برات سادرين فى الحديث والضحك كأن شيئا
لم يحدث ، فماري فى نظرها انما هى فتاة نزقة طائشة جلبت على
نفسها المرض من فرط امهاتها فى الجرى وراء المتع ، ولكن قلب
الكسندر خفق بالوجل والرثاء ، فقام يتبعها ونقر على باب حجرتها .
وجدته غلير مغلوق فدخل فالفها مستندة فى اعياء الى حافة المدفأة .
ان الفصل الاول من مسرحية « غادة الكاميليا » مطابق أصدق
المطابقة لما حدث لها فعلا هذا هو ما يؤكد الكسندر دوماس
الابن نفسه ، وان اعترف انه زاد فى المسرحية من عدد الضيوف
المجتمعين على مائدتها فجعلهم خمسة ، والاثنان الزائدان هما
شخصيتان ثانويتان لا قيمة لهما فى المسرحية . فلذلك نعرف الان

أن ما حدث لهما هو أنه حين اختلى بها أخذ يبيثها لواعج حبه انه في تلك اللحظة حبه مثالي رومانسي ، كل مطلبه ان يرعاها باعزاز وتوقير ، كل مطمح ان يراها سعيدة هائلة ، وناشدها بالحاح - كما تروى المسرحية وهي صادقة - أن تعني بصحتها وأن تعتمد على مساعدته لها . وتروى المسرحية هذا المشهد على النحو الاتي :

أرمان - لاقيمة لي في نظرك ، هذا حق ، ولكن ان اذنت لي يا مرجريت فسأعني بك عناية الاخ بأخته لن افترق عنك ، وانا واثق أن براءك سيتحقق على يدي . فاذا تم لك الشفاء فأنت حرة في استئناف حياتك التي تألفين ان كان هذا يروقك ، وان كنت أومن أنك ستكونين أسعد حالا اذا رضيت بحياة هادئة .

مرجريت - كأني بك رسول النكد والقم ، أهذا شأنك ؟

أرمان - أفليس لك قلب اذن يا مرجريت ؟

مرجريت - قلب ! .. هذا هو الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نستغنى عنه في مهنتنا « بعد فترة قصيرة من التريث » اذن انت جاد في قولك !

أرمان - كل الجد

مرجريت - لقد صدقت برودانس « هذا هو اسم كليمانس برات في المسرحية » حين وصفتك لي بأنك رجل سهل الانقياد لعاطفته . احقا اذن انك ستعني بي ؟

أرمان - نعم

مرجريت - وتكرس لي كل وقتك ؟

أرمان - طالما بقيت غير متهم باملاك

مرجريت - وبماذا تسمى دافعك ؟

أرمان - الاخلاص

مرجريت - وما مبعث هذا الاخلاص ؟

أرمان - فرط انجذابي الى سحرك .

مرجريت - منذ متى ؟

أرمان - منذ سنتين حين رأيتك ذات يوم تمرين أمامي وانت ناطقة بالجمال والكبرياء والمرح ، لم انقطع منذ تلك الساعة عن متابعة حياتك عن بعد وفي صمت .

دهشت ماري دوبليسييس لهذا الكلام المعبر عن حب متقد صادق لقد قدمته اليها كليمانس قائلة بلهجة مازحة انه شاب متيم بهواها ومع ذلك فلم تحفل به أثناء تناول العشاء وظنت ان سبب صمته

هو الملل . كلمة الحب ليست بجديدة أو طريفة على سماعها ، فاستمعت اليه في أول الامر في ضيق ونفاد صبر ، ثم تأثرت بنغمة الصديق البادية في كلامه ، فأحست نحوه بالود وابتسمت له وتنهدت وناشدته أن يتركها وينساها ، انها تعاني المرض والملل من الحب فلن يكون في صحبته لها الا شقاؤه . ومع ذلك فان ماريّ دوبليسيّس كانت قد أصابتها أيضا عدوى الرومانسية السائدة بين الجيل الذي تنتمي اليه . وأقسم لها ألكسندر بأنه سيضع حدا لحياته اذا لم يصبح وقفا على خدمتها ، وعاهدها أن يحبها حبا عميقا أزليا . أنصتت اليه وبدأت أحلام السعادة تداعب خيالها ، لعلها وهي مغمورة في ضباب حياة الحب المزيف بما فيها من خداع قد أشرقت عليها آخر الامر شمس الحقيقة وجاءها انسان يصدق في قوله أنه سيعنى بها . ناولته من باقة زهرة كاميليا وقالت له « بشهادة المسرحية »

— خذ هذه الزهرة و ...

أرمان — ماذا أفعل بها ؟

مرجريت — أبقها معك حتى تعيدها الى

أرمان — متى ؟

مرجريت — حين تذبل

أرمان — وبعد كم يوم تذبل ؟

مرجريت — لها عمر بقية الزهور . انها قد تذبل بعد انقضاء

مساء أو طلوع صباح

أرمان — آه يا مرجريت ما أعظم سعادتي !

مرجريت — أذن قل لي مرة أخرى أنك تحبني

أرمان — احبك

مرجريت — أذن انصرف الآن

أرمان « وهو يتراجع الى الورا ، الى اللقاء

» يقبل عليها ويلثم يدها مرة أخرى ثم ينصرف »

هكذا ينتهى المشهد ، هذا المشهد الذى يؤكد ألكسندر دوماس

الأبن أنه حدث فعلا ذات ليلة في خريف سنة ١٨٤٤

مشاحنات أدبية

غادر الكسندر دار مارى دويليسيس بعد أن ارتضت أن يكون عشيقها . ذهنه مشغول بخيالات تحلق فى سماء عالية تبتسم له فى أحلى الامانى . كل ماحواه الكون - ماعداهما هو ومارى - أصبح فى نظره وهما باطلا . وكذلك مارى لم يمنعها شبعها من متع البهجة والزلفى والفرام من أن ينشغل بالها به وأن يداخلها السرور حين رآته يعود اليها فقد وجدت فى عشقه لها اتقادا استمال اليه حنان قلبها .

ان حياتها مليئة بالبذخ الى حد انه لم يبق لها شيء تتحرق على نواله . ماتكاد تنطق بكلمة « أريد » حتى يتنافس عشاقها فى تحقيق رغبتها . وفى يدها كل ماتمنى من الحب والاعجاب مبذولا لها ، ولكن الملل يضنى روحها ، أنها تضيق ذرعا بالكونت دى ستاكلبرج ولولا ثروته لما فتحت له بابها أبدا ، بل انها أيضا أصبحت تمل صحبة الكونت ادوارد بيريجو رغم شبابه وظرفه واخلاصه لها ورغم أنها أحبته منذ سنة حبا عنيفا . اذا سألت قلبها عن سبب ملله لم يسعفها بجواب ، ولكن الملل يفترسها ولا حيلة لها فيه ، هكذا حياتها . من أجل هذا كله رحبت أصدق ترحيب بالكسندر دوماس الشاب وارتضت أن يعد بالنسبة لها « حبيب القلب » . وجدته يخصها بأقصى مايقدر عليه من عناية وكرم ، يبذل غاية جهده لادخال البهجة والسرور على قلبها . أصبحت اذا قالت « أنا حية » وجدت فى قولها غبطة ولذة تثير انتباهها . كانت تستدعيه اليها كلما قدرت ، كان يسره أن يصبر حتى تأتية دعوتها . لايشغل باله بالسؤال كيف تقضى أوقاتها حين لا يكون هو معها . انها تجعله أحيانا يقضى الليلة عندها وتطلب اليه أحيانا اذا انفردت به أن يخرج بها ، هو نعم الرفيق لها ، يمتعها بحديثه اذا اختلت به ، وبصحبه اذا ذهبت معه الى إحدى الحفلات الصاخبة لانها تجده فى المجتمعات سهيل المخالطة للناس ، يجذبهم بتوقد ذهنه وخفة دمه وبراعة نكته ، اذا بقيا وحدهما كرس لها فكره وأهتمامه وعطفه ووده . ألفت أن تفضى اليه بكل همومها أو بالهموم التى لاتمنعها دمايتها من البوح

بها فارق لها قلبه لانه لم ينس بعد ما عاناه فى مطلع عمره من بؤس وشقاء . كلاهما كان فى طفولته ضحية للاهمال وفريسة للتعاسة . لم يعرف أحد منهما بيت أسرة متألقة مجتمعة ينعم بدفئه . فكان حديثهما يحوم مرارا عن بيت عساه ان يكون لهما فى يوم فيذوقا فى أحضانه طعم الهدوء والطمأنينة . ولكن معيشتهم الراهنة هى أشد مما يظنون للاسر فى قبضة حياة يشوبها الزيف والتمويه ، فاذا داعبتهم أحلام السعادة فانما هى أحلام كل العشاق الرومانسيين فى ذلك العهد ، يتعدون عن الواقع للتخليق فى عالم خيالى يصور لهم قصورا مسحورة . كل رغباتهم فيها مستجابة ومعيشتهم صفاء دائم ولكن ماري كانت صاحبة مزاج قلق سريع التقلب . انها تذرف الدمع وهى تذكر أحزان طفولتها ، وهى تتنهد تلهفا على حب مثالى يرعاه الهدوء فى أحضان الريف ، ثم اذا بها تقوم وتقود الكسندر الى موائد القمار لانها كانت فى ذلك العهد تهواها بشغف شديد ، فاذا أقبلت عليها تغير طبعها من النقيض الى النقيض فبعد أن تكون هادئة كأنما هى مستغرقة فى الأحلام اذا بها تصبح لا تكف عن الحركة والضجيج بسبب افراطها فى احتساء الشمبانيا ، فيدهش الكسندر لهياجها وأقبالها بنهم سافر على المتع التى كانت تزدرىها وهى هادئة النفس منذ هنية ، ولكنه هو أيضا كان يسارع بشغف شديد الى لقاء دلوه بين الدلاء ويشارك أبناء الليالى الصاخبة اسرافهم ومجونهم . مادامت ماري تحبه فالحياة زاخرة بالبهجة ومن المستحيل عليه الا ينعم بكل لحظة فيها ، ثم انه واثق ان ماري التى خلقها الله سبحانه ليست هى هذه المخمورة الصاخبة ، بل هى هذه الفتاة الوديدة التى تحلم ببيت تنعم فيه بالامن والطمأنينة ، هى مثله لا تجهل أن حياتها فارغة . كل منهما لا ينتمى الى مجتمع تسوده الرذيلة ، ماساقتها اليه الا عشرة قدم قضاء وقدر ، وكلاهما اليوم قادر على أن يتركه .

يخلق الكسندر فى سماوات الحب دون أن يلقي باله الى الارض ، تحف بجنته أستار من ذهب مستمد من رواية « مونت كريستو » تنعكس عليها صورة كل شئ فى الحياة

أما أبوه فقد توالى نجاحه بعد رواية « الفرسان الثلاثة » بنشر روايته الجديدة « الكونت دى مونت كريستو » فى صحيفة « جورنال دى ديبا » . انها قمة مجده لابدانيها كتاب فى قدرته على خلب الباب الناس بتعدد الالوان وتنوع المغامرات المذهلة ، تختلط فيه أحلام

اليقظة اختلاط الناس والاقنعة في كرنفال صاحب في يوم عيد ، فاذا بهذه الاحلام تبدو كأنها حقيقة واقعة ، أحلام بالثراء والسلطان والثأر المرطب للقلب . الرواية هراء في هراء وتخريف في تخريف ولكنها مع ذلك تشفى للناس غليلا متأصلا في طبيعهم ، ففاق نجاحها كل حد لا في فرنسا وحدها بل في العالم طرا وكانت رواية « الفرسان الثلاثة » قد أضفت على مؤلفها شهرة عالمية . قرأها ثاكري - الاديب الانجليزى - بمتعة ولذة ، بل ان بلزاك نفسه أثنى عليها ، ولكن رواية « الكونت دى مونت كريستو » رفعتة الى قمة المجد والشهرة، وكان مؤلفها يستأثر لنفسه وحده بحديث الناس عن الناس في باريس في ذلك العهد .

لا عجب أن طغى عليه - وهو المعروف بفرط الفرور - اعجابه بل افتتانه بنفسه . أخذ يمشى بين الناس مشية الخيلاء كأنه ممثل يقوم بدور مرسوم له عن عمد على خشبة المسرح ، وأراد بمسلكه هذا أن يدخل السرور على قلوب مواطنيه ، فوجد الجمهور في تمثيله المتقن لدوره متعة لا تقل عن متعته بتتبع مفاخرات آدمون دانتيس بطل الرواية . ولكن ظل دوماس لم يكن دائما خفيفا على زملائه الكتاب لانه احتكر لنفسه دونهم اهتمام الجمهور ، وكان الناس اذا فرغوا من قراءة حلقة اليوم من رواية الكونت دى مونت كريستو فاثارت اعجابهم ، وجدوا لدوماس روايات أخرى في صحف عديدة . وسرعان ما ازدحمت المكتبات بمؤلفاته ، وأعدت المسارح تمثيل أعماله القديمة من درامية وكوميديية . وظهرت المدموازيل جورج من جديد في مسرحيته المسماة « قلعة نيل » ، ولكنها كانت قد شاخت قليلا عن دورها المعبر عن عواطف حب متقد ، ومع ذلك صفق الجمهور لأدائها البديع لدورها في تلك المسرحية المثيرة الناجحة .

وزاد النجاح من أطماع دوماس الأب . لم يعد يكفيه دله على الناس بأنه مؤلف أعظم كتاب عرفه العالم بل أراد أن يحتل أعلى مكانة في الادب والصحافة وأن يستأثر شخصه بالمزيد ثم المزيد من أضوائها . نشر في سنة ١٨٤٣ سبعة كتب الى جانب مسرحية « آنسات سان سير » وثلاث مسرحيات أخرى أقل منها نجاحا ، ولكن هذا الانتاج الضخم لا يعد شيئا مذكورا اذا قيس الى انتاجه في السنة الراهنة سنة ١٨٤٤ ، فقد تدفقت مؤلفاته فيها الواحد تلو الآخر ، ولم يعد ناشئة الكتاب يجدون لهم متنفسا ، بل انخفضت أمام شمس نجوم بعض الكتاب المشهورين . وبدأت صحيفة « الصحافة » تنشر رواية لبلازاك اسمها « الفلاحون » فكتب اليها القراء يقولون انها رواية

عملة ، فأوقفتها الصحيفة بعد الفصل الاول لتنشر بدلها رواية لدوماس اسمها « ابن مرجو » . بعد غود دوماس الجمهور على قراءة روايات سهلة تطلق من أسر الواقع خيالهم فيهرب بهم الى عالم مسحور تتحقق فيه كل أحلام يقظتهم ، ففسد ذوقهم الى حد أنهم أصرروا على العزوف عن كل أدب رفيع يتطلب منهم بذلا ولو قدرا ضئيلا من الانتباه وامعان الفكر . ان دوماس قد ابتكر صنعة بارعة تتمثل في تقديم سلاسل يومية لحكاية خفيفة مسلية متدفقة لاتنقطع ، كل سلسلة جرعة يسقيها للناس فتخدر أعصابهم بسهولة وتجعلهم يغيبون في أحلام اليقظة .

وأصبح دوماس فيما يبدو لا يقتنع بشيء . لقد سلط اضطواء الشهرة على اسمه فلم يبق عليه الا أن يعمل على رفعه في كل مكان . لم يكن الباعث له على مزاحمة بقية الكتاب وتركه لهم وراءه وليد ازدرائه بأعمالهم أو نزعة خبيثة للتشفي وحب الاذى ، فلا أحد يسارع مثله الى مدح زملائه ، انما الذي تغلب عليه في ذلك العهد هو حب العظمة ، ولكن مبالغته في الخيلاء لم تلبث طويلا حتى ترتب عليها رد فعل لا مفر منه . وظهر في اواخر السنة اول بوادر المازق الذي ينتظره .

ذلك أن أناسا بقيت عيونهم مفتحة راقبوا بعجب ودهشة هذا الانتاج الضخم الذي لا ينقطع سيله ، حقا لقد كان للكتاب في القرن الماضي نشاطا فائقا . اذا عكف بلزاك أو فيكتور هوجو على العمل بجهد تدفقت كتاباته دون أن يهمل تجويد أسلوبه ومراجعته . ولكن حتى على الاعتراف بأن قلم دوماس سهل الجريان فانه من المستحيل الاقتناع بأنه كتب بنفسه كل ما هو مهور بأمضائه . عد هؤلاء الفاحصون أعماله المؤلفة سنة ١٨٤٤ فراوا أنه كتب خلالها رواية الفرسان الثلاثة ورواية الكونت دي مونت كريستو التي لقيت نجاحا منقطع النظير ، بالاضافة الى أربعين عملا نشرت على هيئة كراريس ، وكل عمل منها يحتاج اعداده الى دراسة المراجع التاريخية ، فأخذ الناس يتهامسون باشاعات عديدة عن سر هذا الانتاج المتدفق ، واتهموه بأنه لجأ الى وسائل غير شريفة ، وقيل أنه أصبح بمثابة مدير لمصنع انتاج أدبي يستخدم فيه عددا من الشبان النابهين يعملون من أجله ويستغلهم هو أشنع استغلال . حقا ان هذه الاتهامات لها نصيب كبير من الصحة ولو أن العمل في المصنع المزعوم لايجرى طبقا لنظام دقيق وخطة مدبرة محكمة ، فدوماس رجل لايعرف دقة النظام

ولا الخطط المدبرة باحكام ، وانما هو ينتفع بشيء يتاح له عفوا ،
يدون سعى منه . قد يصدق اتهامه بأنه يستغل عددا من الشبان ،
ولكن الحقيقة هي أن هؤلاء الشبان انما يعملون له طواعية وبدافع من
اخلاصهم ومحبتهم له ، انهم له بمثابة المساعدين أو السكرتاريين
الذين يجنبونه اضرار نفسه بدراسة المراجع التاريخية واستخلاص
مايريده منها ، فهم الذين يتولون هذا العمل بالنيابة عنه وتحت
اشرافه ويرتبون المادة المستخلصة على هيئة فصول متتابعة هي نواة
الكتاب الجديد المعد للنشر ، فيتناول هو منهم أعمالهم وينقحها وينفخ
فيها من روحه قبل ارسالها للمطبعة . على هذا النسق كان يعمل
كبار الرسامين في عصور النهضة ، فلوحاتهم هي من عملهم وعمل
تلاميذهم . وكان هذا النسق في التأليف بين اثنين أو أكثر في تأليف
كتاب واحد مباحا وأمرأ مألوقا .

ولكن مما يؤسف له أن دوماس أتت عليه أوقات سمح لنفسه فيها
أن يجاوز المباح إلى غير المباح وذلك بسبب فرط لهفته على استغلال
اسمه وثقة الناشرين به . انهم لا يحبون تعب الدماغ من جراء معاملاتهم
مع صفار الكتاب طالما أن روايات دوماس متلاحقة جاهزة مضمونة ،
فأي شيء أسهل عليه اذن من أن يشتري من شبان نابيين أعمالهم
التي رفضها الناشر فيضع اسمه اللامع على غلافها ويبيعها
لأصحاب الصحف المتلهفين على نشر رواياته ، يبيعها لهم بسعر ثلاث
فرنكات للسطر الواحد . لماذا يرفض عرضا سخيا من ناشر وهو
قادر على أن يقدم له كتابا كل عمله فيه أنه قراء ؟ وهكذا أغرقت
الأسواق روايات منسوبة إلى دوماس ولم يعد في الصحف متسع
لنشر عمل لكاتب غير مشهور . فهذا الوضع الذي وجد الكتاب
أنفسهم فيه وما يستتبعه من حرمانهم من تكافؤ الفرص هو الذي
دفع بكاتب ناشئ اسمه أيوجين دي ميركور على أن يرفع في أواخر
شهر ديسمبر إلى جمعية الأدباء مشروع قرار طالبا منها إصداره .
وفيما يلي مقدمة هذا القرار المقترح المعبر عن الحق :

« تواترت الأنباء بأن كاتباً غزير الإنتاج يعتمد بوسائل فعالة مردولة
إلى مضاعفة ربحه ثلاث مرات باستخدام مساعدين مغمورين يشتري
منهم أعمالهم بثمن بخس ، وأصبحنا نشهد هذا العبقرى ينزل عن
عرشه ليخوض في أحوال سوق تجاري ويفتح له دكانا لشراء
الأفكار وبيعها »

وطالب مشروع القرار جمعية الأدباء أن تعيب هذا المسلك وتنحى

عليه باللائمة .

ولما اطلع دumas على مشروع القرار تملكه الفضب واسقط في يده وسارع الى نفي التهمة عن نفسه ثم عاد واعترف باشتراك مائيه في تأليف رواياته . ثم تعرض بعد ذلك بوقت قليل لهجوم آخر عليه ادهى وامر ، ذلك ان ايوجين دى ميركور اقترض عشرين جنيهها انفقها في مطلع سنة ١٨٤٥ على طبع رسالة الفها وجعل عنوانها « مصنع الكتب . مؤسسة الكسندر دumas وشركاه » فرنت بنشر هذه الرسالة فضيحة كبرى وبيعت جميع نسخ الرسالة في ظرف يومين . لا جرم ان ايوجين دى ميركور كان على اتصال بشخص عليم بأسرار دumas المنزلية فان الرسالة ذكرت عن دumas تفاصيل كثيرة لحياته الخاصة ، هي خليط من الصدق والكذب الملقق ، وكشفت الرسالة الوسائل التي يلجأ اليها دumas بغير حياء منه ، وتناولت كل قصة بالتشريح مع تقديم البرهان على انها مقتبسة من مؤلف آخر او مستمدة من عمل كتاب مغمورين لا حول لهم ولا قوة هم ضحايا اشنع انواع العسف والاستغلال ، وامتلات الرسالة باهانات مقذعة فاحشة في حق دumas ووصفته بأنه لايفضل الا قليلا أخس النصابين والمحتالين .

وفتحت هذه الرسالة الباب في بعض الصحف لحملات التشهير والتجريح ، وتزعزعت مكانة دumas العظيم بعض الوقت . انه حريص أشد الحرص على سمعته ويطمح ان يحتل مقعده في الاكاديمية الفرنسية ، وأدرك وهو حزين أن أمله أصبح ضئيلا ، وتقدم واحد من معاونيه المخلصين اسمه مالفى وطلب مبارزة كاتب الرسالة ، ولكن دumas فضل الالتجاء الى المحاكم ، وثبتت تهمة السب على ميركور وصدر عليه حكم الحبس لمدة خمسة عشر يوما .

وكان الكسندر الابن قد بدأ في الشهور القليلة الاخيرة يهبط يهبط من التحليق في السماء بخياله ويستقر على الارض . ان حبه لمارى دوليسيس لم يخمد بعد ، بل اشتد اشتعالا ، ولكن الجنة التي آمن انها حقيقة واقعة قد برهنت على انها باطل من الابطال ، فمارى هي لم تتغير ، وأصابته رسالة ميركور بصدمة أفاقته من سباته، وكشفت له الحقائق عن وجهها . لعله أشد من ابيه انزعاجا لهذا الهجوم ، فقد بلغ حبه واخلاصه لايه حدا جعله يسقط في وهدة البؤس والشقاء حين رأى اسم ابيه قد أصبح ملوثا . انه لم ينفك ينظر الى ابيه نظره الى رجل عبقرى وانسان نبيل . ان اياه ولا ريب

صاحب موهبة أدبية خارقة ، لا حد لخصوبة ذهنه وبراعته في قص الاقاصيص ، وفي حياته الخاصة لا حد أيضا لودّه للناس ولكرمه الذي ينبغي أن يفخر كل مايقترفه من حماقات . حقا انه يبذل تقوده في الانفاق على نساء مغامرات ولكن من الحق أيضا ان نقول انه لم يقصده فقير محتاج فارتد خائبا ، يكفيه التقاء نظراته بنظرة الفقير حتى يسارع من فوره الى اغائته . ان بذخه هذا هو الذي دفعه الى الجرى وراء الكسب بفضل عمله المتواصل فلا بد من أجل تسديد نفقاته الضخمة ان يخرج من يده انتاج لا يقل عنها ضخامة .

ولما انقضت لايوجين دي ميركور اقامته القصيرة في السجن لم يتب وعاد الهجوم على دوماس في صحيفة اسمها « لاسلويت » . وذات يوم اندفع كالأعصار الى ادارة هذه الصحيفة شاب في ثورة من غضب مستعر واخذ يحطم الاثاث ويتناول كل مايقع عليه نظره من الاوراق ويمزقها ويبعثرها بعد ان أشفى غليله ، خرج كما دخل مندفعاً من قبل ان يفيق المحررون من شدة دهشتهم لما يرون . انه الكسندر دوماس الابن . وفي اليوم التالي ارسل شاهدين الى ايوجين دي ميركور ليتحداه ان يبارزه . انه بارع في المبارزة بالسيف والمسدس وأنه لمتحرق الى منازلة عدو أبيه . وخشى ايوجين دي ميركور مواجهة مثل هذا الخصم البارع في المبارزة والهائج من شدة الغضب ففعل كل ما في وسعه لمفاداة المبارزة . ابتسم للشاهدين وقال لهما : « اليس من الانصاف ان تكون المبارزة بين ابن دوماس وبين ابني ؟ » ثم فتح بابا ونادى : « يا ادجار » . فخرج صبي في سن السابعة . قال له أبوه بلهجة جادة : « يا ادجار هذان الرجلان هما شاهدا ابن دوماس يطلبان اليك ان تدافع بالمبارزة عن شرف أبيك » . وجه الرجلان الى الصبي نظرة شاخصة ثم انصرفا دون ان يظفرا بجواب ، ذلك لان المبارزة هي في الواقع من حق دوماس الاب لا الابن .

اما الاب فغير غافل عن أن أيام الشبيب والمبارزة قد ولت ، فأوقف طلب المبارزة عند الحد الذي بلغه دون أن يخطو بعد خطوة اخرى . لقد نجح في السيطرة على أعصابه وعد حكاية المبارزة مزاحا فكها يثير الابتسام . ولم يكن لهذه الثارات الادبية اثر كبير على جمهور قرائه ، فلم تنقص نجاح الحلقات التالية لرواية الكونت دي مونت كريستو ولم تنقص أيضا مقدرتها على اثارة اعجاب الجمهور بها الى حد الهوس ، فماذا يهمه من اتهامه بأنه كاتب تاجر مادام قد واثته الشهرة والثروة ؟ أما ابنه فقد أخذ يتسلى عن أسفه على

فوات المبارزة بنظم قصيدة يوجهها الى ابيه هذا ختامها :

« انصرف الى عملك فاني بياك ساهر

لاتهمنى آقاويل الناس عنى

فانى بالغ بغير حاجة الى عونهم كل ما اصبو اليه من صيت ذائع
والى ان يطلع ذلك اليوم ساظلا واقفا على يابك وقفة الديدبان الخاشع

ستجدنى نعم الابن البار والحارس الامين

ادافع عن مجد أبى دفاعى عن حرم مقدس »

ولم تكن المشاحنات الادبية امرا غير مألوف فى فرنسا فى ذلك

العهد ، فلم تكد تنتهى المشاحنة بين دوماس وايجين دى ميركود

حتى شبت مشاحنة جديدة ، فقد حدث فى مطلع شهر مارس لمسيو

دوجاريه احد اصحاب صحيفة « الصحافة » ان وجد نفسه واقفا فى

ورطة خلقها له بوقايون صاحب صحيفة « لاجلوب » وكان دوجاريه

صديقا لدوماس وابنه ، ففهمما اشد الفهم سماعهما انه سيبارز

بوقايون اذ كان غريمه هذا رجلا فظا شرسا بارعا فى الرماية بالمسدس

على حين كان منازل انسانا وديعا مسالما لايعرف شيئا عن اصول

المبارزة او استعمال السلاح ، وكان فى التاسعة والعشرين من عمره

معروفا بالذكاء والتزام الجد فى حياته ، لا عيب له الا انه زير نساء ،

وقع فى حب لولا مونتييز فقادته الى اماكن اللهو الصاخبة . وكان

الكسندر دوماس الابن يراه ليالى كثيرة فى اماكن القمار التى يفشاها

فى صحبة ماري دوبليسييس حيث الرعوس دائرة من فرط احتساء

الخمير والاعصاب هائجة من شدة التوتر فى لعب القمار ، فلا عجب

ان جلل هذه الاندية التى تزدهم بالبغايا جو يسهل فيه الاستفزاز

من الباب للطاق ، والثورة تبرز للكرامة المهذرة والتصميم فى عناد

على رفض الصلح الا بالمبارزة .

وكان دوجاريه يشعر ان اجله قد دنا فكتب وصيته وخص فيها

لولا مونتييز بمبلغ طائل من المال . ان فكره كله وقف عليها ، وخيل

اليه وهو غارق فى لجة الحزن ان الموت سينتزع من حياة كان يستمد

منها اتم سعادة فى رفقة لولا مونتييز .

وامضى الكسندر دوماس الابن الفترة الفاصلة بين التحدى والمبارزة

فى صحبة صديقه ، يحاول يائسا ان يمنع وقوع الفاجعة ، واضطرب

قلبه وتوجس شرا لانه احس هو ايضا ان شبح الموت يترصد

صديقه ، فلامح هذا الصديق هى ملامح رجل تلقى حكما صادرا

باعدامه ، هو باعترافه لم يتناول فى يده مسدسا طول عمره . واخذ

الكسندر ينتقل كالمجنون بين أصدقائه يحثهم على التوسط لدى دوجاريه ليقبل اقتراحهم استبدال السيف بالمسدس في المباراة ، فان خطر الموت في مباراة بالسيف أقل توقعا مما لو كانت المباراة بالمسدس ، ولكن دوجاريه خشي اتهامه بالجبن ورفض ان يسأل غريمة بنفسه قبول الاقتراح ، وتوالت الايام حتى لم يبق في عمره حسب ايمانه سوى ليلة واحدة ، حينئذ هرع الكسندر الى ابيه وتوسل اليه ان يتوسط بين الخصمين ، فأجابه دوماس انه لا يستطيع ان يفعل شيئا لان دوجاريه لن يرضى بالنجاة الا اذا نجا شرفه أولا من العار ، ولا وسيلة لاتقاذ شرفه الا بالمبارزة . انه وقع في ورطة لا مخرج منها ، فلا يسع أى رجل نبيل في ذلك العهد ان يهرب من خصم يتحداه للمبارزة أو ان يحجم هو عن تحدى خصم أهانه ، فلو حدث هذا أو ذاك لدمفته وصمة من العار لاتفارقه طول حياته ، ستفلق في وجهه الابواب وسيحكم عليه المجتمع بالموت الادبي . حقا ان اميل دى جيراردان كان يرفض المباراة اذا تحداه خصم ، وانما لم يفز له الناس مسلكه هذا الا لانه كان قبل بضع سنين قد قتل غريما له فى مباراة بينهما ، فاذا اشتهر انسان بشجاعته فى مواجهة الموت على هذا النحو حق له من بعد ان يتجاهل كل خصم جديد يتحداه وأن يدير له ظهره ، ولكن لا أحد يرضى لنفسه أن يهرب من أول مباراة .

وكان سبب وقوع دوجاريه فى ورطته هو عزوف جيراردان عن المباراة . ان جيراردان هو صاحب صحيفة « الصحافة » ومديرها ، ومنصب نائب المدير فيها يشغله دوجاريه . اما بوفايون فهو مدير صحيفة « لاجلوب » . وبين الصحيفتين عداوة شديدة كما كان العهد حينئذ بالصحف السياسية فى فرنسا . ولما شق على بوفايون ان يبارز صاحب الصحيفة الغريمة ومديرها لم يتوان عن التربص لتاليه واستفرازه فى أول فرصة تتاح له لطلب المباراة .

ووقع الصدام بينهما فى حفلة أقامتها ممثلة بمسرح الفودفيل فى مطعم شهير بحى الباليه رويال اسمه « الاخوة بروفينانس » . وذكر دوجاريه فيما بعد لصديقه الكسندر دوماس الابن انه ذهب الى الحفلة وهو يتوجس شرا مستظيرا . لقد حاول جاهدا ان يتخلص من حضور الحفلة ولكن القدر شاء له مع ذلك ان يسوق قدمه اليها . وشاء كذلك ان تسوء الامور فوق ما كان يخشاه . ظل فى الحفلة عزوفا عن المشاركة فى اللهو ، وبقي وهو مساهم

النظرة منقبض القلب . صد عن الطعام والشراب والكلام ، وأدارت
الحمر الرعوس الا رأسه ، وأقبل الحاضرون على موائد القمار يلعبون
البكرات ويراهنون بمبالغ كبيرة ، وقد أهاج الخمر والصخب والتوتر
اعصابهم ، ثم احتدم فجأة نقاش تعالت حدته فاذا ببوقايون يقذف
دوجاريه بنعات مهينة جارحة وأجبره بذلك على الدفاع عن شرفه
بالمبارزة .

ووقعت المبارزة وقت الفجر في غابة بولونيا . وامتنع على دوجاريه
كل عون وسار مستسلما للقاء حتفه . وسلم الشهود المسدسات
الى الخصمين ، فاحتل كل منهما مكانه بعيدا عن الآخر بمسافة
مصطلح عليها ، وقبض دوجاريه على سلاحه بيد عاجزة لا تألفه ولا
تحسن استخدامه ، فلم يبق له الا أن يجاهد للاحتفاظ برباطة
جاشه ، ولعلت نظرة خصمه بعداء بالغ حد الهوس ، انه العداء ذاته
الذي تكنه كل من الصحيفتين الأخرى ، ثم رفع مسدسه في عزم
واصرار وبلا تهيب أو اضطراب وصوبه بأحكام وتسديد الى رأس
غريمه وأطلق عليه الرصاص فقتله . انها كانت مبارزة شهقت لهولها
قلوب أهل فرنسا جميعا .

وصلت جثة دوجاريه الى منزله في شارع لافيت حيث كانت عشيقته
تنتظر عودته اليها سالما . لعلها كانت تحبه لانها ارتمت على الجثة
بهلع ينطق بأنها منيت بأفدح فجيلة ، وأشهرت حزنها وحدادها
فرقت لها قلوب الناس عامة ، ولكن نفرا قليلا ممن يعرفونها حق
المعرفة شكوا في صدقها اذ راوها تستخدم هذا الحزن من أجل أن
يذيع صيتها ويجري اسمها على كل لسان ، بل ألقى عليها بعض
الناس مسئولية هذه النكبة ، ووصفتها الاميرة اديليد أخت الملك
التي يجلبها الناس بأنها امرأة لثيمة خطيرة ، فعدت هي هذا القول
بمثابة مديح لها وسرت به ، فسواء ركبته أم لم تركبها الاحزان فقد
تأتى أخيرا ماتصبو اليه لولامونتييز من بلوغ قمة الشهرة .

ديون ومتاعب

وبدا الكسندر دumas الصغير يلعن نفسه لانه لا يملك من الثروة
أضعاف ما عنده حتى يعين ماري على التزام الاستقامة التي تصبو
اليها . انها على غرار بطالة قصة « مانون ليسكو » فتاة ذات دماثة
وحنان ، لا شيء ينقصها الا توفر المال وسعة العيش من أجل أن
تصبح طاهرة القلب وصديقة الولاء . وهي لانها تحب الكسندر لا
تمرضى له أن يفرم من جيبه نفقة معيشتها معا . انها لم ترد لهذا
الحب الذي تكنه له الا أن يكون مبدولا من صميم قلبها هبة خالصة
كريمة بريئة من شبهة الاستغلال ، ولكنها كانت قد ألفت زمنا طويلا
غض البصر عن رؤية الواقع حتى أصبح من الطبيعي في ظنها اذا
رافقها رجل أن تراه ينفق عليها ببذخ واسراف ، فسأقت الكسندر
وهي غير واعية الى انفاق مبالغ طائلة من المال ، ولما لم يكن يدخل الى
جيبه من النقود مقدارا يلاحق مايخرج منه فقد بدأ يفرق في الديون .
ان أباه يحب من صميم قلبه أن يفدق المال على ابنه شأن ادمون
دانتيس المتلاف بطل قصة الكونت دي مونت كريستو ، ولكن البلوى
أنه يجود على أناس كثيرين ، وأنه رجل يخلق ذهنه في السماوات
العلا ولا ينزل الى الارض حتى يلقي باله الى ضرورات الواقع ، فمن
العسير الوثوق به والاعتماد عليه وقت اشتداد الازمات . له موهبة
بارعة في قش المال من جيوب الناس لا تقل عن موهبته في حملهم
بالحاج على قبول عطاياه . كان ابنه في بعض الاحيان من بين ضحايا
هذا الطبع الفريد ، فقد حدث مثلا ذات مرة أن دعا ابنه الكسندر
أحد أصدقائه للخروج معه لتناول العشاء ، فلمح أباه واقفا على باب
مطعم فجرى اليه مؤملا أن يفوز منسه بمبلغ من المال يضيفه الى
ماعنده ، ولكنه عاد الى صديقه وهو يضحك بخجل وقال له « لا مفر
لك من العودة معي لتناول العشاء في البيت فقد قش أبى كل قرش
في جيبى »

وبدا الكسندر يقلق لكثرة ديونه ، وأخذ يلعب القمار مؤملا علاج
أزمته فكان يخسر في كثير من الاحوال - كما اعترف هو فيما بعد -
من النقود في ليلة واحدة مايكفى لاعالة أسرة شريفة لمدة عام كامل .

وبدا أيضا يعاني من لواعج الغيرة . لقد انتهى عهد ركوعه الخاشع تحت أقدام مازى ، انه الآن يريد لها أن تخلص له وحده ولا يطيق أن يرى انسانا غيره له حق عليها ، فان الكونت دى ستاكلبرج الهرم الذى ينيف على الثمانين ، الثرى ثراء فاحشا ، لا يزال يدفع نفقة منزله وخدمها وخبولها المظهمة وسائقها . فاذا اقترح على ماري أن تتخلي عن الكونت ارتمت بين أحضان حبيبها وهى تذرف الدمع مؤكدة له أنها تود أن تجد لنفسها نجاة من قبضة هذا الشيخ الكريه ، ان روحها تكاد تزهق من شدة مللها فى صحبتة . هذا شأنها مع كل رجل آخر الا الكسندر حبيب القلب . ليس لها من أمنية الا أن تخلو له وحده وان تكرر له بقية حياتها ، ولكنها جعلته يفهم بوضوح أن هذا الحلم الجميل لا يتحقق الا اذا تحمل هو وحده بما يتحمله الكونت وبقيّة عشاقها ، فكأنما حسبته الملك أطلس - الذى مسح جبلا - يحمل الكرة الأرضية كلها على كتفيه . واخذ الكسندر يدير بصره فى المسكن المترف بحى المادلين فهبط قلبه الى قدميه

وكان الكونت دى ستاكلبرج يقيم مع زوجته فى دار عنوانها رقم ٧ شارع شوسيه دانتان ، وكان الكسندر يجد من العار لنفسه أن يتحايل على أن يتفادى غريمه وأن يعين ماري على مخادعته . وكان لا يجهل أن ماري تستقبل أيضا ضيوفا آخرين أكثر منه وسامة ، فهل قسم له أن يصبح مثل بطل قصة « ماتون ليسكو » ، فيرضى بطبع عشيقته متأسيا بأن كلا منهما يحب الآخر حبا صادقا من صميم القلب ؟ وهل فرض عليه أن يوالى الاضطلاع بهذا الدور المهن الجالب للسخرية ؟ دفعه ما يحس به من المرارة والقنوط الى تسليّة نفسه بالتأليف ، فكتب فى ساعات فراغه مسرحية شعرية من فصل واحد ، فاستغراقه فى التأليف ينجيه من التفكير فى الديون والهموم . ولما فرغ من مسرحية أعجبته وسماها « حلى الملكة » ، وحملها الى أبيه . ليس كمثله أب فى شدة الإعجاب والفخر بابنه ، فلما قرأها تهلل وجهه وزا ط معبرا عن فرحة كبرى مع أنها كانت مسرحية بسيطة لا تزيد عن حوار بين شخصيتين مفتعلتين ، ولكن قلب الاب وجد فيهما البرهان الصادق على أن ابنه مؤلف موهوب

وكانت ماري قد توقعّت صحتها أياما ، ولما حل الربيع افترسها المرض ، فقد قوض عافيتها ماعاته خلال سنين غير قليلة من البؤس والجوع وقر الشتاء ، ثم التردى فى باكورة الصبا فى وهدة البقاء والانغماس فى الترف المسرف والملاذات المحطمة . وكما اعتل بدنها

اعتلت روحها واضطربت . لقد ابتسم لها الحظ مرة بعد مرة ورفعها من الحضيض حتى أصبحت محظية منعمة . ولكن حياة الرذيلة لا ترافق طبعها فلم ينقطع شعورها بأنها تعيسة مضيعة . انها تهفو الى النجاة ولكنها لاتجد في ضميرها هاديا قويا يرشدها الى طريق الخلاص . ليس في قلبها الا رعب من الماضي وهلع من التردى من جديد في وهدة الفقر والاملاق ورفض للوثوق بالناس هو ثمرة دروس مريرة . ان خداعها وخيانتها وفسادها وتكالبها بشره على المال خصال لا مفر منها ، كأنما فرضتها عليها وصمتها الموروثة أو عبرة تجاربها القاسية في مطلع عمرها ، خصال هي قوام حياتها وزمامها ، من فوقها ستر من الجمال والظرف والقدرة على العطف والحنان ، وبين الباطن والظاهر ، حرب عوان هي التي تجعلها فتاة تزلزل عقول الناس وعقلها هي أيضا . لقد ملت الحياة ولكنها تعشق الكسندر وتتمنى من أجله ان تشفى من مرضها

وكان من الطبيعي وهي على ما هي عليه من النزق والافتتان بالشهرة ومحاكاة الطبقة الراقية الا تلجأ الا الى أشهر الاطباء وان كان من أكبر الافاقين ، فاستدعت اليها الدكتور كوريف صديق مدام داجو صاحبة الملحن ليست ، فلما دخل منزلها وجد فيه الجرح الذي يحتاج له والبحر الذي يعوم فيه ، ولكنه لم يجد مفرًا من العدول عن دور الضيف الموانس الى دور الطبيب الذي لابد له ان يعالج مريضه فقد كانت ماري مصابة بالتهاب رئوي

والدكتور كوريف هو ابن طبيب يهودي من برسلاو . وكان قد زار باريس أيام نابوليون فخلب لب امرأة من الطبقة الراقية اسمها دلفين دي كوستين وأصبح عشيقها ، واشتهر بفضلها بين المجتمعات الراقية التي تخالطها ، وهام أهل باريس يرونه بينهم بعد ثلاثين سنة لقدمه عليهم . فيعجبون كيف أتبع له ان يحافظ على رونق شبابه كأنه قد قهر مر الأيام ، وأخذوا يتهامون ان تجدد شبابه هو من فعل مقدرته على السحر ، وأنه قرين كاليوسترو الساحر القديم الشهير . اننا نجد شخصه يجوس كالشبح خلال مذكرات عديدة خلفها أبناء ذلك العصر مما يدل على انه كان دائم الصيت معدودا بين العظماء . وكان بلزاك يعجب به ثم عدل عن رأيه حين غدر به هذا الطبيب اليهودي وخانه . وكان صديقا لستاندال ولست وجورج ساند أو قل صديقا لكل انسان له حينئذ مكانة مرموقة . واذا أردنا ان نبحث عن سر الخصال التي أهله لهذه الشهرة المستفيضة فلا

مفر لنا من أن نسلم بأنه كان نعم المحدث اللبق ، والطفيلي الذي يجسن تسلق أبراج الطبقة الراقية ، نعم الخبير بطبائع البشر ودخائل النفوس . ونحن نعلم أنه كان أيضا بارعا في التنويم المغناطيسي ، كلفا باستعراض دلائل قدرته على مجتمعات عملائه الاغنياء . ونحن لانجد عنه خبرا يدل على أنه كان يعالج الرجال لانه كرس نفسه لمعالجة النساء المترفات المدلات الشاكيات ابدا من الصداغ وتعكر المزاج ، فكان يثبت على عيونهم نظرتة الساحرة فيشفيهن ويجدد شبابهن . ونظم الشاعر روجيه دي بوفوار انشودة سخر بها منه فقال :

« ورب طبيب لا يداوى سوى التي
يتيه عليها التاج فوق المفسارق
يداوى صداغا قيل في وصف وقعه
على النفس اتكى من وقوع المطارق
وتلك وايم الحق احلى مواهب
تعد من الاعجاب كبرى الخوارق

من دلائل براعته في الطب أنه خير من يتلقف انباء الفضائح واذاعتها اينما ذهب ، فيعرف كيف يصرف عميلاته المترفات على الانشغال بنفوسهن بفضل ترديده على اسماعهن اخبار احدث الفضائح في باريس وهو يضحك لها ويحثهن على تكذيبها ، وبذلك يتاح له الفوز بثقتهم واطمئنانهن اليه فيفضين اليه بأخفى أسرارهن . فكان ينقل كل ماوقف عليه من أسرار الى البوليس الالماني اذ كان يعمل جاسوسا له

وكان مرض ماري خطيرا . ولكن الدكتور كوريف عرف كيف يهزمه فتحقق لها الشفاء على يديه . لاندري هل سبب توفيقه أنه أرغمها على البقاء في الفراش في رعاية خادمتها الوفية ، أم أنه أخضعها لسحر سلطانه الروحي الذي يزعم أن أثره لا يخيب ، أو أنه وهو يسقيها اشكالا والوانا من ادوية لذينة المذاق من قنينات رشيقة كان يسقيها ايضا جرعات متتالية من الايحاء لها بأنها بخير . وتعللت ماري بمرضها واغلقت بابها في وجه الكونت دي ستاكلبرج دون أن تفقد دخلها من عطاياه ، ثم رضيت لالكسندر أن يكون هو حبيب القلب الذي يكرس نفسه لتمريرها والعناية بها في فترة النقاهة ، وتلك مهمة هيات أن يجدها السفير السابق لائحة بمكانته أو بشيئته وأحست ماري بالخوف والارتعاج حين رأت المرض يدهمها

ويفترسها وينذرهما بسوء المصير ، فرضيت صاغرة أن تعدل عن العريضة وتلتزم حياة يسودها الهدوء . ولما حل شهر يونيو هبط عدد زيارات الدكتور كوريف لها الى مرتين في الاسبوع وعرفت حياتها معنى الطمأنينة والسعادة . تستيقظ مع الظهر فتسلم نفسها الى خادمتها ومصففة شعرها ثم ترتدى أحد أثوابها الرقيقة المزركشة المصنوعة من المولسليين الهندي لتروق في عين الكسندر اذ كان يراها في أبهى جمالها حين ترتدى مثل هذا الثوب ، ثم تتم زينتها وترخي شعرها على ظهرها وقد التفت خصلاته وفقا لذوق العصر ، وتضع فوق رأسها قبعة عريضة من القش لأنها أحب اليها من القلائس المستديرة التي تهيم بها النساء عامة ، وتخرج الى الصالون فتجد الكسندر في انتظارها . هو أيضا يختال في ثياب أنيقة : سترة «فراك» طويلة فضفاضة من الكشمير الأزرق فوق سروال رمادي اللون وصديري أبيض مزركش فينحني أمامها ويلثم يدها ثم يتناول قبعة الحريرية العالية من فوق منضدة مشتراة من ريسينر صانع الاثاث الشهير ، ثم يفتح ذراعه لحيلته فتستند اليه ويخرجان معاً الى غرفة ضوء النهار بشمسه الساطعة ، فيجدان عند الباب عربة ماري الفاخرة لها جوادان مطهمان مستوردان من إنجلترا وسائق مهندم وبجانبه في مقعده خادم قد شبك ذراعيه فوق صدره . وتتهادى العربة على مهل في شوارع قلب العاصمة حتى ينتهي بها المطاف الى قهوة هاردي أو قهوة باريس حيث يتناولان غداءهما . وبعد التنعم على مهل بطعام شهى يعودان الى التجول في الشانزليزيه، ثم يسيران على الاقدام في حدائق بولونيا وهما يناديان اليهما كلين لماري اسمهما توم وداك

ثم تعود ماري لبيتها التماسا للراحة ، ويؤوب الكسندر الى بيته أيضا ، فاذا دخله ناول قبعته لخدمته ورمى بقفازه الجلدي الانيق على الارض ، اذ كان من مهام الخدم في تلك الأيام التقاط القفازات الملقاة من على الارض كما يلتقط خدم اليوم اعقاب السجائر . وربما ذهب بعد ذلك الى حلاقه أو الى محل مدام بارجون بائعة الزهور فيشتري منها باقة من زهور الكاميليا لصاحبتة وزهرة لعروته، أو يذهب الى محل بواسييه لشراء صندوق من الشيكولاتة ثم يعود الى داره ويصرف غاية جهده للعناية بأناقته استعدادا للخروج للسهرة ثم ينجذب الى بيت صاحبتة ، ومن الجائز أن يجلس معها في شرفة صالونها المزينة بالحديد المطروق الأزرق اللامع يحتميان بفجوة في

الستائر الخفيفة مابين سود وصفر ثم يتناولان عشاءهما في هدوء وسلام وهما يرقبان المارة من عامة الناس تغشاهم وهم يهرعون الى بيوتهم عتمة الليل في الطريق تحت الشرفة

ثم يذهبان على مهلهما الى دار الاوبرا ، ويعمد الكسندر - والحن جلوك أورو سيني تسحره وتسجيه - الى تأمل ماري دوبليسييس «بنظرة ملؤها الحب ، ملؤها الفزع أيضا ، » هكذا وصف نفسه فيما بعد في احدي قصصه . جميع النظارة أيضا يرقبون ماري، اذ كانت تحرص اذا ذهبت للاوبرا ان تلبس كل مرة ثوبا جديدا ، فكانت ثيابها تثير اكبر الاهتمام . وقال أحد كتاب سيرتها أن صانعي الازياء كانوا يبذلون أقصى جهدهم ومهارتهم من أجل ابتكار ملابس لها يتميز بنوع قماشه او طريقة تفصيله حتى تظهر للناس كل مرة في ثوب فذ جديد . وكانت ماري اذا لبست اثوابها الجديدة من كل شكل ولون أضفت عليها بهاءها وسحرها . وقد دلت الفواتير التي خلفتها بعد وفاتها انها لم تترك موضة مستجدة ولو لم يتمثل بها الا تبديل طفيف ، دون أن يكون عندها ما يوافقها ، فكان قلما يمر عليها يوم واحد لا تشتري فيه ثوبا جديدا . هيهات أن يقلدها غيرها . وكذلك جواهرها . كانت العيون ترمقها باهتمام واعجاب . هي في يوم تتالق بجواهر من الياقوت ، وفي يوم يتلألأ الماس من خلال ليل شعرها الفاحم . ندر أن يكون بين النظارة امرأة تستطيع مجاراتها . وكانت ماري تجعل مجلسها في مقدمة المقصورة ، وتتصنع عن عمد انها غير مبالية بأحد ، فكان لها بهاء مشرق يستلفت الانظار ويغلب الالباب اما الكسندر فيجبل بصره من عل بين النظارة في الصالة . ان كانت ملامح ماري تنطق بأنها مسترخية مطمئنة لا تبالى بأحد ، فان نظره هو كانت تلمع بالكبرياء . ما أشد زهوه بأنه عشيق هذه الغانية التي تتخاطفها الابصار باعجاب . ان فوزه بها يضيف عليه من الاضواء مالا يضيفه انتصاره في عشرين مبارزة . جول جانان وتيوفيل جوتييه والدكتور فيرون والفريد دي موسيه كلهم يديرون نحو ماري نظاراتهم المقربة . ما أشد سرور الكسندر وهو يرى وجه الفريد دي موسيه يمتقع من شدة الغيرة

ومرت الايام ، ونصح الدكتور كوريف مريضته بأن تكثر من التريض وشرب لبن الماعز واستنشاق هواء الريف ، لهذا أخذها الكسندر الى ضاحية سان جرمان لتقضي بها شهور الصيف . وفي هذه الضاحية يعيش أبوه في الدار المسماة فيلا مديتشي . هي

كعادتها لا ينقطع عنها الهرج والمرج ، أما ربها - دوماً العظيم - فيكده كدح العمالقة . انه يعمل منذ الفجر الى الغسق وقد شمر كمي فميصه يؤلف كتبه المتلاحقة وقصصه المسلسلة في الصحف . وكان قد اتخذ من لولا مونتيز خلية له لفترة قصيرة من الوقت ، فلعلها كانت تجوس كالنمر ، في يدها سوط تمزق به الهواء بفرقة مخيفة ، ما أكبر نفعه لها اذا أرادت ارباب الخدم والدائنين وغريماتها من النساء المتكالبات على دوماً . وكانت لولا في هذه الايام في عنفوان شبابها وعافيتها تتريض كثيراً وتمتطي الجياد العتاة بغير سرج أو لجام وتقفز الى مياه البحيرات الشديدة البرد ، ثم هي بعد ذلك تفرض على نفسها الا تصيب من الطعام الا اقل القليل فلا تفريها مائدة دوماً الزاخرة بأطيب طعام وأفخر نبيذ . وكانت تدرس تقويم جوتا المتضمن أسماء الأبر المألقة وفروعها لانها تعتزم - بحسب اعترافها - ان تتصيد لها نبيل . وكانت على غرار رب الدار لا تشرب الخمر الا قليلاً وتكتفى بالماء القراح ، فمن شأن كل طموح الا يطلق لشهواته العنان

وكان قد تم حينئذ ارساء اساس بيت دوماً الجديد في بورمارلي وأخذت الجدران تتعالى . ان الصورة التي رسمها في خياله لهذا البيت اشتط بها الطموح بسرعة تلاحق تضخم نجاح قصة الكونت دي مونت كريستو . ليس قراؤها هم المسحورون وحدهم بل هو أيضاً مسحور بهذه القصة الى درجة لم يعدها حين ألف قصة الفرسان الثلاثة ، فقد رسم آدمون دانتيس « الكونت دي مونت كريستو » على صورة تعكس أبهى صورة خيالية لنفسه في نظر نفسه : صورة بطل ، قوى ، يهيم بالمغامرات ، كريم ، متلاف ، فاحش الثراء ، لا يقل المال الذي يحمله في جيبه أينما كان عن مليون فرنك . وكلما مضى قدما في كتابة القصة زاد اقتناعه بأنه مماثل لبطلها ، فلم يقف طموحه عند حد ، وكأنه أصيب بجنون العظمة ، فكان لابد أن يتحول البيت الصغير البسيط في بورمارلي الى قصر منيف يعرف بقصر مونت كريستو ، لا مثيل له الا في قصص ألف ليلة وليلة ، قصر يليق بالكسندر دوماً وشهرته التي جاوزت السماء

أما الكسندر الذي لا بد - اذا قيس بأبيه - أن يطلق عليه اسم دوماً الصغير ، فانه أخذ يرقب بقلق ارتفاع البناء واتساعه وامتداد أرضه بحيث تكثر فيها الحداثق والربوات ، وقد امتقع

وجهه حين سمع أباه يتحدث عن الزينة التي أعدها لداره : مرمر وفسيفساء وتمائيل وأسقف وجدران مذهبة ، إذ كان من رأى الكسندر إذا رأى اسرافاً سفيهاً أن يكون أول أثر له في قلبه هو خوف غريزي متخلف عن تلك الأيام التي شهدت طفولته مع أمه في حجرة تحت حنية السقف ، كان يراها تمضي الليل كله تعمل في حياكة الملابس على ضوء شمعة وهي صامئة بادية القلق . هو أيضاً قلق مثلها من أن تنضب مواردها المالية . هكذا كان لا يتمالك نفسه فيما بعد من الشعور بالخوف حيال كل اسراف ، ولكنه لا يثبت أن يتغلب على هواجسه ويستخر من نفسه . ولم لا ينفق أبوه كل هذه النقود ؟ أليس هو رجلاً فاحش الثراء يكسب بسهولة كل عام مبالغ طائلة من المال ؟

وصرف الكسندر مع ماري دوبليسييس أيام شهر يونيو في التنزه في الغابات يسيران على الأقدام أو يركبان الخيل ويتناولان طعامهما في حدائق فنادق الريف ، ثم تتشابك ذراعاهما ويتجولان في الربوات المظلة على ضاحية سان جيرمان . وعاد إلى الكسندر وهمه الأول بأن ماري لاتصادق رجلاً غيره وأنها وهبت قلبها له وحده ، فغمزته سعادة كبيرة . أنه يحس الآن أنه قد عثر أخيراً على ماري كما هي حقاً . أنها في نظره هي هي الفونسين ، تلك الفتاة الطيبة السليمة الطبع التي يخفيها عن الناس وجه المحظية التي تبديه له وضاحية سان جيرمان غنية بحدائق الفواكه ، فكان الكسندر يصعد أحياناً سلماً خشبياً ويرمي إلى ماري حفنات من كرز أسود ناضج ، فإذا انهمر الثمر فوقها سمعها تحته وهي تضحك ضحكة طفل ، ثم تجلس على العشب وتفغل عن نفسها وزينتها ، وتتحدث بيشري إلى الفلاحين وهم يجتثون الثمر في أقفاص صغيرة مستديرة . أنها سعيدة ، هذا ما يؤمن به الكسندر . أنها مبتهجة عطوف ودود . أصبح من دأبها أن تنام عشر ساعات بلا انقطاع ، وتشرب لبن الماعز اطاعة لنصيحة الدكتور كوريف ، وبدأت تتجلى عليها دلائل الصحة والعافية .

ولكن سرعان ما تنقضي أيام الهناء والسعادة . بدأ القلق يفترس ماري . لما تملكيت صحتها رغبت أن تخرج معه للملاهي لتعبث وترقص ، فأخذت هي والكسندر يقضيان سهراتهما في مقهى رائلاغ المعروفة باسم القصر الأحمر ، وهناك يرقصان الفالس على الحسان شتراوس المستولية على أذواق الناس . وما لبثت أن ضجرت ماري

من قضاء لياليها في هدوء الريف ، وبدأت تعود اليها قليلا قليلا
نزعته القديمة الى اللهو والعبث ، وتركت نفسها تنقاد شيئا فشيئا
الى الحياة الصاخبة التي تغرق فيها زمرتها في باريس . لعلها
كانت تخشى ان تفقد الصلة بمجتمع الرجال المترفين الذين لولا
اسرافهم لما عرفت لها في الحياة امانا . أطاعها الكسندر وصحبها الى
الملاهي للسهر فيها ، وزاد الحاجة على أبيه في طلب النقود وأكثر من
لعب القمار فغرق في الديون .

وانقضى شهر يوليو في رقص الفالس على الحان شتراوس وفي
فرقة سدادات زجاجات الشمبانيا ورنين النقود على مناضد القمار . وبدأ
الكسندر يقلق على ماري اذ رآها من جديد شاحبة انوجه متصلة
السعال ، غير أن هذا كله لم يمنعه من مشاركة أبيه في الفرح لاقبال
الدنيا عليه فان دوماس الكبير لم يأبه للنقد المرير الموجه اليه ، ودأب
على ادارة مصنعه الادبي الذي يعد له فيه الكتاب المغمورون مادة
مؤلفاته الواحد تلو الآخر . انه مواظب على امداد الصحف بقصصه ،
مواظب على تقديمه ألف متعة للناس . وفي ذلك العهد بدأ ذوقه في
جمال المرأة يتدهور على نحو مخيف ، وتعاقبت عليه في سرعة كبيرة
عشيقات كثيرات ، أكثرهن قصدن النصب عليه وجز صوفه ، وكان
يعاملهن بكرم الرجل الذي يهيم بادهاش اناس يتألق مجده . أما
لولا مونتييز التي أخضعته لسحرها زمنا فكانت قد غادرت فرنسا
بحمد حسن حظه لفراقها اذ كان قد بدأ في اواخر صحبتها يخاف
منها خوف طفل من عفريت ، فقد اكتشف - أو خيل اليه أنه اكتشف
- أنها وثيقة الصلة بعالم الارواح الشريرة ، فأى علاقة بها لن تكون
الا مصدر خطر عليه .

لا جرم أن لولا مونتييز قد جرت الحراب على كل رجل وقسع في
غرامها ، وهي الآن تصب بلاءها على رأس الموسيقىار ليست وتصيبه
بأكبر الاضرار ، فقد نجحت في استخلاصه لنفسها وملازمته كظاه
حين ذهب الى مدينة بون لازاحة الستار عن تمثال بيتهوفن . وكان
الفضل في اقامة هذا التمثال واجعا اليه ، فهو الذي أقام من أجله
الحفلات الموسيقية وتبرع بأكبر قدر من المال ، فكان ينبغي أن يعد
عمله هذا بمثابة شرف كبير له ، ولكن لولا لصقت به ، لا تفارقه ،
تجعل كل حركاتها تجهر بأنها هي المرأة التي يتعشقها ليست . وبدلا
من أن تتجاوب الانحان في المهرجان الموسيقي بمدينة بون تجاوبت
فيه اصدااء سلسلة متصلة من الفضائح . اجتمع له السلوك

والدبلوماسيون والموسيقيون ، وحضرته الملكة فيكتوريا وقرينها
الامير ألبرت ، ولكن الابصار كلها كانت مثبتة على ليست الذي قام
بالدور اثنيسي في هذا الاحتفال . ان يوم المهرجان هو في نظر
ليست أسوأ يوم تفتضح فيه علاقته بمثل هذه المحظية التي تسعى
بكل حيلة لتشعر الناس بوجودها ومكانتها . وقد تمثلت ذروة
مسايعها تلك في المأدبة التي ذهبت اليها دون أن تصلها بطاقة دعوة،
وقد دهش الحاضرون جميعا حينما رأوها تقفز فوق المائدة وتؤدي
رقصة هوجاء . ثم يشهد القرن التاسع عشر شيئا يماثل هذا الحادث
في اثاره العجب والدهشة . ولما اقيم مهرجان بيتهوفن في مدينة
بون بعد خمس وعشرين سنة احتفالا بمرور قرن على مولده لم تصل
الى ليست دعوة لحضوره

ووصلت أنباء فضائح بون الى آذان الكونتيس داجو ، لقد ثارت
ثأرتها عندما سمعت اول خبر عن ارتقاء ليست في أحضان لولا
نعمدت - شأن كل رومانسي - الى تأليف قصة تشهر فيها بحماقات
ليست ونزواته ، ودفعتها أنباء الفضائح الجديدة الى متابعة كتابة
انقصة وهي أشد غضبا وأمضى عزما ، فجرى قلمها مطواعا حتى اتمتها
واطلقت عليها اسم « نيليدا » ، وهكذا سطرت قصة هي بمثابة
الوصمة التي لن يبرا منها ليست طول عمره

ونشب الخصام في أواخر شهر أغسطس بين دوماس الصغير
وماري دوبليسييس وافترقا ، استعادت ماري نمط حياتها القديمة وان
ضاقت به ذرها ، فقد توالى عليها نوبات انفعال واشتدت حدته .
انها تشكو من أن الحياة التي تحياها ستقضى عليها ، فاذا سمعت
من ينصحها بالتخلي عنها امتنعت واثارت ثأرتها وتقول ، كيف يتأتى
لها أن تتخلى عن مثل هذه الحياة ، من سوء حظها أنها عاجزة عن
التخلي عنها . وبدأ الناس يشهدونها من جديد تصاحب أئمة الاناقة
وانترف ، وتقيم المآدب لاصدقاتها في دارها ، فاذا زارها الكسندر
الوفى المخلص الذي سهر عليها ابان مرضها صرفته الخادمة بأعذار
واهية . تقول مرة أن السيدة قد خرجت تعود صديقتها فلانه لانها
مريضة ، وتقول مرة أن سيدتها متعبة وقد أوت الى فراشها مبكرة
فاذا حدث له هذا نقل خطاه على مهل وهو مغموم في شارع المادلين
وقد جفاه النوم ، يحدق في انجلران التي تحجب عنه صاحبته، يتأسى
بشعوره أنه على قرب منها . ليس يبعد - كما تشهد مسرحية
غادة الكاميليا - أن شاهد بعد أن صرفته الخادم عاشقا أسعد منه

يلج بابها وانه احس باليؤس والهوان فقرر رايه على قطيعة
هذه العشيقه الخائنة .

ونحن نعلم من الخطاب الذي ارسله الى ماري لينبئها بقطع صلتها
بها - ولعلك تذكر انه اشترى اصل هذا الخطاب من تركة ماري
دوبليسيس ووهبه الى سارا برنار احتفالا بتمثيلها لمسرحية عادة
الكاميليا - نعلم من هذا الخطاب انه كتبه يوم ٣٠ أغسطس في منتصف
الليل ، ويقال ان ماري حين تسلمت هذا الخطاب فقدت شهيتها
وصدت عن تناول طعامها في تلك الليلة النكداء . وقد ألف كاتب
سيرتها الدكتور لوسيان جرو كتابا عنوانه «مشتريات عادة الكاميليا»
ضمنه كشف الحساب الذي قدمه لها المطعم الذهبي عن ثمن عشاؤها
تلك الليلة ، وكان هذا المطعم هو الذي يعد لها حينئذ مأكلا ، ويتبين
من هذا الكشف انها لم تطلب منه ليلئذ الا قدرا ضئيلا من البسكويت
والمكرونه وزجاجة من النبيذ . تمت القطيعة بهذا الخطاب - هذا
اذا صدقنا أقوال الكسندر دوماس الابن - ولكن صديقه الكاتب دي
بوري يروي ان القطيعة لم تتم الا بعد ذلك بخمسة أسابيع في ليلة
افتتاح مسرحية الفرسان الثلاثة المقتبسة من قصة أبيه ، فقد عجز
الكسندر عن أن يحجز لصاحبته المقصورة الاثيرة عندها في المسرح
ففضبت وشب بينهما عراك تمت به القطيعة بينهما . وسواء صح
هذا القول او ذاك فمما لا ريب فيه ان الانفصال بينهما الى غير رجعة
قد وقع خلال ذلك الموسم فهل كف كل منهما عن حب الآخر ؟ ان
سيرة الكسندر توحى لنا بأنه لم يكف عن حبها ، لا ريب أنه ظل
يعشق ماري والا لما أتبع له ان يعبر عن عواطفه بكتابة مسرحية عادة
الكاميليا التي تفيض بدلائل الحب الصادق . أما عن ماري فنحن
عاجزون عن أن نعرف هل بقيت أم لم تبق على حبها . لها العذر
اذا شكت في صدقه وهو يقسم بين يديها أنه سيظل وفيا لها ابد
الدهر . لم يكن عمره وقت القطيعة يجاوز الواحدة والعشرين ، ان
لها في الحياة من التجارب ما يكفيها لتؤمن بأن مثل هذا الشاب -
وبخاصة اذا كان ابنا مدلا لرجل مفلوت العيار - لا ضمان له ان
يظل وفيا لرفيقة طول عمره ، فهي اذا هجرت من أجله عشاقها
الأثرياء فكأنما تباع الامان في الحياة لتشتري بدله متعة جميلة قصيرة
العمر . ولعل سبب ماعاته في تلك الايام من ضيق وقلق كان يجمع
في وقت واحد بين حبها له وبين شكها في بقاء اخلاصه لها ، وكانت
تطمع منه أن يفهم موقفها ووضعها ، لكنه لم يفعل ، فلما وصلها

خطاب القطيعة لم ترد عليه ، اذ ليس لديها شيء تقوله .
لا ريب أن ألكسندر قد أحس بخيبة أمل كبيرة حين رأى ماري تعزف عنه بعد تسلمها خطاب القطيعة ولا تحاول مصالحته ، ولكنه أشد كبرياء من أرمان دوفال بطل مسرحية غادة الكاميليا لانه أيضا أعرض عن صاحبه ونقض منها اليد . اكتفى بسماع أخبارها من أصدقائه . انها تسهر كل ليلة في حفلة صاخبة أو في مسرح برفقة أحد عشاقها ، أما هو فلا اقبال عنده على مشاركة أصدقائه في لهوهم ، وإذا ذهب لزيارة أبيه ورأى مسرحه الصاخب وتمتعه بصحبة نساء لا يأخذهن مأخذ الجد ، أحس بضيق شديد والم ممض ، وتجنب الذهاب الى فيلا مديتشي . هيهات لمسرحية أن تملك انتباهه أو تلحن إلا يقع على قلبه كطعنة خنجر ، وأخذ يقضى ليلاته متجولا في شوارع باريس وقد أضناه اليأس والقنوط .

وقد حدث له في تلك الفترة المليئة بالبوأس ابان فصل الخريف أن وصل اليه طلب للدلاء في شهادة أمام محكمة روان ، فمنذ أن وقعت المباراة بين دوجاريه وبوفايون لم ينقطع حديث الناس عنها بحدة وغضب ، اذ كانت المباراة تجري طبقا لتقاليد الفروسية ، أما إصابة بوفايون لخصمه في تلك المباراة فلم تكن في نظر الكثيرين الا عن نية مبيتة للقتل العمد ، بل ذاع خبر بأنه جرد مسدسه قبل المباراة ليختبره ، وهذا عمل مخالف للتقاليد ، وفيه اصدق دلالة على أنه كان مصرا على قتل خصمه لذلك قام النائب العام بتقديمه مع شاهده الى المحاكمة .

وسافر ألكسندر الى روان برفقة أبيه ، اذ كان أبوه أيضا من بين الشهود الذين طلبتهم المحكمة وكانت المحاكمة حدثا جللا اذ حضرها كل من يزهو لمكانته في المجتمع أو في عالم الفنون والآداب . غصت المحكمة بجمهور غفير وأدلى ألكسندر وأبوه بشادتيهما وتابعا سير القضية باهتمام كبير .

وثار عجب الحاضرين حين تقدمت امرأة شابة هيفاء الى منصة الشهود ، راوها ترتدي ملابس حداد في قمة الاناقة والزينة ، ثياب من حرير ودانتيل ، وعلى الوجه خمار من الدانتيل بديعة الصنع ، ورفعت الشاهدة خمارها ببطء فكشفت عن وجه هو آية في الجمال قد ارتسمت عليه دلائل الفجيعة التي تستدر العطف وعلامات الحزن الذي لا براء منه

انها لولا مونتييز . نظر اليها دوماس الاب شزرا . طالما الف

رؤيتها في ثياب خليعة وهي تفرق بسوطها أو تشهر خنجرها ،
ولعله أخذ يسأل نفسه من الذي دفع ثمن ثياب الحداد الانيقة التي
ترتديها ، أهولست ؟ أم ترى أن البائع سيطلبه هو بثمنها . أما
بقية الحاضرين فقد غلبهم التأثر حين رأوا حزنها وفجيعتها .

لم تكن المحكمة قد استلعت لولا للشهادة ولكنها أصرت على
الحضور للدلاء بها . ونطقت بأقوالها بنغمة تنم عن الكبرياء والاعتداد
بالنفس ، وتنم أيضا عن حزن بالغ يستدر العطف . وطالت المحاكمة
ثم صدر الحكم بالسجن بمدة طويلة على بوفايون واحد شاهديه .
ولكن الحادث الذي استأثر انتباه الحاضرين واهتمامهم هو ظهور
لولا في المحكمة ، إذ كانت فضائها منذ مقتل دوجاريه خبرا شائعا
بين الناس كلهم يعلمون أنها تبيع عرضها بيع السلع ، ومع ذلك فإن
أقوال الصحف عن المحاكمة تشهد أن الجمهور قد عبر بالهمس عن
اعجابه بها وعطفه عليها حينما خلعت قفازها لتضع يدها على الكتاب
المقدس وتحلف اليمين ، فإن رئيس المحكمة نفسه وهو الرجل الوقور
أخذ ينظر إليها وقد ففر فاه من شدة الانبهار لجمالها .

ولما عاد الكسندر الى باريس أخذ من جديد يعنى بشئون أبيه
ومشاكله . وكانت جدران القصر المشيد في بورمارلي تتعالى بسرعة ،
وزاد اقبال الحظ على أبيه بسبب نجاح مسرحيته « الفرسان »
وهي لوحات متتابعة مستمدة من القصة التي أعدها ماكيه الذي
لا يكف عن العمل من أجل دوماس . وشهد ليلة الافتتاح الدوق
دي مونييسيه وهو أصغر أبناء الملك فسرتة المسرحية سرورا كبيرا .
بعد انتهائها استدعى دوماس اليه واقترح عليه أن يبني له مسرحا
يكون خاصا به وحده ، وأكد له أنه سيقدم له كل عون ورعاية . وتم
تأليف الفرقة التمثيلية وشراء قطعة أرض في شارع المعبد واختيار
المهندسين درو وسيشان لاعداد مشروع البناء . وابتهج دوماس
أشد البهجة ، فهذا هو الحظ يتسم له مرة أخرى ويحقق له
أمانيه في تسليط أضواء جديدة عليه . أنه سيصبح مدير مسرح
بملك وحده تقديم مسرحياته للجمهور بلا مانع أو معوق

ولما تغلب الكسندر على أول موجة من الحزن تغمر قلبه ، بدأ
ينتبه لنفسه ، ويعنى بالديون الطائلة التي غرق فيها إذ كان يصرف
من قبل نقوده وهو مسحور منوم ، ولا يهمه شيء طالما أنه يقضى لمارى
حاجتها ونزواتها لا يبالي من أين يحصل على المال طالما أنها تقابل
صنيعه بابتسام . كان يعيش معيشة مليونير ولكن دقت الساعة

وأن أوان الحساب . بدأ الدائنون يطالبون بالدفع ، وأدرك أنه عاجز عن السداد فأقضى بخبره إلى أبيه وهو يعتذر له والاب رجل لا يبالي أن يدفع ديونه فهو أقل مبالاة إذا كانت هذه الديون ديون ابنه ، وقال له أن لا مال عنده لدفع هذه الديون . ينبغي لالكسندر أن يعرف كيف يخرج من ورطته غير معتمد إلا على نفسه . لقد صدمه رفض طلبه إذ كان يؤمن أن ثروة أبيه لا تنفذ ، وتملكه الحزن أول الأمر وهو يفكر في الأموال الطائلة التي يبعثها أبوه في قصره الجديد وفي الانفاق على عشيقاته الكثيرات الماهرات في النصب والاحتيال ولكن الكسندر عرف كيف يشوب إلى رشده واعتدال حكمه فهذا هو الشأن به دائما ، وقال لنفسه « كم كنت مغفلا حقا ! » وعكف على العمل إذا كان أبوه قد قال له : « افعل مثلما أفعل أنا . أعمل أن أردت دفع نقودك وأبدأ بتجربة قلمك في التأليف » ، فشرع يؤلف قصة خفيفة سهلة ، فهذا الصنف من القصص هو اشد رواجاً لدى الجمهور من ديوان الشعر الذي كان يصرف إليه من قبل كل انتباهه

واقتربت سنة ١٨٤٥ من نهايتها . كان نجم دوماس الكبير في صعوده في حين انحدر وأقل نجم صديقه هاريل ، كل خطوة بخطوها تبوء بالاخفاق ، والمدموازيل جورج عاجزة أيضاً عن أن تجد لها عملاً في باريس فاضطرت إلى الخروج في جولة تمثيلية في مدن الريف وصحبها هاريل الباقي على وفائه لها ليشرّف على شئونها ، ولكن قسوة هذا النوع من الحياة كانت قد نالت منه ، وإذا به في يوم يصاب بالجنون ، وخيل إليه أنه هو بوسيه الكاتب الشهير ، وانتهى أمره بدخوله مستشفى المجانين في شانيون .

وجاء ليست إلى باريس ليقم عدة حفلات موسيقية ، فذهب الكسندر إليها . ولحظ ماري بين الحاضرين . وحدث بعد ذلك بقليل أن جاءه عجلاً صديق ثرثار ناقل للاخبار وأقضى إليه أنه قابل أخيراً الدكتور كوريف فعلم منه نبأ مثيراً هو أن ماري طلبت من هذا الدكتور أن يحضر لها الموسيقى ليست لتناول العشاء معها في دارها ، فاتها بعد ليلتين من سماع موسيقاه في حفلة الأولى شهدته في مسرح لامبيجو يتحدث خلال فترة الاستراحة إلى الناقد جول جانان « مرت به على مهل وهي تحديق إليه فقال جانان لصاحبه « لقد صبح عزمها على وضع يدها عليك . هل تعرف من هي ؟ »

أجابه ليست « لا أعرفها .. من هي ؟ »
- انها الانسة دوبليسيس . ستتحقق بنفسك من صدق
فراستى

وهذا ما حدث فعلا : فان مارى طلبت فى اليوم التالى الى
الدكتور كوريف الذى لا يخيب لها رجاء ان يأتى لها بليست . ومنذ
تلك الليلة أصبح الموسيقىار لا ينقطع عن التردد على دارها
ولما علم الكسندر بفراستها الجديد شغل نفسه بعمله : ليس عنده
وقت يضيعه فى الحزن والاسى ، اذ كان لا مفر له أن يربح ما هو فى
حاجة اليه من المال ، وبدأ لأول مرة فى حياته يعمل بجِد

ليست وغادة الكاميليا

من المحتمل أن يكون فرايزر ليست هو الرجل الوحيد الذي أحبته ماري دوبليسييس حبا جادا صادقا من صميم قلبها، بدأ يخالطها في وقت لم يكن قلبه فيه مرتبطا بامرأة أخرى فان ليست أنشأ له خلال حياته صلة وثيقة طويلة المدى بامراتين ، الاولى هي مدام داجو والآخرى هي الاميرة كارولين دي ساين وبتجنستين ، وكان في الوقت الذي نتحدث عنه قد هجر الاولى وفارقها وكان أيضا لم يقابل بعد صاحبه الآخرى ، فكان قلبه خاليا فأسلم زمامه الى ماري دوبليسييس غير أنه كان يحق له أن يترث قليلا من قبل ان يدخل في مغامرة أخرى مع محظية ، اذ كان قد بدأ ينزع الى الصلاح والتقوى . كان قد سبق له بوقت غير طويل ان قبل منصب مدير الفرقة الموسيقية في بلاط ويمار وتسلم عمله به سنة ١٨٤٤ ، لم يفرض عليه هذا للمنصب من الواجبات الا أن يقيم بمدينة ويمار كل سنة ثلاثة أشهر، ولكنه وجد ويمار مدينة ظريفة فصح عزمه على أن يقيم بها ولا يبرحها ، فان المتاعب التي صادفته في موسم مدينة بون قد اقنعتة أن السعادة هي في الحياة الهادئة ، وأنس من نفسه القدرة على أن يصرف كل همه في الابتكار الفنى وتأليف الألحان . سيضيع عليه أيراده الضخم الذي يأتيه من العزف في الحفلات الموسيقية، وسيفقد إعجاب الناس وحفاوتهم به اذ أنهم لاشك سينسونه اذا اعتكف في داره . اذا كان سيتجرد من الثروة والمجد فانه سيتحرر أيضا مما يلقاه من الناس من غيرة وحسد وسيتحرر أيضا من نساء دأبن على ملاحقة كل رجل عظيم ، أما في تلك المدينة الألمانية الصغيرة فيعيش أناس بسطاء بهيمون كل الهيام بالموسيقى والفلسفة ويحتقرون المظاهر البراقة الخداعة ، أنهم ورثة جوته وهردر وبيتهوفن ، والحاكم الذي يظلمهم بجناحيه أمير شاب يرعى الثقافة ويريد أن يجعل من ويمار كعبة العلوم والفنون . وحقا ان كل مجد آخر لا قيمة له في مدينة ويمار وزاد اطمئنان ليست لهذا المنصب سنة ١٩٤٦ ، ذلك ان ماري داجو كانت قد بدأت تنشر قصتها «نيليدا» في « المجلة المستقلة » . لا يخامر قارئها شك بأن بطلها هو ليست بعينه ، ووجد الموسيقار

نفسه موصوفا بأشنع الاوصاف ، ولقيت القصة من الرواج ماتلقاه
قصص الفضائح . أثارت القصة اهتمام الناس وأطلقت العنان لاشاعات
بشعة عن ليست . أنها اهانة حز جرحها في قلبه طويلا ، هي التي
قادت في نهاية المطاف الى أن يضر عداا شديدا للمرأة التي أحبها
ذات يوم حبا حارا متدفقا ، وهكذا وجد ليست في نشر الفصول
الاولى من هذه القصة دافعا جديدا له للاعتكاف في مدينة ويمار، أما
ماري داجو فقد استتبت لها مكائتها في عالم الادب في فرنسا ، انها
ولا ريب عازمة على المزيد من نقسدها وتجريحها ليست بعد
أن عرفت عن قرب زمنا طويلا ، أما الهردكتور ليست - هكذا ينادونه
في مدينة ويمار . فانه بعيد عن مجتمعات باريس ، وكان ينبغي له أن
يفرغ عاما كاملا للوفاء بالتزاماته بالعزف في حفلات موسيقية ، فاذا
فرغ منها سيعتكف في مدينة ويمار الهادئة العتيقة ويكرس نفسه
بجد لتأليف الألحان

ومع ذلك تريت طويلا في باريس خلال فصل الشتاء وألقى بنفسه
في أحضان ماري دوبليسييس ، وكان يدلها ويناديها باسم مارييت .
أنه كان يدل ماري داجو باسم ماريوت . ارتبط قلبه بعشيقته
ولقيت منه بشهادة الكاتب روكبلان - معاملة كريمة كأنه أمير روسي .
لقد تمت لها السعادة لو استطاعت أن تحتفظ به بقية عمرها . أن
الكسندر دوماس الابن قد أحبها ، ولا ريب أنها تفتقد حنانه بعد
أن غاب عن بصرها ، ولكن لاشك أن حب ليست لها هو أغلى ذخيرة
فازت بها ، انه واسع الثراء وصاحب مجد بين الناس ، وفي الخامسة
والثلاثين من عمره ، فهو مكتمل الرجولة يعتمد عليه ، وتلك لاتجدها
لدى الكسندر لانه لا يزال في ميعة العمر

حقا إن الكسندر فتى وسيم ، ولكن ليست هيئة أمير فلورنسي في
لوحة من عهد النهضة . كل من خالطه خضع لسحره ، وكان اعجابها
به واكبارها له لا يقفان عند حد وهو يعزف لها بحماس على البيانو في دارها
وكان ليست يغادر باريس بين الحين والحين ليغزف في الاريايف
أو في بلد خارج فرنسا ، فما يكاد يفرغ من العزف حتى يهرع اليها
ويلقى بنفسه تحت اقدامها . ليس في قلبه مكان لاحد سواها ، ومع
ذلك فان ماري أقدمت في غمرة هذا الحب على الاقتران برجل آخر .
أن زواجها هو أغرب حادث في حياتها ، وقد ماتت هي وزوجها دون
أن يكشف أحد منهما الغموض الذي يكتنف هذا القران . لقد أحبها
زمننا الفيكونت ادواردى بيريجوه ، ولكنها مالبت أن ضاقت ذرعا

يصحبته . ولكن هيامه بها بلغ حدا جعله يقدم على عمل يثير الدهشة بأن طلب اليها الزواج منه . هل كانت تعتقد أن فوزها بلقب نبيل يزيد من سلطانها على ليست ؟ أنها كانت كلما أعربت له عن رغبتها في زيارة ويمار وجدته يعمد الى تغيير الحديث الى موضوع آخر، وفهمت انه لا يود ان يراه الناس في ومار بصحبته امرأة لها شهرة مثل شهرتها . لعلها قدرت أنها لو ذهبت الى ومار متسمية باسم البيكونتيس دي بيريجوه ، وحرصت على ألا تجهر بصلتها بصاحبها، فقد لا يكشف مرها أحد من أهل ومار وهم يجهلون منشأها . ومهما يكن من أمر فإن ماري قبلت الزواج من الفيكونت وسافرت معه الى لندن في شهر فبراير حيث تم عقد القران . وسكن الاثنان في دار في شارع بروميتون ، وفي يوم ٢١ فبراير وقعا على عقد الزواج أمام الموثق في مكتب البلدية في حي كنزنجتون . والظاهر لنا ان الفيكونت ودعها بعد الزواج فلم يرها مرة أخرى الى يوم وفاتها .

وعقد الزواج بينهما عقد صحيح معتمد في نظر القانون الانجليزي، ولكن كان لابد من القيام بمراسم أخرى من أجل ان يكون صحيحا معتمدا أيضا في فرنسا ، غير أن هذه المراسم لم تتم وعادت ماري الى باريس لتستأنف حياتها في دارها في شارع المادلين ، وبقيت تحمل اسمها القديم ماري دوبليسييس . من الجائز أن يكون كل منهما قد وجد أثناء اقامتهما في لندن سببا ذاعيا للعدول عن اتمام الزواج أو أن يكون قد نشب بينهما عراك ، وبين أيدينا اليوم خطاب لاريب أن ماري كتبه لصاحبها في ذلك العهد ، ولكنه لا يلقى الا ضوءا قليلا على هذا السر . واليك نص هذا الخطاب :

عزيزي ادوار

أراك في رسائلك لا تريد مني الا الاجابة على سؤال واحد ، فإليك أجابتي . انك تطلب مني ان أسلم بأنك حر تستطيع ان تفعل ما يحلو لك . هذا ما كنت أقوله لنفسى أول أمس ، وهأنذا أعيد قوله اليك كتابة وأوقع عليه بنفسى

ماري دوبليسييس

لم تطالب ماري بعد عودتها الى باريس بحقها في حمل لقبها النبيل ولكنها وجدت شيئا من التسلية بوضع شعار النبلاء على مقتنياتهما . ولدينا اليوم كشوف بعض مشترياتهما فنجدها معنونة باسم السيدة الكونتيسة دي بليسييس » ويختلف هجاء هذا الاسم في كشف عن آخر » وارتضت ماري هذا اللقب الموهوم ولكنها بقيت تسمى في

المجتمعات التي تفشاها باسم المدموازيل دوبليسيين
لاندرى ماذا حدث لها في لندن ، ولكنها عادت وهي بأثمة تعيسة ،
وكانت صحتها قد ساءت مدى عامين ، ثم اخذت تتدهور سريعا .
وكان ليست مضطرا لمفادرة باريس بين الحين والآخر فاستسلمت الى
اليأس وعذاب الوحدة . وكان الكونت دي ستاكلبرج قد كف عن
الانفاق عليها منذ زمن . لعله ضاق ذرعا بدأبها على خيانتها ، وبأنها
لا تجود عليه الا بالقليل وهو الذي يجود عليها بالكثير . وانقطع أيضا
بعض أصدقائها عن زيارتها ، وجدوها قد تبسدل حالها وفقدت
سحرها وفتنتها ، ولكن جمالها زاد في نظر ليست حين أطبقت عليها
الهموم ، انها وهي في سن الثانية والعشرين تجده الحياة فارغة لاجدوى
منها ، ان بقاءها على قيد الحياة مأساة يثقل عبؤها كاهلها ، هذا
هو لب الرومانسية وعطرها المصفى . ان ليست لا ينجذب الى اناس
يرفعون من قدر الحياة في هذه الدنيا ويقنعون بها ، فلما رأى
حال ماري تدفق من قلبه حب لها واجم حزين ، هو الذي يفتح
له مغاليق الشعر والموسيقى ، فكان يقضى معها كل وقته كلما جاء الى
باريس ، ولكنه لم يضح من أجلها بحفلة موسيقية واحدة تهمة ،
ولم يستجب لها كلما رجته ان تسافر معه .

وروى عنها أنها كانت تقول له « أعلم اننى لن أعيش . اننى فتاة
عجيبة . اننى عاجزة عن متابعة نمط من الحياة هو الوحيد الذى
أعرف كيف أعيشه ، وفي الوقت ذاته لا احتمله . خذنى معك ، خذنى
أنما شئت ، لن تضيق بى فسأنام طول النهار ،
فاذا جاء المساء أذنت لى بالذهاب وحسدى الى المسرح ، ثم أنا
لك بعد ذلك ملك يدك بقية الليل » فكان ليست يضيق ذرعا برغبتها
الملحة في مصاحبته ويحار ماذا يفعل وأخيرا اهتدى الى حل . وعدّها
بالسفر معها فى الخريف القادم الى القسطنطينية فهي مدينة لا يقصدها
معارفهما فيتاح لهما أن يعيشا معا دون إثارة فضيحة كبيرة . وسرت
ماري بهذا الوعد سرورا كبيرا . وكان ليست قد قرر ان ينهى اقامته
بباريس في مطلع الربيع ، فلم تغتم لسفره لأنها كانت تأمل أن يحقق
لها شهر اكتوبر أحلامها ، واقترب الاثنان وخیال كل منها تطوف به
رؤى المآذن تحت سماء ملبدة بالفيوم ، وقصور مرمرية وحدائق يفوح
منها عطر الازهار .

وتذكر السيدة « جانكا واهل » فى كتابها عن سيرة ليست انه
أفضى اليها فى شيخوخته بأن أشد ندم عرفه فى حياته هو ندمه على

حرمان ماري من هذه الرحلة معه
ومع ذلك لم تفلح بهجة الامل الجديد في منع تدهور صحتها ،
واطالت مكوثها أمام المراة لتحسن زينتها وتنالق في مقصورتها الامامية
بالمسرح كل ليلة . ولكن اهتمام الناس لم يعد منصرفا الى التطلع لثيابها
الجميلة وجواهرها الغالية ، انما الذي يلفت نظرهم اليها الان هو
عينها الفائرتان ، ونحوها الشديد ، وسعالها الجاف الحاد المتكرر ،
فكانوا يرثون لها ويتحسرون عليها . اما بالنهار فتخرج للنزهة في
صحبة كلبها توم وداك ، فاذا بلغت غابة بولونيا بقيت في عربتها
وتولى السائق عنها مماشاة الكلبين

واقبل شهر يونيو واشتد الحر ، واصبح من عادة الاميرة الشابة
الدوقة اومال والدوقة نيمور والاميرة دي جوانفيل الخروج الى حدائق
القصر الملكي والتسلي بجمع قش القمح وتكويمه ، اما الملك فمسرور
من انتصاره في قضية الزواج الملكي الاسباني الذي كان موضع
مؤامرات دول عديدة . وكان الملك قد اكد لانجلترا انه لن يرضى ان
يتزوج ابن له بالملكة ايزابيلا ، تلك الفتاة الصغيرة التي تربع على
عرش اسبانيا ، وانه اذا كان في نية الملك ان يزوج احد ابنائه من أختها
الاميرة لويزا فرناند فانه سيؤخر هذا الزواج الى ان ترزق ملكة اسبانيا
بولى عهد . وهكذا دبر الملك خطة يخدم بها مصلحة أسرته

واخيرا وقع الاختيار على دون فرانسيسكوري أسيس ليكون زوجا
للملكة ايزابيلا ، وهو نبيل اسباني فاسد الخلق ، معتل الصحة ، عنيد ،
له صلة قري بالملكة . ولما أصبح من غير المنتظر ان ترزق الملكة بولى
عهد من هذا الزواج ، فقد رأى ملك فرنسا انه في حل من وعده
بانتظار مولد بولى عهد لاسبانيا فمن حقه ان يتقدم ابنه بخطبة أخت
الملكة ، ورغب ان تتم في وقت واحد عقد قران أختها بابنه دوق دي مونييسيه
وسافرت ماري دوبليسيس من باريس الى مدينة سبا للاستشفاء
بمياهها . انها قد غرقت في الديون في العهد الاخير ، اذ ان اصدقاءها

الذين يسددونها بالنيابة عنها قد هجروها حينما راوها أسيرة لسحر
ليست ، وتجاهلت ماري - على غرار ما كانت تفعله مثيلتها بطلة قصة
ماتون ليسكو - ان هذه الديون ينبغي سدادهما ولم تنقطع عن الشراء
نسيئة ، وحصلت على كل ماتريده من القبعات والجواهر والثياب
والقفازات ، وكانت شهرتها بأنها مليئة تحول دون اقدام البائعين على
مطالبتها بدفع الثمن مقدما ، فلما غادرت باريس لم تكن قد سددت
دينها واحدا من ديونها

وتعاون المرض واضطراب نفسها على اصابتها بقلق شديد . انها تنزه بالنهار اماماشية او راكبة التماسا للشفاء ، اما بالليل فتقضي في الرقص ولعب القمار ، تقبل عليهما بنشاط وحماس لا يتوقعهما احد من مريضة مثلها يمزق السعال وئثيها : فكأنها غير حريصة على البرء من دائها . ولكن حين شاخ الخريف عرف ساعات تمر بها وهي في جزع شديد ، وبدأت تتكشف للمرض عوارض عجيبة مخيفة فأحست أنها تقترب من القبر .

ودفعها قلقها الشديد الى السفر لمدينة بادن ثم الى مدينة وسبادن وتسلم نفسها للأطباء وتطيع أوامرهم . انها الآن تنتقل من فندق الى فندق ، كأنما تهرب من شبح اثمها الذي يلاحقها . انها تعيش الآن في كابوس متصل تتجرع المنقوعات وتشرب لبن الماعز وترقد وحيدة في فراشها ساعات طويلة ، وتملكها رعب شديد من يوم الحساب بين يدي خالقها . ماذا عساه يكون جزاؤها ومصير روحها ؟ تقض مضجعا ذكرى فعلة لها اiban مكوئها في لندن مع زوجها . لا نعرف ماهى هذه الفعلة ، ولكنها كانت لاريب تحس بأنها ارتكبت اثما عظيما ،

بدليل هذا الكتاب الذى بعثت به حينئذ الى ادواردى بيريجوه :
« اعفر لى يا عزيزى ادوار . اننى التمس صفحك وأنا جاثية على ركبتي . أرجو أن يكون قد بقى فى قلبك من الحب لى ما يعينه على أن تكتب لى كلمتين لا أسألك عليهما مزيدا غفرانك ومودتك . اكتب لى بعنوان صندوق البريد بمدينة ايمس مقاطعة ناسو . اننى وحيدة هنا ومريضة جدا . فأسرع يا عزيزى ادوار وقل انك غفرت لى .
استودعك الله ... »

مارى دوبليسييس

وكان الكسندر دوماى الصغير يعمل فى باريس بجذوحماس شديد فى تأليف قصة طويلة من ستة أجزاء أطلق عليها اسم « مغامرات أربع نساء وببغاء » . ورضى عنها أحد الناشرين فأرسل الكسندر الجزءين الاولين الى المطبعة . وكان يوافق ايضا «مجلة البنات» بقصائد عاطفية وينشر كذلك مقالات أخرى فى الصحف . استقام له أسلوب واضح سهل ، وبفضل مكانة أبيه فى عالم الادب وصلاته العديدة بالناشرين سهل عليه بيع مقالاته ، فانكب على العمل ، ولكنه احس بارهاق شديد لانه ملزم بالكتابة من أجل أن يستطيع تسديد ديونه . وممع ذلك فانه لا يسدد منها الا جانبا ضئيلا ، حتى خيل اليه أنه سيعجز عن سدادها وسيظل عبثا يثقله طول عمره مالم يلق أحلمؤلقاته رواجاً

كبيرا وسيكون شأنه فى الافلاس شأن بلزاك . ولكن أقادر هو على أن يشق طريقه ويزاحم أباه العظيم ؟ لقد مضى الاب بالمجد كله فماذا بقى منه لابنه ؟

وظل دوماس الكبير يدهش الناس بضخامة إنتاجه . وبلغ نجمه ذروة التآلق فى سنة ١٨٤٦ . فإن شهرة قصة السكونت دى مونت كريستو قد سارت فى جميع أرجاء الدنيا ، ولم ينقطع تهافت الناس على قراءة قصصه المنشورة فى الصحف الكبرى - كالعهد بهم من قديم - وأشهرها لديهم قصة «جوزيف بلسامو» . أما بقية مؤلفى قصص المغامرات فوقفوا وقفة المتفرجين ، أحسوا أن اللقمة سرقت من أفواههم فامتلات قلوبهم بالحقده وشدوا على بطونهم على حين يكاد دوماس ينفجر من شدة امتلائه بالمسال والمجد الى درجة فظيعة . وعاد أيوجين دى ميركور الى تتبع إنتاج دوماس واحصاء مؤلفاته ، فوجد أنه قد نشر باسمه خلال سنة ١٨٤٥ مالا يقل عن ستين كتابا ، فحسب الحساب ووجد لو أن ناسخا متمرسا فى عمله، يجرى قلمه جريا ، اشتغل بجد مدة اثنتى عشرة ساعة كل يوم فى نسخ مؤلفات دوماس لا فى تأليفها لعجز عن الفراغ من عمله فى سنة كاملة وبشرط الاينقطع عن العمل دقيقة واحدة على مدى أيام السنة وأصبحت المتعة المحببة لاهل باريس فى صيف تلك السنة هى ذهابهم الى شارع القمر ليشهدوا المسرح الجميل الذى يشيده دوماس أو قضاؤهم النهار فى الضواحي ليراقبوا العمال وهم يشتغلون فى بناء قصره المنيف فى بورمارلى وقد تعالت جدران المرمية وبدأ النحات أمبرواز شوازليه بمعونة مساعديه يزين هذه الجدران بنقش مرز على نسق مدرسة النحات جان جوجون ، فتوالت الاشكال البديعة وصور كبار الكتاب ، ورسم الشعار الذى اتخذه دوماس لاسرته والقائل « انى أحب من يحبنى » . وأقيم فى الحدائق عدد كبير من نافورات تتلاعب بمخارج الماء ، وصرفت أموال طائلة فى شق جدول يتهادى حول شاليه صغير بنى على مسافة يسيرة من القصر اعتزم دوماس أن يكون هذا الشاليه هو المكان الذى يلجأ اليه اذا طاب له أن يفرغ الى التأليف، وكان هذا الشاليه بمثابة لعبة من اللعب الصغيرة التى يلهو بها الاطفال ، وهو مشيد على الطراز القوطى الذى يهيم به الرومانسيون وأخذ الرجل العظيم ينتقل وهو يتسم بين المسرح والقصر ، وهو سعيد كل السعادة بأن اهل باريس يهتمون أشد الاهتمام بشئونه . لم تكلر صفو سمائه الا سحابة رقيقة ، اذ أن صديقه القديم هاريل

مات في بؤس شديد في شهر أغسطس وكان لم يشف من جنونه .
لقد نصب عليه هاريل من قبل كثيرا ، ولكنه كان نعم الصديق أيام
البهجة ومنازلة مصاعب الحياة ، حين كان دوماس يزاحم المؤلفين
المسرحيين من أجل الوصول الى مكانته التي بلغها . أحزنه أن يرى
هذا الصديق يمضي الى قبره بعد أن أفل نجمه وأصيب بالجنون .
وناجى دوماس نفسه قائلا : « إن كان هناك نصب فأنا الذي ارتكبته
ولم يرتكبه هؤلاء اللصوص من الناشرين ومديري المسارح » وتنهى
دوماس بأسف عميق على موت هاريل المسكين وانقضاء أيام لن تعود أبدا
ومر شهر سبتمبر والجو هادئ دافئ والسماء ملبدة بالغيوم .
لاحديث لاهل باريس الا عن الزواج الملكي الاسباني ، الذي كان سيتم
في الشهر التالي ، وامتلات قلوبهم سرورا بما حسبوه انتصارا أساسيا
لبلادهم على انجلترا

وعادت ماري دوبليسييس الى شارع المادلين وهي مريضة جدا ،
واستدعت اليها الدكتور كوريف ، ولكن لم يكن في يده أوفى يد طبيب
سواه أن يفعل لها شيئا . استفحل داء السل واوشكت على الموت .
ولكنها كانت تهفو الى الشفاء والى اللحاق بليست في شرق أوروبا .
وتفقد صبرها فطردت الدكتور كوريف ورفضت أن تدفع له أجره . وجاءها
أطباء آخرون أدلى كل منهم اليها بنصيحة . أوصوها ألا تأكل إلا
أطيب المأكول التي تعدها لها المطاعم القريبة من دارها ، وألا تشرب
من النبيذ الا أجود أنواعه . وكانت اذا أشرقت الشمس خرجت للتنزه
في عربتها لا تتكلم الا قليلا ، وتنام على حشية من الشعر . ولكن لم
ينجع دواء واحد وتدهورت صحتها بخطا سريعة

لم يتحدث ليست بصراحة عن حبه لماري دوبليسييس الا مرة أو
مرتين طول حياته ، قال انه كان حبا هصر قواده كمال تهصره قط من
قبل عاطفة أخرى . وكتب عنها بعد وفاتها فقال : « لو قبض لي أن
أكون في باريس وقت مرضها أذن لقمت بالدور الذي قام به دي جريو ،
بطل قصة مانون ليسكو ، وحاولت انقاذها مهما كلفني الثمن ، فانها
كانت فتاة رقيقة بشوشا سليمة الطوية ، فاذا كان الناس يصفون
مسلكها في الحياة بأنه فاسد - ولهم كل الحق - فان هذا الفساد
ثم يمس روحها » . ولكن بالرغم من علمه بمرضها وبالرغم من ثروته
الكبيرة ونجاته من أي قيد يحد حركته فانه لم يكلف نفسه مؤونة السفر
هبر أوروبا من المجر ، حيث كان يقيم وقت مرضها ، ليذهب اليها
ويراها . لو مرضت وهو في باريس لما تكلف جهدا ولقام خير قيام

يدور البطل فى قصة عاطفية . اما وهو بعيد عنها فلماذا يتحمل المتاعب والمشاق فى سفر طويل لا لشيء الا ليرى امرأة أحبها ، وماهى فى نهاية الامر الا محظية من الجائز ان تكون فى ذلك الحين عشيقة للرجل آخر ، كما يجوز له أن يقع فى حب جديد أثناء سفره .

لم تأمل مارى فى أغلب الاحتمال ان يزورها ليست ، فانها جد عليمة بأنه حين يكون للمرأة ألف عشيق فهيهاث لها أن تجد من بينهم واحدا يؤمن باخلاصها ، فاستسلمت الى الوحدة . ليس الذى يشغلها الآن معاملة العشاق لها بل خوفها من يوم الحساب ومصير روحها ، لان أغلب أحوال طبعها كانت تشهد بأنها فتاة بسيطة لم يجرفها تيار الالحاد الذى كان سائدا فى ذلك الوقت . لما أحست أنها مشرفة على الموت خيل اليها أن عينا ترى كل شيء ترقبها . وكان مما لا يخالف طبعها أنها حينئذ اشترت نسيئة كرسى صلاة جميلا لترجع عليه وهى تناجى ربها ، واشترت تمثالا مذهبا للعدراء وضعتة فى حجرة نومها ، لتردد أمامه دعواتها وابتهاالاتها واعلان توبتها الصادقة ، ملتزمة من العذراء أن تكون شفيعتها . أما ابتهاالات الدائنين اليها فلم تجد استجابة منها . يطالبها محل شابرون ودوبوا بثمن ملابسها الداخلية ، ومحل ريفيون بثمن فرائها ، ومحل الأنسة سيلينى أمابل بثمن أثواب جميلة ضاع فى صنعها وقت طويل . وجاء كل من مسيو سسيف ومسيو بيشون ، وهما من تجار الخردوات وأدوات الزينة . يطالبانها بدينها ويعتذران بأدب عن ازعاجها . لم تدفع شيئا لاحد منهم ، لان مواردها المالية قد نضبت . ومع ذلك ظلت تعيش كما كانت تعيش من قبل . محل الفسيل والكى ومصففة الشعر والطبيب البيطرى ، وصانع السروج ، كلهم يعملون من أجلها بالدين . بل ان خدمها كفوا عن مطالبتها بأجورهم ، لطيبة قلوبهم ولانها كانت تعاملهم دائما برقة وعطف . انهم الآن فى حزن شديد وهم يرون السعال يمزق رئتيها ويدفع بها الى قبرها ، ومع ذلك بقى جمالها ، فلوانهم طالبوها بأجرهم الذى هم فى حاجة شديدة اليه لاخرستهم ابتسامتها الحلوة التى تكسو وجهها بسهولة ، فبقوا على اخلاصهم لها بغير تذمر أو شكوى وكانت ترى وهى تشق أحيانا شوارع قلب العاصمة فى عربة مغلقة . الجو دافئ ومع ذلك فانها تشعر ببرد شديد ، فكانت تحتوى بفرائها البديع . ان جولتها لا تخرج عن تلك المنطقة الضيقة التى شهدت من قبل مجدها القصير العمر . تتوالى أمام عينيها مشاهد مفاتن باريس

وملاهيها . المسارح والمطاعم الفاخرة والمتاجر التي طالما احبتها .
هاهو ذا على ناصية شارع دي لاييه محل تاهان الذي يبيع النتنف
الانيقة . وها هو ذا محل جاجلان الذي يبيع افخر الشيلان الهندية .
وها هو محل ماير الذي كان يبيع لها قفازاتها من الجلد الابيض ، ومن
بعده محل موتيه الذي يبيع المراوح ذات المقبض العاجي . كم من
مرة ذهبت الى هذه المتاجر لترى ماذا عندها من جديد ، يرونها ان
تشتري كل نادر وجميل . اما اليوم فقد اقعدتها المرض عن النزول
من عربتها .

ويروى عنها في تلك الفترة ان الناس كانوا يرونها الساعات الطوال
وهي بالنافذة مرتدة قميصا منزليا ابيض ومحتضنة توم كلبها
الانجليزى الضخم الذي يأنس اليها ويمنحها صابرا وده ، لاتصدر منه
اقل حركة تنبىء ، بأنه ضاق ذرعا بسجنه وانه يتحسر على تلك الايام
التي كان يلعب فيها مع رفيقه داك في غابة بولونيا . انقطع عن زيارتها
رجال طالما رددوا على مسامعها ببلاغة آيات حبه واخلاصهم . لم
يبق لها الا كلبها توم المخلص ، والا ان ترقب في صمت وحزن من وراء
نافذة مغلقة مرور الناس من تحتها .

لم يذهب الكسندر دوماس الصغير لزيارتها . انه اعتمد على قصة
زواجها وحكاية غرامها بليست ، وحكم بأنها كانت غير مبالية به ، وجعل
عمله يطردها من ذهنه . فاذا فرغ منه ذهب الى بورمالى ليشهد
آخر ماجد في تشييد القصر الجديد ، ثم يجلس الى ابيه ويدور
النقاش بينهما حول « جوزيف بلسامو » التي كان يكتبها هذه المرة
بقلمه هو . ولكن الكسندر كان لا يغيب عن عمله طويلا .

وصادف اباه ذات يوم في شارع الايطاليين . شمس الخريف
الدافئة يحجبها غيام يضيء على الشارع المألوف منظرا تستغربه العيون
لعل اباه كان يحس حينئذ بالغربة في باريس فنزع فجأة الى الترحال
انه يريد ان يرى بلادا بعيدة ، فلما اتحت له فرصة السفر لم يتردد
في اغتنامها ، بالرغم من ان مشاغله كانت تقتضيه اليوم اكثر من امس
ان يبقى بباريس . وقد واثته الفرصة حين دعاه دوق دي مونبسنسيه
لان يكون شاهدا في عقد زواجه القريب بمتريد . ولكن استمع الى
الوصف الذي اعطاه دوماس لتلك الدعوة فيما بعد ، قال « لما رأى
الدوق ان زواجه هو تاج شرف له وفرنسا كلها ابى في هذه المناسبة
الرسمية الجليلة الا ان اكون معه بمتريد . » وعلى اثر هذه الدعوة

الملكية تلقى دوماًس اقتراحاً من مسيو سلفاندى وزير التربية والتعليم بأن يقوم بمهمة له فى شمال أفريقية بعد أن يحضر حفلات الزواج الملكى بمدريد ، ذلك أن الجزائر فى ذلك الوقت كانت تتحول الى مستعمرة فرنسية ، ومع ذلك فإن أغلب الفرنسيين لا يعلمون عنها شيئاً ، فالحاجة ماسة إذن الى كتاب عن رحلة الى الجزائر يصف أحوالها لاثارة اهتمام القراء بهذا البلد الجميل الآخذ فى الازدهار الواقع على الشاطئ المقابل للبحر الأبيض المتوسط ، وأخبره أنه سيدفع للمؤلف ٤٠٠ جنيه نظير نفقاته . وقال له الوزير أنه قد وقع اختياره عليه لانه صاحب موهبة كبيرة فى الوصف ، فهولذلك خير من يصلح لهذه المهمة . ومهما بلغ من تواضع دوماًس بين يديه فإنه سارع الى التأمين على كلامه والموافقة على حكمه . سره الاقتراح فلم يتردد وقبل المهمة ، ولكنه اشترط أن توضع تحت تصرفه فى البحر الأبيض المتوسط بارجة حربية . فإذا كان الوزير قد قبل من فوره هذا الشرط الذى ينم عن الافراط فى الخيلاء ، فهذا دليل على عنى الشهرة التى كان دوماًس يتمتع بها فى ذلك الوقت .

فلما قابل ابنه فى شارع الايطاليين أهوى بيده على كتفه وقال له « ستأتى معى بطبيعة الحال يا الكسندر » . فأجابه وهو يظن أن أباه يدعوهُ الى الذهاب معه لتناول الغداء :

— « الى أين يا أبتي ؟ أتحب أن نذهب الى مطعم الاخوة بروفنسو؟ » فشبك ذراعه بذراعه وأخذ يشرح له مهمته وهما يسيران على مهل . كم كانت فرحة الكسندر حين علم أنه سيسافر خارج فرنسا وسيقوم برحلة تستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر وسأل أباه :

— « وماذا سيحدث لقصرك ومسرحك وقصة جوزيف بلسامو ؟ أجابه : « القصر والمسرح سيتم بناؤهما أثناء غيابي ، أما قصة جوزيف بلسامو فلا خير أن تنتظر شهراً أو شهرين » .
— « وما الحال فى بقية ارتباطاتك ؟ »

— « أنا سنرى أسواقاً شرقية ملأى بالعجائب والتحف الجميلة ، فهذه الرحلة هى من قبيل المصادفات الحسنة ، لأن بناء القصر قد أوشك على التمام ولا بد من تأثيثه . فكر فى الستائر والسجاجيد التى سنعود بها . وأظن أن الخزف فى الشرق بديع أيضاً »

وانصرف ذهن الكسندر الى التفكير فى عمله ، وكيف يفرغ من تأليف قصته « مغامرات أربع نساء وبيغاء » . لقد تم نشر الجزئين الاولين وارسال الجزئين التاليين الى المطبعة وبقي عليه أن يتم تأليف

الجزئين الاخيرين أثناء سفره ، ولا بأس ان يطلب من المطبعة أن توافيه بالمسودات حيث يكون .

وعلم الكسندر أن أباه قد باع من أسهمه فى شركات السكك الحديدية ما يساوى ألفى جنيه من أجل ان يكون فى جيبه مبلغ آخر من المال يستعين به على الرحلة ، فانه مساو فى القيمة لخمس أمثال مقداره اليوم ، وقال لابيه أنه من الحكمة أن نكتفى بالمبلغ الذى دفعه له وزير التربية والتعليم وان يجعل من تدبيره أن يربح شيئا من المال أيضا من الكتاب الذى سيؤلفه عن الرحلة ، ولكن أباه لم يأبه لنصحه . أنه أعد برنامج الرحلة وفق ذوقه وهواه ، بأنه سيصحب معه بعض أصدقائه وعددا من السكرتاريين وخادما زنجيا ، واعتزم أن يشتري فى الطريق أقدر الجياد على السرعة ، وإذا نزل بلدا أن يحجز فندقها كله على حسابه ، وأن يزور أعيانه وأن يشتري الهدايا لعشيقاته ، يعث بها اليهن مع رسول خاص ، فبهات أن تغل يده نصيحة ابنه المطبوع على الحرص والامساك

قال له : « ألم تعلم بعد يابنى العزيز أننى لأحب السفر الا اذا توفرت لى أسباب الراحة ، فالخروج الى الطريق سيرا على الاقدام يدك فى يد حاشيتك ، شئ جميل حقا اذا كنت طالبا فى مدرسة ، أو اذا كنت شاعرا سارح الذهن لا يطلب الشهرة الا بعد وفاته ، أمانحن فائنا ضيوف فى زفاف ملكى ، فينبغى أن نسافر كما يسافر النبلاء وينبغى ألا تنس أننا مطالبون باعلاء اسم فرنسا والبرهنة على عزها وأمجادها »

وسافر دumas وابنه وصحبه وحاشيته بعد ذلك بقليل بالقطار من باريس الى مدينة تور وهى آخر بلد تصل اليها السكك الحديدية الفرنسية . وكان لزاما عليهم اتمام الرحلة الى مدريد بالسفر فى عربات البريد التى تجرها الجياد . وكان يتأجج بالفرح والسعادة ، فهو لا يزال شابا صغيرا تبهجه رحلة خارج بلاده . ومن حسن حظه أن خلف وراء ظهره هموم ديونه وذكرياته المريعة عن حبه لمارى دوبليسييس . أمامه أيام عديدة تمده بالمتعة والسرور . سيمر بمناظر وتجارب جديدة . ومن ورائه باريس التى شاعت فيها بين الشبان المترفين مودة ارتداء معاطف سود فضفاضة تقليدا لنبلأ اسبانيا ، كما أن السيرك فى الشانزليزيه قد أعد حفلات مصارعة الثيران . كل هذا لآحياء سياسة الملك العظيم لويس الرابع عشر الذى قال : « لن تفضل جبال البرانس بين فرنسا واسبانيا »

الزواج الأسباني

كانت أيزابيلا الثانية الملكة الشابة المتربعة على عرش أسبانيا تنتظر في مدريد وصول قرينها العليل الفاسد دون فرنسيسكو دى أسيس دوق قادس ، كما كانت أختها الاميرة لويزا فرناندا تنتظر وصول قرينها دوق دى موبنسيه لتصبح أصغر أميرة متزوجة فى أوروبا ، وتجاوبت فى الطرق المؤدية الى مدريد اصداء وقع حوافر الخيل السريعة ، فقد تقاطر اليها الامراء والتبلاء والدبلوماسيون ومشاهير الكتاب والرسامون والمكلفون بتصوير حفلات الزواج وكبار الموسيقيين وعلى رأسهم شتراوس ، وعلا دوماس العظيم موجة تدفقهم فحملته الى مدريد . واذا كان دوماس قد طلب الى ابنه أن يكون فى رفقته فقد حرص أيضا على أن يصحب معه ماكيه (لعله اعترزم أن يعهد اليه بتأليف كتاب الدعاية للجزائر الذى كلفه به وزير التربية والتعليم) وصحب معه أيضا الرسام بولانجيه ليتولى اعداد صور الكتاب سافرت جماعته بالعربات من تور الى بوردو ، فوجدت عربة البريد المسافرة الى بايون قد فاتتهم فاشتري دوماس عربة خاصة ، ورفض دوماس كالعهد به أن يساوم البائع ، ورضى له أن يفشه ويستفله، أنه قرين آدمون دانتيس بطل قصة الكونت دى مونت كريستو الذى لا يبالي بالمال اذ لاحد لثرائه الفاحش ، دفع دوماس ثلاثة أمثال ثمن العربة وهو رضى النفس غير مبال ، وتابع الجمع رحلتهم . ونمت تصرفات ألكسندر كذلك عن طبعه فقد أراد أن يشتري خنجرا له مقبض مرصع بالصدف فطالبه البائع بجنيه كامل ، فأخذ يساومه مساومة عسيرة حتى اشتراه بربع هذا المبلغ ، وسر بحصافته سرورا كبيرا

وأصل الجمع السفر طول الليل حتى وصلوا الى مدينة بايون عند الظهر فى اليوم التالى . تعذر عليهم العثور على جياذ تحل محل جيادهم المتعبة فنبذوا عربتهم واستقلوا عربة البريد التى حملتهم عبر مقاطعة الباسك يرون من النوافذ جبال البرانس تدنو منهم شيئا فشيئا ، ومروا بمدينة بياريتز - وكانت لم تشتهر بعد - ثم بمدينة سان جان دى لوز ، وعبروا نهر سيداسو الى مدينة ايرون حيث يقوم الجمر ك .

ما أعجب شأن دوماس . . انه ليستطيع أن يؤلف الكتب بالسرعة التي تطيق بها يده تحريك قلمه المطواع دون أن يتلجلج أو يفقد قدرته على الامتاع . هو مستغن عن النوم ، قادر على الكتابة أينما وجد نفسه ، حتى داخل عربة بريد معتمة تقلقه عبر طرق زراعية وعرة - كالعهد بها سنة ١٨٤٦ - هكذا ألف دوماس أثناء السفر جانبا كبيرا من الكتاب الذي يعده عن الرحلة ويعتبره شاغلا ثانويا يضاف الى مشاغل رحلته الاولى ، جعل كتابه على هيئة رسالة يبعث بها الى صديقة مزعومة له خلفها في باريس ، واتخذ أسلوبا خفيفا بسيطا ينتقل له بسهولة ويترك فيه نفسه على سجيتها ، وجعل الحديث ينتقل من وصف المناظر التي يمر بها الى سرد بعض وقائع التاريخ التي يحليها بأكاذيب من صنع خياله ، ثم يمزج هذا كله بذكر بعض انوار التي كان بطلها ابنه ألكسندر أوماكيه أو بولانجيه أو خادمه الزنجي المرافق له . ولم ينس وصف انتصاره في الجمارك . . اذ ينبغي أن تكون الرحلة سلسلة من الانتصارات المتتابعة ، فقال :

« لك يا سيدتي أن تتصورى مقدار دهشتي حين تقدم الى مأمور الجمرات بعد أن قرأ اسمي المكتوب على جميع حقائبي وصناديقي بأحرف من النحاس ، فاذا به يعبر عن تحيته وتهنئته بسلامة الوصول بلغة فرنسية فصيحة وبلغة أسبانية أفصح منها ، وأمر موظفيه ألا يمسوا متاعى . وكما كان نطق اسم واحد يكفي في قصص ألف ليلة وليلة لفتح الابواب المغلقة ، فان ذكر اسمي وحده كذلك كان كافيا لمنع فتح حقائبي . لقد كنا حقا قد بلغنا ارض أمة توارثت قديم تقاليد الفروسية وأنجبت النوايغ من الكتاب والرسامين أمثال لوبي دي فيجا وسيرفانتيس وفيلاسكيه . ولو حدث أن جاء هؤلاء النوايغ الى فرنسا وحرصوا على كتابة أسمائهم فوق حقائبهم بأبرز خط وأوضحه ، فأنى لا أضمن لهم ألا يخضعوا لتفتيش دقيق قد يتطلب منهم خلع ثيابهم »

وتابع دوماس رحلته ، وصدى تحيات مأمور الجمرات الاسباني لا يزال يرن في أذنيه ، وواصل الجمع السفر ليلا ونهارا - هذا شأنهم منذ غادروا باريس - حتى وصلوا مدريد . لقد مروا في فرنسا واسبانيا بمناطق لا تسلم من الضباب وبرودة جو الخريف ، أما مدريد فكانت تسطع في سمائها الزرقاء شمس حامية . واذا كان المسافرون حين هبطوا من العربة في فناء المنزل الذي وقفت عنده وهم يعانون آثار التعب والارهاق ، فانهم لم يبقوا على هذا الحال طويلا ، فقد

استأثرت مدريد بانتباههم وألهبت خيالهم بمآثر وصور عجيبة ومناظر غير مألوفة لديهم حتى أنهم نسوا كل مطالب أبدانهم لم يتأت لدوماس أن يحجز قبل سفره من باريس مكانا له ولرفقائه في أحد فنادق مدريد ؛ لذلك كان أول هم لهم أن يجدوا مسكنا يأوون فيه . وكانت مدريد غاصة بالوافدين عليها ، ليس بها حجرة واحدة شاغرة . يمر بهم سكان المدينة وهم في أزياء طريفة متباينة فلم يعرفهم واحد منهم انتباهه . يلتزم الجميع الصمت والانفة ، وكان من الواضح أن الشعب لم يبتهج للتحالف مع فرنسا نتيجة لزواج أميرته . فلما وفد عليه الوف الزائرين الفرنسيين تجاهلهم بكبرياء وترفع ، حتى أن الدوق موبينسيه نفسه حين وصل قبلئذ بيوم أو يومين وجد أن الناس تستقبله باستعلاء فتضايق وامتنع

واخفق دوماس رغم سعيه الطويل في العثور على مسكن فرأى أن لا مفر من الاستعانة بذكائه وحيلته ، فقد لاحظ أثناء تجواله مكتبة فرنسية يملكها - كما يدل الاسم المخطوط على بابها - رجل فرنسي اسمه مونييه ، كما لاحظ أن بعض مؤلفاته معروضة في واجهة المكتبة . فاجتاز بابها مسرعا وهو يتنسم وقال لصاحبها : « يا عزيزي مسيو مونييه ، إن لم توفر لنا مسكنا ، فلن يبقى لنا إلا أن نشترى خيمة وننصبها في ميدان القلعة »

أجابه صاحب المكتبة : « عفوا إذا سألتك سؤالا ، لقد ناديتني باسمي فهل يعرف أحدنا الآخر ؟ »

قال له دوماس : « لا ريب في ذلك فهأنذا قد ناديتك باسمك ، - لا غرابة في ذلك فاسمى منقوش على باب المكتبة - واسمى أيضا في واجهتها - في واجهة المكتبة ؟ ما اسمك إذن ؟ - ألكسندر دوماس »

فانبعثت من الرجل على الفور صرخة تنم عن الدهشة والفرح وهتف :

- ماذا تقول ؟ ألكسندر دوماس ؟ دوماس العظيم ؟ دوماس كاتبنا الشاب ؟

أنحنى دوماس أمامه متصنعا التواضع وأخذ الرجل يصافحه بحرارة ثم لم يلبث أن عرض عليه أن ينزل هو ورفقاؤه ضيوفا على بيته وقال له :

- يا سيدى الاجل ، بيتى بيتك .

وكان في بيت مونييه حجرتان صغيرتان شاغرتان لانهما تزيدان عن حاجته ، فأسرع وأثثهما بما يلزم لضيوفه من المضاجع والكراسي والسجاجيد . ومن الصدق الحسنة التي تملأ حياة دوماس كما تملأ قصصه أن مسيو مونييه كان قد سلف له أن استضاف أيضا اثنين من مواطنيه ، وتبين لدوماس أنهما من أعز أصدقائه . وهكذا التقى دوماس بصديقيه بلانشار وجيرارديه وهما رسامان أوفدتهما الحكومة الفرنسية رسميا لتصوير حفلات الزواج ، وتنازل لهما مسيو مونييه عن أكبر حجرة في داره ليتخذتا منها مرسما لهما . ورأى دوماس أنهما سرعا فعلا في رسم لوحاتهما ، فاقترح عليهما من فوره أن يشاركهما هذه الحجرة ، فمن حق كاتب مثله أن يسلك نفسه في زمرة أساتذة فن التصوير

قابل الرجلان اقحام دوماس نفسه عليهما بدهشة وكذلك بسرور ولا ريب ، فرضحا لطلبه عن طيب خاطر وسارعا الى زحزحة لوحاتهما الى طرف قصي في الحجرة ، ورسما باللون الابيض على الارض حدود المساحة الضيقة التي يستقل بها كل واحد من شاغليها ، فسارع بولانجيه الى نصب لوحاته ، وصف دوماس وماكيه مالدیهما من كتب وأوراق على منضدة من الخشب الابيض ، أما الكسندر فقد تولى اشاعة البهجة بين الجميع بضحكاته ومزاحه ، لانه اعتزم ألا ينشغل بعمل أثناء السفر . وأضاف دوماس الى الكتاب الذي يؤلفه عن الرحلة فقره تصف حالهم فقال :

« وجعلنا همنا تنظيم هذه الفوضى البديعة التي تبلغ القمة في مرسوم مصور أو مكتب أديب »

ورضى دوماس بما فعله فان الجو البوهيمي الذي كان يسود الحجرة أفضل لديه من جو الفنادق : هاهي المنضدة الخشبية تنتظره وتومئ اليه وقد صفت فوقها أشكال والوان من الاقلام وتلال عالية من الورق الابيض . ان ذهنه قد بدأ ينشغل بتأليف وصف بديع لحفلات مصارعة الثيران والراقصات الأسبانيات اما قصة جوزيف بيسامو التي خلفها وراءه في باريس فقد نسيها تمام النسيان كما نسي ارتباطات له أخرى عديدة

حقا ان مدريد مدينة شيقة جميلة ، ولكنها ليست معروفة بجودة مطبخها وبخاصة في تلك الايام التي غصت فيها بجموع الوافدين اليها ، فليس في المطاعم من المأكول التي تهفو اليها نفس الفرنسي . انه لا يجد بها كبد الخنزير المدهوك بدهنه ، ولا سرطان البحر قد أجيد

طهيه ، ولادجاجة مخلوما بالفطر . لم يتذوق دوماس الطعام وعافته نفسه ، فقرر أن يستولى على مطبخ مسيو مونية . ولما لم يجد طاهيا فرنسيا شهيرا في مدريد يستأجره ، فقد صبح عزمه على أن يتكفل هو بوظيفته ، وأخذ يصحب خادمه الزنجى ويخرج معه الى الاسواق . لا يفوقه أحد في حسن اختياره للدجاج والبط والبقول ، ثم يعود محملا بأكداس من السممان ولحم الخنزير المقدد والبيض والجبن ويسرع في اعداد وجبة شهية فيعمل في المطبخ بجد ، يبصر الصحاف وينشر القشور من حوله . انه يعتمد على خادمه الزنجى ان صحا من خماره ليعيد ترتيب المطبخ بعد أن يفرغ الاستاذ الطاهى العظيم من عمله . لا شك ان ذكرى زيارة دوماس قد بقيت عالقة في ذهن مسيو مونية أمدا طويلا .

ان الكسندر دوماس هو من هذا الصنف من الناس النادر وجوده حتى في ذلك العهد ، صنف الذواقة الخبير بالطعام الطيب . . هكذا كان شأنه ، وانه أيضا استاذ في فن الطهى . ان كان الناس قد وجدوا في بعض قصصه غلطات كثيرة لا يقرونه عليها ، فانه كان يفخر دائما بأن الطعام الذى يعده بيده لا تعيبه غلطة واحدة تمنع الاقرار له بأنه استاذ لا يبارى في فن الطهى . وكان ان سلف له أن دعا الدكتور فيرون لتناول عشاء بديع أعده بنفسه ، فأخذ ضيفه يتهمه من قبيل المزاح بأنه استعان بطاه مجرب اتخذه شريكا له في عمله . حقا أن عبارة اتخاذ شريك له في العمل ليست خفيفة الوقع على أذن دوماس قد يغفرها اذا كانت كناية عن طريقة تأليفه لقصصه ، ولكن هيهات له أن يغفرها اذا قصد بها قائلها تجريح مهارته في المطبخ ، فأصر دوماس على اعداد عشاء مماثل أمام شهود محايدين . فلما فعل جاءت النتيجة مثبتة لاستاذيته . ولكن هيهات لشباب ذلك العهد مجازاة الاباء في تقديرهم للطعام الطيب . وقد أرجع دوماس العلة الى عادة التدخين التى بدأت حينئذ في الانتشار ، فانها أفسدت تذوق اللسان للطعام ، كما عكرت على الناس صفو ذاك الفن الجميل ، فن مجاذبة اطراف الحديث في الصالونات والمجتمعات ، فان ابنه الكسندر مثلا لا تطاوعه نفسه أن يدخل المطبخ ليقلى بطة او يضع في الفرن فطيرة بالجبن فيعرف اللحظة التى ينبغى فيها اذا انتفشت أن يخرجها منه . انه كان يسخر بوقاحة من عمل أبيه في المطبخ وان لم يمنعه ذلك من أن يتناول الطعام بشهية كبيرة . انه ينتمى الى الجيل الجديد ، فهو وقرناؤه من الكتاب يأنفون لشدة اعتدادهم بأنفسهم من الدخول الى المطبخ ولبس فوطته ، كما

كان يفعل أبوه وبلازك في عهد سمته البساطة ورفع الكلفة
ولما فرغ دوماس من شواغله واطمان لمسكنه وطعامه ذهب لزيارة
السفير الفرنسي ليعلم منه أين ومتى تقام الحفلات التي ينبغي له
حضورها .

وتلاحقت هذه الحفلات واحدة أثر أخرى . مآذب في السفارة
الفرنسية وفي القصر الملكي ، واجتماعات للعشاء في قصور النبلاء .
وقد تم عقد القران المزدوج في يوم ١٠ أكتوبر وهو يوم عيد بلوغ الملكة
سن السادسة عشرة ، وأقيمت الحفلة في القصر الملكي في الساعة
العاشرة مساء . ووجد الكسندر نفسه في القصر يرقب العروسين
البهيتين سليلتي الملوك . الملكة الشابة بدينة لا يعلم أحد عنها شيئاً
إلا أنها تحب الحلوى ، وأختها فتاة جمالها وليد التألق ، ضئيلة الجسم
لأنها لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها . تقف بجانبهما أمهما الملكة
كريستينا وهي امرأة مشهورة بأن لا خلق لها ولا ضمير ، وأمامهن
القرينان المتباينان ، دون فرنسيسكو دي أسيس الجلف الفبي ،
والدوق دي موبنسيه الانيق الرشيق الفرنسي من قمة رأسه إلى
أخمص قدميه ، ووقف إلى جانب الأمير الفرنسي أحد شاهدي عقد
زواجه ، أنه الكسندر دوماس الأب وقدرين صدره بأوسمته العديدة .
انه يتأمل كل شيء حوله ويتنسم بأعجاب ورضا ، كأنما يدير في ذهنه
كيف يضيف على هذه الحفلة المملة معالم البهجة حين يصفها في كتاب
ينشر باسم الكسندر دوماس . انه لا يرى للحفلة إلا الصورة التي
يتخيلها ، فانه لا يستطيع ان يروى التاريخ الا روايته لسجل حافل
بأمجاد الفروسية ونواجع المآسى ونزوات الرومانسية ، ولا بأس ان
يضيف عليه حواشي من صنع خياله ، وانك لتجد مثالا لهذه الحواشي
العجيبة في وصفه لعهد الملك هنري الثامن . واصطف حول الجميع
طائفة من الساسة الدهاة الذين أعانوا الملكة كريستينا على تلفيق
زواج ابنتها الملكة ايزابيلا بالدوق فرنسيسكو المأفون والقاء أختها في
أحضان قرين لم تقابله من سابق ولا تعرف عنه شيئاً .

وفي اليوم التالي ركب دوماس وابنه عربة شقت بهما شوارع المدينة
المزدحمة الى أن بلغت بهما كنيسة أتوكا حيث يقام قداس بمناسبة
هذا الزواج الملكي الذي لفته رجال السياسة . وكانت مدريد تحتفل
بهذا الزواج بهجة الشعوب البدائية ، ففي كل ناد عام ، وفي خارج كل
مسرح يجتمع الراقصون والراقصات من مختلف مقاطعات أسبانيا
يرتدون ملابسهم الوطنية ويؤدون رقصاتهم الجميلة، من بينهم جماعة

من المغاربة ، يتميزون برشاقتهم وثيابهم المبهرجة ، رقصهم يعبر عن قتال بالسيف أو بالخنجر . شقت العربية بدوماس وابنه طريقها بجهد وسط جموع من الناس مزدحمة في الشوارع . الكسندر ينظر فيما حوله كأنه في حلم ، تصل الى اذنيه همهمة الجموع تتخللها الاغاني ، فكأنما يخوض تيارا متدفقا بالموسيقى فيه دقات الصاجات والكعوب الخشبية للراقصين والراقصات ، بل ان هز النساء لمراوحن له خفيف لا ينقطع . ان اللحن الذي يصل الى أذنه يتنقل من النقرة السريعة لرقصة التارنتيلا الى عزف متمهل خافت على الجيتار ، الاجراس القديمة تدق ، واذبال اثواب النساء تدور . اما النبلاء فيستقلون الى الكنيسة في أبهة وبين الحشم والخدم عربات ثقيلة مزخرفة ، وارتدت العامة ملابس العيد من كل لون بهيج ، ويخالط الحشد هنا وهناك رجال تنطق وجوههم بالكبرياء والانفة ، ثيابهم خرق بالية ، جيوبهم وبطونهم خاوية ، فقراء جائعون ضائعون رغم كرم محتدhem في ذلك البلد الذي يعج بالارستقراطية المتعالية والوان من المظالم الصارخة والفروق الكبيرة بين الطبقات . تلمح عين الكسندر من وراء نوافذ البيوت وجوه حسان هيات له أن يراهن مرة أخرى ، اما التي احبها فراقدة في بلد قصي في الشمال ، تموت على مهل ، تذكره بها فتيات أسبانيات لهن مثلها شعر يجمع بين اللون الاسود والازرق ، هو اللون الذي اختصت به ماري فكان من اكبر أسباب سحرها ، ولكنه لم يأت لاسبانيا الا لينسى ماري دوبليسيس فنفي طيفها من ذهنه . ان حسانا كثيرات تطل من النوافذ لا لتراه بل لتري الجموع المحتفلة بالعيد ، وجوههن في اطار من شعر لامع من تحت طرح سود من الدانتلا فيزيد سوادها في تألق لون وردة او قرنفلة حمراء تزين مفارقهن ، ولكنه لم ير زهرة الكاميليا البيضاء التي تذكره بالماضي ، هي زهرة باريس وزهرة ماري حبيبته ، لا مكان لها حيث هو الان في اسبانيا في جو حار ووسط حفل يموج بالموسيقى والالوان . توالت عليهما شوارع لها بهجة تبهر الابصار حتى بلغت بهما العربية باب الكنيسة ، فدخلوا اليها ، فاذا بهما فجأة وسط جو لا الف لهما به ، جو كآبة غامضة غارقة في البخور .

واقامت حفلة مصارعة الثيران اثر عقد القران ، وجلس دوماس وابنه وماكيه وبولانجيه في الجانب المظلل من الساحة بالقرب من المقصورة الملكية . لم يسبق لهم من قبل أن شاهدوا مصارعة الثيران ، فاتخذوا مقاعدهم وأعصابهم متوترة . ان المعنى الذي تنطوى عليه

حقاً هذه الحفلة يغيب وسط مظاهر الفخخة والزينة وبين الالوان الزاهية . جالس عشرون ألفاً من المشاهدين في هذه الحلقة التي ورثت السيرك . أنهم جميعاً متلهفون أشد التلهف على رؤية الخطر والقسوة ، لذتهم انهم يرونها بأعينهم وأنهم هم أنفسهم في منأى منها . رمال الساحة تلمع بوهج شديد ، ومصارعو الثيران وأعوانهم يتخيلون في ثياب أنيقة زاهية ، والثور الهاجم متفجراً بالقوة والغضب . على مقبض السهم الذي أنغرز في ضلوعه اليسرى ترفرف شرائط حريرية من ألوان هي شعار مالك هذا الثور الدوق أوسونا ، ان حفيف عشرة آلاف مروحة وتألق آلاف من الزهور القرمزية التي ينطق جمالها بفضل انعكاس ألوانها على رمال الساحة ، وتعبير ضجة المشاهدين موجة بعد موجة عن مشاعرهم المتباينة لهو منظر يستبد بالنفوس . واجلس دوماس وصحبه وهم مسحورون تنتابهم الدهشة والاعجاب ، رأوا حصاناً أثر حصان ينفق أمام أعينهم ، ورأوا من المصارعين وأعوانهم من يحمل خارج الساحة وهو جريح أو قتيل ، والثور الهائج الذي يشير الفوضى من حوله يستفزه اللاعبون الى حد انجنون ، ثم يعلق نظراته بمصارع ويثبتها عليه ، ويندفع نحوه لا يصرفه عنه محاولة بقية أعدائه لفته اليهم ، لا يواجهه غريمه الا بوشاح من لون زرق السماء مصنوع من الحرير الثقيل ، طارده الثور حتى دفع به الى حافة الساحة ، وأخيراً هجم عليه وقد أحنى رأسه الى الأرض ، فما كان من المصارع الا أن استند بقدمه على جبهته بين قرنيه وقفز ونزل من ورائه . تعالت من الجموع هتافات بحماس جنوني ، وألقيت الى الساحة أكداًس من المراوح والزهور . نظر دوماس الى أصحابه فوجد وجوههم قد شحبت وتندت بالعرق ولكنهم يشاركون الآخرين في هتافهم المخبول

الثور مصمم على الانتقام . أعرض عن حيل بقية أعدائه ، ولم يبق له هم الا أن يلحق صاحب الوشاح الأزرق واندفع نحوه . فیتجنبه المصارع بقفزة الى جانب ، ورمى بوشاحه الأزرق فوق رأس الثور ، رجرى ليتناول سيفه ، وأخذ الثور يهز رأسه في حنق شديد حتى أطار الوشاح عن رأسه بعد أن مزقه ، وتلفت يبحث عن غريمه ، فراه بعيداً عنه فاندفع نحوه ، فاذا بقدم المصارع تنزلق فوق باقة من الزهور التي ألقيت في الساحة ويقع على الأرض ، حينئذ انبعث شهقة واحدة من عشرين ألف حلق ، ثم خيم على الساحة ومن فيها صمت رهيب

قام الرجل على قدميه والثور مندفع نحوه ، هيهات له أن ينجو .
حملة الثور على قرنيه وطوح به في الهواء ، ثم انصرف الثور الى
تصفية حسابه مع راكب جواد كان يحاول منذ زمن أن يلهيه عن
غريمه ، وظل المصارع راقدًا على الأرض رقدة الميت . أنه قاصد أن
يمتع المشاهدين ، وكأنه يعلم أن دumas من بينهم ، فإذا به يهب من
رقدته وهو يضحك . أن نجاته من طعنة قرني الثور معجزة ، ولم
يصبه القاؤه على الأرض بأقل ضرر . نظر دumas مرة أخرى الى ابنه
ورفاقه فوجد ماكيه يكاد يغمى عليه ، وجيء له بكوب من الماء
لأسعافه

وتوالت على دumas وصحبه لمدة اثني عشر يوما حفلات المصارعة
التي تعتبر أهم مظاهر البهجة بعيد الزواج الملكي ، وكان بطل تلك
الحفلات المصارع الشهير فرنسيسكو مونتيز . فإذا أقبل الليل
أطلقت الألعاب النارية يوما بعد يوم ، وأقام النبلاء مأدب فخمة في
دورهم . وكذلك أقامت السفارة الفرنسية حفلة تولى فيها جوهان
شترأوس قيادة الفرقة الموسيقية . وتلاحقت المآدب وحفلات الرقص
بحيث لم يكد يبقى لدumas وصحبه وقت يبدلون فيه ثيابهم بين حفلة
وأخرى ، أو يظفرون بسنة من النوم . لقد فاق الأب ابنه في قوة
الاحتمال ، فظل محافظا على نشاطه لا يرهقه التعب ، يجري خلال
الحفلات بجسمه الممتلئ ووجهه الباسم وصدرة المزدهم بالنياشين .
فإذا اقترب الفجر وتضعع رفاقؤه فوق الفراش بدل هو ثيابه
بسترة قديمة وخرج في صحبة بول خادمه الزنجي الى السوق ، لقد
حان وقت قيامه بدور أستاذ الطهي ، فإذا فرغ من مشترياته عاد
وجلس على منضدة من الخشب الأبيض وتابع تأليف كتاب الرحلة
يملا صفحات كبيرة من الورق الأبيض بخط منتظم دقيق ، فيخرج
من قلمه كلام ليس فيه ترتيب للحوادث أو ترابط بينها ، ولكنه ممتع
شهي . ويحق لنا أن نتحسر على الروائع التي كان يمكن له تأليفها
حينئذ لو لم يشغل نفسه بحضور حفلات المصارعة بحيث لا تفوته
واحدة منها ، وباستعراض نفسه بخيلاء في كل حفلة ومأدبة ، وبأن
يؤدي في الوقت نفسه وظيفة المشرف العام ورئيس الحسابات في منزل
بضيافته الفرنسي

وأخيرا آن أوان مفادرة مدريد . أن رفاق دumas سعداء وأن
كانوا في شدة من الإعياء ، فهم يتطلعون الى الايام القادمة التي يقضونها
في هدوء أثناء سفرهم الى فرنسا ، وأن كانت أمامهم رحلة شاقة

مليئة بالمخاطر الى أن يبلغوا مدينة قادس . وكان دوماس قد دعا صديقين جديدين لمرافقته في رحلته في شمال افريقية ، هما المصوران دسبارول وجيرو وكان قد لقيهما في مدريد .

وسافر الجميع على ظهور البغال مدججين بالاسلحة ، ذلك لان طريقهم لا تعمل فيه عربات البريد ، فاذا جاء الليل نزلوا بفنادق قروية حقيرة ، سحنة أصحابها تشير الريبة ، فاذا بلغوا مدينة تريثوا بها أياما ونزلوا فندقا يظفرون فيه بقسط أوفى من الراحة ، ويتولى بول الخادم الزنجي نقل الحقائب وفتحها واعداد الاوراق والاقلام لدوماس وماكيه وكراسات الرسم لرفقائهما المصورين الاربعة ، ثم لا يفوت دوماس البحث عن أعيان المدينة وزيارتهم ، فيتلقى منهم الهدايا ويسمع منهم ثناءهم عليه واعجابهم به ، وكلما وجد منهم واحدا يستجيب لالحاحه دعاه الى المجيء لفندقه وتناول الطعام معه ، ولا يفوتهم كذلك دراسة كل علم في المدينة يستحق الرؤية فيرسم بالخطوط والالوان ويوصف بالكلمة . وهكذا زاروا طليطلة وغرناطة وقرطبة واشبيلية وقادس .

في كتاب الرحلة الذي يؤلفه دوماس حديث كثير عن ابنه يدل على محبة له كبيرة . لقد أبى من قبل أن يدفع له ديونه ، ولكن حديثه عن هذا الابن يدل على أنه فاق كل أب في أعزاز الأبوة ومحبة . أن ماري الكسندر ابنته غير الشرعية من بل كرييسامر قد خيبت لسبب مجهول أمه فيها ، أما حبه لابنه واعجابه به فلاحدهما . اذا مال الابن الى الدعابة فهقه الاب بملء فمه ، أنه شديد الإعجاب بمقدرة ابنه على نظم الشعر بسهولة ، ووبراعته في ركوب الخيل ، وتفتح شهيته اذا جلس للطعام ، فلا غرو أن أحس الابن بسعادة كبيرة . أنه لم يعهد من قبل مثل هذه الاسابيع التي قضاه في حبور متصل . ام يسبق له أن قام برحلة ، فكان كل شيء يراه يبعث فيه السرور . أنه بعيد عن باريس التي ترتبط في ذهنه بذكرى أحزان كثيرة . لقد نسي الآن أنه ذاق يوما مرارة البؤس والتعاسة . أن أفراد الزمرة والخادم الزنجي المرح هم نعم الرققة في السفر . لقد دعا دوماس الاب أصدقاءه من المصورين لمصاحبته لانه يرتاح الى معاشرة الفنانين ويترك معهم نفسه على سجيتها ، اذ لهم طبع سمح وانبهار بكل جديد يرونه ، واطاعة على الفور لكل خاطر يبشر بمتعة فلا يفوت أوانها ، ورضا بتصاريف الحياة يتلقونها كيفما جاءت . يالها من رحلة بلغت مسرتها حد الكمال ، لا حساب للوقت . لا موعد محتم لعمل من الاعمال ،

لا حاجة في يوم للتدبر في أمر غده ، وكان ماكيه هو الذي شذ عن
الجميع في حمله لساعة في جيبه .

ولو كان دوماس رجلا يعنى بأعماله لترك ماكيه في باريس ليرعى
مصالحه . انه حقا قد دبر أمور مسرحه فعهد بها الى مدير قدير ،
ولكنه ترك أشغاله مع المطابع والناشرين مفلوطة الزمام ، ترك شركاءه
في التأليف ومساعديه دون أن يزودهم بتعليمات كافية ، أو لعلمهم
كانوا بسبب تخلف دوماس عن دفع أجورهم منشغلين بالبحث عن عمل
آخر . نسي دوماس أعماله في باريس فدبت فيها الفوضى وأخذ
الناشرون يشدون شعرهم من شدة الفيلظ . لو بقى في باريس شريكه
ماكيه الدعوب لقد رعى موالاة نشر ست روايات سلسلة على الأقل
ولا يفظ قصة جوزيف بلسامو من سباتها وأضاف اليها كثيرا من
المغامرات التاريخية ولا استطاع أن يرضى الناشرين ويصحح المسودات
ويحضر تجارب المسرحيات . ولكن لا يسعنا نحن إلا أن نشعر
بالغبطة لماكيه المسكين الذي ظفر من حيث لا يحتسب بأجازة تريحه
من أعماله المرهقة لفترة غير قصيرة من الزمن . أن دوماس يعطف
عليه ولكنه يستغله أسوأ استغلال ويسوقه الى العمل بلا هوادة ، انه
حقا يكرمه فيطعمه فطيرة بالجبن من صنع يديه ويسقيه النبيذ
سخاء كأسا بعد أخرى ، ثم لا يدفع أجرا لهذا المسكين الذي يضنى
نفسه وموهبته في تأليف كتب تصدر باسم رجلٍ غيره . ولكن حسب
انه حضر الزفاف الملكي في مدريد وتكشفت له مباحج أسبانيا وهو يقطع
ربوعها فوق ظهور البغال ، ويطوف بالبحر الأبيض المتوسط راكبا
بارجة حربية

استعاد دوماس الابن بعد ثلاثين سنة ذكرى هذه الأيام السعيدة
فكتب يصفها :

« كنت الأصغر سنا في هذا الجمع من الرفقاء الذي لم يستهلك واحد
منهم مرحلة الشباب ، عاملوني معاملة لاين مدلل ، فكنت أكثر
الرفاق كسلا واستهتارا ، وخيل الي أن الشباب والقوة والبهجة متع
هيات لها أن تنفذ . كنت بالنهار أضحك ملء فمي وبالليل أنام ملء
جفوني اللهم الا اذا وسوس لي شيطان الشعر »

أن فنادق المدن محتملة ولكن فنادق الريف فظيعة ، ودوماس الاب
لا يتخلى عن القيام بدور طاهي الرحلة ، فاذا بلغ فندقا في الريف
استولى عليه كله ليتأني له اعداد عشاء شهى ينتظره رفقاؤه بفارغ
صبر بعد رحلة طويلة في الهواء الطلق ، وكيف يشق اعداد العشاء على

رجل شديد الثقة بنفسه ، عامر الجيب بالدنانير الذهبية ، في صحبة رفقاء اقوياء كلهم مدججون بالسلاح . في الكتاب الذي وضعه عن الرحلة صور طريقة عديدة تبين المؤلف في مطبخ وهو يشعل النار في فحم موقد خامد ويهز مروحتين فوقه ، ويثبت آلة شى اللحم على الموقد ويوزع العمل على رفقائه ، فديبارول - لانه وسيم يتكلم الاسبانية بطلاقة - مكلف في كل فندق بأن يؤانس صاحبتة ، ولا بأس أيضا أن يطارحها الغرام اذا لزم الامر ، وجيرو يتكفل بتقشير البطاطس ، وماكيه يتولى نتف بريش بطة ، وبولانجيه منهمك في كسر عدد ضخمة من البيض فيملا منه اناء كبيرا ويدفعه الى دوماس فيصنع منه عجته الشهيرة ، ويكون ديبارول قد أغرى صاحبة الفندق أن تنزل معه بمفاتيحها الى القبو فيعود لرفقائه بأجود ما لديها من نبيذ . أما دوماس فهو الذي يجهز العشاء ويعد السلاطة . انه لا يتذوق خل اسبانيا ويجد زيتها زنخا ، لذلك اخترع لخلط السلاطة سائلا هو مزيج من البيض المضروب وعصير الليمون . أما الكسندر الابن المدلل فكل الذي يعمله هو أن يذهب الى فراشه وينام بعد أن ينبه على رفقائه الا يوقظه أحد الا اذا وضع الطعام على المائدة

ويمضي وقت غير قليل في عمل شاق الى أن يتم في ساعة متأخرة من الليل اعداد عشاء يليق بجمع ذكى من ابناء فرنسا . كل واحد منهم ذواق خبير بالطعام الطيب . ويبدأ العشاء بعجة بديعة يتصاعد بخارها من طبق كبير . الصحون الفارغة أمام الجالسين قد تمت

تدفئتها لئلا تفسد برودتها طعم الاكل الساخن ، والنبيذ أيضا قرب الى النار بالقدر الذي يضيف عليه أجود نكهة ، وفوق الموقد أوان أخرى تحتجز وعودا جميلة . ويوقظ دوماس ابنه ويجلس الجميع على المائدة ، من حولهم طهارة الفندق من الاسبان ففروا أفواههم من شدة الدهشة . الذي كان يمكن أن يخرج من أيديهم هو أن يعدوا لضيوفهم حساء رقيقا فاترا ، وطبقا من لحم أعجف مقلّى في الزيت لا طعم له . لا عجب ان كل من شهد دوماس حينئذ حسبه طاهيا محترفا جاء في حاشية نبيل فرنسي من ضيوف الزفاف الملكي

وتكفل الكسندر الابن بتسليه رفقائه بحديثه المرح . انه في القمة من البهجة والحبور . بينه وبين أبيه طوال الرحلة مبارزة في التنكيت ، فكان يصمد لايه او يتغلب عليه . انه في هذه السن التي تحجب لصاحبها أن يدبر المقالب لرفقائه ، وكان أشهى مقلب عنده أن يكون أبوه هو ضحيته . من أمثلة هذه المقالب ان دوماس الاب حين وجد

نفسه في حدائق قصر الحمراء بغرناطة تحرك شوقه الى احدى عشيقاته في باريس فقطف زهرة جميلة وبعث بها مع رسول خاص الى عشيقته رفق قصيدة كتبها لها من وحى الساعة وعفو الخاطر جعلها كلاما على لسان الزهرة ، ونصها كالآتى :

« سلاما يا شقيقتى ، قد قطفتنى فى حدائق غرناطة يد رجل طال غياب قبلاته عن فمك ، وان ظلت ذكرأه باقية فى قلبك . ما بعثنى اليك الا ليقول على لسانى أنه لو حدث ذات يوم أن نودى على بيع غرناطة فى المزاد فإنه لن يتوانى عن شرائها ليقدمها هدية لك » . .

وسر دوماس أشد السرور لتوفيقه فى نظم هذه القصيدة عفو الخاطر واشتاقته لنفسه أن يسمع الثناء والاطراء على موهبته ، فجلس - قبل أن يبعث الرسالة - وقراها على صحبه بنطقه الفصيح المعبر عن خلجات قلبه . لم يكد يفرغ من القاء قصيدته حتى جرى الكسندر الى زهرة أخرى وقطفها ، واستوقف الرسول ودفع اليه الزهرة ليسلمها الى المرأة ذاتها ، وأرفق بهذه الزهرة الجديدة قصيدة له تقول :

« أننى من شמוש غرناطة ، ومشواى فى احدى حدائقها ، انحنى على ابن المسيو دوماس ومد يده الصناع حتى قطفنى . انه بعثنى ليقول لك على لسانه أنه اذا حدث أن نودى على بيع غرناطة فى المزاد فمن المحقق أنه لن يشتريها لك . . »

وفى قرطبة لم يجدوا فى الفندق الا حجرتين بينهما ردهة ضيقة ، فحشروا أنفسهم فيها . ان اغتم دوماس لأنه لم يجد فى الفندق حماما فقد سره أن عثر على طاه فرنسى مجرب من مدينة ليون أتاح له أن يأخذ أجازة من عمله فى المطبخ . ووجد ابنه الكسندر فى الردهة صندوقا اذا فتح انبعث منه لحن رقصة البولكا فى ضجة مزعجة فأخذ لا ينفك عن ادارة هذا الصندوق المرعب طول النهار ، بل اذا نام الجميع بالليل قام هو من فراشه ومشى على أطراف أصابعه وفتح الصندوق

بهذا المزاح الصبيانى بعث الكسندر البهجة فى قلوب رفقاءه وخفف عنهم مشاق السفر ، ولكنه لم يسلم أحيانا من الوقوع فى المآزق : فقد حدث له وهو فى قرطبة أن لمح فتاة اسبانية جميلة من وراء سياج من الحديد يستر نافذة توحى أن وراءها عالما مليئا بالأسرار . وافتر ثغر الفتاة حين رآته عن ابتسامة كلها اغراء : واستطاع الكسندر أن يلقاها . كانت زيارة صحبه لمدينة قرطبة قد أنتهت وأعدت العدة

للرحيل الى بلنسية ، فلما بلغوها تحرق قلب الكسندر للقاء صاحبه من جديد ، واقترض من أبيه ما يكفيه وعاد وحده الى قرطبة . وتابع رفقاؤه سفرهم حتى بلغوا مدينة قادس حيث لبثوا يترقبون رجوع الكسندر اليهم ، ووجدوا في الميناء بارجة حربية تنتظرهم تحقيقا لوعده مسيو سالفاندى وزير التربية والتعليم . وعرفوا ان اسمها هو « الشهاب الثاقب » . وظل دوماس يترقب عودة ابنه يوما بعد يوم الى ان يئس منه فذب في قلبه القلق ولم يدرك ماذا يفعل لأن الكسندر لم يترك له عنوانا له . واضطر دوماس الاب ان يستقل البارجة هو وصاحبه بعد ان اودع مبلغا كبيرا من المال لدى مواطن له رضى ان يتأخر في قادس الى ان يصلها الكسندر فيعنى به ويركبه سفينة تكون متجهة الى جبل طارق ..

وأقلت البارجة من مدينة قادس . ليس لدوماس ورفقاؤه من حديث الا التعجب لهذه المفامرة الغامضة التى حرمتهم من صحبة الكسندر . واعترف دوماس أنه وجد نساء اسبانيا يبالغن مبالغة فظيعة فى الاحتفاظ بعفافهن . وقال ديبارول أنه جاء لاسبانيا على أمل ان تصادفه مثل هذه المفامرة ولكنه عاد بخفى خنين . ان دوماس قلق منزعج لا يكف عن ذكر ابنه الذى تقع قمرته الشاغرة الى جوار قمرته . تتراءى لذهنه المذب صور مفزعة للقتل والاغتيال ما الحال اذا كانت لهذه الفتاة الاسبانية عشاق آخرون . لا جرم ان لها عشاقا آخرين بدليل ان الكسندر لم يجد مشقة فى لقائها . انه عليم بأن الاسبان يدافعون عن الحب بأعنف الوسائل : لا يتورعون عن جذب الخناجر وطعن غرماهم والقاء جثثهم فى آبار مهجورة . ولكن قلق دوماس لم يمنعه من الاقبال على العمل الذى ينتظره . فكتب آخر سطور مؤلفه عن اسبانيا ثم تناول ورقة بيضاء وخط عليها اسم مؤلفه الجديد عن افريقيا . لقد قرر ان يكتب هذا الكتاب بنفسه لان ماكنه كان فى الغالب مشغولا بتأليف رواية ستصدر باسم دوماس .

كتاب دوماس العنوان هكذا : « الشهاب الثاقب » وبدأ تأليف الكتاب الذى كلفه به وزير التربية والتعليم والذى ينبغى ان يكون قذا بين كتب الدعاية . وبدأ الكتاب بذكر قلق مؤلفه وانزعاجه المفضوح بسبب وقوع ابنه فى شرك مفامرة عاطفية . وملا الصفحات كالعهد به فى كل كتاب يؤلفه بنفسه بحكايات لا رابط بينها مما يحدث له منها اثناء الكتابة ويضيف اليها عديدا من نوادر أصدقائه

وأمثلة عن مقدار شهية ابنه للطعام ، فلا عجب أن لم يرد في الكتاب عن الجزائر - المستعمرة الفرنسية الجديدة - إلا قدر ضئيل من المعلومات الأكيدة النافعة

وعبرت بهم البارجة البحر في جو بديع ثم أقلت مراسيها في ميناء طنجة ، حيث أمضى دumas وصحبه بضعة أيام في التجول بالمدينة ومشاهدة معالمها ، ثم اقلتهم البارجة الى جبل طارق ، فوجدوا البلدة مغلقة بالضباب ، فقال دumas في كتابه : « لم يكن البحر الأبيض المتوسط يعرف الضباب الى ان جاء اليه الانجليز . . وإذا لم يكن لهم قدرة على الحياة الا وسط الضباب فقد أبوا الا ان ينشئوا الضباب لاجل جبل طارق . ولكن كيف تأتي لهم ذلك ؟ ما جدوى توجيه هذا السؤال الى قوم يخرج من ايديهم فعل أي شيء بشرط ان يكون بعيدا عن الحكمة والصواب » . ملأ دumas كتابه بمثل هذه الدعاية وهذا المزاج ، ولا نعلم هل كان الضباب مخيما حقا على جبل طارق او كان من ابتكار خيال دumas ، وأخيرا وصل الكسندر ، كان قد ارهقته صحبة الانجليز في جبل طارق فلم يكدر يرى أباه حتىلقى بنفسه في حضنه هاتفا :

- لو تأخرت يوما واحدا لوجدتموني مقتولا

- ومن هو قاتلك ؟

- الملل

- أتكون جبل طارق فظيعة الى هذا الحد

- انها لمربعة

تحدث دumas في الكتاب عن انجلترا بلهجة غير ودية تعكس الشعور السائد بين الفرنسيين في ذلك العهد نحوها . لم يكن أحد منهم يحب الانجليز لانهم غضبوا - سواء كان ذلك صحيحا أو أن ذلك كان اعتقاد الفرنسيين - من نجاح الملك لويس فيليب في مسألة الزواج الملكي الاسباني

وقال الكسندر لأبيه أنه وصل الى مدينة قادس بعد أن أقلت البارجة بوقت قليل : ورحب به مواطنه الذي أودع أبوه عنده المال وأركبه سقينة الى جبل طارق حيث اضطر الى البقاء يومين وناول أباه ما كتبه ليقرأه ، فاذا بها قصيدة من ٣٧ تشيدا يروي فيها كيف لاحق فتاة أسبانية جميلة وعزف لها الحيتار تحت نافذتها وأسمعها أجمل أغاني الحب وكيف تسلل في النهاية الى حجرة نومها بالقفز الى شرفتها . . انها قصيدة تافهة سخيفة من هذا الصنف من القصائد

التي كان ألكسندر يوافق بها مجلة « البنات » . ولكن دوماس كان قد ذكر في كتابه قصة اختفاء ابنه ووصف ما أحس به هو من فرح وغبطة حين عاد إليه ، فدفعه افتخاره بابنه الى أن يضمن كتابه هذه القصيدة بنصها وفصها . لعله - وهو مكلف من قبل غيره بتأليف الكتاب - رحب بكل استرسال سهل يعينه على أن يصل بالكتاب سريعا الى الحجم المتفق عليه ، او لعله لم يقو على مقاومة اغراء قلبه له بأن يحدث الناس بفخر عن براعة ابنه . وحين احتسب ألكسندر مقعده فيما بعد عضوا في الاكاديمية الفرنسية حمد ربه ولا ريب ان كتاب « الشهاب الثاقب » ليس من المؤلفات التي يكتب لها البقاء .

ها هي ذى افريقية الفامضة تتراءى لدوماس وصحبه فأخذوا يطوفون بسواحلها ببارجة حربية وأبهة رسمية : وزاروا مدنها الرئيسية . وتحدث دوماس في كتابه بقدر كبير من الفصاحة وبقدر قليل من العلم في رواية الوقائع التاريخية عن هومر وبليني وقرطاجنة وشبه قرطاجنة بانجلترا ، أما فرنسا في نظره فهي تشبه روما التي لا تقهر . ولما بلغوا مدينة وهران علموا ان جماعته من الاسرى الفرنسيين قد أطلق العرب سراحهم بعد تسلم الفدية وبعثوا بهم الى ميناء ميليلانتظارا لسفينة تقلهم الى فرنسا ، فأصر دوماس على أن تتجه اليها البارجة الحربية فورا لاسعافهم ، فلما بلغوها علموا ان الاسرى قد رحلوا الى ميناء جامع الغزوات فتتبعتهم البارجة ، ولحق دوماس وصحبه حضور المأدبة التي اقامها لتكريم الاسرى الكولونيل مكماهون الذي ذاع اسمه أيام الامبراطورية الثانية وحرب السبعين . تأجج حماس دوماس كالعهد به دائما وانطلق لسانه بالحديث فقد حركت هذه الواقعة خياله حتى بدأ يظن انه هو الذي أنقذ الجنود الفرنسيين من قبضة عدوهم . فلما بلغ باريس ارتفع الظن الى مرتبة اليقين واكد لسامعيه أن خلاص الاسرى ثمرة بسالة البارجة الحربية التي كانت تحت امرته . هكذا بلغ به جب العظمة والافتتان بالنفس .

لم ينقطع دوماس وماكيه خلال الرحلة الافريقية عن العمل بجد ومثابرة . كذلك عكف المصورون المرافقون لهم على تسجيل مناظر عديدة بالرسم . أما ألكسندر فلم يكن له من عمل الا طلب اللهو والمتعة . كان يرافق أباه أحيانا في رحلات الصيد أو يذهب الى الحفلات الراقصة في السفارات أو يتجول متسكعا في الاسواق يبحث

عن تحف يشتريها بعد مساومات بأثمان بخسة .
ولكن الأسابيع المشمسة الساحرة انقضت سريعا وبلغت الرحلة
نهايتها . ففي يوم ٣ يناير أقلت بهم الباخرة من الجزائر الى فرنسا .
واصطحب دوماس معه اثنين من أرباب الحرف من عرب تونس
ليشتغلا في زخرفة قصر دوماس . عادوا ومعهم متاع متنوع عديد :
سجاجيد من أزميز وطرابلس - ستائر حريرية - أوان خزفية -
سلاسل - فصوص من الجواهر - عطور ، بل وعلب من الملبن التركي
أيضا - وصداري مزخرفة - قمصان نسائية ، ومراوح وخناجر من
أسبانيا . وعاد دوماس الاب أيضا بوسامين جديدين ، أولهما وسام
الوشاح الأكبر لشارل الثالث ، والثاني وسام أنعم به عليه سلطان
مراكش سيدي محمد

فلما وصل الى طولون سارع بالسفر الى باريس ليلى خيوط
حياته المبعثرة . أما الكسندر فقد نازعته نفسه الى التسكع قليلا
على شاطئ البحر ، فمن الامتع أن يقضى شهر يناير تحت شمس
مرسيليا المشرقة عن أن يقضيه في باريس تحت سماء باردة داكنة .
وقد وجد لآبيه في كل مكان أصدقاء كثيرين يفتحون له أبوابهم ،
فاختار منهم الشاعر جوزيف أوتران لينزل في ضيافته . وطابت له
الحياة ، فان الشعراء - ذلك أن الكسندر كان يعد نفسه في ذلك
الوقت شاعرا - لم يكن لهما من عمل إلا الاستمتاع ، وهما راقدان ،
بأشعة الشمس ، أو التنزه على الشاطئ ، أو صيد السمك . وتعاهد
الاثنان على ألا يجرى بينهما حديث إلا نظما . وكان الكسندر قد تذكر
وهو في مدينة قانس ماخلفه من عمل في باريس فكتب الى ناشره
يسأله أن يبعث بالمسودات اليه في الجزائر ، فكان قد تسلمها فعلا ،
ولكنه لم يلق اليها نظرة ، وكذلك لم يعن بانجاز الجزئين الآخرين
من كتابه .

ووصلته أنباء من باريس تفيد أن آباه بعد أن أمضى رحلته في بهجة
وسرور وجد حين عودته دعاوى كثيرة أقامتها ضده جماعة من
الناشرين وأصحاب الصحف الذين كانوا قد تملكهم الغضب وأصروا
على التآمر منه . وقد هم الكسندر بالسفر الى باريس مدفوعا بولائه
لآبيه للوقوف بجانبه في محنته ، ولكنه كان يرهب العودة ، فأجل
الرحلة ، فهو يصور لنفسه ماسيلقاه من غم وضيق بسبب ارتباك
أحوال آبيه ، فأثر التلعب انتظارا لآباء جديدة .

موت محظية

كانت ماري دوبليسييس تتجرع غصص الموت . بدأت صحتها منذ الحريف تتدهور بخطا بطيئة أكيدة الى أن اقتربت النهاية ، غاضت من جسدها كل قوة تعينها على الخروج في عربتها الزرقاء للتنزه في شوارع قلب باريس التي طالما أحببتها ، وأخذت تقضي أيامها وهي مضطجعة في مخدعها لايعنى بها أحد سوى كلوتيلد خادمتها الوفية . أقل كلام يرهقها ، فجعلت تسليتها أن تقلب صفحات قصتي « مانون ليسكو وهلوآز الجديدة » وهما القصتان المفضلتان لديها ، ثم تقرأ أيضا مؤلفات لامارتين وهوجو والفريد دي موسيه وبرناردان دي سان بيير وشاتوبريان . ان شحوبها واعياءها وأناقته تكاد تنطق بأن الذي يفترسها هو الملل بعينه . . انها مثل مجسم لعهد الملك فيليب الذي كان يقال فيه « فرنسا تعاني الملل » حشدت كل قواها المتهاوية وذهبت مرة الى الاوبرا فكانت هي زيارتها الاخيرة . شهدها الناس ذات ليلة في مقصورتها المفضلة قرأوا شبحا متشحا بحريز أبيض ودانتيلًا مزدانا بالحلى ، حاملة باقة من زهور الكاميليا ، وكتب صحفي في صحيفة « القرن » بعد وفاتها يقول : « وخيل للناس انها قامت من قبرها لتلوم خلائها في الطيش والنزق على هجرتهم ونسيانهم لها » . كما شهدها الناس بعد أسبوع أو أسبوعين في ختام تلك السنة في مسرح الباليه رويال حيث كانت تقدم مسرحية غنائية ناجحة اسمها « بارود القطن » كأنها شبح أبيض صامت وحيد يلفه الغموض يغشى المسارح . هذه هي ماري دوبليسييس تودع أعز شيء لديها من قبل أن تلفظ آخر أنفاسها .

وكان ادوار دي بيريجو قد بلغته أخبار تفاقم علتها وفقدان الامل في شفائها فسارع بالعودة الى باريس ، ولكن ماري رفضت أن تراه . وشهدت كلوتيلد سيدتها تصارع الموت طوال شهر يناير فأشفقت عليها من الوحدة وتطوعت بالأذن له بالدخول اليها فلزم فراشها في أيامها الاخيرة . وكان الكونت دي ستاكلبرج يوالى زيارتها ، فراع هذا الشيخ الهرم أن يرى ان الفتاة الصبية التي أغدق عليها من ماله

من أجل أن تؤنس أيامه الأخيرة في هذه الدنيا هي التي تسبقه انى القبر . وقد حدث قبل وفاتها بيومين أن وقع نظرها على الفيكونت دى بيريغو فعرفته ومدت له يدها وقالت : « اجئت لزيارتى ؟ وداعا ! اننى راحلة عنكم في سفر طويل لا عودة منه » فاشتد حزنه وغمه وأخذ يتلمس كالمجنون وسيلة تعين على انقاذها فحمل سترة لها الى اليكسيس المنوم المغناطيسى الشهير الذى سبق له أن أدهش الناس بمقدرته الخارقة على شفاء المرضى . لمس اليكسيس السترة بأصبعه وقال له : « اسرع اليها . لم يبق لها في الحياة الا ساعات قليلة » وبدأ عليها في أيامها الأخيرة رعب شديد من الموت نجد وصفه في مقال كتبه عنها نيوفيل جوتيه في صحيفة « الصحافة » سنة ١٨٥٢ بعد نجاح مسرحية « غادة الكاميليا » . قال : « كانت تحس في الايام الثلاثة الأخيرة من عمرها انها تنزلق الى الهوة التي تنتظرنا جميعا ، فأخذت تشد بيدها على يد خادمتها كأنما لا تريد أن تتراخى قبضتها أبدا ، ولكن هيهات ! لقد تراخت قبضتها حين هل عليها ملك الموت ، تأجج في جسدها آخر عزم لشبابها وهبت واقفة على قدميها كأنما تريد مدافعة الموت أو الفرار منه ، وانطلقت منها صرخات ثلاث ثم هوت جثة هامدة » . وكانت قد أوصت كلوتيلد أن تؤخر ما أمكنها اذاعة نبأ موتها ، لعلها كانت ترتعب من تصور موكب جنازتها . وكانت وفاتها في اليوم الثالث من فبراير . وقيل أن جثمانها وضع في نعش مفروش بالدانتيل وزهور الكاميليا ، ولف رأسها بمنديل مطرز بشغل الإبرة ، ذراعاه معقودتان فوق صدرها ، وبين يديها صليب وباقة من الكاميليا . ولم تنفذ كلوتيلد وصيتها فأقيمت جنازتها بعد يومين في كنيسة المادلين ، ثم حملت الى مقبرة مونمارتر ، وسار خلف النعش حفنة من المشيعين : الكونت دى ستاكلبرج الهرم المضطجع يستند الى ذراع خادم ، والفيكونت دى بيريغو ورومان فيين وهو صديق لها من أبناء قربتها ، ورجل اسمه تونى وهو تاجر كان يبيعها نخبولها الانجليزية ، ومعهم أيضا ولا ريب كلوتيلد خادمتها المخلصة . وذكر من وصفوا الجنازة أن الكونت أجوادو ومونجوايو وادوار ديليسير كانوا أيضا من بين المشيعين . ودفنت ماري في قبر مؤقت ثم تولى الفيكونت دى بيريغو الذى رتب الجنازة شراء ارض لقبر خاص لها بوثيقة مؤرخة يوم ١٢ فبراير ، وهو القبر الذى يضم رفاتها الى اليوم

سمع دوماس الابن نبأ وفاتها يوم ١٠ فبراير وهو بهم بمغادرة

مرسيليا الى باريس . وعاد الى بيته بعد أربعة أيام . وفي يوم الثلاثاء ١٦ فبراير تم اخراج نعشها من قبرها المؤقت وأنزل الى قبرها الدائم وفوقه نصب تشاهده العيون الى اليوم . وكان يوما مقبضا تلبدت سماؤه بالسحب السود ولم ينقطع فيه هطول المطر . وكان القانون يقضى بالألا يتم نقل النعش الا بحضور الفيكونت دى بيريجو للتعرف على جثمانها ، فذهب الى المقبرة مصطحبا صديقا له ، ووقف مع بعض الموظفين وفتح النعش في حضورهم . ترى اكان هذا الصديق هو الكسندر دوماس الصغير ؟ أغلب الاحتمال أن يكونه والا فان هذا الشاهد كان رجلا يعرف الكسندر معرفة وثيقة وروى له ما حدث بكل تفصيلاته ، فاننا نجد في رواية « غادة الكاميليا » وصفا امينا دقيقا لهذا المنظر الذى ينقبض له القلب . انحنى الرجلان على الجثث لحظة ثم نكصا وهما يتخبطان فى هلع وجزع تحت طوفان مطر غزير .

وفي اليوم الثالث عشر من شهر فبراير ذاته عزف ليست في حفلة موسيقية في مدينة كيف . وجلست بين الحاضرين مأخوذة بسحره اميرة عمرها ثمانية وعشرون ربيعا ، هي فرع دوحه عريقة وسليلة أسرة فاحشة الثراء ، اسمها الاميرة كارولين دى ساين ويتجنستين ، وكانت تمسك ببرنامج الحفلة . ظلت الى آخر يوم في حياتها محتفظة به احتفاظها بأيقونة مقدسة . وأرسلت في صباح الغد الى ليست خادما لها يحمل اليه مائة روبل تبرعت بها للعمل الخيري الذى ينوى أن يقيم من أجله حفلة موسيقية أخرى ، فذهب اليها ليست ليشكرها فوجدها ذات سحر وفتنة كأنها خلقها الله ليجد هو فيها المرأة القادرة على أن تفهمه حق الفهم . انها تشبهه في نزعتة الدينية وهي ذات دراسة مثقفة متقدمة العواطف متفتحة القلب ، وكانت في الوقت ذاته امرأة فعالة ذات عزم وارادة ، لها طبع تغلب عليه الرجولة على نقبض طبعه هو الى الانوثة وسرعة التأثر ، أمدتها الثروة بالسلطان وأمدتها كرم المحتد بالحرية ، هي التي أدارت منذ أن بلغت العشرين من عمرها أملاكها الشاسعة في بولونيا التي تضم ثلاثين ألف عبد يعملون في خدمتها ، انها تفوق الرجال في ركوب الخيل وتدخين السيجار ، تعلمت والفت اصدار الاوامر وتقبل كلمتها بخضوع .

وقد رأت هي في ليست فنانا نابغا تستطيع بفرض سلطاتها عليه أن تسمو به وتصونه من الزلل والانحطاط . أما ليست فقد رأى فيها امرأة لاتتطلب منه الا أجود معادنه فأمن أنه من الشرف العظيم له أن يهب نفسه لخدمتها وأرضائها . ومضت بقية أيام الشهر وهو

يجتاز مراحل الوقوع في الحب ويجد مزيجا من احساسات عجيبة حين يكون الحب هو تملك عقل وجسد ، فكان عقلها الجبار لجة عميقة غرق فيها جسدها وغابت فتنته عن نظره . انه لم يصادف قط في حياته امرأة مثلها .

وكان ألكسندر دوماس الصغير لا يزال يترنح من اثر الضربة التي هوى بها عليه موت ماري دوبليسيس ، ولكن مشاغل أخرى استبدت بذهنه . فهناك مسرح أبيه الجديد المسمى « المسرح التاريخي » الذي يوشك أن يفتح أبوابه ويشير اهتمام أهل باريس كلهم ، وهناك أيضا القضية المرفوعة على أبيه . ان مراحلها الاولى تسير سيرا حسنا ، ولكن الله اعلم بنتيجتها . ان ألكسندر مغموم لما يلقاه من مناعب ، ولكنه مع ذلك يشارك لا أهل باريس وحدهم بل أهل العالم قاطبة (لان صحف كل الشعوب قد روت انباء هذه « القضية ») في متعتهم وانبهارهم لمسلك ابنهم الكاتب المدلل وللمحقيقات التي يرتكبها . في مقدمة الخصوم الذين أقاموا عليه الدعوى أصحاب صحف لا يقل عددها عن سبعة ، فان دوماس حين سافر الى مدريد كان مرتبطا بعقود تلزمه أن يكتب كل يوم في صحيفة « القرن » و « التجارة » و « الوطن » و « الشمس » و « ذوق الجماهير » والظاهر انه نسي هذه الالتزامات كلها وترك ابطال قصصه وسط مواقف تبشر بمغامرات مذهلة تثير تلف الجماهير على قراءة ما يليها من حلقات جديدة ، ولكن أسوأ ما في الامر انه لم يكن يملك حق التوقيع على هذه العقود ، فقد تبين انه سلف له سنة ١٨٤٥ أن تعهد بمقتضى عقد للدكتور فيرون وأميل دي جيراردان ألا يكتب شيئا مدة خمس سنوات الا في صحيفتيهما « الدستور » و « الصحافة » ، فالدعوى مرفوعة عليه من خمسة من أصحاب الصحف لانه لم يقم بالوفاء بعقوده معها ، ومن الاثنين الآخرين لانه التزم بهذه العقود اضرازا بهما ، وطالبه الجميع بدفع تعويض كبير للخسارة التي لحقتهم من جراء الاخلال بالتزاماته . ووصف اميل دي جيراردان المتاعب التي عانتها صحيفته في نشرها لرواية « جوزيف بلسامو » فذكر ان الحلقات تتابعت فاثارت اهتمام القراء فاذا بدوماس يعمد وسط القصة الى انهاء الفصل بقوله « ازاء هذا لم يبق للشباب الا أن يغمض عينيه ويهوى الى الارض » ثم اختفى بكل بساطة لمدة أربعة شهور . أفمن حق دوماس أن يسافر ويترك هذه الرواية دون أن يتمها ؟ وماذا

كان يفعل طول هذه المدة ؟

ماذا كان يفعل ؟ إجاب دumas على هذا السؤال بخيالاته المعهودة ! انه في رقعة صديق ليكون شاهدا على عقد زواجه ، انه كان يتسلم الوشاح الاكبر من وسام شارل الثالث ، لا تكريما لمكانته الادبية بل تبجيلا لذاته من أجل ذاته ، بفضل اسمه وألقابه وصداقته للدوق دي موبنسيه . أتريدون أن تعرفوا ماذا كان يفعل أيضا ؟ انه كان يعمل لصالح وطنه ويجمع معلومات قيمة ستظهر قريبا في كتاب باسم « الشهاب الثاقب » سيستنير به عامة القراء ، انه كان يخلص أبناء وطنه من الاسر . وقال دumas « اننى انقذت اثنى عشر فرنسيا من الاعداء » والعجيب أن الكتاب حين صدر فيما بعد لم يتضمن الا وصفا صادقا أميناً لحكاية الاسرى فلم يزعم المؤلف لنفسه فضل انقاذهم . ولكن دumas أضاف في الرد على خصومه قوله : « لقد كنت أنا الذى قمت بواجب العناية بالاسرى فى الاراضى الافريقية ، وكنت أنا الذى اتولى قيادة البارجة الحربية التى اقلتهم ، وكنت أنا الذى أمنتهم على بلوغ ميناء « جامع الغزوات » حيث اشترك ثلاثة آلاف شخص فى اقامة مأدبة لتكريمى ، لاشك أن خدمة الوطن مقدمة على فقهنه قانونية فى تفسير التزامات هى فى نهاية الامر لم تكن غائبة عن بالى »

تابع الجمهور هذه القضية باهتمام بالغ . وجاء فى أثر من رفعوها طائفة أخرى من الناشرين وتجار الكتب يطالبون دumas بتعويض عن خسائرهم المترتبة على اخلاله بالتزاماته . واحتفظ دumas خلال نظر القضية بمرحه وخلو باله من همها واتخذ لنفسه موقف رجل هيات للصحافة كلها أن تستغنى عنه مهما فعل . لقد تنافست سبع مدن بعد وفاة هومير فى نوال شرف انتسابه اليها ، أما دumas الكبير فتتنافس سبع صحف فى الفوز بمؤلفاته وهو لا يزال حيا . ان هومير كان يستجدى خبزه أما دumas فيتناول عشاءه فى أرقى المطاعم مثل قهوة باريس ، انه يسافر فى بوارج حربية توضع تحت أمره ، ويحضر زفافا ملكيا ، ويمتطى صهوة الجياد العربية ، ويخرج للصيد فى الاراضى الافريقية . انه رجل عظيم ! فأدهشه أن يرى هذه القضية ترفع عليه وبخاصة بعد أن اعتاد أن يحاط بهذا التبجيل الذى يلقاه أدباء فرنسا حين يسافرون خارج بلادهم . دافع عن نفسه بحرارة ولكن فى مرح وبدون غضب ، وتحدث ببلاغة عن العبقريّة والشرف ، وصداقة الأمراء ، وأكد لخصومه أنهم لو صبروا

عليه فانه سيفى بجميع التزاماته في الماضي والحاضر والمستقبل .
وتشابت مطالب رافعى الدعوى وشب النزاع بينهم ، كما تجدد
الخصام المتوارث بين خصومه من الناشرين وتجار الكتب ، وبين
الناشرين وأصحاب الصحف ، وبين هؤلاء جميعا وبين دوماس ،
فكانت قضية فذة معقدة . أين رأسها من ذيلها ؟ سؤال عسير لا يعرف
الإجابة عنه الا عدد قليل من الخبراء . وتعهد دوماس أن يثير المحكمة بمهارة
من مشاكل القضية وعقدها ، فأخذ يدلى ببيانات كاذبة وغير منطقية
يصوغها في عبارات توحى بالصدق ولا تقبل الجدل ، فما وسع
الجمهور الذى كان يحضر القضية ويرقبها باهتمام الا أن يصدقه .
رأوه صاحب دعابة بديعة وحركات مسرحية خلابة ، نجح دوماس
من أول القضية لآخرها أن يسيطر على المحكمة ومن فيها ، وعرف
كيف يقدم للجمهور ، بهزله ونكاته ، متعة لذيدة ، فاكسب ود
الجمهور وعطفه ، وآمن هذا الجمهور أن كاتبه العظيم جدير بكل
رعاية والاقرار له بأنه مميز عن غيره . لا ينكر أحد أن ذمته من المطاط
وأنه يستغل غيره أسوا استغلال ، ولكن لا أحد غيره يتمتع القراء
ما يتمتع به هو في قصصه كالفرسان الثلاثة والكونت دى مونت
كريستو . وقد طاب للجمهور أن يشهد تحديا جريئا لطائفة من الناس
ديدنها العسف بالفنانين واذلالهم . وقد رأى القضاة ولا ريب أن
المدعى عليه الذى أمتعهم بفكاهاته ينبغي أن يلقي منهم معاملة رحيمة ،
فلم يحكموا عليه الا بأن يدفع مبلغ ١٢٠ جنيهًا لكل واحد من أصحاب
الصحف السبع وأن يتابع نشر قصة جوزيف بلسامو بأقصى سرعة
يطيقها .

وهكذا لم يفز خصومه الحائقون بتعويض الخسارة التى لحقت بهم .
صدر عليه هذا الحكم الرحيم فى يوم ١٩ فبراير فاستخفه الطرب
وخرج من المحكمة ذراعه فى ذراع ابنه وذهبا سويا لحضور آخر
تجارب مسرحيته المسماة « الملكة مارجو » التى كان سيبدأ بها
مسرحه الخاص أول مواسمه . وتوالت الاحداث عليه ، فمن غد
سيفتح المسرح أبوابه للجمهور لأول مرة ، وكان من احدى نعم
القضية عليه أن أهل باريس كلهم تلهفوا على حضور ليلة الافتتاح ،
فلما وصل دوماس وابنه الى المسرح بعد خروجهما من المحكمة وجدا
أمام شبك التذاكر صفا طويلا من الناس .
وأتاح لهم فرصة انتظارهم أمام شبك التذاكر - تمتد ٢٤
ساعة - أن يتفحصوا على مهل هذا المبنى الجميل الذى يخصص

لتمثيل مسرحيات دوماس : مدخل متسع على جانبيه عمودان على هيئة تمثالين يصور أحدهما الكوميديا والآخر الدراما ، ويساعد هذين العمودين أربعة أعمدة أيونية الطراز في حمل عقد فسيح مزين برسم مخلوق مجنح يمثل عبقرية الفن الحديث ، وعلى جانبي العقد مجموعتان من التماثيل المرمرية تصور الاولى هاملت وأوفيليا وتمثل الاخرى السيد وشيمين بطلى مسرحية كورنيل . ومن بعد المدخل بهو سقفه المستدير محلى برسوم زخرفية يراها الواقف خارج المسرح ، وتمثل هذه الرسوم التراجيديا والشعر والكوميديا على هيئة مجنحة تحوم حول مذبح كنائسى ، عن يمينه ويساره جماعات من عباقرة الادب والمسرح مثل سوفوكليس وأسخيلوس وأيوربيدس وشكسبير وكورنيل ورأسين ومولير وسرفانتيس ولوبه دى فيجا وغيرهم . وقد أبى على دوماس تواضعه أن يحشر نفسه بينهم ، قانعا ولا ريب بأن أعماله ستتم عليه فوق خشبة هذا المسرح ذاته

وفي الساعة العاشرة أقبل بائع نهاز للفرص ومعه أكواب من الحساء الساخن لبيعها للمنتظرين ، ودار عليهم بائع جوال آخر بضاعته أوراق بها قصائد تشيد بافتتاح المسرح . ولما خرج دوماس من المسرح فى منتصف الليل وجد مئات من الفوانيس قد اضيئت فى أيدي المنتظرين ، ووجدهم قد تمونوا بالخبز ، واشتروا حشاييا من القش ليرقدوا عليها ليلتهم ، ولما اقترب الصباح أقبل بائعون آخرون - يقتنصون الفرصة - يبيعون أقداحا من القهوة وغطائر مساخنة للراقدين على الحشاييا وهم يستيقظون على مهل ويتشاقل ، فكان الاقبال عليها عظيما ، ثم خرج السقاءون لاعمالهم فلما مروا بالمسرح تكاثر النداء عليهم حتى يتسنى للمتأنقين من المنتظرين أن يفسلوا وجوههم ولو فى الطريق . ومن الصباح الى الظهر لم تنقطع الضحكات والاغاني أمام « المسرح التاريخى » فلما حان موعد الغداء عبق الجو برائحة الكباب المتبل بالثوم ، فقد هرع الى المكان باعة الشواء الجوالون بمواقدهم ليزودوا الجمهور بوجبة تخفف من حدة الجوع . وأخيرا اقترب المساء ففتح المسرح أبوابه ومر صف طويل من النظارة بالمدخل يقدمون تذاكرهم ثم يدخلون الى المسرح ذاته وهو محلى بألوان قرمزية وذهبية تثير الإعجاب .

وصلت الفرقة الموسيقية ، وبعد ذلك بدأ نجوم الادب والفن يتخذون مقاعدهم ، من بينهم أوبر وهاليفى والرسام أنجر وزميله ويلاكروا وهوراس وفيرنيه وراشيل وجول جانان وتيوفيل جوتيه

وعدد غير من أقرانهم ، يدخلون فيتأملون فيما حولهم باهتمام كبير لأن المسرح قد في زخرفته المفرطة وفي صف مقاعده التي يبلغ عددها الالفين على خمسة مستويات متدرجة تواجه المسرح . أما خشبة المسرح ذاتها فعريضة جدا ، انها مهيأة لاستقبال مسرحيات دوماس الزاخرة بالاحداث ، المتلاحقة المناظر ، المتطلبة لعدد ضخم من الممثلين والممثلات . اما حلية السقف فتمثل أبولو اله الفنون يستقل عربته ويشق بها أرجاء السماء ، وستار المسرح من المخمل الأحمر الثقيل مزين بشراريب ذهبية اللون ، فلما ارتفع هذا الستار بدا من خلفه ستار خفيف آخر عليه رسم بديع يصور مدخل ايوان في نهايته تمثال من المرمر الابيض يفصله عن العيون براح بحر خضم من ورائه ، وكان القصد من هذا الرسم أن يهيء الازدهان للتطلع الى عوالم مجهولة ويعدها للاندماج في الجو الخيالي الذي سيتكشف لهم على المسرح . والخلاصة أن هذا المسرح استوفى بصورة بديعة كل مقوماته ، فهو ثمرة عهد كان الناس فيه يذهبون الى المسرح ليلة بعد ليلة . وقد هدم هذا المسرح بعد ذلك سنة ١٨٦٣ حينما شرع الوزير هوسمان في شق شوارع جديدة في قلب العاصمة .

ولما اقتربت الساعة السابعة اقبل راعي هذا المسرح الدوق دي موبنسيه ابن الملك ، فمضى أولا الى حجرة انتظار لطيفة تؤدي الى المقصورة الملكية . وفي تمام الساعة السابعة ارتفع الستار عن الفصل الاول من مسرحية « الملكة مارجو » التي كتبها دوماس بالاشتراك مع ماكيه ، ولم ينزل الستار على المشهد الاخر الا في الساعة الثالثة صباحا . وكانت المسرحيات أطول مما هي عليه الآن ، ولكن الثمانى ساعات التي استغرقها عرض المسرحية كانت طويلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، لذلك اختصر بعض مشاهدها فيما بعد .

وكان دوماس في أوقات فراغه من التأليف يشغل باعداد الزخارف الداخلية لبيته الجديد المسمى قصر مونت كريستو . انه كان يعيش وحده في مملكته ، لا في القصر ذاته ، حيث لم ينته بناؤه بعد ، بل في كشك صغير أقامه مؤقتا ليسكن فيه ويرقب منه سير العمل في بناء قصره . وجيء ببوابة ضخمة من الحديد المطروق اقيمت في مدخل مملكته محلاة بالحرفين الاولين من اسمه ولقبه « الالف والدال » أن غرضه من اقامة هذه البوابة ليس هو صد الغرباء بل الإعلان عن فخفة القصر . وكان مما يساير طبع دوماس أن الشيء الوحيد الذي اغفله هو اقامة سياج حول قصره ، فان قصر الكونت دي مونت

كريستو سيظل يرحب بالناس جميعا مادام ملك يمينه . وتم بناء ملحقات القصر الصغيرة منها سلامك لمكتبه ، ومنها حظيرة للكلاب والقروء والنسانيس والطيور وحيوانات أخرى من كل شكل ولون ، هي التي تضيء البهجة على مملكته الجديدة .

ان دوماس من العشاق المخلصين للحيوانات الليفة ، ونحن نعرف منها عددا كبيرا ارتبط بشخصه . فهذه هي الهرة ميسوف التي كان يخيل لمن يراها وقت أن كان دوماس كاتباً في مكتبة القصر الملكي أنها لا تعيش الا من أجله . وهذا هو ميلورد الكلب الانجليزى الذى جاب أرجاء أوروبا كلها في رفقته أيام شبابه ، وهذا هو الكلب موتون الفدار الذى بقى اسمه خالداً بفضل قصيدة كتبتها السيدة التي عقرها ذات يوم . أما في العهد الذى نتحدث عنه فلدوماس هرة أليفة جديدة اسمها ميسوف الثانية وثلاثة كلاب هي بريتشار وفانور ودوين ، ولم تمض شهور كثيرة حتى اقتنى دوماس كلاباً عديدة . ويقال أن الكلاب تتطبع بطبع أسيادها ، فهذا هو الكلب بريتشار من عادته أن يستضيف الكلاب الضالة لمشاركته في طعامه . وكان دوماس يقول ان هذه الكلاب الضالة لاتكاد تدخل بيته حتى تستطيب العيش فيه وتلزمه ، شأنها في ذلك شأن ضيوفه من الرجال والنساء . ومن بين الطيور نسر اسمه ديوجين جاء به دوماس من شمال أفريقية وأعد له برميلاً ليسكن فيه . أما جماعة القروء والنسانيس فقد أطلق دوماس على كل واحد منها اسماً يناسبه وأسكنها حظيرة أسماها : « الأكاديمية الفرنسية » .

وقد سبق القول أن الكسندر دوماس الصغير نزل في مرسيليا عند عودته من أفريقية ضيفاً على صديقه الشاعر جوزيف أوتران . وقد ترك هذا الشاعر صورة قلمية اسمها « البيت المتهدم » ضمنها وصفاً لحياة دوماس وابنه في ذلك العهد . ذلك أنه لحق بضيفه في باريس وأقام في بيته الواقع في شارع نيف دي لوكسمبرج فوجد رب البيت مضيفاً سمحاً لايهتم بالمراسم والشكليات . وتدلنا شهادة أوتران على أن الكسندر الصغير لم يعكف على الحزن بسبب وفاة ماري دوبليسيس بل كان مرحاً حريصاً على ألا تمضى على ضيفه ساعة غير ملأى بالتسلية والسرور ويقول أوتران : « هيهات لمن لم يعرف الكسندر وهو في سن العشرين أن يدرك ما للشباب من روعة وبهاء . لم أحاول أن اكتشف عدد مقامراته الغرامية ولكنى واثق أن المولى سبحانه قد غفر لضحاياه ، لأن سحره كان لا يقاوم » وتحدث أوتران

أيضا عن طلاوة حديث الكسندر وهي صفة ورثها عن أبيه ، وتحدث
كذلك عن مواهبه المختلفة العديدة ، من بينها موهبة إتقان الرسم
الكاريكاتوري ، أنه رسم ذات يوم صورة لأحد أصدقائه في حجم لا
يقصر عن تغطية قمة المدفأة العريضة . في حجرة جلوسه ، وحدث أن
لامارتين الشاعر المعروف بجده ووقاره دخل البيت صدفة في غيبة
صاحبه ، فلما رأى الصورة فهقه ضاحكا وترك بطاقته ومعها قصيدة
تسجل زيارته وتصف إعجابه بالرسم .

وأقام أوتران بعض الوقت أيضا في ضيافة دوماس الأب ، فلما
طلع عليه أول صباح جاءه الخادم الزنجي « أو دي بانجوان » برسالة
شفوية من سيده يسأله بها أي صنف من الطعام يشتهي لغدائه ،
أجابه

— يا لها من حكاية ! اذهب وقل لسيو دوماس أن لا فارق عندي
في الطعام بين صنف وصنف

ولكن الخادم لم يلبث أن عاد إليه برسالة جديدة : « يقول لك
سيو دوماس أنه سيطبخ الطعام بنفسه ولذلك فإنه يصر بإسدي
أن تختار أنت ما تريده منه حتى لا تنهمه بأنه لا يجيد إلا طهو
الاصناف التي بعدها لك تطوعا »

فاقترح أوتران أول ثلاثة أصناف خطرت بباله ، ثم تبع الخادم
الزنجي إلى المطبخ فوجد دوماس منكوش الشعر مرتديا سروالا
من المخمل الأسود الثقيل وقميصا أبيض يقف أمام منضدة كبيرة
من خشب البلوط عليها عدد كبير من أواني المطبخ ، فأخذ وهو
يكسر البيض ويحشو دجاجة يتحدث إليه بطلاقة عن أبو ريبيدس .
ويقول أوتران : « مما يؤسف له ألا يحضرنا حينئذ أحد من أئمة
فن الرسم ومعه لوحة والوان وفرشة ، إذ كان المنظر جديرا بأن
يسجله رسام في مرتبة ومبراتة »

واستمتع الضيف بأقامته في دار دوماس ، ولكنه ذكر أنه وجد
مضيفه الأنيس الحفيق به لا يتمتع بصحة طيبة رغم مرجه ، إذ كان
يوقظه في الساعات المبكرة من كل صباح ألم في أمعائه ناتج من سوء
الهضم . ربما تأثرت صحته بالعناء الذي لقيه في الدفاع عن نفسه
أمام المحكمة ، وفي حضور تجارب مسرحياته ، رغم أنه بأن يطرح
بسهولة عن كاهله كل هم يثقله ، أو ربما تأثرت صحته بالتخممة
بسبب هذا الطعام الشهى الذي يجيد طبخه فيغريه بالاستزادة
منه . ومهما يكن السبب فان دوماس رفض أن يبقى معطلا في

الساعات التي أقتطعها المرض من نومه . وكان أوتران يستيقظ قبل الفجر كل يوم على صوت حركة دوماس في الحجرة المجاورة وهو ينهض من فراشه ويوقد مصباحه ، ذلك لان جدران المبنى الموقت الذي يقيم فيه كانت رقيقة جدا . وحين يتحدث أوتران فيما بعد عن الليالي التي قضاها بجوار دوماس سنة ١٩٤٧ يقول انه كان يستيقظ والليل ساكن والصمت مخيم على الكون فاذا به يسمع من الحجرة المجاورة ساعة بعد ساعة صوتا منتظما لا ينقطع ، وقد حيره مصدر هذا الصوت في مبدأ الامر ثم اكتشف انه صوت ريشة دوماس ويده تجرى بها فوق الورق المصقول سطرا بعد سطر وصفحة تلو صفحة يتابع كتابة قصة جوزيف بلسامو أوبعد الحلقات الباقية عليه من روايات سلسلة أخرى . وكان الجو باردا ومع ذلك فهاهو ذا دوماس ينزل في أغلب الايام الى الحديقة ويتمشى بها جيئة وذهابا وسط الثلوج ، ذهنه سارح ، رأسه عار وجسمه لا يحميه معطف ، وندف الثلج عالقة بخصلات شعره الاسود الكث . فاذا بلغ تفكيره غايته عاد الى مكتبه وبدأت ندف الثلج تذوب خلال شعره واستغرق في العمل من جديد . ويتحدث أوتران أيضا عن الشهرة التي كان يتمتع بها دوماس في ذلك العهد . انه صحبه لحضور جنازة المثلة المدموازيل مارس ، ولما دخلا كنيسة المادلين انضم الاثنان الى فيكتور هوجو الذي كان يحضر الجنازة أيضا . وسار ثلاثتهم جنبا الى جنب في موكب الجنازة حتى مقبرة الاب لاشيز . وقد لاحظ أوتران أن الناس جميعا كانوا يشيرون الى دوماس دون أن يلحظ واحد منهم فيكتور هوجو . اصطف على جانبي الطريق الوف من الناس جاءوا لاشباع فضولهم كما يحدث عادة في جناز المشاهير ، فلم تنقطع همهمتهم طوال سير الجنازة : هذا هو دوماس ، هذا هو دوماس ! ولعل هوجو قد أمله سير الجنازة ببطء فانسحب في غفلة من المشيعين في شارع الايطاليين وشق صفوف الجماهير المصطفة حتى بلغ لافيت فارتاح لخلوه من الناس .

ومضت ثلاثة أيام منذ العرض الاول من مسرحية « الملكة مارجو » التي لاقت نجاحا كبيرا ، وفي اليوم الرابع سار الكسندر دوماس الابن في شارع المادلين متجها الى بيت ماري دوبليسييس . الطرقات مكتظة بالمارة والعربات . ان مقتنيات ماري ستباع بالزاد ، ورؤيتها مسموح بها في ذلك اليوم . انها ماتت بعد أن نسيها الناس ، ولكن الصحف تحدثت عنها طويلا بعد وفاتها لانها كانت عالما من اعلام

الحياة في شوارع قلب باريس لعدة سنوات . فلما عرضت تركتها
لبيع عادت الصحف الى التحدث عنها ، ذلك لان الصحف كانت تعنى
في ذلك الوقت بأخبار المحظيات وتكثر من نشرها ، فقد نجحت لولا
مونتيز أخيرا وبعد سعى دائب في تحقيق هدفها . وأصبحت عشيقة
للملك لودويج ملك بافاريا . زجت بنفسها بين المشتغلين بالسياسة
وأعلنت ولاءها للحزب الديمقراطي وأخذت تكتب الى صحيفة
التايمز اللندنية رسائل تشيد فيها بجهودها وتخطط خيوط مؤامرات
ودسائس كان من شأنها أن عجلت في اندلاع ثورة سنة ١٨٤٨ في
فرنسا ، وكانت لولا مونتيز موضع اهتمام صحف كثيرة في بلاد
عديدة . ولما كانت ماري دوبليسييس صديقتها فان وفاتها أصبحت
مادة تصلح للنشر أيضا . وقالت صحيفة « القرن » وهي تتحدث
عنهما أنهما كانتا ملكتين غير متوجتين في مجتمعات الطيش والنزق .
والآن وقد فتح باب ماري دوبليسييس على مصراعيه فقد حق للناس
أن يدخلوا ليحكموا بأنفسهم كيف كانت تعيش واحدة من المحظيات
الشهيرات

ودخل ألكسندر الحجرات التي كان يألّفها والتي طالما ضمته فيها
هو وماري فيما مضى من الأيام خلوة تفصلهما عن الناس وتستحوذ
على أفكارهما ، دون أن يخطر بباله انها ستموت عما قريب . في
الحجرة الامامية تتفتت وتتساقط أوراق الزهور الذابلة على السياج
المذهب الذي يغطي الجدران ، فاجتازها ألكسندر سريعا ليصل الى
البهو ، فلما دخله وجده مزدحما بالناس ، من بينهم ريتشارد والاس
الابن غير الشرعى لمركيز هيرتفورد ، وفي صحبته واحد من الاخوين
بونكور ، واختلطت ممثلات بنساء من الطبقة الراقية وهن يدرن في
الحجرة العجيبة الزينة نظرات تنم عن دهشة بالغة . جميع الصحفيين
في باريس داخلون خارجون . وكان أكثر شيء أثار الاهتمام هي منضدة
الزينة الخاصة بماري ، هذه هي مرايا فينيسيا التي كانت تعكس
جمالها ، وهذا الاناء المصنوع من الفضة الخالصة التي كانت تفصل
فيه وجهها ، وهذه هي منضدتها الاخرى المصنوعة من خشب الورد
والتي أجيد صقلها ، يبلغ عرضها ستة أقدام ، عليها صفوف من
القنينات والعلب والفرش والأمشاط مقابضها كلها من العاج المخروط
أو من الذهب أو البللور أو الصدف . في تلك الحجرات المترفة أوان
كثيرة من الذهب الخالص ، أما المخمل والحسري والدانتيل ، أما
الأرائك والسجاجيد التي تفوص فيها الاقدام فانها تنطق جميعا بحياة

طابعها الاسترخاء وملذات الجسد . مازال في خزائنها معلقة أشكال وألوان من الثياب من الحرير والمخمل ، بجانبها فراء ثمين وشيلان من الكشمير ، ومع أن ماري قد باعت أغلب جواهرها في أواخر أيامها فان التركة بها مجموعة من الاقراط والاساور والخواتم والمشابك والساعات وكتب الصحفيون في وصفهم لهذه المقتنيات أن نساء الطبقة الراقية كانت ترمقها بنظرات تنم عن الحسد والغيرة . وطاب لتيوفل جوتييه أن يعبر ببلاغة لفته عما يتخيله من الحسد الذي ينهش قلوب هؤلاء النساء المترفعات وهن يرمقن تارة أواني الخزف المستجلب من أفخر المصانع ، وتارة الساعات التي ترتفع قيمتها بقدر قدمها ، لحظ هذا كله فتنهد وترك نفسه ينساق مع التيار الذي يشيد بهذه المحظية ويضفي عليها هالة الضحية المسكينة ، ثم قال : « آه لو عرف هؤلاء النساء بأي عوض حصلت هذه المحظية المسكينة على كل قطعة من هذه المقتنيات التي تتمثل فيها نزواتها ! » سمعه ريتشارد والاس فضحك وأجابه : « لو عرفن لأسعدهن أن يقدمن العرض ذاته من أجل الحصول عليها » .

واقترب المساء ، وبدأ الناس الذين جاءوا بدافع من الفضول ينصرفون ، وأوشكت الأبواب أن توصد ، وتخلف ألكسندر في تلك الحجرات التي كانت محتوياتها المبعثرة تنطق بأنها في حداد على صاحبها ، الستائر الحريريّة والأثاث الفاخر والساعات ذات الهمس الخافت لا يزال جمالها هو هو ، ومع ذلك يخيم على كل منها مسحة من الحزن والخراب ، البيانو المصنوعة من خشب الورد قد خرس على خلاف عاداتها ، طالما سمع منها الألحان التي كانت تعزفها له ماري ، والتي طالما عزف عليها أيضا عشيقها ليست فأسمعها روائع النغم ، أما الآن فالصمت مخيم عليها . . . قد تنتقل إلى يد أخرى ولكنها ستظل أبدا شبيهة بالمهاجر الغريب الذي فقد وطنه . وكذلك بقية المقتنيات ، سيملكها أناس آخرون ، ولكن هيهات لها أن تنعم عليهم بهذا الجو الذي أحاطت به ماري دوبليسييس ، لقد طويت صفحته إلى الأبد ، وستبقى هذه المقتنيات في يد الغريباء أشياء لا معنى لها ولا طعم . وانصرف ألكسندر عن الدار وعاد إلى بيته .

لم يستطع أن ينفي عن قلبه ما خلفه فيه هذا المشهد من حزن يهصره . تأبى عليه النوم تلك الليلة فاشتغل في تأليف قصيدة يرثي بها ماري ووصف حبه لها وموتها أثناء غيابه وزيارته لدارها المهجورة وكان ألكسندر في الأيام التالية يسمع ويقرأ أشياء كثيرة عن ماري .

فان الصحف والناس كانت تكثر من الحديث عنها . وكان شارلز ديكنز وقت وفاتها في زيارة له لباريس فادهشه انه لا يفتح صحيفة دون ان يجد مقالا يتسيد بهذه المحظية حتى يخيل للقارىء ان الحديث هو عن وفاة بطلة لها مقام جان دارك . لقد شاع ظن سرعان ما انقلب الى ايمان ان ماري راحت ضحية حب تتمثل فيه أفجع المآسى . لم يعلق ديكنز على هذه المقالات الا بعبارة تنم عن شدة الاحتقار وقال ان كل الأخبار التي وصلته تدل على ان هذه الفتاة قد هلكت من اثر افراطها في المتع والملذات .

وكتب جون فورستر الذى الف سيرة ديكنز ، وكان مرافقا له في زيارته لباريس ، يقول : « أدهشنى ما رأيته من عطف عليها واعجاب بها بلغا ذروتها حينما اشترى ايوجين سو في المزاد من تركتها كتاب أناشيد اللعاء الذى كانت تملكه ماري » . وذكر كذلك ان اهتمام الناس بموتها كان أيضا محور الحديث أثناء تناوله العشاء في السفارة البريطانية ، فكان هذا الحديث وازدياد بدع الناس حينئذ من العلامات الاكيدة التي تنذر بأن فرنسا مقبلة على عهد من التدهور والانحلال واستمر عطف القلوب على ماري دوبليسيس زمنا غير قصير . لقد اقترن موتها بعهد انحسار الرومانسية ذاتها فلاعجب ان حمل موتها الناس على التعلق بشطحات الخيال وسط الضباب ، وسرعان ما استقر الايمان بالأسطورة القائلة بأن ماري ماتت ضحية حب دمر قلبها أتم الكسندر كتابة الفصول الأخيرة من روايته « مفامرات أربع نساء » وسلمها الى ناشره مسيو كادو . هيهات لكاتب لا يزال في أول السلم ان يطمع من ناشر ان يدفع له اجرا سخيا ، فلم يقبض الكسندر منه الا مبلغا ضئيلا من المال ، فحمله غرقه في الديون على بذل مجهود جديد . انه في أشد الحاجة الى تحقيق نجاح باهر في عالم الادب وهو رجل من طبعه الطموح وأخذ الأمور مأخذ الجد ، فلم يقب من ادراكه ان نجاحه يتوقف على تأليف رواية تهز القلوب وتروج بينهم . ولا شك ان فكرة تأليف روايته التالية : « غادة الكاميليا » وليدة موجة العطف على ماري دوبليسيس الذى تأجج يوم وفاتها . لعله سأل نفسه : أى نوع من القصص يهيم بها قراؤها الكسالى ؟ فكان الجواب أنهم يهيمون بالخوض في سيرة المحظيات وتتبع حياتهن ، من أمثال لولا مونتيز وماري دوبليسيس ، فقرر في اغلب الظن الانتفاع بالأسطورة التي استقرت في الأذهان عن موت ماري دوبليسيس وبدأ يدرس رواية « مانون ليسكو » استعدادا لتأليف روايته .

كتابة قصة

توجه الكسندر بصحبة صديق له في مطالع شهر يونيو لزيارة أبيه في بور مارلي وكان قد انتقل حديثا الى قصر دي مونت كريستو .
تم بناء القصر اللهم بعض الزخارف الداخلية . شاهداه ماليا تطل نوافذه من كل ناحية على مناظر ذات بهجة . البستانيون دائبون على العمل ليحيلوا الاراضي المحيطة الى حدائق مختلفة ألوانها تبعث السرور والمتعة الى النفوس .

وجد الشابان دوماس الاب في الشاليه ذى الطراز القوطى يعمل فى غرفة مكتبه السداسية الجوانب . . اطلق على الشاليه اسم شاتو ديف (وهو اسم القصر الذى سجن فيه آدمون دانتس بطل قصة الكونت دي مونت كريستو) . وصلا اليه عبر قنطرة حجرية نقشت أحجارها على شكل الورود . يسبح البطح تحت ظلالها جيئة وذهابا فوق سطح جدول . نبتت آلاف زهور الصيف على جانبيه ونما نبات الاسل على حافتيه . وعلى جدران الشاليه ثبتت أحجار كبيرة نقشت بأسماء مؤلفات دوماس المتعددة . فى الدور الارضى حجرة المكتب وحجرة الجلوس وفى الدور العلوى حجرة النوم وشرقة . جدران الحجرات مزينة بلوحات من ريشة الفنانين جيرو وبولانجيه . ويصل بين الدورين سلع بديع حلزوني الشكل من الحديد المطروق . حجرة المكتب يحلم بها كل كاتب ، لا تحتوى من المساحة الا ما يكفى لمكتب واحد وكرسى واحد وزائر واحد ، علفت فيها ستائر زرقاء ودهن سقفها بلون أزرق رصع بنجوم ذهبية . ملك الشاليه شاتوريف عقل دوماس الاب فشغله كأنه لن يحتاج الى شيء آخر سواه . يا حيرة على دوماس ! لو كان يدرك ما للحياة من متطلبات أخرى لما وصل الى ما وصل اليه من فاقة فى أخريات حياته ولما حرم عالم الادب من عمل قيم أو عمليين كان يمكن له . - وهو الكاتب الموهوب - أن يكتبهما . ولكن هيهات أن نغير طبيعة الناس فدوماس هو دوماس . رغب رغبة جامحة فى تشييد قصر مونت كريستو وتزويده بكل ما يخطر بباله من زخارف . بذل ما له بسخاء مهما غلا الثمن . كان القصر لديه بمثابة كتاب يؤلفه يولد أن يخرج كأحسن ما يكسبون . ونهض الآن

من أمام مكتبه وقاد زائريه الى الحديقة ليتفرجا على البيت الكبير .
أعجب حجرة فيه اقيمت على الطراز الاندلسي . احضر لها عربيين
من تونس هما الآن يزخران حوائطها بالتمنمات العربية على غرار
زخارف قصر الحمراء ، كل الحجرات فسيحة بالحد المعقول . الارض
من خشب السنديان المصقول . مقابض الابواب ومدفأة غرفة الاكل
من الصيني السيفر . اثاث الغرف العليا على طراز العصور المختلفة .
وهنا مرسم كامل الاستعداد لاي رسام للاقامة . اما وجود الخادم
الاسود أو دى بنجوان وزميل له آخر يدعى كاراميل فقد اُضيف للبيت
ميزة فوق ميزاته . لم يطلب منهما الا أن يلبسا الملابس الزاهية الغربية
مما أعطى للمكان جوا من الرفاهية المسترخية .

وعندما دخل الكسندر غرفة الطعام شعر كأنه في فندق لا في منزل .
راى وجوها غريبة تجلس على مائدة الطعام . وعندما انتهت الوجبة
راى أباه يتخلص من ضيوفه . يبدو انه لا يعرف أسماء النصف منهم .
ثم قاد ابنه وصديقه الى الشرفة التي تمتد حول واجهة البيت واتخذ
ثلاثتهم مقاعدهم جالسين .

لم يبدأ الكسندر بعد كتابة قصته الجديدة . كان عقله لاسابيع
مضت يربط فقط بين حوادثها . يسائل نفسه هل يمكنه ان يرتزق
بعض المال من نشر ديوان شعر له . احضر معه مراثيته لماري دويليسيس
ليسمعها أباه . ما كاد أبوه يسأله عما ألف أخيرا حتى أخرجها من
جيبه . تلهف دumas كعادته على سماع الابيات من شعر ابنه .
كله اعجاب بها قبل ان يسمع منها كلمة واحدة فهو لا يرى في أعمال
ابنه أى مجال للنقد ، الأمر الذى لا يشعر الكسندر بالاطمئنان على
حكمه . ابتدا الكسندر فى التلاوة فأصغى اليه أبوه وهو فى قمة
السعادة .

« والآن سنعيد ما ألفناه من قبل أيها الطيف العزيز الذى يطير

سنمكث معا عندما ينتصف الليل

ومن هذا الوقت الى أن يشرق الفجر

نستمع الى خطوات ساعات الليل وهى تمر »

يطل عليهم من فوق رعوسهم صف طويل من الرعوس الحجرية
المنحوتة مثبتة بحائط الشرفة تمثل كبار شعراء أوروبا ابتداء من
هومير وانتهاء بهوجو . يعتبرهم دumas أخوة له بالروح يمكنه ان
يقتبس من بنات أفكارهم بدون خجل اذا لم تسعفه المقدرة على كتابة
ما يريد .

انتهى الكسندر من تلاوة مرثيته فصاح دوماس « نعم المبدع انت يا عزيزى الكسندر . انك لمبدع حقا ! انى ارى المستقبل امامك فسيحا » .

فقال الكسندر والشك يساوره : « هل تعتقد ما تقول حقا يا ابنتى ؟ » .
- انك لرائع !

واسند دوماس الأب ظهره على كرسية واستغرق لحظات فى تفكير ملء بالبشر ثم قال . المسكينة ماري « وتنهد فى تأمل وقال : « ماري دوبليسيس ، كتب لاسمك الخلود ان لثم فاك شاعران » .

- شاعران يا ابنتى ؟ من هو الشاعر الآخر ؟

فاجابه دوماس فى سماحة العظماء :

- انه انت نفسك يا ولدى العزيز .

واستمر مسندا ظهره على كرسية المريح ، راضيا عن نفسه تمام الرضا ، يجيل بصره بين الحدائق المزدهرة ، ويتمتع بالشمس المشرقة مع ذكرياته العاطفية . حينئذ تذكر الكسندر ان اباه - عندما تعرف بماري ذات ليلة فى المسرح القومى الفرنسى - سارع الى تقبيلها . أوشك النهار ان يدبر وألكسندر مستمر فى انشاد قصائد أخرى من الذاكرة . اعجب ابوه بها جميعا ووعده ان يبذل قصارى جهده فى ان تطبع وتنشر ، وأخذ بدوره فى انشاد الشعر بصوته الذى لا يبارى . يخيل لمن يسمعه انه يحفظ كل ما قيل من شعر ، فتلا مقتطفات طويلة من نظم فيكتور هوجو وبايرون وشكسبير .

وطال بالشابين المقام فى فيلا مونت كريستو ، حتى اذا وصلا محطة سان جيرمان آخر النهار فى طريق عودتها ، اذا بأخر قطار الى باريس قد فاتهما لتوه ، فقر رايهما على المبيت فى نزل صغير اسمه « الجواد الأبيض » وأشرق عليهما يوم جميل : السماء صافية والجو مستقر . شعرا بالاسف ان يبادرا الى ترك ذلك كله فتلكا حتى تناولا غذاءهما شهيا فى الحديقة ، وصاحب النزل بشوش . قرعزمهما على ان يطبلا المقام فى نزله بضعة أيام فمما من حاجة تلح عليهما فى العودة الى باريس . وبعد الظهر تجولا فى الغابة على صهوة جوادين اكترياهما . وفى آخر النهار زار الكسندر اباه بينما توجه الصديق الى باريس طلبا لما يلزمهما من ملابس .

يذكر الكسندر فيما بعد انه تجول فى هضاب سان جيرمان فى فترة بعد الظهر وافكاره تحوم حول ماري دوبليسيس . ولما رجع الى النزل

شعر بالحاح لا يقاوم ان يبدأ كتابة قصته عنها . أمسك بما وجد امامه من أوراق وأخذ يكتب ، حتى اذا رجع صديقه من باريس وجده قد سود صحائف كثيرة العدد لايلاويه عن ذلك شيء .

استيقظ في الصباح مبكرا وعاود الكتابة بعد افطاره مباشرة ، فنعم المكان غزل « الجواد الأبيض » لمن اراد الكتابة ، فهو بهيج هاديء نظيف ، الطعام شهى والخدم رهن الاشارة والحديقة ذات ظلال وفوق ذلك كله فأجرة الغرفة فرنك واحد في اليوم . عزم الكسندر على الإقامة فيه الى ان ينتهي من الكتاب ومكث صديقه معه يسلى نفسه بنسخ فصول الرواية أولا بأول .

استمر الكسندر في العمل يوما بعد يوم طول شهر يونيو وأظهر مقدرة على التركيز تماثل مقدرة أبيه . كتب عن ماري دويليسيس وبيتها والاشخاص الذين قابلهم عندها والاماكن التي زارها معا . وأعطى للبطل الحروف الاولى من اسمه « أرمان دوفال » وقلده شخصيته فرأى نفسه فيه بوضوح ، وخلق عالما على صحائف الورق يملؤه بالرضا : ماري تحبه حبا عميقا خالدا . مبتغى احسان الرومانسيين . لم تكن بطلته هي الفتاة التي تشتت كل شخص وكل شيء ولا تدري ما تريد ، بل أحبته هو خالسا لنفسه ولا شخص سواه . لا ذكر لزواجها من ادوار دي بيريجو ولا هيام بفرانزليست . تحول الكونت دي ستاكلبرج الى رجل وقور ذي مثل عليا يدفع عن ماري ايجار منزلها فهي تذكره بآبنة توفاه الله كانت عنده عزيزة . وجعل الكسندر لأرمان أبنا كان يود مخلصا ان يكون أبوه على مثاله : رجل رزين يمكن الاعتماد عليه كل الاعتماد مثل أمه . وفي القصة امتلأ قلب دوفال الاب جزعا - وهو الرجل المحترم المهاب - عندما رأى ابنه يبعثر أمواله على محظية معرضا نفسه لاثقال الدين وهمه ، فتدخل بنفسه ليفصم هذه العلاقة . لم يتهاون فيقبل هذه المحظية عندما قابلها ، بالعكس جاء يأمر فيطاع وأرغمها ان تهجر ابنه بغير رجعة .

أما حب أرمان لمرجريت جوتيه فقد جعله عميقا كعمق حب شعر هو به ، مما أضفى على الكتاب ميزته ومتعته بالرغم من أنه يحكى قصة لا جديد فيها وليس لها الا قيمة ضئيلة . تشرق الشمس وتناديه الغابة ببهجتها ولكنه لا يرفع رأسه عن مؤلفه . يظل يعمل اثنتى عشرة ساعة تزيد الى خمس عشرة أو ست عشرة في كل أربع وعشرين ساعة ثم يسقط اعباء على فراشه فيستغرق في النوم وعنده شعور بتملكة

ان شيئاً عميقاً داخل مركز تفكيره لم ينم معه مستمرا في حبك حوادث الكتاب .

وتمت قصة « غادة الكاميليا » في نهاية الشهر قبل ان يستكمل ألكسندر عامه الثالث والعشرين ببضعة أسابيع . استغرقت كتابتها ثلاثة أسابيع او تزيد قليلا . سمع أباه من قبل يقول ان قلمه لا يسيل سهلا على الورق الا لأن فكره يكون قد انتهى من تأليف الكتاب . وكذلك فعل دوماس الابن فمن الواضح انه استكمل تمام عناصر الرواية - ربما في عقله الباطن - قبل ان يخط حرفا واحدا . شغلت القصة تفكيره دواما منذ لحظة ان حضر بيع ممتلكات ماري دوبليسيس بالمزاد في فبراير .

وافتح قصر مونت كريستو رسميا والصيف في ذروته بحفلة استقبال فاخرة بالغة في الاسراف . حضر الجميع عرضا في المسرح المحلي المسمى « شكسبير ودوماس » . أما « المسرح التاريخي » فقد لاقى نجاحا منقطع النظير . تمتلئ مقاعده ليلة بعد أخرى . وحلق دوماس في قمة حياته الادبية . وحلقت راشيل أيضا في نجاح مماثل ، ولا عجب فهي الشخصية الطاغية في عالم التمثيل المسرحي لا يدانيها في قمتها منافس . ولكن كم في عالم الفنون من تباينات وحظوظ لا تستمر على حال ففي مواجهة من يشار اليهم بالبنان تقبع المدموازيل جورج في خسوف تام .

انتاب المدموازيل جورج الضياع والحيرة بعد موت هاريل . لم تدرك قيمة المال وخطره فوضعت كل همها طول حياتها في أداء أدوارها التمثيلية ، تاركة شئونها المالية لمن يريحها من أعبائها . والآن وهي في سن الستين تبين لها ان الشينخوخة قد أدركتها وركبها النصب والهم والاملاق . لا جدوى من تعلم شئون الحياة من جديد لرد عاديات الزمن . ووجدت نفسها بدون سند تفالب الحياة . وأخذت مجوهراتها تتسرب من بين يديها الواحدة بعد الأخرى . ذهبت ماسات بونابارت وياقوتات إمبراطور روسيا . اختفت كلها كما اختفى جمالها الذي منحها هذه المجوهرات . انظر الى خطاب تسلمه جول جاتان من صديق يسأله هل من سبيل لتعتزل مهنتها مكرمة . قال :

« هذه السيدة التي عودتنا ان نراها اعظم الممثلات الفرنسيات وأجمل نساء عصرها وأبهاهن - انظر اليها الآن - هوى بها الحال وهانت الحياة فلجأت الى الصالات الريفية تعرض فيها فنها ، وهي أمكنة يخجل أي ممثل مقصور من باريس أن يشاهد وهو يعمل بهام »

كنا في سومير من وقت ليس ببعيد فاذا بها هناك تقدم عروضاً مع طفمة من السفلة جمعتهم حولها . الرواية المعروضة هي «ميروب» وكتب على تذاكر الدخول أنه اذا لم يبق عدد المشاهدين عددهم في العرض السابق فلحامل التذكرة الحق في استرداد نقوده . اثار ذلك حب استطلاعنا ودخلنا المسرح وقمنا بحصر عددهم فيه فعددتناهم أربعين شخصاً . لابد أن هذا العدد كان كافياً للشرط فقد ارتفع الستار واخذت المدموازيل جورج في التمثيل .

بهذا صرنا شهوراً لما ملئنا ضيقاً وغماً . ظهرت المثلة وبها مسحة من جمال زائل . ولكن المسرح صغير - نصف حجم مسرح الباليه رويال - لا تخفى فيه خافية . فبدت تجاعيد الوجه والشعر الأبيض والقوام الضخم والحركات المرتعشة والصوت المبحوح والنفس المحشرج . كان ذلك بدا واضحاً على المثلة المسكينة فانتاب الجمهور شعور بالأسى والتقزز ، الجأهم الى الفرار من المسرح في هول . فلم تجد المسرحية أحدا يشاهدها في ختامها .

ورحلت المثلة البائسة عن سومير الى شينون وازاي . بلاد لا يزيد تعداد الواحد منها عن أربعة أو خمسة آلاف نسمة . فمثلت أمام فلاحين لم تهذبهم آداب المدينة فتركوا قبعاتهم فوق رؤوسهم ولم يخلعوها أمامها . .

ودعا جول جانان أصدقاء المثلة ليشاركوا معه في اقامة حفلة خصيصاً لصاحبها . والى أن يتم هذا قبل دوماس الطيب القلب أن يعرض سمعة مسرحه - المسرح التاريخي - للخطر بعد النجاح الذي لاقاه . عرض عليها أن يلحقها بمسرحه . ولكن المدموازيل جورج رفضت هذا العرض لأنها - بالرغم من أقول نجمها - عسيرة الرضا كالعهد بها دائماً . لم تول روايات دوماس التاريخية أى اهتمام . أنها من أنصار الادوار الكلاسيكية فمن غير اللائق عرضها في مسرح جماهيري .

وفي شهر أغسطس روع أهل باريس بجريمة قتل بلبلت أفكارهم . الجاني هو الدوق دي شوازيل براسلان . قتل زوجته ذات ليلة بقسوة بالغة ثم أزهاق روحه بعدها بيوم أو يومين . الشائعات تقول أن مربية أطفاله قد شغفته حباً وانقلب على زوجته في ثورة من غضب لا يدرى ما يفعل . ساعد هذا الحادث على صدع بنيان سؤدد الملكية المترنح . الدوق من أرقى طبقات عليا القوم فاذا وقع منه ما ينبى أنه يشترك مع بقية الناس في أحط الشهوات فقد

أعطى الجمهوريين حجة بالفة ضد الامتيازات التي يتمتع بها
الارستقراطيون . حادث آخر قوض بشكل ملحوظ أسس النظام
الملكي ، فان ملك بافاريا - وقد فقد ليه هيما بلولا مونتيز-منحها
لقب الكونتيس فون لانسفلد . ثم ان مدام أديليد أخت الملك لويس
فيليب ملك فرنسا توفيت مع انتهاء السنة ففقد فيها الناصح
المخلص الامين ، وكانت سيدة باسلة عاقلة تحظى بكل احترام
وعطف . ويفقدها فقد العزم - وقد خيم عليه الحزن وأدركته
الشيخوخة - على النضال في حفظ سيطرة الملك كلما تعرضت لما
يوهنها .

وقبل وفاة مدام أديليد في الشتاء تمكن دوماس الابن من نشر
روايته الجديدة واشبعاره ومثلت رواية هساملت على المسرح
التاريخي . ترجمها دوماس الاب شعرا وأضاف اليها من عندياته
ما رأى أنه يضيف اليها طلاوة . ظهر الشبح يلقي العظاات وتمتديد
القدر هادية ومرشدة في المنظر الاخير ، وتحفظ لهاملت حياته .

وطبعت فصائد دوماس الابن على نفقة أبيه في مجلد عنسوانه
« خطايا الشباب » لم يستلفت أنظار الناس ولم يبع منه الا أربع
عشرة نسخة ، بعكس « غادة الكاميليا » فقد أصابها النجاح . توجه
بها الكسندر الى كادو الناشر ولم ينتزع منه ألف فرنك الا بعدعناء
وسرعان ما نفدت الطبعة الاولى وكانت من ألف ومائتي نسخة تبعثها
طبعة ثانية أقل عددا نفدت هي الاخرى سريعا أيضا . وشهد
موضوع الرواية - كما كان يأمل - انتباه القراء ، وصارت القصة
مجالا للمناقشات الحامية ولم تخف الشخصيات الحقيقية لابطال
الرواية فتجددت في الصحف الحكايات حول ماري دوبليسيس .

تقلبات الحظ

استقر دوماس الاب في قصره بيور مارلى وكرسسه لاحتفالات فخمة على مستوى الملوك يقيمها لاصدقائه . وفي الحق يجدر بنا ألا نطلق عليهم هذه الصفة ، بل نقول أنهم فئة في المجتمع نهazon فرص وطفمة من الطفيليين كشفوا كيف يستفيدون من هذا الكرم . وجدوا قصر مونت كريستو حفيا بهم دائما : غرfa مريحة ، خدما في أحسن هندام وأتم طاعة ، عربات تحت أمرهم انى توجهوا ، قبوا مكدسا بقنينات الشمبانزا ، والمال تحت أيديهم يلتقطون منه ما شاءوا . وترى رب البيت في غرفته السداسية الأضلاع في الصباح الباكر يكتب لا يفادرها طيلة اليوم اللهم الا اذا حضر التجارب في مسرحه . لا وقت لديه لمقابلة ضيوفه الا في المساء على مائدة العشاء . ياله من مضيف لا هم له الا أن يرى من حوله في سعادة وحبور .

صمم دوماس منزله وهو محلق في أحلام اليقظة وعاش فيه وهو في نفس الاحلام . استولت على مقاليد المنزل محظية متلافة بعد أخرى تبعثر له الاموال . وما أن عرض دوماس الكبير على الناس تكدس أمواله وانتصاراته في طرز حياته المترفة حتى أسرع يلتف حوله كل نهاز طماع يأتون اليه زرافات من باريس ينهبون أمواله بدون خوف ولا خجل . ما كان الكسندر ليستطيع حيلة وهو يرى هؤلاء الاغراب يبلدون أموالا قد تؤول اليه عن طريق الميراث . لو اضرم النار في قصر مونت كريستو مبقيا على شاتوديف لايه لما جانب الصواب وربما لم يجد من يلومه على ذلك . اكتفى بتقديم النصيح لايه الغريب الاطوار وما عنده من أمل كبير أن يستجيب لنصائحه . وأخذت أخبار مجون دوماس الاب وسفاه في الامسوال تنتشر بين الناس وصارت الافواه تلوكها في كل انحاء باريس . وكانت كاترين لوباي تهتم دائما بتتبع أخبار عشيقها السابق وتضحك من أنبائه هذه وتقول « لم يتعلم بعد شيئا من أمور الحياة في هذه الدنيا » . من الحوادث الهامة التي وقعت في الاسابيع الاولى من سنة ١٨٤٨ تقديم مسرحية بنيت وقائعها من قصة الكونت دي مونت

كريستو . ابتدا تمثيلها على خشبة المسرح التاريخي في الثالث من شهر فبراير واستمر يومين . تشتمل هذه المسرحية على عشرة فصول ولا أقل من سبعة عشر منظرا مختلفا . تسكلف اخراجها الفخم مبالغ طائلة من المال . اعجب بها الجمهور واستقبلها بحماس وهلل لها وكان واضحا أن المسرح سيظل مقدسا للمشاهدين المتحمسين ليلة بعد أخرى لاسبوع عديدة ، وأقام هوستاين مدير المسرح مأدبة في الثامن عشر من الشهر يحيى ذكرى مرور سنة على إفتتاح المسرح الذي لاقى نجاحا بعد نجاح وهو واثق أن النجاح سيتلوه آخرو آخر . ولكن الدنيا اثبتت مرة أخرى أنها لا تؤمن كالعهد بها دائما . فما مريوم او يومان الا ونجد المسرح وقد انفض عنه الجمهور فجأة . لقد ثبت ثورة سنة ١٨٤٨ ولم يعد يهتم بآدموندانتيس ومغامراته . وكان دوماس الجمهوري سباقا الى غرس « شجرة التحرير » أمام مدخل مسرحه تلفت اليه الانظار ، وبالرغم من ذلك استمرت كراسيه خالية خاوية .

ولاذت العائلة المالكة بالفرار في اليوم الرابع والعشرين وحاولت الدوقة دورليانز أمام مجلس النواب الاحتفاظ بالعرش لابنها الصغير الكونت دي باري ولكن الشعب الفرنسي لم يعد يطبق الملكية فطرد اسرة دورليانز شر طردة ورمى بعرشهم من شبك قصر التويلري وخلت مسارح أخرى خلاف المسرح التاريخي من روادها ، وامتلأ الجو بالهياج والترقب . لقد مضى عصر لبدأ آخر . انتهى عصر لويس فيليب عصر الهدوء والثاني . لقيت الرومانسية حتفها وعفى الزمن على المدرسة الادبية التي كانت تتذوق ما يكتبه دوماس من بطولات وفروسية يزيغ التاريخ لابرازها . وابتدا الواقعيون أمثال جورج ساند وماري داجو في شرح وجهة نظرهم بأنهم يصفون الواقع طلبا للكمال . تغيرت أسماء الشوارع والمحال العامة . وأخذ كل من رأى رأيا يتوجه الى كل مكان وكله عزم في أن يخرج به الى حيز التنفيذ . واقتصر آخرون على الترقب والتفكير فيما سيحل بهم . وكان بلزاك أحد الذين اقتفوا أثر الجماهير الغفيرة الى ميدان التويلري حيث شاهد فوضى عابثة ضاربة اطنابها فرجع وقلبه طافح بالأسى وتساءل من يشتري بعد ذلك كتابا يقرأه . ورأى المستقبل يشيع فيه السلب والخراب والبؤس . ربما كان من الافضل له أن يجعل همه كتابة المسرحيات .

وحضر الأمير لويس نابوليون الى باريس من لندن في آخر شهر فبراير ولبث فيها أسبوعا واحدا لا غير وغادرها وهو مطمئن أنه

لا بد عائد قريبا . كانت الفوضى تضرب اطنابها وراى فى نفسه الرجل الحازم يعيد للبلاد استقرارها ويقر الامن والرخاء فى ربوعها وستحمد له الجماهير صنعه حتما وتستجيب له .

وأطلقت الثورة العنان لتخيلات دوماس الكبير . لم يضيع وقتا فى الوقوف امام مسرحه والتحسر على خلو كراسيه . كتب خطابا نلدوق دى مونينسيه ملاءه بأحاسيسه وعواطفه ثم نشره فى الصحف يلفت اليه نظر الجماهير . وتقلد قيادة الحرس الوطنى فى سان جيرمان وأخذ يروح ويجىء فى كل مكان منها على صهوة جواده ، وأسس صحيفة سماها « الشهن » ورشح نفسه لعضوية المجلس الوطنى وأخذ يقدم نفسه فى اجتماعات العمال . أما ابنه فكان على النقيض مفتما مكتئبا من الثورة مثل بلزاك وفى الحقيقة كان شعوره مماثلا تماما لشعور بلزاك الذى أصبح من أنصاره والمعجبين بأعماله . يمقت العراق والفوضى وكان مشغولا مثل بلزاك بما ستؤول اليه شئونه الخاصة . اختفت رواية غادة الكاميليا وسط هذه المعمة فلم يعد أحد يبالى بحياة غنائية رحلت عن هذه الدنيا منذ سنة . أنتهى من كتابة رواية « سيزارين » وهى الآن فى المطبعة تحت النشر ، ورواية أخرى فرغ من كتابتها أو كاد ، ولكن الاحقاد السياسية كانت تشغل بال كل الناس ، فهل يوجد الآن أحد يهتم بقراءة القصص الغرامية ؟

وإذا نظرنا الى الفنون أثناء الانقلاب والازمات نراها تتأثر بصفة عامة ويصيبها الكساد ولكننا نجد دائما فردا أو أفرادا قلائل ينجحون فى لفت الأنظار اليهم بتقديمهم نوعا من العروض الخفيفة فتسدق عليهم الاموال وسط الكساد الشامل . من هذه الفئة كانت المدموازيل راشيل التى حققت فى ذلك نجاحا باهرا . كان من تدبيرها ان امتلأت مقاعد المسرح الفرنسى فى هذا الموسم ، فى حين خلت المسارح الأخرى الا من قلة من المشاهدين . والذى قادها الى هذا النجاح أن ساقها الحظ فى التجول فى حى من أحياء العمال ذات ليلة من شهر فبراير فسمعت الجماهير يصيحون بنشيد المرسيليز الثورى فقررت من توها أن تجعل من هذا النشيد محورا رئيسيا للعرض الذى تقدمه فى المسرح الاهلى وقد تغير اسمه الى مسرح الجمهورية . وفى المساء التالى مباشرة تقدمت المدموازيل راشيل بعد انتهائها من تمثيل رواية « لوكريس » ملوحة بيديها علما كبيرا ثلاثى الألوان « وهو العلم الثورى الفرنسى » عاليا فوق رأسها متقدمة به فى ردائها المسرحى الكلاسيكى الى مقدمة المسرح وقد تسلطت عليها أنواره العاكسة تحت قدميها ،

فألهبت شعور الحاضرين وسرى فيهم الحماس سريان السكرباء ،
وربمت على وجهها تعبيرا مسرحيا متوترا مخيفا يتمثل فيه الحماس
الثورى ، ثم أخذت تغنى بصوت حاد - فهي لم تكن تحسن الغناء -
كلمات النشيد : « هيا بنا أبناء الوطن ، فصدر عنها الصوت واطىء
الطبقة خشنا . أخذ المتفرجون وجلسوا مبهورين يستمعون لها وهى
تضفى معنى جديدا وحياة لكل سطر من سطور النشيد بطريقتها
الخاصة التى لا تبارى . واستمرت تلوح بالعلم بينما هى تلقى بالكلمات
بصوت هو مزيج بين الخطابة والغناء . ما تكاد تمسك بقطعة من قماش
حتى تتحول طياتها - فى أعين الناس - الى قطعة فنية من النحت
الكلاسيكى ، فما بالك بالعلم وهو يهتز فى تموجات منسجمة حول
قوامها الذى بدا كأنه طيف تمثال رائع . بدت كأنها القدر أو كأنها
الأنفة . تمثل فيها الجمهور ربة الحرية فاكسحهم هذيان حماس
وأخذ أنصار الجمهورية منهم يعانق بعضهم بعضا بدموع منهرة ، أما
أنصار الملكية فقد اختلط عليهم الأمر وأصيبوا بالذهول .

وفاق نجاح عرض نشيد المرسييليز هذا كل ماسواه طيلة أيام
الموسم المسرحى . تمتلئ مقاعد المسرح ليلة بعد أخرى . لقد صدق
حدس راشيل فى أن هذا النشيد سيجذب الجماهير جذبا ويرتفع
إيراد المسرح . وسمح المدير الجديد لفئة العمال بارتياحه فحضروا
بأعداد كبيرة . وذات ليلة خلع عامل رقيق الحال قبعة ومررها على
زملائه الجالسين بجواره يلقي كل منهم بعض النقود لشراء زهور
لراشيل . فجمع بهذه الطريقة عشرون فرنكا ، وأسرع فاشتري من
محل الزهور فى البالية رويال باقة منها ثم عاد وصعد على المسرح
من فوق الأوركسترا وقدمها للممثلة ، فكانت سنة اتبعت فى الليالى
التالية ، تسهم الفئة الفقيرة من المشاهدين فى جمع ثمن باقة تقدم
« للمواطنة راشيل فيلكس » فإذا غنت تجسد فيها أمامهم كل
مثلهم العليا ويرون ربة تحرق نفسها لتقتص لهم مما قاسوه .
لم يدركوا أن ما تقوم به راشيل أمامهم إنما هو صنعة منها فقط ،
فهى لاتحس بأى معنى للكلمات التى تنطق بها . لا يعنىها مطلقا ما تنطوى
عليه كلمات الحرية والإخاء والمساواة ، ولا تهتم بأمور السياسة .
إن هى الا ممثلة منجتهدة عزمت على أنجاح المسرح الذى تعمل به وسيط
الازمة التى يعانىها ، فأعطت الجمهور ما يشبع رغباته
واستمر عرض راشيل فصل الربيع بطوله ، بينما استمرت مسارح
أخرى خالية تواجة الأفلاس وفى قلوب أصحابها من الكمد والحسد

شيء كثير ، ثم غادرت باريس في آخر مايو في رحلة فنية نظمها لها
أخوها المواطن رافاييل فيلكس تطوف فيها الاقاليم
وعند مغادرتها باريس أخرج المسرح التاريخي مسرحية لبلازاك
اسمها «زوجة الاب» أفنى فيها طاقة كبيرة من جهده ، ولم يؤثر في
عزمه على تأليفها مرضه وكلاله . كانت المراثيات تزدوج في بصره عند
تصويب النظر اليها ، بل كان في بعض الاحيان يعشى عن النظر . حضر
حفلة افتتاح الرواية كل من يعنى بالادب فأطروها وتنبأوا بنجاحها .
وساعد فيكتور هوجو في تعديل منظر في الرواية طال بدون داع .
وملاً جول جانان وتيوفيل جوتييه ابوابهما الصحفية بالثناء الجميل .
امتلاً بلزاك مع مدير المسرح بالامل في ان يستمر عرض الرواية لوقت
طويل . ولكن بعض الناس يوسع عليهم رزقهم فتجري الاموال في
أيديهم وبعضهم يقتر عليه رزقه . كانت راشيل من الفئة الاولى في
حين كان بلزاك من الفئة الاخيرة . امتلاً المسرح في حفلة الافتتاح ، ولكن
المشاهدين لم يتجاوزوا نصف مقاعده في الليالي التالية . وفي شهر
يونيو اغلق هوستاين المسرح وفضل التوجه بممثليه الى لندن ليحيى
موسمها هناك . وعندما قاربت السنة على الانتهاء أعيد عرض رواية
«زوجة الاب» من جديد ولكنها لم تستمر الا ستة وثلاثين ليلة فقط .

وأحكم الدائنون الحصار على دوماس الاب في قصر مونت كريستو
والتزموا بابه يضيقون عليه انفاسه حتى اضطر آخر الامر الى رهنه .
يالها من صلعة تكراء ، ولكن عنده من المشاغل الاخرى ما أبعدته عن
التدبر فقد نظم حملة انتخابية دخل فيها بكل جانحة من جسمه وقلبه .
نظر الى هذه الحملة نظرة فيها كل الجد وشعر حقاً انه يقدم نفسه
سياسياً ممتازاً لخدمة بلده ولو ان هذه الحملة بدت لغيره رواية
مسلية يعرضها امامهم في حماس . وبينما كان دوماس الاب مشغولاً
بكل هذه الامور شرع دوماس الابن يكتب جريدة «الصحافة» بأرائه .
صحيح ان الصحفيين في باريس ملتزمون فيما يكتبون ان يحترموا
سياسة الجريدة التي يحررون فيها ، ولكنه عندما انحاز الى الملكية
يزكيها في مقالاته في جريدة الصحافة لم يكن ذلك عن عقيدة لا يرتضى
بها بل كان راضياً مطمئناً لما يكتب لانه فعلاً يفضل النظام القديم على
الحكومة الديمقراطية الجديدة . ارتفعت حدة المساجلات في الصحف
بين اليمين واليسار ابدي فيها دوماس الابن افكاراً حية وبلاغة لم
تسفر عنها أشعاره التي يبعث بها الى «جريدة البنات» . لم يوهب
الملكة الشعرية الكافية ولكنه ملك مقدرة كبيرة على قرع الحجة

بالخجة ومهارة فائقة في الرد على آراء الخصوم ، استهوته هذه المناقشات الجدلية بعكس أبيه الذي يكره المساجلات الضيقة النطاق بل ويفضل الطرق العاطفية في جذب الناس الى صفه . نجح في ذلك مرات وبالاخص بالكلمة المسموعة اذ جعل الحاضرين يذرفون الدموع في احدى هذه المناسبات العجيبة : تجمع حوله ثلاثة آلاف كل منهم تأثر حائق يبدى له العداء المبين . خطب فيهم دوماس ملوحاً بيديه تأكيداً لكلامه . فاذا بهم يذرفون الدموع في نهاية الاجتماع تأثراً لما أصاب العائلة المالكة بالذات من الآم . لقد وهب الله هذا الرجل ولا شك مزايا عظيمة من نواح لا تخطر على بال ، وبالرغم من ذلك سقط آخر الامر في انتخابات المجلس الوطني . لم يستطع بث الثقة في الناس ، لم يحملوه محمل الجد اللهم الا في مقدرته على طهو الطعام . من الغريب حقاً أنه فقد عدداً كبيراً من الاصوات لانه جلب نفورهم عليه اذ أنذرهم بخطورة المانيا على فرنسا في مستقبل الايام . قال «لقد سقطت الدانمرك وهولندة وبلجيكا الى الحضيض ، وسترون النمسا تركع أمام بروسيا وسيأتى اليوم - لا قدر الله - لتركع فرنسا أيضاً» قابل الجمهور هذه الكلمات بالاستهجان والصفير وطرحوا هذه النذر أرضاً واستيقنوا أن قائلها لم ينضج بعد في الشئون السياسية

وسرت عدوى ثورة فبراير الباريسية الى انحاء متفرقة من أوروبا فقامت ثورات اخرى على غرارها . استرعى انتباه كل من دوماس الاب والابن منها ثورة البافاريين التي الجأت الملك لودفيج على التنازل عن عرشه وود الثائرون ان يقطعوا لولا مونتيز ارباً لولا انها خرجت سالمة من البلاد تحت حراسة مشددة من الجندا وصلوها الى الحدود . هتاف الجماهير في الثورات هو « تحيا الجمهورية » أما في بافاريا فاقصر الهتاف على « تسقط العاهرة » . ولما خرجت لولا مونتيز الكونتيس فون لاند سفلة مطرودة نهبت الجماهير قصرها ووقف الملك لودفيج وسطهم متنكراً كتيبا وهو يشاهد ما ينهب من أشياء ثمينة يعرفها جيداً اذ هو الذى وهبها بنفسه الى صاحبه . ومن سوء حظه عرفه احد الناهبين ونزل على رأسه الملكية بمرآة ضخمة في يده فأفقدته الضربة وعيه وحمل على هذه الحال متخذاً بجراحه وأعيد الى قصره . كان دوماس الاب مصيباً في قوله عن لولا مونتيز انها شؤم على عشاقها ، يصيبهم البؤس وتنجو هي من غير سوء كأنما ترعاها قوة شيطانية . تزوجت بعد سنة أو نحوها - على زوجها - بأنجليزى لقي حتفه غرقاً بعد قليل

وتحدثت الحركات الثورية فى نهاية العام بعد أن أثارت مشاحنات
قاسية ومأسى عنيفة . وعم فرنسا الهدوء وارتاح بالفرنسيين عندما
انتخب الأمير لويس نابوليون رئيسا للدولة . واستقر لويس -المنفى
السابق وسجين مدينة هام - فى قصر الأليزيه واحاط به البونا بارتيون
سواء من كان ذلك منهم عن عقيدة أو من جاء سعيًا وراء المجد والنفوذ .
وأقيمت حفلات الرقص والعشاء تتصدرها الأميرة ماتيلد بنت عم
الرئيس . ورجعت أمور البلاد الى نصابها شيئًا فشيئًا ومحيت آثار
الحرب الأهلية وأعيد فتح المسارح

فشل دوماس الأب فى انتخابات المجلس الوطنى بعد أن صرف أموالا
طائلة فرجع يهتم بمسرحه أملًا أن يسترجع ما فقد . عرض مسرحية
«شباب الفرسان» فى شهر فبراير ولم تنجح بالرغم من إخراجها
الفخم . ذلك لأن اهتمام الناس بمغامرات « الفرسان الثلاثة » قد
فتر ولم تعد تسحر البابهم . تبعتها مسرحيات أخرى لم تصل كذلك
الى النجاح المطلوب

وابتدأت راشيل تجرى التجارب فى أوائل الربيع لمسرحية جديدة
على المسرح الفرنسى « وقد استعاد اسمه القديم » . الرواية هى
« أدريين ليكو فرير » كتبها خصيصا لها الكاتبان سكريب وليجوفيه
تدور حوادثها حول شخصية ممثلة سابقة فى الكوميدي فرانسيز
صديقة لفولتير وعشيقة لوريس دى ساكس . نرى فى المشهد الأخير
أدريين تموت بين يدي عشيقها بفعل سم دسها أعداؤها . أعجبت
راشيل إعجابا شديدا بالمسرحية وبذلت كل جهد لتؤدي دورها فيها
بملا يعلوه أداء ، وهى - الممثلة القادرة - اذ تصمم على التفوق تنسى
أنها امرأة تدعى راشيل ، بل تأخذ بمجامع عقلها وروحها وتحول الى
وسيلة للعقل المطلق فتبرز شخصيات الخيال الى عالم الحقيقة
وتتعمقها قلبا وقالبا ، خلقا وخلقًا ، وكانت هى اذ تقوم بتجارب « أدريين
ليكو فرير » تشعر حقا بسكرات الموت التى تنتاب الممثلة الشابة والتى
نزعته نزعًا من مباهج الحياة . وفى ليلة من الليالى وهى فى هذه
الحالة النفسية شعرت باحساس أكد لها أنها هى نفسها قد قاربت على
الموت ، فما انتهت من تجاربها تلك الليلة حتى انهمرت فى بكاء حار
أزعج زملاءها وأخبرتهم عن يقين أنها هى أيضا ستتموت صغيرة كصاحبتهما
فى الرواية ويخلو منها عالم المسرح وهى فى ذرى مجدها . ولكن
ابتدا عرض المسرحية فى أبريل وكان دورها فيها فعلا من أنجح
الإدوار التى لعبتها راشيل . خولت المشهد الأخير - مشهد وفاتها -

الى مشهد مؤلم اشد الايلام ، مؤثرا اعظم التأثير
وشمر دumas الصغير عن مساعد الجد والنشاط . نشر اثنتى عشرة
رواية خلاف عادة الكاميليا فى الفترة بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٥٢ .
لم يتأن فى كتابتها جميعا ولم يضيع فيها وقتا طويلا تحت وطأة الحاجة
الى المال فلم تنل اهتماما كبيرا . وهو الآن يفكر فى امكان مسرحية
« غادة الكاميليا » وكان يحضه على ذلك انتونى بيرو احد اصدقاء
ابيه . هو مؤلف يقوم بكتابة المآسى العنيفة تعرض فى المسارح
الجماهيرية والتي تجذب المشاهدين اليها ، وقد ألف عدة مسرحيات
من هذا النوع . استمع له ألكسندر وهو يؤكد له أنها ستكون مورد رزق
كبير فداعبه الامل فى ألا تفلت منه هذه الفرصة . انه الآن مثقل
بالديون ولا تأتيه اعماله بما يغنيه

أخذ يقلب هو وصديقه بيرو صفحات رواية غادة الكاميليا ويعصران
فكرهما عصرا عساهما يجدان هيكلًا لمسرحية ناجحة . هما قد
مضى عليهما شهر قبل ذلك قفلت فيه أبواب الرزق وأصبعا خاليين الوفاض .
عرض بيرو مقترحاته وأخذا يتبادلان الراى فى كل صغيرة وكبيرة
فيها . أما ألكسندر فقد حاول جاهدا أن يجد طريقة صالحة ولكن
أبى عليه عقله أن يهديه اليها . وأخيرا اتفقا على الاشتراك فى المحاولة .
أعطى ألكسندر اسم مرجريت جوتيه لشخصية ماري دوبليسيس فى
الرواية وكان من رأى بيرو أن العنصر الدرامى ينبغى أن يبرز فى
مقابلة مرجريت بالدوق موريك وهو الاسم الذى أعطاه ألكسندر
لشخصية الكونت دى ستاكلبرج فتجرى حوادث القصة بأن تتوجه
مرجريت الى بانير دى لوشون للاستشفاء وقضاء فترة نقاهة من
مرض ألم بها ، وينزل معها فى نفس الفندق الكونت دى موريك الذى
فقد ابنته حديثا ، ويؤخذ بالشبه الكبير بين مرجريت وبين ابنته
المتوفاة فيتوسل أن تقطع علاقتها بحياتها الخلية التى تحياها وتركه
يكرس أعوامه الاخيرة من حياته فى رعايتها ذكرى لابنته العزيزة .
وقدر بيرو أن تظهر ابنة الكونت كاحدى شخصيات الرواية مثل
مرجريت وتقوم نفس المثلة بأداء الدورين معا . تبدأ الرواية بمقدمة
ترى فيها الفتاة تفوت بين يدي أبيها وتحمل وهى ميتة الى الكواليس
ويبقى الاب الحزين على المسرح محاطا بأصدقائه وهو فى أشد الجزع
لا يتقبل عزاء ولا سلوى يستغرق ذلك وقتا كافيا لتبدل المثلة من
ملابسها وزينتها وأصباغها لتمثل الشخصية الثانية ثم تظهر على
المسرح باسم مرجريت جوتيه المتألقة المرحة . سيكون التأثير بالفا .

لا بد أن تنجح هذه الفكرة . ويمكن أن يضاف الى المسرحية بعض المشاهد بين الطلبة والفتيات العاملات تتخللها أغنيات فردية وجماعية .

أصفى ألكسندر الى هذه الفكرة وقلب فيها النظر مليا فلم تعجبه كما لم يستطع هو أن يأتي بأحسن منها . ظل عقله خاليا من كل خاطر كصفحة بيضاء حتى كاد يستيقن أنه لم يوهب أى ملكة لكتابة المسرحيات . سبق أن عرض على أبيه فكرة مسرحية القصة فنصحها أن ينبذها لأنها لا تحوى من الحوادث ما يملأ خمسة فصول . وبالرغم من ذلك فقد أمتلأ ألكسندر رغبة جامحة فى تحويل عادة الكاميليا الى مسرحية واستمر يقترح زناد فكره فى ذلك . ومما جعل ألكسندر يخالف رأى بيرو فى أى حوادث الرواية يكمن العنصر الدرامى مشاهدته النجاح الكبير الذى حازته مسرحية «أدريين ليكوفير» على المسرح الفرنسى . كان أساس الدراما فى مسرحية سكريب يكمن فى غرام البطلة وموتها . فكل حوادث القصة تتجمع وتقود الى الذروة عند وفاتها فى النهاية . ولا بد أن تمثيل راشيل الراقى الهب طموحه وطمعه فقد تخيلها فى شخصية مرجريت جوتيه على سرير الموت . وعلى كل حال ظل عقله فارغا ورجع الى كتابة قصصه المعتادة وترك بيرو وحده يفكر فى الحل

وتوفيت الممثلة ماري دورفال فى أواخر شهر مايو وقد وقعت فريسة الفقر فى أخريات حياتها كانت قد قامت بجولة تمثيلية فى الأقاليم وأخذت معها حفيدا صغيرا لها لا يجد أحدا غيرها ترعاه . وأصيب الطفل بالمرض وتوفى وهو فى سن الرابعة فانخلع قلبها عليه ولم تستطع عنه سلوا ، وهامى الآن تموت دون أن تترك فلسا واحدا يصرف على جنازتها . لو كان دوماس صديقها القديم فى مسيرة من حاله كسابق عهده لما تردد لحظة فى تحمل كل نفقات الجنازة ، ولكن الأوضاع قد تغيرت وأصبحت الأمور عصيبة . أوشك المسرح التاريخى على الخراب ، ذلك المسرح الذى وضع فيه أموالا طائلة وأصبح المال ينال بكل جهد . أعطى مافى حوزته وأخذ يجمع باقى مضاريف الجنازة بالمساهمة ، ومع ذلك لم يتجمع من المال ما يكفى فباع نيشانه المرضع الذى منحه أثناء رحلته الأفريقية ، وهنا ولا شك تضحية حقيقية منه إذا عرفنا غرامه بالأوسمة . ومشى وراء الجنازة نفر قليل يتقدمهم دوماس وهو جو . بقيت هذه الذكرى الاليمة عالقة بهما مدة طويلة . والذى حز فى نفسيهما بصفة خاصة غياب راشيل . لقد تنكر لمارى دورفال كل أصدقائها فلم يحضر منهم ليشيعها

الا الدموازيل جورج . حضرت مرتدية ثياب الحداد التي ابتاعتها عقب وفاة هاريل ، وارتمت باكية على قبر ماري دورفال المسكينة تكفر عن استغلالها على هذه الزميلة التي هي - آخر الامر - من البشر مثلها والتي كتب عليها ان تموت اخيرا ميتة بائسة

وجاءت الدموازيل جورج الى باريس لتحضر الحفلة التي ستقام بعد أيام قليلة لصالحها في المسرح الايطالي . لقد تأجلت اقامتها بسبب ظروف الثورة ، واصبح الامل الآن عظيما في ان تأتي بايراد كبير يكفل لها معاشا يقوم بأودها في اعوامها الاخيرة . ورؤى ان ظهور راشيل على قائمة فناني الحفلة هو الضمان الوحيد لنجاحها وجذب المشاهدين اليها في وقت لم يعد هناك ضمان بسبب انتشار الكساد وعدم الاقبال على دور الترفيه والمتعة . وعمل الترتيب على ان تظهر راشيل مع الدموازيل جورج معا على خشبة المسرح الايطالي تمثلا جنبيا الى جنب في مسرحية « افيجيني في اوليد » . ثم تظهر بعد ذلك راشيل وحدها في مسرحية من فصل واحد هي مسرحية « عصفور من ليزيا » وهي مسرحية سبق ان لمعت في تمثيلها وتألقت ورضيت راشيل على كره بالغ منها وبعد تمنع ، وظهرت غطرسة اذلت الدموازيل جورج اذلالا بالغا . ولم تستطع الاخيرة الا ان تكظم غيظها امامها لشدة فاققتها وحاجتها الى المال

وبشت الدموازيل جورج شكواها لكل اصدقائها . لم تأخذ الامور ببساطة الفيلسوف القانع الذي لا يأمن تقلبات الايام . لم تتحمل ما أبدته من اساليب مهينة ممثلة تحتل الآن قمة تربعت هي عليها بحق في يوم من الايام . لقد لقيت من راشيل احتقارا بالغا كأنما هي عابرة سبيل أدركها الكبر والخرف . لم تحترم راشيل مجسدها الماضي الباهر - في نظر الدموازيل جورج على الاقل التي كان مجدها كله في عالم المسارح . انها لاهانة بالغة ان تحط الدموازيل راشيل - التي كانت من اعوام قليلة فتاة مغمورة تمد يدها بالسؤال - من قدرها هي التي ركم بونابارت مبهورا امام جمالها الاخاذ

وبالرغم من هذا كله امتلا المسرح بالمشاهدين ليلة ٢٧ مايو وهذا هو المطلب الاساسي . حضر الجيل الجديد لمشاهدة نجمته راشيل، وحضر الجيل المتوسط والقديم ليقدم افرادهما احترامهم العميق لجمال طالما ملك ناصيتهم وهم شباب . كانت عواطف دوما من الصغير مع راشيل يتابعها باعجاب ، اما أبوه فأخذت تطوف بمخيلته تلك الايام الجميلة التي ألف فيها رواية « نابوليون » في غرفة زينة الدموازيل

جورج في المسرح . أما المتفرجون الذين طال بهم العمر الى السبعين
او نحو ذلك فراوا بعين الذكرى خطواتها الاولى على المسرح في بدء
حياتها الفنية . شاهدها الشباب كحقيقتها التي وصلت اليها : امرأة
عجوز ضخمة تصر خشبات المسرح تحت وطأة قدميها ، وشاهدها
العجائز بنفس العيون التي شاهدها أول مرة : امرأة شابة ساحرة
تخطر أمام بونابارت قنصل فرنسا يحدجها بنظرات الصقر من عيني
طاغيتين لا تتركانها لحظة واحدة

وربما تمثل الخيال في عيني المدموازيل جورج أيضا واقعا حقيقيا
وهي واقفة على المسرح في باريس في حفلة وداع له . لم تراء صالة
المسرح الايطالي - صالة فنتادور - أمامها بل تراء لها مسرح
الكوميدي فرانسيز وهي واقفة على خشبته تمثل مع النجم تالما .
هاهو بونابارت أمامها جالس في المقصورة المخصصة لاستقبال قنصل
فرنسا وقد أسدلت على جدرانها الستائر المخملية القرمزية ذوات
الشراريب الذهبية . هاهو يتوسط المقصورة وهما تتيه دلالا شأن
كل حسناء فاتنة مفترية بحسنها يحدقها بعينين كلهما افتتان وهما
اللتان اعتادتا لقاء الرعب في قلوب الرجال . كان القنصل يتزى بزى
فرقة حملة البنادق في تلك الليلة التي رآته فيها أول مرة : سسرة
زرقاء مع قلابات بيضاء وأكتاف ذهبية ، ويتدلى من جانبه بدل السيف
المستقيم حسام مقوس مصنوع في مصر غنمه من مراد بك . تجلس
بجواره جوزفين في فستان من الموشلين قرنفلي اللون يحيط بهما
افراد أسرته : اخوته وبعض من اخواته . وما أسرع ما حلت الليلة التي
رأت نفسها تتوجه فيها الى سان كلو مقر نابوليون : شابة في سن
السابعة عشرة مرتدية ملابس من التل الابيض المزركش وتربط شعرها
اللامع شريطة حمراء قرنفلية اللون ويغطي كتفيها شال من الكشمير

انتهت رواية « افيجيني في أوليد » وحيى المتفرجون الممثلة تحية
كريمة عند انتهائها ثم أخذوا يترقبون بشغف ظهور راشيل في رواية
« عصفور من ليزيا » . انتهت فترة الاستراحة ولم تظهر راشيل .
لقد ملكها الحنق ونفاد الصبر لمجهود اضطرت لتحمله في سبيل
الدموازيل جورج فلم تكلف نفسها ان تبقى . أضجرها شيء ما بفته
فأمرت بعربتها ان تعود بها الى منزلها دون ان تقدم أى تفسير أو
اعتذار فكانت بذلك الاهانة التي أطفحت الكأس توجه لزميلة أخنى
عليها الدهر . لم ير الكسندر أباه أشد حنقا منه اليوم . أخذ أبوه
على راشيل قبل ذلك عدم اكترائها بوفاة ماري دورفال واهمالها

الحضور في جنازتها وهو من التقاليد الفرنسية الواجبة المراجعة ، فاذا أضيف الى هذا اهانتها الاخيرة للمدموازيل جورج فقد أتت أمرا اذا لا يفتقر . لقد استحققت راشيل منه منذ ذلك الحين مقنا شديدا وبعد ذلك بزمن ليس بالقصير تقدم بيرو بسيناريو كامل للمسرحية المقترحة المأخوذة من «غادة الكاميليا» . درسها الكسندر ثم وضعها جانبا غير راض عنها واستمر في كتابة الرواية التي تحت يديه . ولما أتمها عاد الى السيناريو يدرسه من جديد . زآه يزداد سوءا كلما أمعن في قراءته . ولكنه يعلم أن لبيرو خبرة طويلة في تقديم المسرحيات وهو العالم بما يطلبه الجمهور ويرضى عنه فمن المؤسف ألا تستغل فكرته . وهو الخبير . اذا كان من رائها فرصة واسعة لكسب المال ، وما كان له أن يترك فرصة كهذه وهو في حال من الاقتار . ثم اذا هو فجأة . وهو جالس . يشعر بصورة ما يجب أن تكون عليه المسرحية وقد تمثلت واضحة في خاطره . لقد لاح له أخيرا المنهاج الذي يبتغيه جلس لتوه أمام مكتبه وامسك بقلمه ينخط على الورق الشكل المسرحي لغادة الكاميليا بطريقته الخاصة

لما يتأن في الكتابة بل سال قلمه مدرارا . ربما لانجد أحسدا مثله أهلا للكتابة للمسرح . لقد تردد على المسارح أعواما طويلة بداها منذ أن كان طفلا صغيرا ونما في أضوائها وعاش حياته جليسا للممثلين والمؤلفين . استقى منهم دروسا لا بد أن أورثته معرفة غريزية لكل جوانب هذه المهنة . انه يجد الآن الشرارة التي تلهب فيه المقدرة على وضع هذه الدروس موضع التنفيذ هذا فضلا عما ورثه من آبيه من ملكة التأليف الدرامي . استمر يكتب ويكتب طول وقته تقريبا لا يعطى لنفسه فترة قصيرة تستريح فيها أنفاسه . اذا دخل في النوم لا ينقطع تفكيره فينهض مبكرا وقد تجلت المشاهد أمامه واضحة يسجل منها كأنها رؤية العين . لقد أتم قلمه السيل كتابة الفصل الثاني بأجمعه في خمس ساعات . تملأ عليه حوادث الرواية سمعه وبصره وهو يكتب متخيلا بوضوح تأثير كل موقف على المتفرجين . انتهى من الكتابة بعد ثمانية أيام من العمل المتواصل فأنج بذلك مسرحية فاقت في نجاحها بدون نزاع كل مسرحية أخرى ظهرت في القرن التاسع عشر

الفصل التاسع عشر

خطوات مسرحية من الورق الى خشبة المسرح

توجه دوماس الابن الى سكرتير أبيه لينسخ له مسرحية غادة الكاميليا . وبينما هو في غرفة السكرتير دخل عليهما أبوه فسمعه ، فأدلى له الكسندر ضاحكا أنه قام بمسرحية القصة متجاهلا نصيحة بعدم صلاحيتها ، وأنه رغم شعوره بالخجل أمام خبرة أبيه الطويلة فقد فضل أن يكتب المسرحية لتملاً عليه فراغ أسبوع بدلا من أن يمضيه معطلا لا يجد الا الكسل والتدخين والكلام الذي لا نفع فيه . فألح عليه أبوه أن يسمعها له فوراً بالرغم مما هو غارق فيه من عمل وهموم . فاستجاب له ابنه المؤلف وقراها عليه كما هي العادة الدائمة في تلك الايام

استقر أبوه في مجلسه يستمع اليه مزهوا به مدلا له كماداته ، ولكن سرعان ما جذبت الكلمات أذنه الخبيرة وشدت انتباهه . كان الفصل الاول جيدا ، دخل في الموضوع مباشرة ووضحت فيسه شخصيات الرواية تمام الوضوح . ورغم أن موضوع المسرحية يتبع المدرسة الرومانسية : بطل يذوب حبا ويقضى أوقاته يسبح بجمال محبوبته أثناء الليل تحت نافذتها لا يبقى عنها حولا ، فإنها كانت جديدة البناء بشكل بين لم يسبق له مثيل ، نحت جانباً التقاليد المسرحية التي اكتسبت على مر العصور وألقت أضواء الواقعية على الشخصيات وهي تنطق بلغة العصر لا تزويق ولا مبالغة . قال دوماس : « هذا جميل حقا . استمر في القراءة »

وقرأ الكسندر الفصلين الثاني والثالث ووصل الى المنظر الذي يقنع فيه اليسيو دوفال والد أرمان مرجريت بجوته أن تترك ابنه نهائيا ، فبكى دوماس لهذا المنظر وسالت منسه الدموع بغزارة ، ولا عجب فهو امرؤ يتجاوب بعمق مع كل شعور عاطفي . ولما ملك نفسه قال « هلم اقرأ على بقية الرواية » ولكن الكسندر كان مرتبطا بموعده يضطره لمفادرة أبيه فتركه واعدا أن يؤوب اليه في أقرب وقت لسمعه الفصلين الآخرين

لم ينتظر دوماس الاب عودة ابنه وانهى بنفسه قراءة المسرحية فكان تأثيره بها شديدا . في مقدوره الآن أن يتصور مقسداً

تأثيرها وهى تمثل على المسرح . لابد أن لهذا الفتى ملكة الكتابة ، وإن عجب اليس هو ابنه . . ولكن الذى حيره هو أن طريقة ابنه تختلف تماما عن طريقته . لم يأت فى موضوع الرواية بجديد ، ولكن علاجه له جاء بطريقة فذة لم يسبق اليه أحد بالرغم من بساطته المتناهية . لا نجد فيها العظات الرنانة التى كانت سائدة فى مسرحيات تلك الأيام ، ولا نجد الحوادث الجانبية ولا المواقف المعقدة التى ميزت سكريب واكسبته شهرته ، لا تدخل الشخصيات الثانوية فى توجيه الحوادث . لم يكن من المعتاد فى مسرحيات ذلك العهد تصوير الحوادث من الحياة الواقعية المعاصرة وعرضها كما هى على المسرح خاصة اذا كانت تدور بين أفراد طبقة من المجتمع غير محافظة كالتى تنتمى اليها مرجريت ، بل كان من المعتاد أن تصور المحظيات كأنهن منتميات الى زمان سابق ، ولكن التعبيرات التى تنطق بها مرجريت والكلام الذى يجرى على لسانها يضعانها فوراً فى طبقة من المجتمع تعرفه باريس جيداً وتذكره لأول وهلة . كان الفصل الرابع الذى يمثل على المسرح حفلة مسائية بما فيها من رقص ومسراتكارا حديثاً فلم يحصل من قبل أن انتزع مشهد من صميم الحياة التى تعيشها الطبقات العابثة المتلافة فى باريس المعاصرة وعرض على المسرح كما هو ، يشعر المتفرج عند رؤيته أن المؤلف ينظر الى هذه الحياة العابثة بشيء من الاحتقار بالرغم من أنه مزجه بقصة حب صادق يتغنى به الشعراء .

ولذلك فعندما عاد الكسندر الى أبيه عاتقه بحماس ، وهناك وقال « لم أستطع صبراً على متابعة قراءة الرواية . أردت أن اطمئن الى أن قدرتك على تسخير القلم . لم تتخل عنك الى آخر كلمة . انها شيء فذ . انها لتلهب العواطف . انها لجريئة . انها جاءت حقاً بجديد . سيحالفك نجاح كبير على شرط أن يوافق عليها الرقيب ، فانى واثق أنه لن يصرح بها يا بنى العزيز . انها تفضح حياتنا فى مجتمعنا هذا »

وكان تحت أمره المسرح الايطالى وفريقه الممتاز من الممثلين الاكفاء فلو شاء الحظ العاثر ان يتخلى عنه لاصبح فى الامكان أن يستمع الى المسرحية فيه . وفعلاً قرأ الكسندر ما كتب على مسمع فريق الممثلين الذين اجتمعوا لهذا الغرض فنالت منهم جميعاً - لا يشذ عنهم أحد - كل اعجاب ، وما لبثوا الا أن يكوا ، ولا عجب فقد كان من حسن حظ الكسندر أن كتب روايته وكأن الالهام ينزل عليه وهو ممسك بالقلم وكان ذا حظ سعيد أن كتب روايته التى فيها

كثير من العبث وهو صاحب العقل الرزين والطبع الصارم الجساد الذى يعتبر زائدا عن الحد فى بعض الاحيان ، فجاءت المسرحية لا تدانيها مسرحية أخرى على طول التاريخ ، جياشة بالعواطف التى لا يملك الناس عند مشاهدتها الا أن يذرفوا الدموع ، وقليل منهم من تبقى عيناه جافتين . واذا احصينا مقدار الدموع التى جادت بها العيون فى القرن التاسع عشر على عادة الكاميليا لوجدناها تفوق ما انهمر على أى مأساة أخرى فى نفس القرن وما أكثر ما ظهر فيه من مأس حقيقية تستحق الحزن والبكاء . بكى عليها أهل فرنسا وبكى أهل أوروبا جمعاء ، ثم رحلت بالرواية سارا برنار عبر الاطلنطى فبكى أهل أمريكا بدورهم تلك الممثلة التى بلغت الخامسة أو السادسة فقط من عمرها حينما ألف الكسندر هذه المسرحية . وسبق أن بكى ليست على ماري دوبليسييس قبل ظهور المسرحية بوقت طويل معلنا حبه لها بلحن حزين أجراه على المقام الموسيقى الصغير . لابد أن لهذه الفتاة قدرة خارقة على جذب العطف اليها . جذبت عطف الكسندر بدون ادراك منه فكتب ما كتب بمقدرة جعلت أول سامعيه من ممثلى المسرح يبكون تأثرا وامتدت العدوى لسائر الناس فاستمروا بكون الى اليوم ، حتى أن احدى الممثلات الناشئات أصابتها نوبة عصبية وأخذت تنكى الى أن كادت تفقد الوعي ، ولما استردت أنفاسها أخبرت الكسندر انها ابتاعت سرير ماري دوبليسييس فى مزاد بيع مخلفاتها سنة ١٨٤٧ وقالت انها متيقنة من وفاتها بمرض السيل مثلها تماما وانها رغبت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على سرير المحظية ، ويؤكد الكسندر انها لم يمتد بها العمر فعلا وتوفيت كما توقعت وقد لا يأخذنا العجب من ذلك إذ اعتادت أن تنام على سرير ماري دوبليسييس الذى تحجبه ستائر سميقة ضخمة تمنع عنه التهوية

أظهر الممثلون استعدادهم لتمثيل المسرحية ، ورغب دوماس الاب فى اخراجها ، ولكن كيف ذلك والحظ العاثر ملازمهم ولا أمل فى رخاء قريب . اقترب المسرح من حافة الانهيار . نحن الآن فى سنة ١٨٥٠ وقد استقال هوستاين والتحق بعمل آخر وأدى الممثلون أدوارهم بأجور مخفضة ولم تكف مسرحية « الاخوان الكورسيكيان » التى عرضت فى أغسطس - ولا نستطيع أن نقول أنها فشلت - فى تغطية تكاليفها فتوقف أيضا دفع أجور الممثلين المخفضة . وكذلك الموسيقيون ومصمموا الأزياء ومصنفو الشعر والموظفون الاداريون ورجال المطافىء ومغبرو المناظر وبقية افراد الفرقة ، كل

هؤلاء لم ينالوا أجورهم فتوقفوا عن العمل فى شهر سبتمبر .
عرضت مسرحيتان أخريان بشق النفس أثناء الخريف ، أحدهما
« الكابتن لاجوتكسیر » ألفها دumas الاب الذى حورها من مسرحية
قديمة له باسم « بنت نائب الملك » والثانية مسرحية « بول جونز »
التى سبق أن ألفها منذ اثنتى عشرة سنة . استمر عرض الاولى
أسبوعين والثانية أسبوعا واحدا فكانت الطامة الكبرى . لم ينل أحد
من أفراد الفرقة فلسا واحدا اجرا لعمله . فلم تعد لهم قدرة بعد
ذلك على الاستمرار ، فأصبح على المسرح أن يقفل أبوابه ، وبذلك
أشهر أفلاسه فى يوم ٢٠ ديسمبر

ولما ضاعت فرصة عرض المسرحية على مسرح دumas الاب ،
سعى الكسندر ومعه نسخة منها الى هوستاين الذى صار الآن مديرا
لمسرح السرور « جايتى » . رفضها هوستاين قائلا أنها نسخة
من رواية « الحياة البوهيمية » خالية من ظرافتها . وكذلك لم تلق
المسرحية قبولا لدى مسرح الامبيجو ثم جرب الكسندر حظها فى مسرح
الفودفيل فقبلها ، الا أن هذا المسرح لم يكن حلالا لعقدتها ففقد
كانت حاله كحال المسرح التاريخى ولحق به فاقفلت أبوابه .

ومضت السنة كثيبة على دumas الاب . لقد أحب مسرحه حباً
طفى على حبه لمنزله الجديد الجميل ، لا يزال المسرح جديدا كأنما
نزلت عنه يد البناء المزخرف لتوها . فاذا دخلت الى الصالة
وجدت ستارته الفخمة المصنوعة من مخمل سميك أحمر تتدلى فى
طيات يخيم عليها الكتابة أمام خشبة مسرح لا يذكرها أحد الآن ،
وشعرت بأبوللو رب الشعر يطوف أمام المقاعد وقد خلت من شغلها
فلا يشعر به أحد ، كما أن دائرة تماثيل فطاحل الشعر والادب أهملت
فى صمت قاس مرير فاذا خرجت الى الشارع وجدت لافتة عليها
صورة هاملت وأوفيليا يراقبان بازدراء المارة يفدون ويروحون
لا يرفعون لهما بصرا ولا يعيرونهما التفاتا وهم الذين كانوا يقفون
طوابير طويلة متلفين على حجز أماكن لهم .

وأصبح قصر الكونت دى مونت كريستو عبئا ثقيلا يستهلك أموالا
طائلة . أصبحت التحف الفنية التى حصل عليها دumas بنفسه الى
الاثمان تدفع قضاء لديونه بأبخسها وهو الخاسر فى هذه الصفقات
دائما . وحتى مؤلفاته التى يندل فيها كل جهده بنهاية ما يستطيع
أصبحت لا تأتى بما كانت تأتى به فى الماضى ، ورفض الناشر أن
يدفعوا له عنها نسيئة . صار لا يدرى كيف يحصل على ثمن ما كله

وهو الذي تعود أن يفترق من أمواله التي كان يصرف منها في السنة الواحدة ما بين عشرة وعشرين ألفاً من الجنيهات . لقد أهملته باريس الفادرة بين عشية وضحاها . لم يتوقع هذه الضربة التي جاءت بفترة من حيث لا يشعر فامتلكته الحيرة لأول مرة في حياته . ومع كل هذا فلم يفقد إيمانه بل كان يبدو مرحاً في بعض الأحيان ، وأخفى همومه في نفسه ، فاتخذ الناس مثلاً يستمدون منه القوة على مجابهة محنهم . لم يجعله الفنى متعالياً فخوراً ولم يملؤه الفقر بؤساً وشقاء

ومع كل ما صبر به نفسه فقد خيم على حياته الحزن . يموت أصدقائه القدامى واحداً إثر واحد . توفيت مارس ودورفال اللتان اشتركتا معه في انتصاراته الأولى ، والمدموازيل جورج التي فتنه جمالها أصبحت شيئاً منسياً في شيخوختها وعوزها . لقد انتهى بالنسبة له كل شيء ، وأصبحت الساعات تقود إلى النهاية الحتمية التي لا تدر شيئاً . لقد وقف مرة في مسيرته إلى هذه النهاية ليحضر جنازة أخرى . لقد مشى وراءها في صف من المشاهير الذين يشتر اليهم بالبنان . . . مشى هو وفيكتور هوجو وسان بيغ وباروش محني الرعوس وراء نعش بلزك ليواروه التراب . نزلوا به إلى قبره . وهكذا دفن أكبر روائي عصرهم . قضى عليه جهده الدائب الضخم وجهل الناس بقدره . ألقى هوجو كلمة عصماء على أسماع الحاضرين بصوت جميل ضمنها أكراما وتبجيلاً واثني على بلزك الذي أتى بأعمال جليلة والذي تحرر الآن من جميع القيود

واستمر الأحياء في جهادهم في سبيل العيش . أصبح مسرح الفودفيل تحت إدارة جديدة فكتب دوماس الابن إلى المدير الجديد يذكره بمسرحيته التي سبق أن قبلها المسرح واحتفظ بها . ثم بعد ذلك بأيام مر عليه لبحث معه ماذا تم في الأمر ، ولما كان فوجئ بحارسة باب المسرح وهي امرأة بدينة الجسم كبيرة السن بادية العداوة تحضر له مخطوطة من مطبخها وتسلمه آياه ملطخاً بالدهون والأوساخ وتبلغه رسالة شفوية من المدير الجديد أن روايته لا تصلح لمسرح الفودفيل .

وحاول أبوه وأصدقائه أن يمدوا له يد المساعدة فتكلم أحدهم إلى مونتيني مدير مسرح الجيمناز ، ولكن شاء سوء الطالع أن مونتيني قد قبل لتوه مسرحية مقتبسة من قصة « مانون ليسكو » وأن خبكة المسرحيتين متشابهة فلا محل إذن لتقديم الرواية الثانية .

طرق ألكسندر باب مسرح الفاريتى « المنوعات » وحاول الوصول الى نجمته الناجحة ولكنها رفضت مقابلته ورد على أعقابها خائبا . ثم فكر أخيرا فى ديجازيه الممثلة ذات القلب الطيب التى كان ابنها هو همزة الوصل بينه وبين ماري دوبليسيس . ورضيت ديجازيه فورا الاستماع الى المسرحية ودعت جمعا من الممثلين يشاركونها الاستماع ، حازت إعجابهم ورضوا بها وأجمعوا على أنها ستكون بديعة اذا مثلت على المسرح ولكن ديجازيه نبهته الى أنها لا تصلح لهذا الدور فان سنها لا يسمح لها بتمثيل فتاة فى سن مرجريت ، فضلا عن أن الجمهور قد اعتاد رؤيتها فى شخصيات سيدات القرن الماضى النبيلات تختال على المسرح فى ثياب ذلك العصر تعلو رأسها تيجان من الشعور الصناعية العالية ، وهى تعتقد أن جمهورها سيصفر لها أستهجانا اذا شاهدها تمثل فى أى زى آخر

ثم لاح له فجأة نور من أمل وسط حلقة الظلام الدامس . لقد بلغ راشيل - راشيل العظيمة التى لا ترد لها كلمة - بطريقة ما أخبار هذه المسرحية فرغبت فى سماعها فأرسلت اليه ورتبت معه ميعادا فى ليلة معينة يحضر لها فيها الى منزلها ويتلو عليها مسرحيته . وامتلا قلبه أملا فلو حدث وأعجبت بها لأوصلتها حتما الى الكوميدي فرانسيز التى لها فيها الكلمة العليا ، واذا ابتغت أن تمثل دور مرجريت فلن يقف فى سبيلها رقيب ولا مدير ولا أى شخص آخر مهما ارتفع مقامه . اذ أصبحت عشيقته لرئيس الدولة لويس نابليون بعد أن اظهرت حماسها الثورى قبل مقدمه ، أسرع ألكسندر الى الميعاد المرتقب فى الليلة التى عينتها فى مسكنها بشارع ترودون مصطحبا نسخته من الرواية

أراد أن يعبر البوابة بدون أن ينتظر اذنا على عقيدة أن ربة البيت تنتظره فى الميعاد الذى فرضته ولكن حارس الباب نادى عليه وقال له : « امرتنى سيدتى أن أطلب منك ياسيدى أن تتكرم بالحضور ليلة أخرى ، فانها خرجت الليلة تزور المدموازيل زيلى لتمضية السهرة فى لعبة اللوتو »

رجع ألكسندر آسفا يجر اذيال الخيبة ورمى بالنسخة فى درج من ادراج مكتبه . لقد بلغ السيل الزبى وبلغ الفشل منتهاه فلا حيلة له بعد ذلك فى الامر . ثم انكب يكتب رواية أخرى .

لم يشارك ألكسندر أباه فى هذوئه الباسم أمام نكبات الدهر ، لم يتمكن من كظم يأسه من هبوط آماله ، كما ملأه يأسا على يأس الخراب

الذى هوى بأبيه الى الحضيض ولمس نضاله القاسى العنيف المنهك
أملا فى القيام بعد الكبوة التى أوقعته . ورأى من الناحية الاخرى
جماعة الطفيليات البشرية المترددة على قصر مونت كريستو يلتهمون
ما استطاعوا من خيرات بلا حياء وبلا كلمة شكر يبذلونها لضيغهم ، فهل
هذا ما كتب على الانسان الطيب الرقيق القلب الذى طالما أنجس
من وقع فى ضيق وأغاث من لا مغيث له ؟ لقد أحاط الافاقسون
ذكورا واناثا بدوماس وأخذوا ينهبونه بكل ما وسعهم من حيل قذرة
خوفا من الا يجدوا بعد ذلك ما ينهبون . ربما يرجع الدائنسون
الحقيقيون الامناء بدون أن ينالوا شيئا بينما يطالب من يدعى ماليس
له بصخب وزعيق فيسكتهم رب البيت بكنوز بورمارلى .

ولاحظ الكسندر أن دائنيه هو أخذوا يضغطون عليه ولا يستمهلونه
بعد ما رأوا من حال أبيه . لا بديل له اذن من أن يعمل ويعمل كثيرا
من الصباح الباكر الى غسق الليل . بدت له الحياة الدنيا مسخا
مخيفا . نقرأ فيما كتبه بعد ذلك أن كل ما تمناه فى تلك الايام هو
أن يقضى ما عليه من ديون ثم يموت ، وأضاف انه ولد أمينا صادقا
فلم يرد أن يترك الحياة قبل أن يرد الحقوق الى أصحابها ويستريح
بأله . ولكننا نراه بعد أن تخلص من ديونه يفقد رغبته فى الموت
وصار يبغي فقط الابتعاد عن أعين الناس لا يذكرهم ولا يذكرونه .

وكثيرا ما طاف شوارع باريس فى جنح الليل يبحث - شأن معظم
معاصريه من الكتاب - عن أحقر الامكنة التى يتجمع فيها الناس
ليتعرف على حقيقة المعيشة التى يحياها أهل المدينة وليفهم سبيل
الحياة فيها . يدخل المقاهى المتواضعة مقصد أفقر العمال يحتسون
فيها الخمر الرخيصة ويتجه ببصره الى ما خط على الجدران من
رسوم كاريكاتورية مقذعة فى حق الامير رئيس الجمهورية . إن
الطبقة الفقيرة تخشى عودة اليونا بارتين وتكرههم كرها شديدا ، ثم
يطل على الكهوف المخيفة مثنوى المجرمين وربما وجد نفسه فى
داخل واحد منها مع المتشردين حيث يتجرعون رخيص الخمسور
كأسا بفلس وأحيانا يدخل المشرحة وقد بلغ منه جمود العواطف
مداه فاذا وجد عددا من الجثث تجمع فيها فلا يتورع أن يقول « لا بد
أنهم فى سبيل اقامة جفلة لهم هذه الليلة فى العالم الآخر » . لقد
أصبح بارد العواطف يلعن الدنيا وما فيها فانه رأى من جشع البشر
وحقارتهم فى مونت كريستو ما تفوق بشاعته ما يشاهده الان من
مناظر البؤس والفاقة والجريمة والضياع ، كتب بعد ذلك عملاؤه

فى هذا الوقت قال : آه ما أفظع وما أحقر ما شاهدت ! ياله من عاز !
ياله من خداع ! مجرمون وعتاه من كل نوع . لا أدرى لماذا أجهش
دانتى مؤلف الكوميديا الالهية نفسه فهبط الى دركات الجحيم ، لو
نظر الى الارض لوجد أمامه كل مخيف وخبيث سافرا لمن كان له عين
تبصر . »

ووصل العام الى نهايته . وفى يوم رأس السنة الجديدة فى أول
يوم من أيامها وصل الغم والهم بدوماس الابن الى غايتهما . بيع قصر
مونت كريستو فى المزاد بثمن بخس لم يغن شيئا ولم يبلغ عشر
معشار ثمنه الاصلى واوصدت ابواب المسرح الايطالى فخيم عليه
صمت القبور . شرح فى احدى مقدمات مسرحية غادة الكاميليا
عند نشرها كيف طاف فى ذهنه فى ذلك اليوم ذكرى ماري دوبليسيس
وظلت تساوره طول الصباح واذا لم يغادره طيفها رمى بمعطفه
فوق كتفيه وخرج من منزله ليجد جوا كثيبا ممطرا . اتجه ناحية
الشمال لا يلوى على شيء حتى وصل الى مقبرة مونمارتر . خلا
المكان من الناس الا القليل . وصل الى قبر ماري فرأى فوقه شاهدا
من المرمر أقامه الفيكونت بيرجو وهو عبارة عن نصب مستطيل تغلب
عليه البساطة وتعلوه قارورة جنازية . فى ناحية من النصب
يتشابك الحرفان الاولان من اسمها ا . ب . بشكل رقيق ونقش على
طوله العبارة الآتية :

هنا ترقد الفونسين بليسيس

ولدت فى ١٥ يناير ١٨٢٤

وتوفيت فى ٣ فبراير ١٨٤٧

ترحموا عليها

خلا المكان تماما من المارة وبدا القبر حزينا للفساية مهملا . ذكر
الكسندر أن مجيئه هنا انما كان عذرا لينزف الدموع على مأساه ،
ينظر الى مستقبله فلا يجد ما يبشر بخير وشعر أنه قد كتب عليه
الا يكتب الا روايات تافهة لا تنفع فيها . ودخل فى ايمانه أن ماري
مستطبعة أن تراه الان من عالم الموتى وأنها ستقوده الى طريق
غير مجرى حياته ، ووصل به ايمانه الى أن اعتقد أنها تتكلم معه من
مكان قريب ولكنه بعيد المنال تعرب عن دهشتها وفرحها لمقاسم
أحد أحبائها لا يزال يذكرها

وعاد أخيرا الى منزله فى جو قاتم بارد واسدل الستائر وأشعل
الشموع ثم أخرج مسرحيته من الدرج - الذى ظلت مختبئة

فيه منذ تلك الليلة التي رجع فيها خائبا من زيارة راشيل . وقراها بتمامها مرة أخرى . ثم جاءه خاطر يكاد يكون غريزيا فأمسك القلم وجعل تاريخ وفاة مرجريت هو اليوم الاول من شهر يناير وقام بتغيير بقية النصوص التي تذكر وفاتها يصححها الى يوم رأس السنة .

ولو قرأنا ما وصّفه عن زيارته لقبر ماري لوافق ذلك تماما ما اشتهر عنه من حب جارف لا يزول ، ولكن لم يشاهد عيسى الذبول نتيجة لضنى حب ولى ، بالعكس ، ارتقى في أحضان حب جديد . وقع هذه المرة في غرام امرأة من الطبقات العليا في المجتمع ، هي مدام دي تسيلرود . لا نعرف كثيرا عن هذا الغرام ، ولكن مما جاء في مذكرات فيل كاستيل نرى أنه أثار فضيحة كبيرة تشابه فضائح عهد الوصاية ، قال « أغراها بأحد مؤلفات الماركيز دي ساد لتبذل له نفسها »

هكذا كان نوع الاشاعات التي التصقت بهذا الشاب ، والتي ترىنا كيف كان دوماس وابنه يبدوان في أعين الناس وقرر الكونت دي تسيلرود في آخر الامر أن يعود بزوجه الى روسيا في شهر مارس ، ولم يصبر الكسندر على فراقها هياما بها فاقتنى اثرهما عبر أوروبا حتى وصل الى حدود روسيا فوجد أبوابها مغلقة في وجهه لا يسمح له بعبورها ، فتلكأ بعض الوقت في بروسيا الشرقية ثم أدرك الا غنى ، في موقفه هذا فضلا عن أنه يثير عليه السخرية فعاد الى باريس . ولن نتعدى الحقيقة اذا قلنا أنه كانت تختمر في رأسه - وهو واقف على الحدود الروسية كعاشق ولهان - حوادث رواية « ديانا دي ليس » التي أخذ وقائعها من هذه المغامرة فسرعان ما نشرها اثر عودته ، وظهر الكتاب في الاسواق قبل أن ينصرم العام

وأتى الربيع . وفي إحدى أمسياته ودوماس الابن سائر على قدميه في شارع الايطاليين ، نادى عليه جمع من الممثلين من مقهى كاردينال حيث كانوا يجلسون في شرفته يتناقشون فيما بينهم حول مسرحيته التي استمع الى قراءتها واحد أو اثنان منهم ونالت منهما إعجابا . جلس الكسندر معهم وعلم منهم أن المدير الجديد لمسرح الفودفيل عاجز عن القيام بأعبائه وأنه في سبيل اختيار من يشاركه في عبئه ، وأن لاحدهم الامل في أن يكون هذا الشريك . ووعده هذا أن أول ما سيظهر على خشبة المسرح هي مسرحية « غادة الكاميليا » وعين هذا الممثل فعلا كما توقع بعد ثلاثة أشهر فأسرع اليه

الكسندر فرحا مسرورا وفى يده مخطوطة المسرحية ، فبر المدير الجديد بوعده وأمر بالتحضير للتجارب .

وأختير أفراد فرقة التمثيل . وأسند دور أرمان دوفال لفشتر وهو ممثل صغير نابغ من المسرح التاريخى أصلا ، وسرعان ما أظهر براعته فى أداء هذا الدور الرومانسى بعمق وإخلاص ، ثم بدت صعوبة تحديد ممثلة يسند اليها دور مرجريت . لم ترض الممثلة التى أختيرت لأول وهلة لهذا الغرض عن هذا الدور ولم تعبأ به ، ثم رفضته تماما بعد أسابيع قليلة . وتلفت المدير حواليه يبحث عن بديلة ولكن لم يجد من يحل محلها . ثم تقدم أحدهم واقترح أيوجينى دوش . هى امرأة بلغت من الجمال قدرا كبيرا ذات سبعة وعشرين ربيعا ومع ذلك لم يوفق حظها فى عالم التمثيل فهى تعطى دائما أدوار الفتاة البريئة الساذجة وأصبحت مرتبطة بها فلم يجرؤ أحد أن يسند اليها الأدوار الجادة مما جعلها تقرر أخيرا أن تهجر المسرح لهذا السبب . وسافرت الى لندن لتشهد المعرض العظيم وتتمتع بكل ما هو جليل وعظيم فى معروضاته .

وبالرغم من أن مقدرة مدام دوش على تمثيل الأدوار الجادة لم تثبت فى نظر الجماهير إلا أن السنين الطويلة التى قضتها فى التمثيل شفعت لها لدى المدير الجديد فلم يفكر فى ممثلة غيرها . وبعث اليها فشتر رسولا منه ومعه نسخة من المسرحية . واقنعها الرسول أن تستمع اليها ، فما كادت تسمعها حتى ثارت فى قلبها من جديد نيران الرغبة والطموح فى أداء التمثيليات الجادة . أن مثل هذا الدور هو ما كانت تصبو اليه وتطمع فيه . وسرعان ما وضعت حاجياتها فى حقائب السفر وهرعت الى رصيف الميناء لتستقل أول سفينة مبحرة الى فرنسا

ومع كل هذا لم تنته متاعب المؤلف ، فاذا بالرقيب يتدخل فى الأمر - كما خشى أبوه - ومنع عرض المسرحية . وكانت الرقابة ملقاة على عاتق وزير الداخلية ليون فوشسيه الذى رأى أن رواية « غادة الكاميليا » منافية للآداب . وصم أذنيه عن شفاعة الشافعين .

واكب الكسندر على الكتابة لا يفتر عنها . أتم ثلاثة كتب خلال السنة وهى رجال أقوياء وديان دى ليس والأشباح ، وظهرت غادة الكاميليا فى طبعة جديدة ومع ذلك فلم يتمكن من التخلص من ديونه إلا قليلا لا يعتد به وظل فى حيرة من أمره . وهنا تعود أمه فتظهر فى الصورة من جديد .

ألحت كاترين لوباي على ابنها أن يشاركها مسكنها في هذه الاوقات العصيبة من حياته فقبل وعاش معها في منزلها البسيط الهادئ بضعة أشهر فقلت مصاريقه وأصبح قادرا أن يوفر بعضا من المال وقاربت سنة ١٨٥١ على الانتهاء وحل الشتاء محصل الخريف وما زالت سماء السياسة معتمة . خيل للناس في باريس أن الحياة قد توقفت وان الارض قد تبدلت غير الارض وران عليهم ماجعلهم يرهصون بوقوع كارثة لا مفر منها ، تأتيهم لا يدرون عنها شيئا . احسوا ان الامير رئيس الدولة يميل الى الحكم الاستبدادي المطلق ، فتوجست الدوائر البرالية خيفة من هذا الامر لما رأت ان الامير الرئيس قد استولى على هذا الشيء الذي لا يدرك كنهه ولا تسبر أغواره الا وهو روح الجماهير . أصبحت الجماهير المتحمسة تقابله أينما توجه بالهتافات الحارة المعبرة عن الاعجاب ، وأعرضت عن شتى الشخصيات في دنيا المسارح امثال دوماس الاب والفريد دي موسيه وبونسار . لقد تغيرت أذواق الجماهير بين ليلة وأخرى وهي في الأحوال العادية لا تتحول الى قليلا سنة بعد أخرى .

ودأب اصحاب الكسندر طول الوقت من تخليص مسرحيته من كل عقبة تعوق طريقها . كان حماس مدام دوش واصرارها على تمثيل دور مرجريت جوثيه مهما كلفها الامر داعيا لها في أن تلجأ الى صديق ذي نفوذ كبير وتضمه في صفها : انه بيرسيثي كما تكلم بوفيه مدير مسرح الفودفيل الجديد مع مونجويون الذي قبل رجاءه وتكلم مع دي موري الذي مدح الرواية لدى الامير رئيس الدولة . ولكن لويس نابوليون يحكم فرنسا في هذا الوقت بسلطة الدستور وكان من حق وزرائه الا يستمعوا لأوامره فاستمر ليون فوشيه عند رايه الاول رافضا عرض المسرحية

ثم اقتنع دي مورني ليخضر تجربة من تجارب المسرحية ، فحضر واستمتع بها . . كان الكونت دي مورني ابنا غير شرعي للملكة هورتينس والدة لويس نابوليون وكان اثرا عند أخيه غير الشقيق . لقد نشأ نشأة طيبة وأصبح مثقفا زقيفاً واسع الافق مقداما يراعى الناس ويمد لمن يوده ويعطف عليه يد المساعدة . فلما شاهد تجربة المسرحية اهتم بها واظهر عطفاً على الكسندر . وأشار اليه أن يطلب من اثنين أو ثلاثة من كبار المؤلفين المعروفين أن يعلقوا على المسرحية ويبدوا آراءهم ، فاذا استطاع أن يقنعهم بأن يزكوا مسرحيته ويعتبرونها خالية مما ينافي الاداب العامة فربما كان من غير العسير اقناع ليون فوشيه ليتنازل عن عناده .

كتب الكسندر الى جول جانان الناقد المعروف والى ليون جوزلان وأميل أوجير وكلاهما كاتب مسرحى شهير له مكانته واحترامه بين الناس ، فاستجابوا له وقراوا المسرحية واجمعوا على أنها قطعة أدبية بعيدة عما يخذش الحياء . وعرض هذا الأجماع فى رأى على الأمير رئيس الدولة الذى لفت نظر ليون فوشيه اليه وأصر ليون فوشيه على وجهة نظره . أنه يرى قراءة الرواية شيئا وتمثيلها شيئا آخر . . ربما يجد من يتعمق فى قراءة المسرحية أنها خالية من الفجور ولكنه يجد فيها عندما يشاهد حوادثها تمر سريعا أمامه على خشبة المسرح ما يخذش الحياء ، والمسرحيات لا تقرأ عادة بل تشاهد فتثير التقزز بما تعرضه من العواطف المثيرة عيانا ، ان أهم ما تظهره الرواية هو امرأة بغي ، امرأة تعودت على الكذب وبيع جسدها لمن يطلب فى حين رسمت فى الرواية كشخص ملائكى محبوب فاذا أعجب الجمهور وصفق لما هو دنىء وحقير فى حقيقة أمره على أنه خير فقد وقع تحت تأثير غير فاضل . هذا ولا ريب هو وجهة نظر ليون فوشيه ، فلم يستمع للأمير رئيس الدولة ، وظل تمثيل الرواية ممنوعا

وأصبح أكبر أمل لالكسندر معلقا على تشجيع صديقه دى مورنى وعطفه الذى قال له : « لا تيأس فلا تدري ما يأتى به الغد » كان مورنى على علم فى ذلك الوقت بما سيأتى به الغد لانه كان أحد المتآمرين على قلب النظام الدستورى لحكم الدولة ليأتى نظام جديد يمنح أخاه غير الشقيق كل السلطات الديكتاتورية وتم الانقلاب فى اليوم الثانى من شهر ديسمبر . استيقظت فرنسا فى ذلك الصباح وقد فقدت حرياتها الدستورية . حل المجلس الوطنى عنوة واعلنت الاحكام العسكرية تمهيدا لأجراء انتخابات رئيس للدولة تستمر عشر سنوات وقبض اثناء الليل على زعماء المعارضة وخصوم الأمير رئيس الدولة ووضعوا وراء القضبان حتى لا يجد الديمقراطيون قاة يوجهونهم اثناء الانتخابات . لقد دبر الانقلاب باحكام ، فقد أعداء اليونابارتيين كل سند لهم . وظهر قتال فى بعض الشوارع اثناء الايام القليلة التى عقت الانقلاب ولكن سرعان ما أخمدتها طوابير الجيش ارتفع علم عائلة يونابارت عاليا واحتفل لويس نابوليون الأمير رئيس الدولة - الذى سيضع التاج الامبراطورى على رأسه باسم نابوليون الثالث فى وقت قريب - احتفل بهذا الظفر بكل مظاهر الجلال والخشوع فى كنيسة نوتردام فى اليوم الاول من شهر يناير سنة

١٨٥٢ . وفي نفس الوقت أخذ الجمهوريون والأحرار والاشتراكيون يغادرون فرنسا زرافات هربا من القبض عليهم حتى أن فيكتور هوجو تزيى بزي العمال ليتمكن من الهرب

وكان دوماس الكبير من ضمن من أبعدتهم السياسة عن الوطن مع أنه في الحقيقة لم يقيم بأي دور طول شهر ديسمبر ، منعه من ذلك أولا ما أصابه من خيبة أمل في تجربته السابقة الفاشلة عندما أقحم نفسه في الشؤون السياسية سنة ١٨٤٨ ، ثم ما هو فيه من مشاغل خاصة به قيده عندما قام الانقلاب الأخير فلم يستطع حراكا لا الى اليمين ولا الى اليسار . ولكنه اتخذ من الموقف السياسي ذريعة ليهرب من قبضة دائنيه ، فرحل الى بروكسل لينضم الى زمرة الجمهوريين الذين ضموه الى صفوفهم لما سبق أن عرف عنه من ميوله الجمهورية وهناك أقام مرتاح البال في المنزل رقم ٧٤ بطريق ووترلو وحمد الله أن ابتعد عن باريس التي أصبحت بالنسبة له كعش الدبابير . وحفزه وجوده في مكان جديد أن يمسك بالقلم يخطبه على صحائف الورق محاولا أن يلم شعث أمواله الضائعة .

أما ابنه فقد وجد في النظام الجديد مابدا عنه كل شواغله . احتل الكونت دي مورني منصب وزير الداخلية وكانت « غادة الكاميليا » من أول ما اهتم به من شئون . أجازها لتمثيل فورا فنشطت التجارب من جديد بعد ما سقط كل عائق وجاء العرض الأول في الليلة الثانية من شهر فبراير سنة ١٨٥٢ ثم استمر بعدها مدة طويلة . وكان هذا أول حدث مسرحي لامع قام في ظل النظام الجديد الذي أريد له أن يظهر في بهاء وأبهة ونجاح لم تر فرنسا مثله من قبل ولن تراه من بعد .

وبالرغم من وثوق الكسندر من نجاح مسرحيته إلا أنه لم يتمالك أعصابه تلك الليلة قبيل فتح الستارة . امتلأ المسرح عن آخره . وكما اتخذ أبوه من أفراد البيت المسالك سندا وظهيرا من الدوق دورليانز ثم الدوق دي موبنسيه ، فكذلك ، اتخذ الكسندر له سندا كريما في شخص الكونت دي مورني الذي جلس في إحدى المقصورات اللاصقة للمسرح وقد تجسدت فيه أمارات الرفعة . كان المؤلف الشاب غير مجهول لدى المشاهدين وكانوا جميعا يتذكرون ماري دوبليسييس أما عيانا أو بالاسم ويعلمون أنها هي التي أوحى الى المؤلف بقصة « غادة الكاميليا » فجلسوا متلهفين على مشاهدتها . فلما بدأ التمثيل أثارت المشاهد الأولى دهشتهم بما حوته من مواقف واقعية في مخدع

محظية ظهرت مهنيتها الخسيسة على حقيقتها بدون موارد وظهرت
ميوعة وفسق رفقاءها . ولكن المسرحية سارت سهلة وكان الممثلون
في أوج حالاتهم الفنية بالرغم مما لاقى منهم مدير الفرقة من
مشاحنات ومشاغبات وتدمير أفقده أعصابه . وقامت أيوجيني دوش
بدورها بكل كياسة وظرف فأبعدت سريعا كل خطر من سخط قد
يظهر بين الجماهير . وفشتر - ماذا تقول عنه ؟ - أدى دوره على
المسرح فكان نعم انعاشق المقيم . شاهد الكسندر كل هذا فخيل
اليه - وهو جالس في مقصورته - أن ما يراه ويسمعه هو شيء جديد
لا يدري عنه شيئا . كانت أيوجيني دوش وحيدة على المسرح تلتقط
أنفاسها بعد نوبة من السعال مستندة الى حافة المدفأة في أعياء
أنيق وتحديق في صورتها في المرآة ، ويدخل عليها فشتر من باب في
المنظر ويقول :

فشتر - هل أنت الآن أحسن حالا ؟
دوش - أوه انه أنت يا مسيو أرمان . أجل اني أشعر
بتحسن فشكرا لك على سؤائك . وعلى كل حال فهذه النوبات تتوالى
علي وقد اعتدت عليها

فشتر - أنك تقودين نفسك الى الهلاك . أود أن تتخذي مني
صديقا بل أخا أمنعك من الحاق الضرر بنفسك
دوش - لن تقدر على ذلك . ماذا ! ما أصابك ؟
فشتر - انه فقط - عندما أراك -

دوش - شفقتك على بادية عليك . انظر الى الآخرين تعرف
مقدار ما يكونونه لي من عطف

- فشتر - انهم لا يحبونك كما أحبك أنا
دوش - هذا صحيح ، لقد نسيت كل ما يتعلق بحبك الكبير
فشتر - اتسخرين من هذا الحب ؟

دوش - حاشا لله . اني المسه يوما بعد يوم فلم يعد هزلا
بالنسبة لي

لقد كتب هذه الكلمات من وحي حديث جرى بينه وبين ماري
دوبليسييس من وقت مضى عليه زمان طويل ، ولكنها اليوم تطرق أذنيه
كأنها غريبة عليه . وكما استغربت أذناه سماع هذا الكلام فكذلك
المشاهد شدت اهتمامه وهي تتحرك أمامه في الجو الخيالي الساحر
للمسرح كما لم تشده واقعة حقيقية من صميم الحياة . أما انظارة
فقد كان اعجابهم يزداد كلما تقدمت الرواية ، فلما انتهى الفصل

الاول ونزل الستار صدرت منهم اصوات كالزئير اعجابا وتقديرا .
وجاء الفصلان الثانى والثالث فأحرز فيهما كل من فستر وأبوجينى
دوش نصرا عظيما ، قاما بأداء دوريهما كأنهما ملهمن . قدما عرضا
جميلا لقيام حب قل أن يوجد له مثيل يستحق أن يتفنى به الشعراء
والمنشدون ، حازا اعجاب الجمهور فأطرهما استحسانا وتصفيقا .
أما نجاح الفصل الرابع فحدث عنه ولا حرج ، طفى على كل نجاح
سبق فى الفصول الثلاثة الاولى . هنا ملك فستر ناصية الاداء
المسرحى عندما قام بدور أرمان بعدما تغيرت مشاعره وامتلات روحه
مرارة وتملكه الحزن من كل جانب مما ظنه خيانة من مرجريت .
استولى عليه الدور الى حد أن مدام دوش حسبته شخصا آخر غير
ذلك الممثل الذى شاركته فى التجارب . رمى بالاوراق النقدية فى
وجهها فى هياج شديد وأمسك بها ورماها على الارض بعنف جعلها
تجاهره بالقضب عليه بعد انتهاء التمثيل ، أما الجمهور فقد بهره
هذا الموقف وقام كرجل واحد يحيى ويرحب ، فلم يكن باستطاعة
هذا الممثل أن يغادر خشبة المسرح الا بعد وقت طويل
واعتلى الفصل الاخير على قصره قمة النجاح ، وفازت فيه دوش
بالشهرة التى طالما داعبت خيالها : انها ممثلة تراجيدية من الدرجة
الاولى . كان مشهد موتها فى غاية من الروعة والرقّة ، يأخذ بمجامع
القلوب . لقد حطم فستر قلوب الجميع مع قلبه فبكى كل من فى
المسرح ثم هبوا مصفيقن مهللين . وبعد ذلك جاء دور المؤلف ليأخذ
قسطه من الاعجاب والتصفيق وذهب الكسندر الى خشبة المسرح
يحنى قامته تحية للجمهور ككاتب مسرحى ناجح لا ينكر نجاحه أحد
حوصر الكسندر من كل جانب عندما خلا المسرح من جمهوره .
أحاط به مديرو المسارح يتأذونه كل يريد أن يستخلصه لنفسه ،
وصافحه النقاد يهزون يده بحرارة . ثم وجد نفسه مدعوا الى مأدبة
قد جهزت تكريما له تكريم الفاتحين . ولكن المؤلف خيبر جاء أصدقائه
ومريديه المحتفلين به ، انه وعد أمه أن يتناول العشاء معها فى منزلها
بعد انتهاء التمثيل وأنه عازم أن يفى بوعده ، أراد أن يعرض لها ملاقة
من هجرة أبيه لها بعد بلوغه قمم النجاح . وهكذا تناول الكسندر
دوماس الابن عشاءه تلك الليلة السعيدة مع كاترين لوباي منفردين .
كاترين المسكينة التى أنزوت بسعادتها بعيدة عن الاضواء تراقب ابنها
الكسندر وهو يتمتع بنجاحه وينضم الى زمرة الناجحين ذوى الشهرة
على هذه الارض . كتب بعد ذلك يقول : « احتفلنا سويا من كل قلوبنا .

ما كان اطيبيها من أكلة . . فخذ خنزير أعقبه جبن جروبير ثم البرقوق المحفوظ . لم أتناول فى حياتى أشهى من هذا العشاء « ولابد أن كاترين لوباي تذكرته وهو صبي يعدها بكل ما فى قلبه الصغير من حماس وجد أنه سيعمل من أجلها يوما ما ، وتذكرت ذلك اليوم الذي انتزع بعيدا من أحضانها ليقضى حياته مع أناس أغراب ، وتذكرت مخاوفها عليه إذا عاش مع أبيه أن يقتبس من أخلاقه وينحرف مثله . هاهوذا الطفل الطيب القلب عاد مرة أخرى الى أحضانها لم تر فيه تبديلا ولا تحويلا

وأرسل الكسندر تليفرافا الى أبيه فى صباح اليوم التالى « نجاح عظيم عظيم ، عظيم للدرجة أنه خيل الى أنى أشاهد حفلة أولى لاحدى روائعك » فجاء الرد يقول « يابنى العزيز انما انت أعظم أعمالى » تغير مجرى الحياة تماما عند دوماس الابن ، وفى الجزء الأكبر من ديونه ولم يعد يحمل هم المستقبل . يلح عليه مديرو المسارح فى طلب تمثيلياته ونظر اليه سريعا الناشر ون أصحاب الصحف نظرة جديدة وأدركوا ، ما لأعماله من قيمة الآن تعود عليهم بالمكاسب

ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن ينتفع الكسندر النفع الكامل من نجاحه فقد أصبح لبيرو حصة فى الأرباح بموجب اتفاق سابق وكان على وشك أن يبيع حقوقه فعلا فى أرباح التمثيلية لما وجد نفسه خالى الوفاض ليلة تقديم الحفلة الاولى ، ولحسن حظه أعمل فكره وعدل عن الأمر ولكنه اضطر لبيع حقوق نشر الرواية بمبلغ خمسمائة فرنك فقط لتكون فى متناول يده يصرف منها على دعوة من له اعتبارهم فى عالم المسرح وليتمكن من أن يخالط من اذا فقد ولاءهم وسندهم ، فقد معهم عوامل النجاح . ولكنه تمكن فى قابل من الايام ان يعود فيشتري حقوق النشر من الناشرين وإن يشتري حصة بيرو فى أرباح التمثيل من ورثته .

وجاء ربيع سنة ١٨٥٢ متألثا بحفلات الرقص واحتفالات آل بونابارت وأشياءهم . اقيم مهرجان كبير يوم ١٠ مايو فى شاندى مارس احتفالا باعادة وضع شعار النسر فوق العلم ليكون رمزا لفرنسا . أعقبته حفلة للرقص تكريما من رئيس الدولة الى الجيش . وأقيمت فى اليوم التالى مأدبة فى قصر التويلرى حضرها ثمانمائة من ضباط الجيش العظام ، وفى اليوم الذى يليه استضاف رئيس الدولة أكثر من ألفين من الضباط من الرتب الصغرى فى المدرسة الحربية . وكان استعراض الجنود يلاحق بعضه البعض . وكثيرا ما كان يشاهد

الرئيس نفسه ممتطيا صهوة الجياد المظهمة لابسا بزته العسكرية الزاهية يتجول في أنحاء باريس . اتخذت المدينة الطابع العسكري بأجلى مظاهره بعد أن كانت مدينة مزوقة لا هدف لها تحت حكم لويس فيليب لاهم لاهلها الا قراءة رواية «الفرسان الثلاثة» وما شابهها من القصص الاخرى . انهم الآن يشاهدون المظاهر العسكرية في عنفوانها ولا يجدون معنى في حكايات الفروسية الاولى فأضربت الصحف عن نشر قصص دوماس الاب . وبدلا من ذلك أصبحت مسرحية « غادة الكاميليا » محط الانظار في مسرح الفودفيل تعج بالمشاهدين ليلة بعد أخرى . استولت المسرحية على اذهان مجتمع المدينة وازدحم ميدان البورصة حيث يقع المسرح بعربات الطبقات العالية بأزيائهم الفريدة . هناك في المسرح يتجمع كثرة أعضاء نادي السباق وكانوا يعرفون الاشخاص الحقيقيين الذين اقتبست منهم شخصيات الرواية ، وجاء آخرون يتساءلون عن يكونون . عرفوا الكونت دي جيرفيه في شخصية سان جودان أحد أصدقاء مرجريت جوتيه الفاسدين . كان الكونت دي جيرفيه رجلا في متوسط العمر ظريفا مغرما بالنساء ولا يملك نفسه أمامهن . ملأه السرور تماما عندما وجد أن اسمه سيبقى ما بقيت المسرحية . واصل حضور التمثيل ليلة بعد ليلة شاغلا نفس المقعد في الصفوف الامامية يرقب مدام دوش من مكانه هذا حتى وقع في غرامها فقادته - كما قال فيل كاستل - الى الهلاك اسوة بما فعلته ماري دوبليسييس مع عشاقها

وحضر مرة الموسيقار الايطالي فيردى وشاهد المسرحية مع الجمهور المتحمس المبهور فكانت النتيجة ان بلغت الفونسين بليسييس مستوى جديدا من الشهرة . لقد أوحى حماس الجمهور لفيردى في ليلته تلك أن يؤلف أوبرا « لاترافياتا »

أجريت الانتخابات العامة في شهر نوفمبر وكان من نتيجتها ان أعيد النظام الامبراطوري وفي أول ديسمبر سنة ١٨٥٢ نودي بالامير رئيس الدولة امبراطورا باسم نابوليون الثالث ودخل باريس مهيبا مخترقا قوس النصر وبذلك ابتدأت الامبراطورية الثانية أيامها البراقة وأخذ الامبراطور يتأهب للزواج من الحسناء أوجيني دي مونتبخو التي وقع في غرامها وبعد عدته ليعيد لفرنسا أمجادها السابقة ..

العصر الجديد

نحن الآن فى صيف سنة ١٨٥٥ . وفى احدى امسياته غادر دوماس الاب مكاتب صحيفته الخاصة المسماة «الفارس» سار هابطا فى شارع الايطاليين . أصبح هذا الشارع غريباً عليه بعد أن كان يتعرف على كل شخص فيه . لقد تغيرت باريس وامتلات أرصفتها بالغريبين عنها وازدحمت الشوارع بالعربات الجديدة الانيقة وبالجياد يمتطيها فرسان الجيش الامبراطورى . أما دوماس فلم يلتفت اليه أحد ، لم يعد يملك فرسا ولا عربة . استمر فى طريقه يتمتع بجو المساء لا يشغله شاغل . قد يقابل جمعا من أصدقائه جالسين خارج مقهى فينادون عليه فينضم اليهم ليقضى معهم ساعة أو ساعتين فى تراخ يتكلمون عن المعرض الدولى العظيم الذى سيقام فى الشانزليزيه ، أو عن التغيرات التى طرات على باريس ، أو عن نجاح دوماس الابن الفذ ، أو حتى عن حرب القرم التى تدور رحاها فى ذلك الوقت وان كان أهل باريس يتحاشون الحديث عنها فهى تبعث فى قلوبهم الحزن والأسى

عاد دوماس من بروكسل منذ ثمانية عشر شهرا وقد ترك فيها انتاجا من أضخم ما صدر عنه . قام هناك بعمل الجبابة واستطاع لأول مرة فى حياته أن يضع جانبا بعضا من المال لاهتمامه الشديد بالعودة الى باريس ، تمكن أخيرا من سداد تلال الديون التى عليه الى الحد الذى جعله آمنا من دائنيه اذا عاد الى وطنه ، هو الآن يؤلف كتباً لاتلاقى اقبالا كالتى سبقتها فقل المشترون . وأخذ يحرر فى الصحف ثم انه امتلك صحيفة خاصة به لا يشتريها الناس الا حبا منهم فى معرفة ما وصلت اليه حاله . كانت هذه الصحيفة جديدة بأن تدر عليه بعض المال لو استطاع أن يديرها بحزم . كانت فريدة فى نوعها بين الصحف ، كادت أعمدها تخصص فى نشر أخباره فيكتب معظم أبوابها ويوجه كلامه عادة «لقارئاته العزيزات» «كان يحلو له أن يتخيل أن السيدات الحسان يقبلن على قراءة مقالاته اهتماما به واستمتاعا بها » يتسامر اليهن عن تجاربه ومنجزاته وما يفضله ويحوز رضاه ويذكر أنه من وقت الى آخر . وما أن استقر فى باريس حتى عاد الى فوضى طبيعته الاولى فاختل النظام فى ادارته وعادت

جيوبه كعادتها خالية من النقود
افتقدته باريس فقد ترك فيها فراغا كبيرا اثناء غيابه . ولما عاد
رحب به أصدقاؤه ترحيبا حارا من أجل شخصيته المرحية ومن أجل
ضحكته العالية التي تطرب قلب كل من يسمعها . حتى ويلاكروا
المتعجرف ، ويلاكروا العابس الذي لا يتبس بكلام - الذي وصف بأنه
يحمل على الدوام سحنة من يشم رائحة فاسدة تبعث فيه القرف -
ينقلب مرحا نشطا اذا احس بدوماس يقترب منه

ومع كل هذا فقد شاخ دوماس وفقد أبته . امتلا شحما وثقل
جسمه ، شاب شعر رأسه المجعد وبدا أصله الزنجي واضحا لامرية
فيه . تمر عليه أوقات يشعر فيها بالتعب والهموم . وفي مرة منها
توجه الى ويلاكروا في مرسمه وقد اختفت من وجهه ضحكته المعتادة ،
وبث له همومه . اعترف أنه سئم الكتابة نهارا وليلا وأنه خالي الوفاض
دائما ، وشكا اليه ولديه الكسندر وماري ، كل منهما تشغله شؤونه
الخاصة عن ذكر الاب العجوز المسكين . بث شكواه بلسان أب يعتقد
في قرارة نفسه أنه نعم الاب الذي كرس أحسن أيام حياته في تنشئة
ولديه ولم يأل جهدا في العناية بهما خلقيا وماديا وضرب لهما مثلا
جميلا من نفسه في الحذب عليهما ، وهاهو الآن ينتظر منهما المساعدة
ورد الجميل والسلوان في أخريات أيامه ، واتهم الكسندر بأنه رده
ورفض أن يعمل تحت يده في صحيفة «الفارس» لما طلب منه
ذلك مما سلاه حزنا

والحقيقة ان الكسندر كان مثال الابن البار الذي قاسى كثيرا بسبب
أبيه فلم تفقده هذه القسوة ما يكنه له من عطف واحترام ، الا أنه
أصبح مؤلف ثلاث مسرحيات فائقة النجاح وتخلص من الديون ومن
الحياة البوهيمية التي أضلته بعيدا عن الطريق السوي ، أصبح موفقا
للخيرات واستقر في حياة منظمة فكان من المستحيل عليه أن يشارك
في أعمال أبيه أو يقحم نفسه في مشاغله فهناك الخراب وسوء
السمعة

ولم يفهم دوماس الاب منطق ابنه في انعزاله عن مشاركته احتراماً
له في أنه سر كثيرا لنجاحه . وفتح مرة أحد دواليب الشاب ورأى
أنواعا من الاحذية صفت بنظام وهي جميعا جيدة الصنع فقال وهو
يفكر : « مع كل هذا فلن يصبح الكسندر كاتباً عبقرياً » لقد رأى في
صاحب الدولاب ادبياً ناجحاً فحسب يتبع المدرسة الاكاديمية ولكنه
لم يجد فيه صاحب الموهبة العبقرية

ومن مآثر الكسندر الابن البار أن وفق بين أبويه وأصلح ما بينهما من جفوة واستراح دوماس الاب لهذه الصداقة الجديدة وأخذ يتردد كثيرا على كاترين لوباي في منزلها الجميل الذي أعده لها ابنها ولكن السنين التي فرقت بينهما غيرت من طبيعتهما فهوت بعباداته وأخلاقه ولم يستجب لرغبات كاترين أو ابنها في الهدوء والاستقرار وظل بوهيميا قلقا لا يستقر على نظام أو هدوء . وكان يأتي بأعمال مخزية في بعض الأحيان جذبا للانتظار والانتباه اليه ، وتجاوزت سقطاته في تحرير صحيفة «الفارس» كل حد معقول . أما في غرامياته فقد أصبح يتصرف تصرف شاب مراهق في أول شبابه . فبدأ كأنه ممثل عجوز يقوم بأدوار الشبان الذين يسلبون عقول النساء ، في حين أن عجزه جاوز سنه ، ولذلك فقد صار ذا حساسية فائقة أمام عشيقته الجديدة الممثلة الصغيرة ايزابيل كونستان وأخذ يهتم بها كما تهتم سيدة عجوز بقطتها الصغيرة

وفي وسط هذا الاهتمام الذي يمجّه الذوق بإيزابيل كونستان كان يزداد مقتا وغضبا على راشيل التي لم ينفك عن النفور منها . لاحت له أخيرا فقط فرصة ليصب عليها نيران غضبه . وفدت الى باريس الممثلة الايطالية أديليد ريستورى لتحيي موسما تمثيليا وقدمت في أواخر شهر مايو عرضا جميلا وهي تمثل رواية «ميرا» . تحمس دوماس الاب لها وكان حاضرا ، وفي نشوة هذا الحماس توجه اليها في إحدى فترات الاستراحة بين الفصول وتناول طرف ثوبها وقبله . منذ هذه اللحظة كرسّت صحيفة «الفارس» أعمدتها لتشيد بفن ريستورى وترفعها الى مستوى لا يدانيه مستوى راشيل . لقد صمم دوماس أن يضع من قدر راشيل المتشامخة وهو الذي عرض عليها حبه يوما ما فرفضت هذا الحب وردته ردا غير كريم . اقنع زملاءه المحررين أن يقللوا من شأنها في مقالاتهم الصحفية ويشيدوا بذكرى ريستورى على انها الممثلة التي بذت كل ممثلة أخرى ، ولم يكن من العسير عليه اقناعهم بذلك فقد اكتسبت راشيل عداء كثير من الناس فمثلا تعاقدت مع ليجوفيه على تمثيل إحدى رواياته وعندما حانت التجارب أهملته وسافرت الى روسيا بدون أي اهتمام به ، ورفع عليها قضية وكسبها . كما بدأ الجمهور يملها ويريد أن يولى وجهه شطر نجمة جديدة تعلو على الافق . فلذلك كله انضم النقاد الى حملة دوماس على راشيل وأخذوا يرددون أن الزمان قد مضى عليها وأن ريستورى هي ممثلة عصرها الوحيدة . وظهرت هذه المواضع

يومية في الصحف فتأثر بها الجمهور - وما أسهل ما يتأثر الجمهور
بما يقرأ في الصحف - فأعرض عن حفلات راشيل واستبدل بها
منافستها الإيطالية

ورأت راشيل أن المد لم يعد في صالحها في باريس . وبالرغم من
أن الموسم المسرحي الجديد مقدر له نجاح عظيم بمناسبة زيارة ملكة
انجلترا للمدينة فازدحمت لذلك بالوافدين اليها ازدحاما لم تشهده من
قبل ، فان راشيل رفضت ان تمكث فيها خوفاً من أن ينالها اهانة أو
اذلال فسافرت الى أمريكا وكلها أمل في جمع ثروة هناك . ولكن
قابلها فشل ذريع في الولايات المتحدة لان الجمهور لم يستسغ أسلوب
الكوميدي فرانسيز الكلاسيكي في التمثيل ، فعادت الى فرنسا مهيضة
الجناح منهارة الصحة ولم تلبث ان توفيت بعد عودتها بقليل . كانت
حملة دوماس عليها هي الضربة القاضية التي أطاحت بها .

وكانت سارا برنار - وهي الممثلة الاخرى التي بذت زميلاتها -
في هذا الوقت في سن الصبا لم تتجاوز الحادية عشرة أو الثانية
عشرة من عمرها ، تجذب اليها الانظار من فرط حساسيتها . وفي
يوم ليس بعيد توجهت الى حديقة التويلري مع أهلها للنزهة فلمحت
امراة عجوزا استأجرت كرسيين متجاورين لتجلس عليهما معامستريجة
لفرط سمنتها ، فلما همت سارا باظهار ما شعرت به من استهزاء
وسخرية فاذا بمن يرافقها يسكتها بحدة قائلا : « لا تنبسي ببنت شفة،
أنها المدموازيل جورج الممثلة العظيمة »

وكانت المدموازيل جورج قد استثمرت الاموال التي نالتها من
الحفلة التي اقيمت لصالحها في فتح مدرسة للدراما ، ولكنها
فشلت . ثم لجأت حديثا الى نابوليون الثالث مستجدية معونته ،
لم تجد منه عونا كبيرا ، رتب لها معاشا سنويا الف فرنك . اثقلته
معاشات ورتبها لعديد من النساء خصوصا عشيقاته السابقات فما كان
ليضيف عليهن عشيقات عمه الشهر المسنات . لم تجد أمامها الا
السؤال وطلب المنه من هنا وهناك لتحصل على بعض المال . انتهزت
فرصة افتتاح قصر الصناعة في الشانزليزيه وازدحام باريس
بالزائرين يترددون عليه وطلبت أن يسند اليها وظيفة الفتاة التي
تحفظ للزوار مظلاتهم ولكن الوظيفة شغلت فرضيت بوظيفة الفتاة التي
تلاحظ استراحات السيدات . وهكذا رأينا كيف ان من توجهت اليها
الامبراطورية الاولى ملكة للجمال هان امرها في زمان الامبراطورية
الثانية ..

أما الممثلة أديلايد ريستورى فقد كان الحظ في ركبها . ارتفعت الى قمة لا تستحقها ، أنما وصلت اليها بحكم الظروف . استمع الى ما قاله الدكتور فيرون « فلنعترف اننا اجلسنا ريستورى على ظهر عربة النصر ودفعنا بالعربة لاشيء الا لنقص الجنحة راسيل المسكينة » امتازت ريستورى بالجمال وجعل دوماس يتبعها يعرض عليها فروض الطاعة . كانت تقيم مع زوجها في فندق كبير في شارع الايطاليين وسعى دوماس ان يقبلا عليه ولا يضيقا بوجوده حتى انه في يوم من ايام ذلك الموسم قام بوظيفة طباطخ يحضر لهما صنفا خاصا من عمل يده يرى انه سيستحوذ على اعجابهما . انتشر الخبر سريعا في الشوارع المحيطة فآزدهم الناس واطلوا عليه في المطبخ من خلال النوافذ والابواب ليروا بأنفسهم مؤلف « الفرسان الثلاثة » في سترة بيضاء يلبس مريلة على صدره وقبعة الطباخين العالية فوق رأسه وهو يباشر عمله بين الاواني والحلل في اتم هدوء

واخذت ايام فصل الصيف تمضي وهي تزداد تألقا . اخذنا بوليون الثالث يستعد لاستقبال الملكة فيكتوريا . زين قصر سان كلود من جديد وهو القصر الذي ستنزل فيه الملكة ، كما تجدد قصر فرساي . وتزينت باريس بأقواس النصر وتعليقات من المخمل القرمزي وامتلات بالزهور والاعلام والنسور البرونزية وبما لا يحصى من صنوف الزينة الاخرى . ترد اليها قطارات السكة الحديدية غاصة بالوافدين فانتعشت التجارة ودخل السرور في قلب الجميع اللهم الا هؤلاء النفر الذين زحفتهم هذه الجماهير وضيقته عليهم ارصافة الشوارع التي ألفوها هادئة وحسبوها ملكا خاصا لهم لا ينازعهم فيها منازع

وتقود دوماس الاب قدماه في بعض الاحيان ليمشي في منتزه الملكة فيجد امامه مبنى جديدا ملحقا بقصر الصناعة والعمل فيسه قائم على قدم وساق لا تفتر ضوضاء الآلات القائمة بالعمل لحظية واحدة . انه عجيبة من عجائب التقدم العلمي وضمان للسلام والرخاء ونموذج للانجازات البشرية ، ولكنه لا يجد رغبة في الدخول فهو يخشى الآلات بل يزدريها ويحمد الله على أن شيئا لا يرغمه ان يشاهد ما يبذله من مهارة لا معنى لها . ولكنه لم يكن ليستطيع ان يغفل عن التغييرات الكبيرة التي طرات على وجه باريس فتردحزينا شوارع واسعة تشق من اطراف المدينة الى اطرافها الاخرى فتقضي على شوارع اخرى قديمة امتازت بجمالها الرفيع وتزيل بقسوة امكنة تردد عليها بين حين وآخر ليتزود منها بالهامات الادب والقصص

وأصبحت المنازل الجديدة تعلو أمام ناظريه . أنها أشبه بالقلاع والمتاحف منها الى المنازل المعدة للسكنى . أبنية ضخمة يشبه بعضها بعضا لاتجد فيها ما يسترعى الانظار تتكون من ستة طوابق أعدت لسكنى الطبقة الغنية الجديدة التى ظهرت فى أعقاب هذا العصر التجارى الذى اشرق على البلاد . تغيرت الدنيا تماما كأنما ولد عالم جديد مع ابتداء النصف الاخير من القرن . كان النصف الاول من القرن التاسع عشر هادئا محافظا وثيدا ريفيا وكانت البساطة والاعتقادات التى لا أساس لها من شيم الناس ، يعتقدون أن عمر الخليقة هو ستة آلاف سنة فقط فلا عجب ان كان دوماس الاب فى هذه الحقبة من الزمان مثلهم الاعلى فى تأليف القصص . أما النصف الثانى من القرن فقد امتاز بتقدم العلوم التطبيقية والصناعية والمادية فلا محصل للرومانسية بينها . وبازدياد المعرفة وانتشار التعليم الجماعى أخذ الناس ينظرون نظرة جديدة على واقع الحياة تبعه تذوق جديد فى عالم الادب ينحو ناحية دوماس الابن . من هنا جاء نجاح الكسندر . لم ير الاب أن الدنيا تغيرت بل رآها ثابتة لا يعثرها تبديل مهما حاول الناس فى حين اعتاد الابن على تضمين مسرحياته المواعظ الاجتماعية والدخول مع المشاهدين فى نقاش حولها ، وهو بذلك ارضى نزعاتهم الجديدة فأعطوه آذانهم الصاغية وأقبلوا على قصصه

لما عاد دوماس الاب من بروكسيل دهش اول الامر مما وصل اليه ابنه من نجاح عظيم يفوق ما قدره له . عاد فى وقت تمكن فيه من مشاهدة مسرحية الكسندر الثانية «ديان دى ليس» - المأخوذة من القصة التى تحمل نفس العنوان - وهى التى أكدت ما للمؤلف من كفاية مسرحية وما هى روايته الثالثة «انصاف الحرائر» تعرض بنجاح ليلة تلو أخرى . ابتدع الكسندر هذا النوع الجديد اسما على مسرحيته ليكون دالا على طبقة فاسدة من المجتمع وهى الطبقة التى بدأ منذ اليوم يعلن عنها حربا مقدسة شعواء فى جميع كتاباته . أنها قصة ممتازة ووضعه نجاحها على قمة عالم الادب الذى اتخذه مهنة له . كانت روايته الاولى «غادة الكاميليا» نهاية عهد الرومانسية وبشيرا لعهد الواقعية وأخذ يتبلور على يديه أسلوب المسرحيات الهادفة الاخلاقية فأصبح قائدا للمدرسة الحديثة يعطى افكارا جديدة لمجتمع جديد .

سبق أن دهش دوماس الاب من نجاح «غادة الكاميليا» لبعدها عن مفهومه الادبى ، وزادت دهشته كذلك عندما رأى كيف شد ابنه

لب الجيل الجديد فى سهولة ويسر . لقد لاحظ فى ابنه الذكاء منذ أن كان طفلا صغيرا يشاغله ويلهيه عن متابعة سيل أفكاره فى ميدان الإيطاليين، وتوقع له حينذاك مستقبلا زاهيا فأعطاه اسما صالحا يتجهز به لبلوغ النجاح ، وكان يقدر أن موهبة الابن ستتحو على غرار موهبة الاب فسعى أن تكون شهرة ابنه امتدادا لشهرته هو فجاء الامر كما لم يتوقع . تتابع نجاح الابن كاملا نابعا من ذاته لا فضل لاحد عليه

وسرعان ما أسكن دوماس الاب من روعة واصبح فخورا أى فخر بابنه . كتب فى صحيفة «الفارس» يقول : « آن الاوان أن أعترف أنى لست بمستطيع كتابة مسرحيات أمثال «انصاف الحرائر» وديان دى ليس وغادة الكاميليا» ثم استدرك نفسه وقال : «ولكنى مستطيع أن أحسن تأليف كتب أخرى» . وما كان أحب اليه أن يكتب فى صحيفته عن أدق تفاصيل حياة الكسندر . فاذا تأملنا ماكتبه فى هذا الشأن فى صحيفة «الفارس» أثناء سنة ١٨٥٥ لعرفنا لم ضاق به الكسندر ضيقا شديدا وان لم يبد ذلك بكلمة واحدة . كتب دوماس الاب فى الأسابيع الأولى من هذه السنة يصف شئون ابنه الفرامية متذعرا بأنه ماكتب إلا ليبين مدى تأثير العواطف الشخصية على الانتساج الفنى للاديب . ابتداء بالحديث عن ماري دوبليسييس التى صورها بدقة على حقيقتها . ثم ذكر مدام دى نسلرود التى لم يسفر عن اسمها كاملا وذكرها بالحرف الأول منه فقط مدام دى ن ثم عطف على سيدة تدعى مدام أدريانى التى اتخذها الكسندر عشيقه له أثناء قيامه بجمع مادة روايته « أنصاف الحرائر » . كتب دوماس مقالاته بأسلوب شيق حقا ولكنه يدعو الى الاشمئزاز فى الوقت نفسه . وكعادته ذكر نفسه فى مقالاته مركزا عليها ، يقبل ماري دوبليسييس ويغازل مدام نسلرود التى وصف جمالها بأنه جمال مرفه فاتر . فلاعجب إن وجدنا الكسندر ينطوى على نفسه ويتحاشى أن يرى فى صحبة أبيه الامر الذى ملأ قلب دوماس بالحزن والأسى فهو يحبه حبا صادقا . .

ووقع لدوماس الاب فى صيف هذه السنة حدث واحد فرج عليه همومه . ذلك أن الملكة فيكتوريا عندما وصلت الى باريس طلبت أن تشاهد عرضا مسرحيا لرواية « فتيات سان سير » التى سبق أن شاهدها فى لندن ونالت إعجابها الشديد . ووصف لوكاس . دوبريتون أن خيلاء دوماس فى هذه المناسبة فاق كل حد حيث قال وعلى فمه ضحكة عالية : « انى لعليم بما يطرب الملكة أكثر من

مشاهدتها مسرحيتي ، ذلك أن تشاهدني أنا وهو ما يسرني أيضا ، وما أحرى لهذه السيدة العظيمة التي طبقت شهرتها الآفاق في هذا الزمان أن تقابل أعظم رجل في فرنسا « لاشك أنه كان يمزح ولكن طلب الملكة نفخ فيه حياة جديدة واطمأن الى أن اسمه سيكتب في الخالدين . وهذا ما حرص عليه طول حياته وان لم يتأكد منه . أصبح الآن شيخا كبيرا ونضب المعين الذي عرف منه أفسكاره الوضاعة التي سحرت عقول الناس ، وولت أحسن أيام عمره . ولكن شعوره بأنه خدم مخلصا ربات الادب هونت عليه آلام القساقة والهبوط للذين الما به بل جعلته فخورا بما فعل .

وبذل الكسندر - ابن هذا الاب الضليل - قصارى جهده في أن يعيش بعيدا عن الاضواء ما أمكنه ذلك . ان مايصدر عن أبيه من تصرفات كاستعراض مهارته في طهى الطعام بشكل يكاد يكون علنيا امام الجميع ، وكفرامياته المكشوفة التي لاتخفى على أحد ، كل ذلك جعل الناس يقبلون على المقارنة بين الاب وابنه . لذلك حرص الكسندر أن يجعل بينه وبين مجتمعه جدارا لاتخرقه عيون الناس . وهذا هو السبب في أننا لانعلم منذ ذلك الحين عن أسرار حياته شيئا - اللهم الا مانستشفه من تحليل شخصيات رواياته ومن كتبه وقصاصاته ، الى درجة أننا نجهل تاريخ ومكان زواجه الاول من الراجح أنه تعرف على زوجته في هذه الاوقات . وهي روسية أرملة الامير الكسندر دي نارشكين . كانت احدى صديقات مدام دي نسلرود التي كلفتها بزيارة حبيبها السابق فاذا بها تصبح عشيقته لبضع سنوات ثم زوجته بعد ذلك عندما اتضح له انها تحمل بين أحشائها ثمرة هذه العلاقة . ويمكننا أن نفرض أن هذا الزواج تم في غضون سنة ١٨٦٢ . وهي السنة التي ولدت فيها كبرى بنتيه .

وفي سنة ١٨٥٥ جعل الكسندر من نفسه داعية الى الفضيلة لا تلين له قناة في نصرتها ، وأخذ منذ ذلك الحين يشعل نيران حرب شعواء ضد المهنة التي احترفتها عادة الكاميليا . رأى في البغساء منبع كل شر وبذور انهيار الأمة . وأهمه كثيرا ما رأى من أحوال الامهات غير المتزوجات وأحوال الاطفال المشردين الفظيعة فتقدم الصفوف لايجاد حلّ لهاتين المشكلتين ولغيرهما من المشاكل الاخرى التي تواجه المجتمع . وقد أمضى حياته طالبا اصلاح الاحوال الشخصية بكل ما أوتى من عزم وايمان حتى استجاب المشرعون لبعض

مطالبه وعدلوا من قوانين كثيرة منها احوال الطلاق ورعاية الاطفال غير الشرعيين . ولكننا نجد منه في نفس الوقت مغالاة افسدت عليه رأيه في حالات أخرى وذلك من جراء ما قاساه من محن في طفولته أصبح ينظر الى المحظيات على أنهم أصل كل فساد . لم يجد أية صعوبة في معرفة احوال هذا الصنف من النساء . لقد ازدهرت مهنة البغاء كما لم تزدهر من قبل نتيجة لتجمع المال سريعا في أيدي الناس من جراء اتساع آفاق التجارة بحلول الامبراطورية الثانية مما جعلهم يقبلون على الاستمتاع بسنوات الرخاء والسلام . الا أن الكسندر كان ضمن فئة قليلة من الناس رأوا ما يخبئه الدهر من نكبات تحت هذه القشرة من الرخاء وأخذ ينذر قومه بلا هوادة مغبة انتشار البغاء . فلما حلت نكبات سنة ١٨٧٠ وانهارت الامبراطورية الثانية ازداد يقينا على يقين فيما في البغاء من شرور ، الذي لم يخفف لسوء الحظ مع زوال الامبراطورية الثانية . وانفجر ساخطا لاعنا كل انحراف جنسي بكل أشكاله وانواعه حتى أنه في سنة ١٨٨٤ طلب من الممثل لافونتين - الاب دوفال في مسرحية غادة الكاميليا - أن يحتفظ بقبعته فوق رأسه ولا يرفعها في حضور سارا برنار التي تقوم بدور مرجريت جوتييه

ولم يسلم الكسندر شأن كل ناجح من بعض الزهو يشين تصرفاته، ارتقى به معاصروه الى أعلى عليين ونادوا به نابغة لن تستطيع الايام أن تمحو اسمه من سجل الخالدين ، وصار في بحبوجة من العيش فلا يكتب الا ما يعتقده حقا ، وفعل لم يجد ككاتب قيد أنملة عن مبادئه ولكنه أصبح رمزا باردا متعاليا بين أقرانه ينظر اليهم كما ينظر إلى الاستاذ الى تلاميذه لا يرقون الى مقامه ويضع بعضا منهم تحت كنفه كما فعل بفلو بير ، ويشهر بكل من يتعد عن التعاليم الدينية في شئون الزواج ، ولكنه في الناحية الأخرى يرى لنفسه الحق أن يخفف عن نفسه قليلا من القيود وأن يسمح لها ببعض التمتع من وقت الى آخر . ومن سخرية الاقدار أن فشله في حملته الإصلاحية جاء نتيجة نجاح مسرحياته ، وبالأخص مسرحية غادة الكاميليا ، هذه المسرحية التي كتبها بغير عناء وبمهارة بالغة سعيا وراء التخلص من ديونه . وقفت هذه المسرحية ضده وقوضت حججه وجعلت من أعماله الجادة المتواصلة هباء منثورا بعد أن وصل الى مكانة يستطيع أن يعلن فيها آراءه بصراحة . لاقت المسرحية نجاحا منقطع النظير فكان الجمهور ينتظر مسرحياته الأخرى بفارغ الصبر ويتزاحمون عليها

بما يجلب الزهو في قلبه ، كانوا يعجبون ويستمتعون بها لانهم
خرجت من يد كاتب نير لماح يعرف أسرار صنعته حق المعرفة ، ثم
يناقشون آراءه ونظرياته التي يعرضها ، ولكنهم لم يأخذوا مأخذ
الجد حملته على البقاء ولم يصفوا الى نذره بأذن واعية ، اذ ان
مسرحيته الاولى اثرت فيهم اثرا لايمحى ، لقد غفرت للمحظيات
خطاياهن وعذرتهن في مهنتهن . فاذا جاء الان وأظهر في بعض
شخصيات رواياته ما يحط من شأن من يمثلونهم في الحياة الحقيقية ،
كما اظهر المحظيات على حقيقتهن في واقع الامر فانه لم يجد من هؤلاء
ما أشعرهم بأنهم المعنيون بما أراد لهم من خزي بل رآهم يرجعون
الى روايته الاولى ، يجعلون منه هو سنداً ونصيراً . وفي هذا وصف
دوماس الابن بحق بأن مثله كمثّل طبيب أعطى مريضاً سما ناعماً
فأسرع باعطائه البلسم الشافي ، ولكن المريض استساغ السم لمذاقه
الحلو فلم يسع وراء الترياق

وكان من نتيجة رواية «غادة الكاميليا» أن غص عالم الادب في فترة
الامبراطورية الثانية بطوفان من الأعمال الادبية التي ترفع من قدر
المحظيات . ومن هنا ازداد وباء البقاء انتشاراً . وتنبأ فلوبير
عندما بدىء في عرض هذه المسرحية انها سترضى النساء العابثات
عن سلوكهن الشائن . وتحققت نبوءته فأصبح يتفنن بهن كل شاعر
ولما توفي دوماس الابن سنة ١٨٩٥ حضر جمع كبير لتشجيع
جنازته الى مقبرة مونمارتر . ولما قضيت مراسم الدفن وترك
الاقارب والاصدقاء المكان اذا بكثير من الناس يأتون ويأخذون من
الزهور التي وضعت على قبره ، يحملونها الى قبر الفونسيين
بليسيس . وهكذا جمع الناس - فيما اعتقدوا - بين عضو
الاكاديمية المجل وبين سيدة الكاميليا في دار الخلود

أما هو فقد وقع في غرام نساء كثيرات بعد انفصام صلته بماري
دويليسيس التي لم تستمر طويلاً ، وعشيقته امرأة واحدة على
الاقل جبا لايمكن أن يقارن به حب ماري ، انها المثلة ديسكلية
التي رآها أول ما رآها في سبتمبر من عام ١٨٥٥ حين مثلت في
مسرحية « أنصاف الحرائر » بدلا من المثلة مدام روز شيرى ،
لم تتجاوز حينئذ الثامنة عشرة من عمرها ولم تسترع اهتماماً
حتى سنة ١٨٦٧ عندما عرفها جيداً . كانت سسيئة الطالع لم
تستطع أن تخفى شغفها الشديد به وكان هو من ناحيته يقابل ذلك
- كأنه يعاندها - بتفضيل الصداقة البريئة على الحب ويقول أن

الصداقة - عكس الحب - تزداد توثقا مع مرور الزمن مثل
النبيد كلما عتق صلح طعمه . وكلما ازدادت شغفا زادها نصيبا ،
فتوجهت وجهة أخرى تفرق همومها ، وفشلت ، ثم ما لبثت أن
توفيت (١).

كان الوثام يبدو على حياته الزوجية إلا أنه ظاهري لم يمنع من
أن يخون زوجته من وقت إلى آخر ، حتى إذا ماتت زوجت ابساها
استقل هو وزوجته كل في معيشة منفصلة . فلما توفيت زوجته
سنة ١٨٩٥ تزوج مرة أخرى بمدام رينيه دي لايرير التي سبق
أن أغرم بها غراما شديدا قبل ذلك بسنوات عديدة لم يفتر حبها
في قلبه طول حياته إلى أن توفي بعد زواجه منها بأقل من ستة أشهر .
فاذا نظرنا إذن إلى ما بدر من الناس بعفو خاطرهم في ذلك اليوم
من أيام الشتاء يوم سجي في مقره الأخير لوجدنا أنهم إنما فعلوا
ما فعلوا تحت تأثير وهم سيطر عليهم . ولكن تصرفهم هذا قد
يكشف لنا عما ترمز إليه العلاقة بين عالم الحقيقة وعالم الخيال .
فاذا نظرنا إلى واقع الأمر المجرد نجد أن حب دوماس الابن لماري
دوبليسيس إنما هو حب عابر وهي من ناحيتها فضلت عليه
فرانزليست . ولكن الكاتب يعيش في عالمين ، فاختلط عليه لسوء
حظه عالم الحقيقة مع عالم الخيال وهو يكتب قصة غادة الكاميليا
هناك في سان جيرمان وظلت بطلتها عالقة به إذ لم تسعه قريحته
مرة أخرى أن يستخرج بطله أخرى بمثل شخصيتها من عالم
الأفكار الذي لجأ إليه بعد ذلك طول حياته وكما قال هو مرة « كم
من رجل أهلكه الحزن والهمل ولو استطاع أن يؤلف كتابا أو مسرحية
لأمكنه أن يتغلب عليهما . وتنزل عليه السكينة بقدر ما يمتد وعيه
ويتسع أدراكه »

تمت

(١) من البصاف العجيبة أن كل من قام بالتمثيل في مسرحية انصاف الخرائر
خلال سنة ١٨٥٥ التي كانت سنة رخاء . لاقى حتفه في ظروف متناهية في الشناعة .
توفي أحدهم مسلولا وانتحر آخر ودفن الثالث بمحض الصدفة حيا . وتوفيت
هلام روز شري صغيرة السن في عنفوان صحتها تاركة أطفالا ضيقا . وعشقت
ديسكلية وتحطمت على جلود صخر قلب دوماس الابن الذي لم يعرها أدنى اهتمام .
وقد سجل دوماس الابن ما حل بالفريق الأهل الذي ابتدأت به الرواية « انصاف
الخرائر » في تعليقاته على كتابه « الأعمان الكاملة » ذكر فيها قصة حب ديسكلية
ونصائح لها . تلك النصائح المتنازعة التي أظهرته صاحب فكر ثاقب وبصر نافذ
على طبيعة الحب المتبادل بين الرجال والنساء . والظاهر أن واقعة حب ديسكلية
كانت صحيحة تماما مثل واقعة غادة الكاميليا إلا أنها فاقتها في مأساتها إذ أن
الحب قام فيها من جانب واحد فقط .

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

Mr. Miguel Maccoul Cury,
R. 25 de Marco, 994
Caiza Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL

البرازيل :

The Arabic Publications Distribution
Bureau,
7, Bishopthorpe Road
London S. E. 26,
ENGLAND.

انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية



لن تجد في هذا الكتاب انسانا
هو مجرد اسم ، او حتى مجرد
شبح ، بل كل من تحدث عنهم
اشخاص ينبضون بالحياة .
يروى هذا الكتاب اخلاقهم
ونزواتهم ، فضلكم وحمقهم ،
جانبهم البطولي وصغائر طبعهم .
ان هذا الكتاب يفيض بوصف
العواطف الانسانية المختلفة ،
من حب ومقت ، ونبل وخسة
وسمو وضعة ، من كرم وحسد
وغيرة ونفاق ، فهو ان تحدث
عن عصر مضى فهو يؤرخ
للانسان في كل زمان ومكان .
سيحرك هذا الكتاب همة كل
أديب ناشئ عندنا ويبصره
بالفن والجمال ، وما في الحياة
من متناقضات وعواطف
متضاربة ، سيجعله يلمس
بيديه ان الفن هو ايضا نجاة
للنفوس وتطهير لها . سيعرف
أن الفقر ليس عائقا ، بل ينبغي
أن يكون حافزا له على مواصلة
الجهاد من أجل خدمة الفن الذي
يملك عليه نفسه ، فيخلص
له ، وسيرى أن جهده مثمر .
« من مقدمة يحيى حقى »

